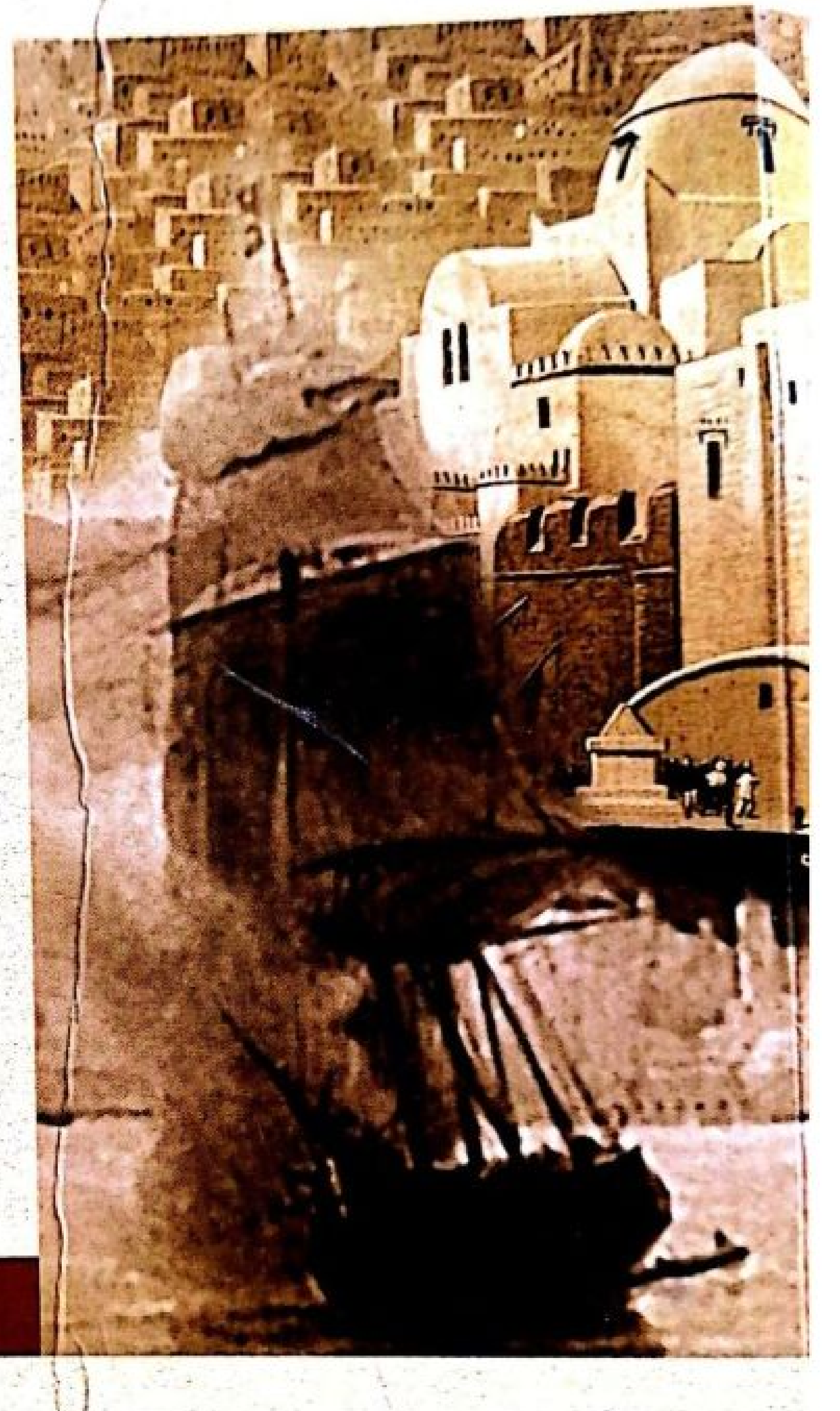


دراسات عن الجزائر في العهد العثماني

القرصنة، الأساطير والواقع



الجزء الثاني

دار القصبة للنشر

Scanné avec CamScanner

مقدمة

القرصنة من أهم المواضيع التي استخدمت لإنتاج أدبيات سجالية أبعد ما تكون عن إلقاء الضوء على ظاهرة تاريخية معينة. فقد أراد الاستعمار الفرنسي أن يجعل من الجزائريين شعبا بلا روح ومن وطنهم أرضا شاغرة. وكان من الضروري بعد الاستقلال إعادة النظر في هذا التاريخ.

فردا على أسطورة «الجزائر وكر لصوص البحر» التي لم يفتأ الاستعماريون يرددونها، صنع الوطنيون الجزائريون أسطورة مضادة تجعل من القرصنة العهد الذهبي لتاريخ الجزائر ومن البحرية الجزائرية سيدة البحار وقوة لا تهزم.

نشأت هذه القصص الملحمية ونمت أثناء الكفاح من أجل الاستقلال وقبل ظهور مجموعة من المؤرخين الجامعيين. وكان على التاريخ أن يضطلع بمهمة إعادة بناء الهوية الجزائرية وضمان الشرعية لمؤسسيها.

إن هذا الكتاب يهدف إلى تفكيك أساطير الأمس واليوم، التي تحد من النظرة الهادئة لظاهرة القرصنة، وإلى تجديد التساؤلات عن الماضي قصد المساهمة في ظهور وعي تاريخي.

توضيح مفهوم القرصنة ثم دراسة الدعاوى والمساجلات التي أثارتها القرصنة وربطها بالظروف التاريخية الملموسة ثم تحديد أهم الموضوعات

Scanné avec CamScanner

التي من الضروري إعادة النظر فيها. تلك هي النقط الرئيسية التي سنعالجها في هذا التقديم.

عناصر للتحديد

في دراسة تلقي الضوء على تاريخ القرصنة، اقترح ميشيل فنتناي[1] «فيما يخص العصور الحديثة أن نميز بين ثلاثة أشكال من العنف البحري بالإضافة إلى الحرب البحرية وهي:

1 - حرب القرصنة، وهي نوع من الحرب تقوم فيه الدولة بإشراك الخواص من أصحاب السفن في تكاليف وفوائد الحرب البحرية.

2 - اللصوصية البحرية وهي عملية نهب في البحر بلا عقيدة ولا قانون. وهي مدانة عالميا من طرف القانون والأخلاق.

3 - «القورصو» بين المسيحيين والمسلمين. وهو شكل من أشكال العنف خاص بالبحر المتوسط، له خصائص تقربه من القرصنة ومن اللصوصية البحرية معا، لكنه سلوك متعارف عليه ومقبول من الطرفين. وكان باسم الحرب المقدسة من النشاطات التي تميز بعض الدول المتوسطية مثل مالطة والإيالات المغاربية خلال القرنين الأولين من العصور الحديثة».

ليس من الضروري هنا أن نتوقف كثيرا عند التمييزات ذات الطابع القانوني بين القرصنة واللصوصية البحرية. لكن يمكن أن نلاحظ أن فيها بالأساس نوعا من الالتباس والاضطراب. إن العثمانيين مثل الأروبيين كانوا يميزون بين رياس البحر الرسميين والقرصان ولصوص البحر الذين يدعونهم حرامية.

1. Michel Fontenay, « La place de la course dans l'économie portuaire : l'exemple de Malte et des ports barbaresques », *AESC*, nov- décembre 1988, n° 6, p. 1321-1347

وعندما نتأمل في النصوص وفي السلوك الفعلي، نجد أن لص البحر هو قرصان عند ذويه إذا كان لا يهاجم سوى الأعداء. كذلك قد ينظر الحكام العثمانيون وغيرهم إلى القرصان كخارج على القانون إذا تحزب لمنافس مهزوم في الصراع على الحكم. إن هذا الالتباس المرتبط بما بين القرصنة ولصوصية البحر من أوجه تقارب، يصفه فرنان بروديل[1] في نص جميل نقتطف منه هذه الفقرات:

«نظرا لأن البحر المتوسط بأكمله كان مجال صراعات مستمرة بين كيانات متجاورة ومتحاربة، فإن الحرب تبرز كواقع دائم يبرر اللصوصية البحرية. وتبريرها يعني ترتيبها ضمن فئة قريبة منها لكنها موصوفة بالنبل، وهي القرصنة.

في القرن السادس عشر كان للاسبان نعتان مختلفان. فهم يتحدثون عن القرصنة المغاربية في البحر المتوسط وعن لصوصية البحر الفرنسية والإنكليزية والهولندية في المحيط الأطلسي. ولم يعمموا كلمة لصوصية البحر على ممارسات البحر المتوسط في القرن السابع عشر إلا لإدانة الهجومات المسلطة على أسطولهم التجاري في هذا البحر والتشهير بالحرب اللاقانونية التي شنتها الدول المسيحية ضد الثروات الاسبانية المنقولة عبر البحار. وحسب أحد المؤرخين، لم تطلق كلمة لصوصية البحر من طرف الاسبان على القرصان الجزائريين إلا بعد استيلاء الاسبان على المعمورة في 1614 وطرد القرصان (الأروبيين) منها ولجوء هؤلاء إلى الجزائر.. وقد يتساءل القارئ، أليست القرصنة ولصوصية البحر في معظم الحالات شيئا متشابها، قسوة متماثلة وضروريات لها نفس الرتابة تفرض نفسها بعد كل عملية. بيع العبيد والسلع المنهوبة. نعم لكن ثمة فارق له أهميته. إن القرصنة لصوصية عتيقة ترسخت في مجالها بعرفها وتسوياتها وحواراتها المتكررة».

1. Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, A. Colin, 1985, t. II, p. 191

Scanné avec CamScanner

في نهاية الأمر ينبغي أن نضيف إلى الاعتبارات القانونية البحتة، ملاحظات مستخلصة من تاريخ القرصنة في البحر المتوسط. ولنأخذ قرصنة الجزائر مثالا على ذلك. فالحكام الذين تعاقبوا في الجزائر منذ القرن السادس عشر، كانوا عدا بعض الاستثناءات «يراعون» قواعد وأعراف «القانون الدولي» لذلك العصر. فعلى العموم لم يكونوا يهاجمون إلا سفن الدول التي هي رسميا في حرب مع الجزائر. والذرائع دائما متوفرة لإعلان الحرب بالأمس مثل اليوم. وكانت الجزائر غالبا تختلقها بقصد القرصنة. وهذا يحدد خصوصياتها ويميزها في نفس الوقت عن القورصو كما يصوره تقرير فنتناي وتننتي[1].

صحيح كذلك أنه في بعض الحالات كانت عمليات القرصنة هي «المورد الأخير بيد الفقراء» كما يقول پيير هوباك[2]. فهي بطريقتها تعبر عن الاحتجاج الاجتماعي وعن رفض الخضوع للقوى المهيمنة. إن دوافع هؤلاء «الثوار الاجتماعيين» بالمفهوم الذي أطلقه هوبسبوم[3] على أشكال مختلفة من التمرد ذي الطابع الاجتماعي، لا تجعل عنفهم أكثر إنسانية. لكن ضعف إمكانياتهم يحد من قوة عنفهم بالمقارنة مع القوى المسيطرة على العالم.

قضية القرصنة

مدة أكثر من قرن، كانت عبارة «وكر لصوص البحر» تستعمل كحجة لتبرير السيطرة الاستعمارية، لكن السمعة السيئة التي ألصقت بالقرصنة الجزائرية تمد جذورها في ماض أكثر قدما. وللإحاطة بالأشكال المتعددة التي اتخذتها هذه الذاكرة عن القرصنة، ينبغي التمييز بين الفترات المختلفة والبحث في كل

1. Michel Fontenay et Alberto Tenenti, « Course et piraterie méditerranéennes de la fin du Moyen Age au début du XIX[e] siècle » *in Course et piraterie : études présentées à la Commission Internationale d'Histoire Maritime*, San Francisco, août 1975.

2. Pierre Hubac, *Les Barbaresques*, Paris, 1949, p. 16

3. Eric Hobsbaum, *Les bandits*, Paris, Maspéro, 1972 et du même auteur : *Les primitifs de la révolte dans l'Europe moderne*, Paris, Fayard, 1963.

Scanné avec CamScanner

فترة ملموسة عن نوعية النظر المسلط على هذه الظاهرة. ومن الطبيعي أننا في إطار هذه المقدمة نكتفي ببعض الملاحظات التي قد نعود إليها فيما بعد.

أسطورة بربروسة

في المغارب وعموما في جزء كبير من العالم الإسلامي، سبقت أسطورة الغزاة العثمانيين مجيء الإخوة بربروسة. ومن المعروف أن فتح العثمانيين للقسطنطينية في 1453 كان له دوي كبير في الشرق والغرب. على إثر هذا الفتح وجه العالم الجزائري الكبير عبد الرحمن الثعالبي[1] رسالة إلى أنصاره في منطقة بجاية يحثهم على الاستعداد للدفاع عن البلاد ضد غزو مسيحي كان الثعالبي يتوقعه كرد على فتح القسطنطينية.

وكان الأندلسيون من جهتهم قد كرروا النداءات لدى السلطان العثماني بايزيد الثاني طالبين النجدة. وأرسل بايزيد القرصان الشهير كمال رايس على رأس تشكيلة من الأسطول العثماني لنجدة الأندلسيين والقيام بعمليات ضد السفن الاسبانية في القسم الغربي من البحر المتوسط. إن حملة كمال رايس قد روى تفاصيلها في كتاب شهير حفيده الذي كان أيضا من الرياس ومن كبار العلماء الجغرافيين وهو پيري رايس.

إن پيري رايس الذي وضع بالتفصيل في كتابه «كتابى بحرية» خرائط العالم المعروف بما فيها أمريكا وأعطى تفاصيل وخرائط دقيقة عن سواحل الأقطار المغاربية ووصف الاستقبال الحار الذي لقيه الأسطول العثماني في بونة وبجاية وغيرهما من الموانئ المغاربية، لم يعين التاريخ المضبوط لهذه الحملة. لكن الدراسات الحديثة التي قام بها سڤات سوجك[2] وغيره من المؤرخين الأتراك

1. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزائر، ش و ن ت، 1978، ص 341-349.

2. عن كمال رايس وحفيده پيري رايس انظر دراسة المؤرخ التركي سڤات سوجك، Svat Soucek, «Tunisia in the Kitab-i- bahriye by Piri Reïs», *Archivum Ottomanicum*, 5, 1973, p. 129 -296

Scanné avec CamScanner

تحدد فترة هذه الحملات بنهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر[1].

ومن الممكن حسب استنتاجات سڤات سوجك أن الإخوة بربروسة قد يكونون ساهموا في بعض هذه الحملات قبل أن يستقروا في جربة بعد 1510 حيث تبدأ مغامرتهم العظمى. وفي وقت مبكر دخلت أسماؤهم عالم الأساطير. وكما يلاحظ شارل أندري جوليان[2] «إن الإخوة بربروسة الذين تعودنا أن نسميهم جماعيا بنعت كان يطلق على خير الدين فقط، هم أبطال نحتوا من التاريخ ليكونوا الموضوع المفضل عند مؤلفي السير الرومانسية».

رسم نيقاري[3] وهو رسام شهير ومن رياس الأسطول العثماني صورة خير الدين الزيتية وأهداها للسلطان سليمان القانوني. وهو نفس السلطان الذي أمر بكتابة غزوات أروج وخير الدين بالاعتماد على ذكريات خير الدين ومساعديه. إن سيد مرادي المدعو سنان شاوش، مؤلف هذه الغزوات، يشبه خير الدين فيها بالكواكب السبعة التي تسطع في السماء. وقد أهديت نسخة من «غزوات» مرصعة بالخطوط الذهبية إلى سليمان القانوني. وقد ورد فيها تاريخ كتابتها وهو سنة 1546.

وفي أروبا كذلك انتشرت أسطورة بربروسة بسرعة. يقول جاك هيرس[4]: «كانت صورته الزيتية قد انتشرت بكثرة في روما وكل إيطاليا. وكان الأصدقاء يتهادونها... وفي جانفي 1530 حين كان رابلي Rebelais في روما بعث صورة

---

1. Svat Soucek, « The Rise of Barbarossa in North Africa», *A O*, 3, 1971, p. 238-250.

2. Charles- André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 1956, t.. II, p. 254.

3. E. Esine,»Quelques manuscrits des XVI^{e} et XVII^{e} siècles concernant la Tunisie», *in Actes du 1er Congrès d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, Univ. De Tunis, Cérès, 1979, t. II, p. 47-54.

4. Jacques Heers, *Les Barbaresques: la course et la guerre en Méditerranée, XIV^{e}-XVI^{e} siècles*, Paris, Perrin, 2000, p. 272

Scanné avec CamScanner

خير الدين هدية إلى الأسقف Maillezerais ». أما برنتوم Brentôme فقد جعل من الإخوة برباروسة نبلاء من أصل فرنسي وأضاف عند الحديث عن عروج: «إذا كان صحيحا أنه من أصل فرنسي، فإن هذا شرف للاسم الفرنسي، وإن لم يكن هذا صحيحا، فهو في كل حال يستحق التمجيد مهما كان أصله»[1].

ومنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ترجمت «غزوات» إلى الاسبانية والإيطالية وألفت كتب بلغات أروبية متعددة عن الإخوة برباروسة. وإذا كان الغالب على المؤلفات الاسبانية هو التشهير فإن احترام العدو كان أيضا يجد مكانه في هذه الكتابات. إن الكونت الكوديت Alcaudete القائد العام للجيش الاسباني في وهران وحاكم منطقتها من 1534 إلى 1558 كتب عن خير الدين هذا الوصف: «أعترف أنه رجل حرب من أعلى طراز»[2]. ولم يتردد القس الاسباني هاييدو[3] عن وصف عروج بهذه النعوت:« كان شديد النشاط، شجاعا جدا...حليما وعظيم الكرم... ولم يظهر أبدا أية قسوة إلا في الحرب أو ضد من يعصون أوامره... وكان محبوبا جدا ومهابا جدا ومحترما جدا من جنوده». ولم يكن وصفه لخير الدين أقل تمجيدا: «إن عبقريته سواء في إدارة الأمور الداخلية أو في تسيير الحرب جعلته جديرا بخلافة أخيه، كما أظهر ذلك جيدا فيما بعد»[4].

من البديهي أنه في مقابل هذه الصورة الايجابية عن الإخوة برباروسة في الكتابات الأروبية في القرن السادس عشر، نجد أيضا كتابات معادية كانت من بذور الأسطورة السوداء عن «البرباريسك لصوص البحر». لكن بدا لنا من

---

1. *Ibid.*, p. 271

2. Elie de la Primaudaie, «Documents inédits de l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique». Lettre d'Alcaudete au Caïd de Beni-Rached, Oran, 21 septembre 1535, *RA*, 1876, p. 398

3. F. Diego de Haëdo, *Histoire des raïs d'Alger*, Paris, Ed. Bouchène, 1998, p. 49

4. *Ibid.*, p. 50

Scanné avec CamScanner

المفيد أن نظهر كيف كان في الجانب الأروبي تعدد في وجهات النظر حول هذا الموضوع[1].

أما من جهة العثمانيين فما أكثر الكتابات التي تمجد دور خير الدين برباروسة بالأخص وسنذكر بعضها في المكان المعين لها. ومن جهة أخرى عبر بعض المؤلفين العرب المعاصرين للأحداث عن آراء مختلفة تترجم عن تباين المواقف حول مشاكل تلك الفترة.

إن المؤرخ المصري ابن إياس[2] شهد فتح مصر على يد سليم الأول. ويصف هذه الحوادث بكثير من المرارة. ويستشهد بالمقريزي هكذا: « قال المقريزي لم يكن في أبناء عثمان من يلقب بملك أو سلطان بل كان إذا كاتبهم ملوك مصر وعظموهم يقولون لهم الخونكدار أو الأمير فلان». ويضيف ابن إياس: « ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة، لأنه خادم الحرمين الشريفين وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون.. ولكن ابن عثمان انتهك حرمة مصر.».

وفي أحد النصوص المدرجة في آخر النسخة المخطوطة[3] من «بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد» ليحي ابن خلدون، وصف لتولي عروج الحكم في تلمسان بمساعدة القاضي أبي يحي العقباني وابن يوسف الزياني: « وتولى عروج المذكور بعد قتله سبعة من السلاطين ونحو السبعين من أكابر عبد الواد وقتل نحو الألف أو أزيد من جملة خيار أهل تلمسان».

---

1. يذكر Guy Turbet-Delof أهم هذه المؤلفات في كتابه *Bibliographie critique du Maghreb dans la littérature française*, Alger, SNED, 1976

2. ابن إياس،، بدائع الزهور...، القاهرة، 1984، الجزء الخامس ص 206 - 207 وص 365.

3. انظر محمود بوعياد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (15 م)، الجزائر، ش و ن ت، 1982، ص 22

Scanné avec CamScanner

أما أعنف المهاجمين للعثمانيين، وهو محمد الصغير الوفراني[1] الذي يعتمد على نصوص من القرن السادس عشر لابن عسكر والقشتالي ويذكر «أن الشيخ الإمام العالم أبا العباس أحمد بن القاضي الزواوي كانت له همة شديدة في غزو الكفار وقوة شكيمة عليهم وله مع ذلك شهرة عظيمة في بساط المغرب الأوسط وجباله» وأنه هو الذي دعا عروج والأتراك إلى الالتحاق بالمجاهدين في الجزائر «فأقبل الترك نحوه مسرعين وجعل هو يحض الناس على اتباعهم... فدخل الترك الجزائر ثم أنهم مكروا بالشيخ وغدروا به خوفا على رئاستهم فقتل رحمه الله شهيدا بعد سنة 930 ولما أخذ الترك تلمسان أكثروا فيها الفساد ونهب عروج أموال أهلها... ومزقهم كل ممزق».

في الواقع كانت هذه الكتابات المعادية للترك تشكل أقلية بالنسبة للمؤلفات العربية الكثيرة المناصرة للعثمانيين في ذلك العصر، لكنها هي أيضا تعبر عن موقف بعض الأطراف في الصراع القائم آنذاك حول السلطة. إن السعديين والحفصيين والزيانيين تحالفوا أحيانا مع الاسبان ضد العثمانيين الذين كانوا من جهتهم متحالفين مع الفرنسيين وفي حرب ضروس ضد الصفويين الذين أسسوا إمبراطورية قوية في بلاد الفرس. هذه التحالفات التي تجمع مسلمين ومسيحيين في كتلة واحدة ضد مسلمين ومسيحيين متكتلين أيضا فيما بينهم، تبين جيدا تعدد الدوافع والمواقف عند مختلف الأطراف.

مفارقات النظر

في القرن السابع عشر تعددت كتابات المبشرين المسيحيين عن البؤس والعذاب المسلطين على العبيد النصارى في الجزائر. وتلتها مؤلفات كتبها بعض من كانوا عبيدا في الجزائر وتغلب عليهم نفس الأوصاف التشنيعية وإن كانت

1. محمد الصغير بن الحاج عبد الله الوفراني النجار، نزهة الهادي بأخبار ملوك القرن الحادي، باريس 1989، ص 17 - 18

Scanné avec CamScanner

في بعض الأحيان تتسم بالاعتدال والرصانة. وفي وجه الاتجاهات المتحزبة بتعصب، كان بعض المؤلفين الأروبيين يستنكرون هذه الدعاية الدينية التي «تختلق الأكاذيب لإثارة الشفقة لدى أتباع الكنيسة» كما يقول دارفيو[1].

من غير شك أن السمعة السيئة الملصقة بالقراصنة الجزائريين بدأت تنتشر في أوروبا في القرن السابع عشر انطلاقا من بعض العمليات المنسوبة لهم. لكن كما يقول فنتناي من الغريب أن هذه الأسطورة السوداء تعاظمت في القرن الثامن عشر بينما كانت القرصنة الجزائرية في تضاؤل مستمر.

والمعروف أنه بعد 1815 لم تعد هذه القرصنة سوى ظاهرة هامشية جدا. لكن عبارة «وكر لصوص البحر» وما أشبهها بدأت تكبر وتتعاظم حتى صارت عقيدة راسخة مدة تزيد عن قرن.

كيف يمكن تفسير هذا التفاوت بين الواقع الفعلي والتصور الجماعي؟ إن إرجاعه إلى المؤثرات الدينية لا ينطبق إلا على فئة أكثر فأكثر تضاؤلا في الرأي العام الأروبي بل إن الكتابات المتأثرة بالفكر التنويري هي التي حملت هذه الشعارات وعملت على نشرها. إن الروح الحديثة في أوروبا الغربية العدوانية والتوسعية تحتوي على مقدار كبير من هذه النزعة الشائعة بين كل الشعوب والقديمة قدم العالم: نزعة الإنسان إلى رفع شأن قومه والحط من الآخرين. ومع بعض الاستثناءات الجديرة بالتقدير، فإن «حقوق الإنسان والمواطن» في عرف هؤلاء الناس لا تشمل كل البشر وإنما المقصود بها هو «الإنسان المتحضر».

---

1. كان D'Arvieux قنصلا في الجزائر في سنوات 1670 وألف كتابا من خمسة أجزاء عن رحلاته ومهماته الدبلوماسية في المشرق والمغرب. وهذه العبارة نقلها عنه جاك هيرس في كتابه السالف الذكر ص 282. كذلك كان لوجيي دي تاسي الذي كان قنصلا في الجزائر أيضا في أوائل القرن الثامن عشر وسنعود إليه فيما بعد، كان يعارض هذه الدعاية ويكشف ما فيها من أكاذيب ويذكر أن الرهبان كانوا يستغلون سذاجة أتباعهم وينشرون هذه الأكاذيب لخدمة أغراضهم الخاصة.

Scanné avec CamScanner

وفي الوقت الذي بلغت فيه تجارة العبيد السود من طرف الأوروبيين أوجها، أصبح من الفضائح العظمى التي تثير الضمير الأوروبي أن يتعرض الإنسان الأوروبي للاستعباد. كذلك كان من اللازم أن يغطى التوسع الاستعماري الأوروبي في آسيا وإفريقيا بدوافع نبيلة هي تحضير الشعوب المتوحشة ووضع حد لعدوانيتها البدائية.

وكر متفاقم

بعد احتلال الجزائر في 1830، غزا موضوع «الجزائر وكر لصوص البحر» صفحات الجرائد وأصبح يغذي القصص التاريخية ذات الطابع الرومانسي ومؤلفات التهييج والإثارة.

إن المجلة الإفريقية Revue Africaine ، هذا الكنز التاريخي عن ماضي الجزائر، لم تنج من السير وراء أصحاب الشعارات المبتذلة، ومنها شعار «وكر لصوص البحر». وحتى ألبير دوفو[1] هذا الباحث الذي قضى عمره في دراسة الوثائق العثمانية ونشر الكثير منها، لم يتردد في وصف الرايس حميدو ورفاقه بأنهم لصوص البحر وإن كان يعترف بأن لهم صفات حميدة.

وفي دراسة عن إقامة الحكم التركي في الجزائر، يصدر إرنست واتبلد[2] هذا الحكم النهائي: «وكان مهيئا للصوص البحر في الجزائر، أن يقدموا مدة 300 سنة، مثالا قد يكون الوحيد في العالم، عن حكومة منظمة تماما على طريقة هذه العصابات ومؤسسة كليا وبكل وضوح على النهب والتقتيل». أما هنري-دلماس دي غرامون Henri-Delmas de Grammont الذي ترأس الجمعية

---

1. من جملة الدراسات التي نشرها دوفو في الموضوع انظر بالأخص:
Albert Devoulx, «Un exploit des Algériens en 1802» *RA*, 1865, p. 126-130

2. Ernest Watbled, «Etablissement de la domination turque en Algérie», *RA*, 1873, p. 287.

التاريخية الجزائرية التي كانت تصدر المجلة الإفريقية، ترأسها من 1878 إلى 1892 ونشر فيها عدة دراسات متينة، ويزعم فيها وكذلك في كتابه عن تاريخ الجزائر التركية الذي سنذكره مرارا في الصفحات الآتية، أن لصوصية البحر كانت هي وسيلة العيش الوحيدة لكل سكان الجزائر. وهذا الزعم يتعارض مع المعلومات الغنية التي تحتويها كتاباته في الموضوع.

إن مجلة فرنسية أخرى معروفة بدراساتها العلمية هي مجلة Le Journal Asiatique . وقد نشرت في 1920 تقريرا عن «النشاط العلمي لفرنسا في الجزائر وفي أفريقيا الشمالية منذ 1830» جاء فيه (ص 90): «إن الحكومة الملكية الفرنسية استولت على الجزائر وحطمت وكر لصوص البحر الذي كان وجوده وصمة عار لكل المسيحية».

وفي 1922 نشر دلفين G. Delphin في نفس المجلة تاريخ باشوات الجزائر من 1515 إلى 1745. وهي دراسة مبنية على وثائق ومخطوطات عربية. يلاحظ المؤلف (ص 163) حول الجزائر أثناء العهد التركي «إن هذه المدينة الجميلة رغم موقعها الاستثنائي وخصب منطقتها لم تكن أبدا سوى وكر للصوص البحر وجهنم تسلط العار والعذاب على المسيحيين المستعبدين».

هكذا أصبح هذا الشعار «وكر لصوص البحر» يردد من طرف مؤلفين هم في نفس الوقت يحترمون قواعد ومناهج البحث العلمي ويصلون إلى نتائج تفصيلية معاكسة للشعار المرفوع.

قطيعة مزدوجة

مع صعود الحركة المعادية للاستعمار، قام أنصار السيطرة الاستعمارية في الميدان التاريخي بقطيعة مزدوجة أبعدتهم عن المكاسب المعرفية التي جمعها المؤلفون الفرنسيون في القرن التاسع عشر عن المجتمع المستعمر وماضيه وإن

Scanné avec CamScanner

كانت لا تخلو أيضا من الأحكام المسبقة. إن الرصانة المطلوبة من الباحثين تركت لفائدة مواقف سجالية. إن غلو الاتجاه الاستعماري كان له تأثير على الشعور الوطني الجزائري الناشئ آنذاك، أقوى من تأثير المؤلفات العلمية القيمة التي أصدرها بعض المثقفين الفرنسيين المقيمين في الجزائر وكانت الصحافة الفرنسية تساهم في التضخيم الدعائي لهذه الاتجاهات الاستعمارية وتزيد من تأثيرها السلبي على الرأي العام.

كان هذا الاتجاه الاستعماري يتجاهل أو يهاجم المفاهيم والمناهج التجديدية التي كانت تنشرها مدرسة الحوليات في فرنسا. ومن الغريب أن هذا الاتجاه الاستعماري كان يتنامى في الوقت الذي كان فيه بروديل مدرسا في الجزائر وكانت جامعة الجزائر تستقبل بعض العلماء الكبار المدعوين للتدريس فيها من طراز هنري بيران Henri Pirenne ومارسيل باتايون Marcel Bataillon.

بعيدا عن مكاسب علم التاريخ المتجدد والمتزايد إشعاعه، كان خطاب أنصار الاستعمار يتصلب. ومن مواقع الدفاع انتقلوا إلى الهجوم واختاروا كعناصر مستهدفة المظاهر والفترات التي تبدو لهم أسوأ من غيرها في تاريخ الجزائر قبل 1830.

إن كتاب پيير بوايي[1] عن الحياة اليومية في الجزائر قبيل التدخل الفرنسي يمثل تماما هذا الاتجاه. إن كل الصور السلبية التي نشرتها الدعاية الاستعمارية مستخدمة في هذا الكتاب ومقدمة بطريقة تقصد إلى إقناع القارئ أنها مستخلصة من الأبحاث التاريخية الجدية.

جاء في الفصل الأول الذي حمل عنوان «فرنسا وبرباريا» (ص 16): «قبيل الفتح الفرنسي كانت إيالة الجزائر تشكل شذوذا بين الأمم... فالحكومة ليس

1. Pierre Boyer, *La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française*, Paris, Hachette, 1963.

Scanné avec CamScanner

لها من مهمة رسمية سوى الاستيلاء بدون مقابل، على كل موارد الإيالة، وكذلك، وهذا أمر لا يقل أهمية، السماح بممارسة اللصوصية البحرية في البحر المتوسط والبحار المجاورة». بعد ذلك يهاجم بوايي «الخطر الهلالي المهلك» الذي ليس له علاقة بالموضوع الذي يدرسه لأنه يبحث في الفترة السابقة مباشرة للاحتلال الفرنسي بينما الغزو الهلالي يعود إلى القرن الحادي عشر.

ويقدم عن دايات الجزائر (ص 93 وما يليها) صورا هي جملة من الأحكام القيمية التي يقصد بها الحط منهم ومن البلاد التي يحكمونها: فهذا «جبان، جاهل، عنيف» و«ضعيف العقل، متعصب، غاشم» وآخر «مصاب حقيقة بجنون دموي» وتتوالى النعوت «جاهل، متعصب، فاجر، مهوس» الخ. من بين هذه المجموعة المشئومة، واحد فقط كان مرضيا «قتل مخنوقا وخلفه طاغية غاشم عنيف ولكنه فطن ومقتدر».

بعد كل هذا ليس من المدهش أن يصدر بوايي هذا الحكم النهائي (ص 231): «لولا اللصوصية البحرية، لما وجدت إيالة الجزائر. إنها ولدت من القرصنة وازدهرت بفضل القرصنة». وفي نظره لم يكن الحكم التركي في الجزائر «سوى حكم استعماري بأسوأ معاني الكلمة»[1]. مثل هذه المزاعم وصفها مارك بلوك[2] هكذا «إن الأحكام القيمية عن الماضي ليس لها معنى سوى كمظاهر تعكس اتجاهات الحاضر».

تكوين ذاكرة رسمية

ليست الذاكرة الرسمية سوى شريحة علوية من شرائح الذاكرة الجماعية. والذاكرة الرسمية في مكوناتها الرئيسية حديثة النشأة في الجزائر. فأسطورة

1. Pierre Boyer, « Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger » *R H*, 1966, p. 312

2. Marc Bloch, *l'Empire et l'idée d'empire sous les Hohenstaufen*, Paris, 1930, p.39

Scanné avec CamScanner

«الكيان الوطني القديم منذ ألفي سنة» وأسطورة «الجمهورية الوطنية المستقلة في العهد العثماني» ليس لهما أي أثر في كتابات ما قبل 1920. وأسطورة «العهد الذهبي للقرصنة» تعود أيضا إلى هذه السنوات وإن كان لها جذور ترتبط بملحمة الإخوة برباروسة وبأسطورة الجزائر التي لا تهزم.

إن مجموع هذه الأساطير الحديثة هي رد فعل على الأساطير الاستعمارية وإن كانت تتخذها مثالا تقتبس منه. إن دراسة هذه الأساطير في ملابساتها المحددة تشكل، كما يقول محمد حربي[1] «تاريخ التصورات عن الجزائر، التي يمكن أن تساعد على تفهم ديناميكية المجتمع وتناقضاته وحواجزه». وهذه الأساطير بوصفها من مكونات الوطنية الجزائرية تدخل في إطار التاريخ المعاصر، وهو أمر خارج نطاق بحثنا، لكنه يهمنا باعتبار أنه أثر بدرجات متفاوتة على الدراسات التاريخية التي تتناول الفترة العثمانية وبالأخص القرصنة.

وكما أشرنا إلى ذلك في الجزء السابق، بدأت أسطورة برباروسة تنتشر في الجزائر في 1934 مع نشر كتاب «غزوات عروج وخير الدين»[2]. وكان أحمد توفيق المدني أصدر كتاب الجزائر سنة 1930 وافتتح به سلسلة من المؤلفات تمجد الصفحات البطولية من تاريخ الوطن الجزائري العربي الإسلامي، وفي 1938 ألف كتابا عن محمد عثمان باشا داي الجزائر وخصص فيه صفحات عديدة للدفاع عن القرصنة الجزائرية. وبمناسبة صدور هذا الكتاب أنشأ الشاعر الوطني الجزائري الكبير محمد العيد آل خليفة قصيدة تحيي وتشيد بالعهد العثماني أدرجت في نهاية الكتاب. وفي هذه الفترة نال محمد راسم شهرة عالمية بلوحاته عن صور الحياة اليومية في الجزائر في العهد العثماني وعن رياس البحر وسفنهم وقادتهم ومنهم خير الدين برباروسة.

---

1. Mohammed Harbi, *La guerre commence en Algérie, Bruxelles*, ed. Complexe, 1984, p. 109

2. غزوات عروج وخير الدين، نشر عبد القادر نور الدين، الجزائر، 1934

Scanné avec CamScanner

إن التاريخ والشعر والرسم والمسرح وغير ذلك من أشكال التعبير الأدبي والفني ساهمت في تكوين الذاكرة الجماعية الجديدة التي كانت في نفس الوقت نتاجا ومنتجا للملحمة الوطنية الجديدة. ونجحت هذه المبادرات المتنوعة في إعطاء صورة معاكسة عن القرصنة وفي نقلها من «شبح مخجل»[1] إلى رمز اعتزاز بالعهد الذهبي حين كان «أبطالنا غزاة البحر» يثيرون الفزع في أعظم الدول المسيحية.

في التبادل بين الذاكرة والتاريخ يمكن التمييز بين فترتين في القرن العشرين. في الفترة الأولى لغاية الاستقلال، كان الصراع غير متوازن. كانت الامكانيات المادية والفكرية لمقاومة الدولة الاستعمارية محدودة. وكان الوطنيون يشعرون بضعفهم ويستخدمون كل الامكانيات لبعث الثقة في النفوس وإثارة الاعتزاز والأمل.

وبعد الاستقلال، أصبحت الكتابة بالطرق الأسطورية مسخرة لتقديم مبررات تعطي للحكم القائم شرعية تاريخية. وكانت أصوات رسمية ترتفع لتصف المؤرخين الذين يحاولون أن يؤدوا مهمتهم بأمانة، تصفهم «بالطيور التي تذرق في عشها». وفي الحرب الرمزية التي كانت التبسيطات فيها من نوع «الجهاد والصليبية» تجد لها مكانا مناسبا، كان للقرصنة دور استقطابي وحافز. وكان أن وجد هؤلاء اللاعبون بالنار من الرسميين من يفوقهم في لعبة المزايدات. وارتفعت أصوات جديدة، ظلامية متعصبة، تتهم الحكام وأنصارهم بأنهم عملاء الأجنبي ودعاة الأفكار المستوردة. وأصبح استعمال «الماضي المجيد» بين أيدي هذه القوى الشرسة راية مرفوعة في وجه حاضر رديء فتحت فيه حرب الشعارات الطريق إلى صراع دموي.

1. يقول پيار بورديو Pierre Bourdieu وعبد الملك صياد في كتاب *Le Déracinement*, Paris, Minuit, 1964, p. 69 «إن منطق تصفية الاستعمار (وهو نفي يحمل طابع ما ينفيه) يدفع البرجوازية الصغيرة من البيروقراطيين أن ينكروا سحريا كأشباح مخجلة من بقايا الاستعمار البائد، تناقضات الواقع بدل السعي لتجاوزها بعمل توجهه معرفة ملائمة للواقع.».

Scanné avec CamScanner

صعوبات النشأة

إن الذاكرة تصنع أيضا بواسطة التلاعب بالتاريخ[1] وهي تحد خطير للمؤرخ. إني شخصيا تكونت على يد لابروس Labrousse وڤيلار Vilar ورودنسون Rodinson، وكذلك عن طريق التكوين السياسي المعادي للاستعمار، وواصلت بتمزق، تعلمي للنظرة الكونية، التي هي شرط أساسي لتكوين المؤرخ.

وفي بحث تحديات الذاكرة وموقف المؤرخ، يمكن أن نميز بين «الذاكرة الجريحة» و«الذاكرة المتعافية». إن ما يزيد عن قرن من الغطرسة والعنف الاستعماريين يفسر دون أن يبرر الذاكرة الجريحة التي تميز قسما من الكتابة التاريخية الجزائرية المعاصرة. وكان لصعود الماضوية الظلامية وللثغرات في التكوين المدرسي والجامعي دور هام في تفاقم هذه العيوب.

وفي الظروف الجديدة بما فيها من تعددية نسبية ومن انفتاح على العالم، يبدو في بعض المؤلفات[2] ما يبشر بالأمل في التطور نحو ممارسة مهنية للتاريخ أقل حساسية لضغوط السلطة والمجتمع. وبهذا الصدد فإن دراسات فاطمة الزهراء قشي تستلهم التقاليد الكبرى التي رسختها مدرسة الحوليات في فرنسا. وتتجه جهود عائشة غطاس وخليفة حماش إلى إلقاء الضوء على العلاقات المعقدة بين مختلف الفئات الاجتماعية في الظروف الاقتصادية والسياسية المتقلبة في العهد العثماني. ويعتبر شكيب بن حفري أول من اقتحم من الجزائريين هذا البحر الشاسع الذي يمثله الأرشيف العثماني في اسطنبول. وهناك دراسات في طور الإعداد مثل دراسة فتيحة لواليش، تقدم مساهمتها في هذا الجهد التأسيسي. لكن السياق العام للجامعة وللبلاد ينصب حواجز

---

1. حول الصلات بين الذاكرة والتاريخ، انظر مؤلفات پول ريكور وبالأخص Paul Ricoeur, *L'histoire, la mémoire, l'oubli*, Paris, Le Seuil, 2000

2. أنظر تفاصيلها في قائمة المراجع في آخر المجلد.

عديدة في هذا الطريق. إنها بداية معركة مازالت بعيدة عن الانتصار لهذا المنحى الجديد الذي يتميز عن التيار التاريخي التقليدي.

وفي أعمال الجيل السابق، إلى جانب المؤلفات المهمة لعبد الهادي بن منصور وهواري تواتي، فقد عالج مولاي بلحميسي بعض مظاهر القرصنة. وقد استقى معلوماته من مادة وثائقية غزيرة وكانت كتبه عن البحرية الجزائرية وعن الأسرى الجزائريين في أوربا تندرج في إطار الدفاع المستميت عن الجزائر العثمانية ضد مهاجميها الذين مازالوا يواصلون تهجماتهم حتى اليوم كما يتبين من الكتاب الصادر في 2005 عن «تاريخ البرباريسك» والذي قدم له جاك هيرس.

لكن جوهريا ليست المشكلة هنا. لماذا الانتساب إلى الأقوياء في الماضي بدل التحسس والاهتمام بمصير ضحاياهم؟ أليس أهم وأكثر إضاءة وإثراء أن نحاول التعرف عن قرب على هؤلاء الأباعد عنا حيثما كانوا؟ إنهم ذهبوا منذ مدة طويلة وهم بظروف حياتهم وبذهنياتهم وسلوكهم وطبائعهم وأخلاقهم، أجانب عن عصرنا ومختلفون عنا. ولكي نحددهم في ملابساتهم، يجب أولا أن ننظر إليهم بتجرد لكي نضطلع قدر الإمكان بواجب خدمة الحقيقة ولكي نراعي بأمانة ودقة القواعد المنهجية لعلمنا. إن التاريخ ليس محكمة، كما يقول جورج لفيفر Georges Lefebvre. إن الحلول محل ذهنيات عصر آخر وتطبيق معايير أجنبية عليه هو نوع من المفارقة التاريخية.

مقاربات جديدة للقرصنة

يلاحظ دانيال بانزاك Daniel Panzac[1] أنه اليوم «لم تعد القرصنة البربراسكية منفية، لكنها موضوعة في ملابساتها وفي البعد الذي يحدد

---

1. Daniel Panzac, *Les corsaires barbaresques, la fin d'une épopée, 1800-1820*, Paris, CNRS, éd., 1999, p. 5-6

Scanné avec CamScanner

آفاقها». وهذه النتيجة، وإن كانت جزئية وهشة، تعود إلى تقدم البحث التاريخي وفي نفس الوقت إلى تكون عدد كبير من الباحثين في البلدان التي كانت مستعمرة، وتدخلهم في النقاش، مما أدى إلى تراجع بعض الأحكام القيمية أو مما جعلها على الأقل تتخذ مظهرا محتشما. ومع توسع الآفاق وتبادل وجهات النظر، اغتنت النظرة واتصفت بالاعتدال والرؤية النسبية. وكعلامة على هذا التحول، يمكن أن نذكر الكتاب الذي صدر أخيرا لسلفاتوري بونو[1] Salvatore Bono عن القراصنة في البحر المتوسط، وهوكتاب أكثر توازنا من كتابه الأول[2] (القرصان البرباريسك) الذي كان متين التوثيق والتركيب لكنه أحادي الجانب في إدانته وتحركه نزعة تهجمية فات أوانها. كذلك يلاحظ في الدراسات الأخيرة لبوايي، وهي دائما مبنية على معلومات وفيرة، نوع من «الذاكرة المتعافية» التي تعكسها ملاحظته حول ضرورة وضع القرصنة في أبعادها التاريخية.

وهكذا كان لظهور ضحايا روح الاستعلاء والمركزية الذاتية الاستعمارية كعناصر نشيطة على مسرح الكتابة التاريخية، دور في فرض نوع من التحفظ على الباحثين وإن كانوا لم يتركوا كلهم كل أحكامهم المسبقة. إنه تقدم يعود أيضا إلى الرواد، أساتذتنا في التاريخ وكذلك إلى كفاح كل المواطنين وكل الفاعلين الاجتماعيين الذين شقوا الطريق نحو نظرة كونية universaliste وأخوية للعلاقات بين البشر.

من قبل، كان بروديل[3] وهو مازال شابا يدرس في الجزائر، نشر دراسة في مجلة Revue Africaine سنة 1928 (ص 184-233 وص 351-410)

1. Salvatore Bono, *Les Corsaires en Méditerranée*, Paris- Méditerranée, 1998.
2. *Id., I Corsari Barbareschi*, Torino, ERI, 1964.
3. F. Braudel, *op. cit*, II, p. 192.

Scanné avec CamScanner

في القرن السادس عشر تلقي الأضواء على كثير من جوانبها وتنبئ بما لها من روح متفتحة ومن اتساع في النظرة عن ظهور مؤرخ كبير. إن الصفحات الرائعة التي تتناول القرصنة في القرن السادس عشر في كتابه- التحفة (البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني) كانت من أهم المصادر التي استلهمنا منها مسارنا. إنه يصور فيها الجوانب المتعددة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية والعسكرية في الموانئ والبلاد المتوسطية المعنية بالقرصنة بصورة أو بأخرى. وظهر بعده مؤرخون آخرون تميزوا بإرادة إعادة النظر في تاريخ بعيد عن الموضوعية. ففي الأربعينات كافح مارسيل إيمريت Marcel Emerit في جامعة الجزائر ومجلة *Revue Africaine* وغيرها من المنشورات ضد الأفكار الاستعمارية المسيطرة حول ماضي الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي. وبنفس الروح النضالية، فكك پيير هوباك الدعاوى المنشورة حول القرصنة الجزائرية بمقارنتها مع القرصنة الأروبية في نفس الفترة. وفي 1957 ظهر كتاب (أسطورة برباريا *Barbary Legend*) للمؤرخ الإنكليزي جودفري فيشر Godfrey Fisher الذي كان له صدى كبير. وقد حياه بروديل بكلمات نقتطف منها هذه الفقرة: «إن جودفري فيشر معه الحق ألف مرة، في تبديد أساطيرنا، ففي البحر المتوسط كان الإنسان يطارد الإنسان، ويسجنه، ويبيعه، ويعذبه، ويسلط عليه كل أنواع البؤس، وكل الفضائع والممارسات المعهودة في المحتشدات ومراكز الاعتقال الجماعية. وفي الغالب لم يكن لهذه المغامرات وطن ولا دين. إنها حرفة، وسيلة معيشة». إن هذا الكتاب يعطي المثل في ضرورة تجديد التساؤلات والمصادر الأولية. إنه يسائل الوثائق الإنكليزية حول العلاقات بين إنكلترا والبلاد المغاربية ويظهر أن هذه العلاقات كانت سلمية في معظم الأحيان في الفترة العثمانية. وهذه الملاحظة تنطبق كذلك على العلاقات بين

Scanné avec CamScanner

فرنسا والجزائر في نفس الفترة. يمكن أن نختلف معه في ميله إلى إظهار دور القرصنة في الجزائر كدور ضئيل في حين أنها في بعض الأحيان تضررت منها كثيرا السواحل الإيطالية والاسبانية. لكن أهمية برباري لجند تكمن في الآفاق الجديدة التي يفتحها بفضل جودة وتنوع التساؤلات التي يطرحها انطلاقا من أرشيفات لم تستعمل من قبل إلا قليلا.

أما غي تربي ديلوف[1] فقد رسم لوحة غنية عن صورة القرصنة الجزائرية في المؤلفات الفرنسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مبنية على مصادر أولية غزيرة. إن مساهمته العلمية القيمة تساعد كثيرا على تقدير الوزن الحقيقي للأحداث وملابساتها وبالتالي تظهر بوضوح الفروق الشاسعة بين الواقع الفعلي للقرصنة والتصورات التي يفترض أن تكون تعبيرا عن هذا الواقع.

وفي السنوات الأخيرة ظهرت عدة مؤلفات تدرس جوانب أو فترات مختلفة من تاريخ القرصنة المغاربية. وسنذكر بعضها فيما بعد ونعلق عليها. ونكتفي هنا بالإشارة إلى الدراسات التي أفادتنا سواء بمعلوماتها الجديدة أو بالتعمق في الإشكاليات المطروحة.

إن كتاب برتولومي ولوسيل بنصار[2] قد يثير لدى المسلمين بعض التحفظات لما في عنوانه «نصارى الله» من ميل إلى مودات مشبوهة. لكن معلوماته غزيرة عن العلوج وهي مستقاة من أرشيفات محاكم التفتيش ومحللة بكثير من الدقة العلمية ورهافة الإحساس. إن عالم العلوج، هؤلاء المسلمين الجدد الذين

1. Guy Turbet-Delof, *l'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVI*

1. Guy Turbet-Delof, *l'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVIe- XVIIe siècles*, Genève, Droz, 1973; *La presse périodique française et l'Afrique barbaresque au XVII e siècles (1611-1715)*, Genève, Droz, 1973; *Bibliographie critique du Maghreb dans la littérature française*, Alger, SNED, 1976

2. Bartomé Bennassar et Lucile Bennassar, *Les Chrétiens d'Allah. L'histoire extraordinaire des renégats, XVIe-XVIIe siècles*, Paris, Perrin, 1989

Scanné avec CamScanner

انقلب مصيرهم مرة أخرى حينما أسروا وقدموا إلى محاكم التفتيش بسبب تغييرهم لدينهم الأصلي، مصور بطريقة تجعلنا نشعر بكل ما في هذا العالم من تعقيد وتشابك. إن المرآة التي تعكسه لنا، مصوبة نحو محاكم التفتيش، هذه البيروقراطية الرهيبة، المتينة والشديدة التدقيق، وهي تقدم صورة إضافية تكمل الصورة المعطاة عن هؤلاء الناس في الوثائق العثمانية وتساعد على تقييم أفضل يعيد النظر في الصورة السوداء التي غالبا ما قدمها عنهم «الآباء الافتدائيون» الذين أنشئت هيآتهم في البلاد المسيحية لافتداء النصارى الواقعين في أسر المسلمين.

والكتاب الذي أصدره أخيرا جاك هيرس عن البرباريسك والذي سبق ذكره يعد أكثر توازنا من بعض مؤلفاته السابقة وفيه معلومات كثيرة عن صورة الإخوة برباروسة في أوروبا في القرن السادس عشر.

أما كتاب دانيال پانزاك عن القرصان البرباريسك السالف الذكر أيضا فهو وإن كان محدودا بفترة قصيرة، يعتمد، بالأخص على سلسلة جوازات المرور التي كانت القنصلية الفرنسية تقدمها للرياس الجزائريين والمغاربيين بصفة عامة وعلى سجلات الإدارات الصحية في الموانئ الأوروبية التي تسجل دخول كل السفن في هذه الموانئ، يعتمد عليها لتحليل المعطيات الكمية عن القرصنة المغاربية. إن المعلومات الثمينة المقدمة تسمح بإدراج ظاهرة القرصنة المغاربية في الأبعاد العامة للقرصنة الدولية، والمعطيات التي يحتويها الكتاب عن المبادلات الاقتصادية والعلاقات الدبلوماسية وتغير ميزان القوى بين ضفتي البحر المتوسط، تحدد المكان الحقيقي ليس فقط للقرصنة المغاربية بل كذلك للإيالات المغاربية في المسرح الدولي. إن دراسة الأشخاص والتقنيات والوسائل المجندة لأجل القرصنة تلتقي مع الاهتمامات التي نلاحظها في دراسات ميشيل فونتناي التي أشرنا إليها سابقا.

Scanné avec CamScanner

إن ميشيل فونتناي يدرس القورصو المتوسطي في إطار عام. وهو يميز، كما رأينا سابقا، هذا القورصو عن اللصوصية البحرية وعن حرب القرصنة التقليدية: إنه يحدد وضعه في إطار تخلف البحر المتوسط عن بلاد الشمال، وتقديراته الكمية عن القرصنة في بعض الفترات تعتمد على المعطيات الأكثر توثقا نسبيا. وهو يحاول تقييم دور مختلف العوامل المؤثرة في القورصو لكي يصل إلى تحديد مكان القرصنة داخل المجتمع المعني واندماج هذا المجتمع في العالم المتوسطي لذلك العهد.

إن مجموع هذه النظرات التجديدية يسمح بوضع القرصنة الجزائرية في أبعاد تاريخية محددة وتجاوز الاتهامات الزائفة الموجهة لها.

وكتابنا هذا يندرج في هذا المسار الجديد. إن معرفة الملابسات التي تطورت قرصنة الجزائر في إطارها ودور الفاعلين أفرادا وجماعات هو أمر أساسي. ويجب إلقاء الضوء عليهم مع تجنب اختزال دولة ومجتمع الجزائر في القرصنة كما يفعل البعض. ولتجاوز هذه العقبة، يجب تحليل خصائص السلطة والمدينة المرتبطتين ارتباطا وثيقا بمغامرة القرصنة من البداية إلى النهاية.

هناك أسئلة نحاول طرحها. ما هو تأثير القرصنة على البنى والذهنيات؟ ما هو مكانها داخل المجتمع ووزنها الحقيقي في الفضاء المتوسطي؟ إن تقديم تقديرات كمية عن كل فترة مدروسة يساعد على الإجابة. والعرض الكرونولوجي للغنائم يظهر الفوارق بين قرن وآخر. وبشمولها الحياة الاقتصادية والاجتماعية تبدو التغيرات أكثر وضوحا حين تمس التحولات في بنية السلطة وفي العلاقات الخارجية لإيالة الجزائر.

فيما يخص القرن السادس عشر ينبغي التمييز بين فترات التصادم بين إمبراطوريات ذلك العصر الكبرى، حيث لم تكن القرصنة سوى عنصر من عناصر الحرب، وبين فترات الشكل الخاص من أشكال القرصنة الذي أطلق

Scanné avec CamScanner

عليه فونتناي اسم القورصو. ومن المعروف أن قرصنة الجزائر لم تبرز كظاهرة خاصة مستقلة إلا منذ سنوات 1580 حيث بدأت تطبع تدريجيا إيالة الجزائر بخصائصها الدائمة كدولة قرصنة. وهذه الظاهرة ستبلغ كل مداها وتغطي تقريبا كامل القرن السابع عشر الذي هو قرن القرصنة الحقيقي بالنسبة للجزائر.

وفي الجزء السابق، كنا سمينا القرن الثامن عشر، قرن القمح. وفعلا حل إنتاج الحبوب والتصدير محل القرصنة التي أصبحت نشاطا ثانويا وأحيانا هامشيا. إن الانتعاش الاستثنائي الذي عرفته القرصنة الجزائرية خلال الحروب الأروبية من 1793 إلى 1815 لم يكن إلا ظرفا طارئا مرتبطا بالأوضاع الدولية المناسبة وقد كان له فعلا نوع من المفارقة التاريخية.

بطبيعة الحال إن اتساع الموضوع الذي يغطي ثلاثة قرون يفرض بعض الحدود فهناك تفاصيل لها بعض الأهمية لكن لا يمكن تناولها بصورة كافية إلا في دراسات محدودة. كذلك لا يمكن الوصول إلى تقديرات كمية كاملة عن المكاسب المادية والعسكرية للقرصنة، لأن هذا التقييم الكامل مستحيل كما يقول بروديل. صحيح أن المصادر اتسعت والدراسات الموثقة عن القرصنة تزايد عددها لكن لم تبلغ مستوى يسمح بالوصول إلى نتائج ختامية.

وأهم هذه الدراسات الجديدة تقدم معطيات كثيرة مستقاة من الأرشيفات الفرنسية والإيطالية والاسبانية والإنكليزية والأمريكية والمالطية والهولندية والسكاندينافية، الخ. لكن سنقتصر على المعلومات الأكثر وثوقا وعلى تقصياتنا الشخصية. وكما هو الحال في الجزء السابق، فإن الرصيد العثماني في أرشيف الجزائر، رغم ثغراته، يسمح بالتعمق في معرفة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للجزائر العثمانية، بمقابلته مع المصادر الأخرى.

Scanné avec CamScanner

وينبغي هنا أن نجعل مكانا متميزا للرصيد العثماني باسطنبول الذي هو أغنى أرشيف في العالم عن الجزائر والذي أظهرت وثائقه المنشورة والمدروسة في مختلف المؤلفات والمطبوعات العربية والعالمية أهميته الجوهرية في هذا المجال. إن كثيرا من النقاط قد وضحت وكثيرا من الأخطاء صححت بفضل استعمال هذا الرصيد الذي يمكن من المعرفة الوثيقة لأفراد ونظم ذلك العهد.

Scanné avec CamScanner

الرموز

ا و ج	الأرشيف الوطني، الجزائر
د م	دفاتر مهمة
ر د ص	ريال دراهم صغار
ر ع	الرصيد العثماني
س غ ب	سجل الغنائم البحرية
ش و ن ت	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (سناد)
م ت م	المجلة التاريخية المغربية

Scanné avec CamScanner

رموز بالحروف اللاتينية

A	Alger
AE	Affaires Etrangères
AESC	Annales Economies Sociétés Civilisations
AHROS	Arab Historical Review for Ottoman Studies
ANP	Archives Nationales Paris
AO	Archivum Ottomanicum
AOM	Archives d'Outre-mer
BNA	Bibliothèque Nationale Alger
BNP	Bibliothèque Nationale Paris
BSGO	Bulletin de la Société Géographique d'Oran
CNRS	Centre National de la Recherche Scientifique
L	Londres
NY	New York
P	Paris
RA	Revue Africaine
REI	Revue d'Etudes Islamiques
RH	Revue Historique
RHM	Revue d'Histoire Maghrébine
ROMM	Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée
RT	Revue tunisienne
T	Tunis

Scanné avec CamScanner

القسم الأول

مجابهات مؤسسة

1505 - 1579

الفصل الأول

الظروف التاريخية

من العصر القديم إلى القرن الثامن عشر، كانت القرصنة في البحر المتوسط ظاهرة دولية عامة تشكل مع الحرب والتجارة ثالوثا لا ينفصم.

في المغارب كما في البلاد المتوسطية الأخرى، تعود التقاليد البحرية، الحربية والسلمية، إلى أعالي العصور القديمة وربما إلى ما قبل التاريخ. ففي العهود القرطاجية والرومانية والبيزنطية كان الإقليم الذي ستتشكل منه الجزائر العثمانية يحتوي على مراكز بحرية طورها ونماها الفتح العربي. فأنشئت موانئ جديدة وقامت مدن بحرية ذات أهمية مثل بونة (عنابة) وجيجل ودلس وشرشال وتنس ووهران وبالأخص الجزائر وبجاية.

بدرجات مختلفة حسب تبدل الظروف، كانت لهذه المراكز نشاطات في القرصنة موجهة ضد النصارى.

نظرة ابن خلدون

في بضع صفحات من المقدمة، يرسم ابن خلدون لوحة تاريخية عن ميزان القوى البحرية في البحر المتوسط بين المسيحيين والمسلمين، يمكن أن نلخصه هكذا: إن التفوق البحري المغاربي في البحر المتوسط الغربي بدأ في نهاية القرن الثامن وبالأخص بعد فتح صقيلية في سنة 827. يقول ابن خلدون: «والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه

Scanné avec CamScanner

جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في مماليكهم»[1].

إن هذا التفوق البحري مرتبط بالتقدم التقني الذي حققته الحضارة العربية في العهد الكلاسيكي، في فترة اقتباسات متعددة الأنواع والأشكال من الحضارات الأخرى، واستيعاب وتمثل وتنمية الفلسفة والعلوم. خلال هذه الفترة المتميزة بالانفتاح والتجديد، صاغ الرازي فكرة التقدم المستمر للعلم وتصور البيروني «الإمكانية المنطقية لدوران الأرض حول الشمس كعامل يفسر الحركات الظاهرة للكواكب»[2]. في القرن العاشر، بلغ فن الملاحة العربي مستوى لم تعرفه أروبا إلا بعد قرنين. وعن طريق العرب عرفت أروبا استعمال وتحسين الأسطرلاب والبوصلة وقيادة المراكب بدفة مركبة على حاملة. ومن بين أنواع التقدم التقني يذكر لويس ماسينيون[3] «اختراع العرب الرائع للشراع المثلث الزوايا المسمى الشراع اللاتيني والذي أدخل إلى البحر المتوسط في القرن التاسع (وهو) يسمح بالتقدم في الريح المعاكسة».

ويصف موريس لمبار[4] تطورات تقنية أخرى قائلا: «أنشئت موانئ كبرى لها أحواض وأرصفة وأبراج وسلاسل وترسانات مثل... المهدية وتونس وبجاية. وكانت سفن كبرى ترسي فيها... وتعاظمت الحركة بين القرنين الثامن والعاشر. وهي الفترة التي تشكل فيها نوع السفينة التجارية الكبرى، (المدعو بالفرنسية ناف) ذات الهيكل العالي ولها صاريان كبيران مجهزان بأشرعة

---

1. المقدمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1961، ص 450.

2. Claude Cahen, *L'Islam. Des origines au début de l'empire ottoman*, Paris, Hachette, 1997, p. 322

3. Louis Massignon, *Les Nuages de Magellan*, REI, 1963

4. Maurice Lombard, *L'Islam dans sa première grandeur*, Paris, Flammarion, 1971, p. 78.

Scanné avec CamScanner

مثلثة الزاوية (لاتينية)، وهو استمرار للسفينة التجارية المتوسطية في العصور القديمة مع إدخال تقنيات جديدة آتية من المحيط الهندي، وهي التي بنيت على طرازها السفن البندقية والجنوية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر».

هذه الفترة حيث في البحر المتوسط «لم تسبح للنصرانية فيه ألواح» حسب تعبير ابن خلدون دامت قرنا ونصف قرن. فمنذ منتصف القرن الحادي عشر صار النورمان يسيطرون ليس فقط على بعض الجزر المتوسطية بل كذلك على بعض المراكز البحرية المغاربية الكبرى. وبقيام الدولة الموحدية في القرن الثاني عشر، بلغ الأسطول الإسلامي من حيث الكثرة والجودة ما لم يبلغه من قبل حسب ابن خلدون. وبعد تقدم جديد أحرزه الأروبيون في القرن الثالث عشر، استطاع المسلمون أن يوازنوا بين القوى لمدة لم تطل ثم استعاد الأروبيون تفوقهم في الملاحة في أعالي البحار وفي بناء السفن. ودائما حسب ابن خلدون، بدأت القرصنة المغاربية تنمو في أواسط القرن الرابع عشر. وكانت بجاية قاعدتها الأساسية في المغرب الأوسط. وكانت مراكز بحرية أخرى شبه مستقلة تساهم في هذا النشاط وأهمها هي وهران وشرشال وبونة والجزائر.

ويذكر هنري برسك[1] عمليات افتداء أسرى مسيحيين في البلاد المغاربية في 1339 كعلامة على استئناف المبادرة المغاربية لكنه يوضح أن الصحوة البحرية لم تأخذ مداها الواسع إلا ابتداء من 1360. وانطلاقا من هذا التاريخ أصبح النشاط البحري المغاربي «يواجه العنف الذي كانت افريقيا ضحيته منذ أكثر من قرنين».

ومن المهم ملاحظة تاريخ هذا الاستئناف. فهو يأتي بعد أعظم وأخطر أزمة ديموغرافية عرفتها الأقطار المغاربية منذ قرون وكان لها تأثير كبير على

1. Henri Bresc, «La course méditerranéenne au miroir sicilien», VI[e] Rencontre internationale d'archéologie et d'histoire d'Antibes, *L'exploitation de la mer…*, *APDCA*, Valbone, 1986, p. 90-110.

Scanné avec CamScanner

المعاصرين كما نلاحظ ذلك في الأوصاف التي يطلقها عليها ابن خلدون وابن بطوطة مثلا. وقد ساهمت هذه الأزمة في تشديد عوامل الضعف في الأقطار المغاربية والعربية على العموم والتي كانت تضررت كثيرا من الغزوات الأسيوية التي تشابه في بعض مظاهرها الغزوات الكبرى التي أصابت أروبا في أعالي العصور الوسطى والتي سميت غزوات البرابرة.

في المغارب كان الوضع العام يتسم بضعف السلطة المركزية وظهور عدة إمارات محلية ومراكز قرصنة شبه مستقلة في كل قطر من الأقطار المغاربية الثلاثة. وهذه الظاهرة وما صاحبها من اضطرابات ونزاعات تشبه تشتت واضطراب أروبا الإقطاعية في العصور الوسطى.

إن ابن خلدون يعبر بقوة عن قلقه ومخاوفه من تقدم الاسبان في الأندلس. وهو نفسه من أصل أندلسي وبقي على صلة وثيقة بنخبة البلاد الأندلسية. وكان بالأخص صديقا لابن الخطيب الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

وينهي ابن خلدون (ص 454) لوحته معبرا عن الأمل في أن «تكون للمسلمين الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجة وأن يكون ذلك بالأساطيل». إن الكرة الإسلامية التي رجاها ابن خلدون ظهرت بعد مدة ولم تكن بمبادرة مغاربية بل بتصاعد قوة جديدة وجدت في تقدمها نحو المناطق الغربية استقبالا له قاعدة واسعة. وهو نتيجة البحث اليائس عن آفاق جديدة وقوى جديدة لمواجهة الخطر المسيحي. فبعد اجتياح بقايا الأندلس- الرمز، أصبح الاسبان والبرتغاليون يهددون الأراضي المغاربية مباشرة. إن تفتت السلطات وتعدد الإمارات المتنافسة والضعيفة خلقا عقبات أمام النهوض وحشد القوى لمقاومة التوسع الإيبيري الذي كانت انتصاراته تتوالى على السواحل المغاربية. ففيما يخص المغرب الأوسط سقطت مدينة المرسى الكبير بيد الاسبان في 1505 ثم تنس في 1508، وهران في 1509، بجاية في

Scanné avec CamScanner

1510. واضطرت دلس وشرشال ومستغانم أن تدفع الجزية لاسبانيا ابتداء من 1511. كذلك مدينة الجزائر التي سلمت حصنها الدفاعي البحري الذي يسميه الاسبان البنيون للاسبان كعلامة على الخضوع.

إن الخطر محدق داخل البلاد وانتصارات الاسبان ساحقة. إن كل الواجهة البحرية للأقطار المغاربية صارت تحت مراقبتهم أو مهددة. وفي هذه الأوضاع، لم يكن التدخل العثماني ليظهر إلا كعملية إنقاذ.

وقبل أن نذهب بعيدا في التذكير بهذه الظروف التاريخية، يبدو لنا من الضروري أن ندخل بعض اللمسات على هذه اللوحة الوجيزة وأن نقدم ملاحظات قصد تحديد أفضل لهذا الوضع التاريخي العام الذي ستنمو وسطه القرصنة الجزائرية.

الصراع والدين

من الخطأ تبسيط واختصار العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط في نقطة واحدة هي الصراع بين الإسلام والمسيحية وإن كان هذا التفسير يتوافق مع بعض أشكال التصور الجماعي في ذلك العصر ويمكن استعماله كخط مسير في دراسات مقارنة عامة كما يشير إلى ذلك بروديل[1] وكما هو الحال في المقارنة التي عقدها ابن خلدون في هذا المجال.

في الحقيقة أن النزاعات الحادة كانت داخل كل المعسكرين وأن الحروب الدموية كانت غالبا تندلع بين الإخوة في الدين المتصارعين على الحكم أو على توسيع أراضيهم، الخ. أكثر منها بين الأعداء في الدين الذين هم في معظم الأحيان، تفصلهم مسافات شاسعة تجعلهم في منأى عن النزاعات التي

1. في دراسة بروديل المذكورة سابقا عن العلاقات بين الاسبان وشمال افريقيا، يحلل المؤلف تنوع الاتجاهات والتيارات في اسبانيا في القرن السادس عشر ويبين أن «الروح الصليبية» لم تكن منتشرة إلا بين رجال الدين. وسنرى فيما بعد أن الظاهرة المماثلة تلاحظ في الأوساط المغاربية.

Scanné avec CamScanner

يحدثها الجوار بين الحكام. وليس من الصحيح أن الإسلام والمسيحية كانا يشكلان كتلتين متعارضتين. إنهما دينان عالميان يتوجهان لكل البشر وينهلان من نفس المنبع ويشتركان في تراث مشترك واسع. ومثل العالم المسيحي كان العالم الإسلامي دائما كثير التنوع. وفي صراعات القرن السادس عشر كانت الإمبراطورية العثمانية متحالفة مع الفرنسيين ثم مع الإنكليز ضد الاسبان الذين كانوا متحالفين مع الصفويين أعداء العثمانيين. وكان التوسع العثماني في القرن السادس عشر قد استهدف احتلال الأقطار العربية كما استهدف البلاد الأروبية.

صحيح أنه في ذهنية العصر، كانت كثير من السلوكات الدنيوية مغطاة برداء ديني وكانت الحروب بين الدول ذات الأديان المختلفة كثيرا ما تحمل شعار الدين حقا أو باطلا. وهذا التلبس بالشعارات قد يتخذ أشكالا غريبة. مثلا في 1588، اقترحت إليزابيث الأولى ملكة بريطانيا[1] على السلطان العثماني تحالف الموحدين (المسلمين والبروتستانت) ضد ملك اسبانيا زعيم المشركين عبدة الأوثان! ولأغراض سياسية كذلك أمر السلطان العثماني موظفيه من القضاة وعلماء الفتوى أن يفتوا بتكفير الصفويين وخروجهم على قواعد الإسلام.

إن الصراعات على الحكم، وتعارض المصالح والمطامح التوسعية بين مختلف الحكام، والنزاعات الإثنية والقبلية والطائفية كانت تمزق بدعوى أخلاقية أم لا، كلا من العالمين الإسلامي والمسيحي ولم يكن أي منهما في أية فترة من تاريخه يشكل كتلة متراصة ومعارضة للأخرى كما تحاول بعض الكتابات الحالية أن تصور لنا الماضي.

---

1. انظر في الموضوع : Maxime Rodinson, *La Fascination de l'Islam*, Paris, Maspéro, 1980, p. 56

Scanné avec CamScanner

البنية والملابسات

على منوال إرنست لابروس وپيير ڤيلار، فلنميز بين البنية والملابسات. إن الملابسات السياسية العسكرية في القرن السادس عشر جعلت من العثمانيين والاسبان أقوى دولتين في البحر المتوسط. وكان هذا القرن قرن ازدهارهما.

فالعصر الذهبي الاسباني هو عصر فتح القارة الأمريكية، واتساع إمبراطورية شارل كنت وفليب الثاني. وهو بالمعنى الحرفي عصر الذهب والفضة بالأخص المستخرجين من أمريكا. وكانت هذه الأموال الطائلة عصب الحروب التي خاضتها اسبانيا وساعدت على توسعها. وجوهريا، عرف هذا القرن ازدهارا كبيرا للعلوم والآداب والفنون في اسبانيا.

وكذلك الأمر عند العثمانيين. ففي أوج عظمة هذه الدولة، في عهد سليم الأول (1512-1520) وسليمان القانوني (1520-1566) كان تزايد القوة السياسية والعسكرية يعتمد على تقدم علمي وتقني مهم ويصاحبه ازدهار حقيقي في الآداب والفنون، الخ. لكن هذا التقدم في كلا الدولتين كان له حدود تحصر نطاقه وعوامل ضعف ستظهر آثارها بعد بضع عشرات من السنين.

هذا فيما يخص الملابسات.

في منتصف القرن السابع عشر انتقل التفوق إلى أيدي أخرى. وكانت أسسه في أروبا دائمة وتعود إلى ظهور بنى اقتصادية واجتماعية جديدة. أسست نمط الإنتاج الرأسمالي وحطمت الحواجز التي تعرقل انطلاق القوى البشرية والمادية. وهكذا فتحت الطريق لازدهار التقدم التقني والعلمي والتنمية العامة. وفي هذا الظرف التاريخي الجديد لم تكن الانتصارات العسكرية والبحرية العثمانية الساطعة ومن بينها مآثر القاعدة البحرية الجزائرية سوى أحداث عرضية سرعان ما طواها الزمن. إن هذه الانتصارات الظرفية كانت نتيجة للمنافسات الشديدة بين الدول الأروبية وكذلك استفادت من كون

Scanné avec CamScanner

البنية الجديدة للنظام الرأسمالي كانت تتطور ببطء ولم تظهر كل طاقاتها وإمكانياتها الفعالة إلا بعد مدة.

خصوصية غريبة تطبع هذه الظروف. فالمآثر الرائعة سواء في الميدان العسكري أو البحري قد حققتها بلاد كان اقتصادها وتقنياتها وبناها الاجتماعية والذهنية في تخلف متزايد بالنسبة لأوروبا الغربية التي كانت قد بدأت الدخول في تنمية شاملة تكاد تكون دائمة. إن عدم توضح هذه النظرة للواقع معناه إغلاق العيون عن رؤية الأوضاع التاريخية الملموسة، والتغذي بالأوهام ونشر أسطورة العهد الذهبي للدولة الجزائرية المسيطرة على البحار. إن الإقليم الجزائري داخل الإمبراطورية العثمانية، كان فعلا يتمتع ببعض التقدم التقني الذي عرفه العثمانيون في القرن السادس عشر وخاصة في الميدان العسكري والبحري. لكن الإمبراطوية العثمانية نفسها كانت تعتمد على ما يصلها من التقدم الأوروبي في هذه المجالات. والمصطلحات المستعملة تشير إلى ذلك. في أواخر العصور الوسطى، كان الفرنسيون استعاروا مثل غيرهم من الأوروبيين المستقرين على الضفة الشمالية للبحر المتوسط الكلمة العربية أمير البحر واشتقوا منها كلمة أميرال للدلالة على قيادة الأسطول. أما في العصر الحديث فإن الجزائر تستعمل كلمة قبطان للتعبير عن نفس المعنى وهي كلمة مشتقة من الإيطالية بواسطة الأتراك العثمانيين. نفس المسار لكلمة دار الصناعة التي عادت إلى الأقطار العربية في شكل ترسانة التي هي تحريف إيطالي وأوروبي ثم تركي للكلمة العربية. ولسنا بحاجة إلى إضافة أن استعارة المصطلحات التقنية مرتبطة بنقل التقنيات نفسها في ظروف تاريخية مختلفة. إن المؤرخ التركي عبد الحق عدنان[1] له في الموضوع رأي قد يكون اليوم في حاجة

1. Abdulhak Adnan, *La Science chez les Turcs ottomans*, Paris, Maisonneuve, 1939.

Scanné avec CamScanner

إلى بعض التلطيف فهو يقول: «إن الأتراك كانت لهم... معارف بسيطة عن الاكتشافات الجغرافية، لكنهم كانوا جاهلين تماما لمجموع الحركة الفكرية والعلمية التي بدأت مع ليوناردو دافنسي وبلغت أوجها مع الثورة الكبرى في علم الفلك والفيزياء، التي أطلقها كوبرنيك وكيبلر وغاليلي، وغيرهم».

القرصنة والجهاد

رغم كثرة الكتابات الاستعمارية الفرنسية الدعائية حول «الجزائر وكر لصوص البحر» فمن المفروغ منه منذ زمن طويل أن الجزائر لم تكن تحتكر القرصنة. وهذا لا يمنع من التساؤل فيما إذا كان هناك ما يبرر مثل هذه الأوصاف عملا بالمثل لا دخان بلا نار. بمعنى آخر هل كان ثمة ما يميز الجزائر في ميدان القرصنة؟ هذا أحد الجوانب التي درسها فونتني في بحثه عن القورصو المتوسطي. إن الجزائر كانت من المدن المتوسطية القلائل التي ربطت مصيرها طيلة ثلاثة قرون بالقرصنة. وكانت القرصنة، نشاطا مركزيا للمدينة والدولة، وطبعتهما بخصائص كان لها أحيانا دورها في مسيرة البلاد.

إن البنى الذهنية، وبصورة خاصة التصورات الجماعية حول القرصنة موضوع لا نعالجه هنا. وإنما نشير فقط إلى أحد المظاهر الرمزية للقرصنة. وسنعود للموضوع في فصول أخرى مع مراعاة الصعوبات التي تتعلق به والتي تستدعي لتناوله جديا، دراسات متخصصة تستعمل مناهج وتقصيات أخرى.

في الخطاب الرسمي لهذا العهد، كانت الجزائر هي «دار الجهاد» «جزائر المغازي» جزائر الانتصارات والحملات ضد الكفار. وكان الرياس والجنود البحريون معتبرين كمجاهدين. ومن سقط في ميدان المعارك كان يعتبر من الشهداء الذين وعدهم الله بحياة الخلود منعمين في جنات الرضوان. وكانت

Scanné avec CamScanner

أسماؤهم تقترن بعبارات من نوع «رحمهم الله وحشرنا في زمرتهم». وكانت المدينة تقيم الزينة عند عودة الرياس ظافرين والحكام يحتفلون بهم ويقدمون لهم الهدايا والمكافآت. ومما له دلالة في هذا الصدد أن المأثرة الكبيرة التي حازها الرايس محمد أرنووط في 1765 والتي نذكر تفاصيلها فيما بعد، قد خصص لها كتاب يحتفل بها على منوال «غزوات» عروج وخير الدين والمؤلفات التي كتبت احتفاء بتحرير وهران في 1708 و1792.



وكانت المكافآت المادية في بعض الأحيان لها قيمة كبرى، مشفوعة بقفطان الشرف وغيره من الأشياء الثمينة والرمزية، بالإضافة إلى ما يعود للرايس من الغنيمة.

هذه البركة الدينية والمجد الاجتماعي والفوائد المادية والطموح السياسي، كل هذه العناصر تمتزج في هذه العمليات المليئة بالمخاطر. وليس هنا مجال تحديد نصيب كل عنصر ودوره النسبي في هذه الدوافع المتداخلة. لكن هناك بعض الملاحظات. ففيما يخص العامل الديني الذي يبدو مسيطرا إذا اعتبرنا الخطاب الرسمي وتأثيره على طريقة تحرير الوثائق العثمانية، لابد من المقابلة بين الأقوال والأفعال لا للتقييم الأخلاقي وإنما لتفهم بنية العصر ورجاله ومشاعرهم ومسالكهم وما يشكلها ويؤثر فيها. فإلى جانب قوة التأثير الديني تظهر المعطيات جوانب أخرى. وفي طليعتها هذه الظاهرة الواسعة والغريبة: في الجزء الثاني من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، كان جزء كبير وأحيانا ربما أغلبية القرصان وبالأخص الرياس من المسلمين الجدد. وليس من المستغرب أن نتساءل عن الدوافع الحقيقية لاعتناقهم الإسلام. ما الذي كان يدفع هذه الآلاف من الكورسيكيين والصارد والكالابري والصقليين والاسبان الخ أن يلتحقوا بمدينة الجزائر لممارسة مهنة القرصنة؟ وماذا كان يدفع عددا أكبر من الأروبيين الأسرى في الجزائر إلى

Scanné avec CamScanner

تغيير دينهم؟ وبعد ذلك ماذا كان يعطي لعقيدتهم الجديدة متانة واستقرارا قلما كذبتهما الأحداث؟

في مستوى الخطاب الرسمي، يمكن أن نلاحظ هذه المصادفة الغريبة: في أواخر «قرن القرصنة» في عهد الداي شعبان خوجة بدأت عبارة «الجزائر دار الجهاد» تظهر في الرسائل الدبلوماسية الرسمية. يبدو أن القرن السابع عشر «قرن القرصنة» والقرن الذي كان دور المسلمين الجدد فيه دورا أساسيا، لم تكن المآثر البحرية توصف بالجهاد بصورة خاصة بل كان منظورا لها باعتبارها عمليات قورصو من أجل الكسب المادي.

أما هؤلاء القبايل والبساكرة وغيرهم من البرانية الذين كان الفقر يدفعهم إلى الهجرة إلى مدينة الجزائر لكسب قوتهم وكان أجرؤهم يلتحقون بسفن القرصنة كبحارة، فهل يمكن حصر دوافعهم في الشعور الديني؟

ليس المقصود بالطبع إنكار قوة الدافع الديني عند رجال ذلك العصر، لكن محاولة التمييز بين الفترات والفئات الاجتماعية وحتى بين الأفراد الذين يغلب عليهم كأفراد هذا الدافع أو ذاك. بهذه الطريقة فقط يمكن تجاوز الدوافع الفردية للوصول إلى مغزى الحركات الجماعية.

Scanné avec CamScanner

الفصل الثاني

قوى المواجهة

1 . ردود فعل أهلية

إن تاريخ السنوات الطويلة من الصراع الدامي للوصول إلى تشكيل وترسيخ الإيالات المغاربية، يبرز جيدا أن هذه الصراعات لها جوانب ودوافع متعددة. وللوصول إلى صورة متوازنة عن هذه الأوضاع يجب إعادة النظر في الموقفين الشائعين اليوم:

الموقف الأول موال للعثمانيين وله تعبيران فيهما بعض التناقض على الأقل من الناحية الشكلية. التعبير الأول قديم ويرجع إلى فترة خير الدين نفسه. فقد كتب مثلا على ضريحه أنه «فاتح الجزائر وتونس». وبهذا المعنى تكون الإيالات المغاربية قد فتحت عنوة مثل سورية ومصر مثلا. وهذا الزعم ليس فيه سوى جانب من الصحة. ذلك أن انتصار العثمانيين في هذه الإيالات يعود الفضل فيه بشكل رئيسي إلى القوى المغاربية والأندلسية التي حملت ثقل هذه الصراعات. وهذه القوى كانت لها دوافع وطنية ودينية بالدرجة الأولى. وهي تختلف عن شعور الانتماء إلى العالم العثماني الذي لم ينم ويترسخ إلا بعد زمن طويل. صحيح أن الإنكشارية الذين بعثتهم الحكومة العثمانية في فترات مختلفة والعلوج الذين جندهم خير الدين وخلفاؤه كان لهم دور حاسم في بعض الأحيان. لكن هذه العناصر جاءت كمدد إضافي بقي من الناحية العددية دائما أقل أهمية من مساهمة القوى الأهلية في مختلف الإيالات المغاربية.

Scanné avec CamScanner

إن انقلاب هؤلاء الأنصار على الأتراك لا يمكن حصره في تفسيرات أحادية الجانب. فقد كانوا هم الذين استنجدوا بعروج وخير الدين ورفاقهما لمواجهة الخطر المسيحي ورحبوا بهم وفتحوا لهم أبواب السلطة. لكن الأتراك أظهروا بعد ذلك روح السيطرة المطلقة واستعملوا في الحكم وسائل وأساليب أثارت النقمة والثورة عند من مهدوا لهم السبيل للوصول إلى الحكم.

عشرات الآلاف من القتلى -على أقل تقدير- في عشرات السنين من الصراع الدامي على الحكم، هي شواهد قوية على أنه لا يمكن اختزال هذا الصراع في عبارات من نوع «خيانات الأمراء المنحطين» أو «تقلب البدو» كما يزعم مروجو التعبير الحديث عن الولاء للعثمانيين.

أما الموقف المعارض فقد اتخذه أولا بعض المؤرخين القوميين الذين يرجعون انحطاط الحضارة العربية إلى «السيطرة الاستعمارية التركية». وهذا التفسير وجد له تعابير جديدة أقل حدة عند بعض المؤرخين المغاربيين الحاليين. إنهم يصفون المعارضة المسلحة التي واجهت الإخوة بربروسة وخلفاءهم بأنها «مقاومة وطنية». وهذا تفسير يسقط على القرن السادس عشر نوعا من الوعي السياسي لم يظهر في الإيالات المغاربية إلا أخيرا.

ومن أجل استخلاص نظرة عامة تسمح بتقييم متوازن لمختلف العناصر، سنحاول تقديم صورة موجزة عن مختلف القوى المتواجدة أمام الغزو الاسباني.

الجماعات الحاكمة التقليدية

إن الأسر الملكية الحفصية والزيانية والجماعات الحاكمة المرتبطة بها كانت الخاسر الأكبر في هذا الصراع. وكان موقفهم في وجه الغزو الاسباني موقفا تقليديا. في البداية حاولوا أن يقاوموا عسكريا وخاضوا معارك كبرى

Scanné avec CamScanner

وكبّدوا الاسبان خسائر فادحة. ففي معركة فستل بمنطقة وهران في 1507 مثلا فقد الاسبان 6000 جندي في مقابل مقتل 3000 جندي من المسلمين حسب المؤرخ الاسباني المعاصر للأحداث سواريس[1].

لكن بصورة عامة لم تكن هذه القوى التقليدية مهيئة للثبات مدة طويلة أمام قوة عسكرية حديثة نسبيا في تجهيزها وتدريبها. وانتهى الأمر بانتصار الاسبان واحتلالهم أو إخضاعهم لكثير من المراكز البحرية المغاربية[2]. ومع توالي الهزائم واتضاح الوزن الحقيقي للقوى المتقابلة، استنجدت فئات من هذه القوى التقليدية بالرياس الأتراك الذين كانت سمعتهم تتصاعد في الأقطار المغاربية منذ حملات كمال رايس الأولى.

إن هذه الجماعات التقليدية لم تكن تملك نظرة مستقبلية محددة. ولم تواجه هذه الظروف المضطربة بنفس الموقف الواضح المتماسك والصامد الذي أظهره خير الدين. وكان لتعدد المواقف داخل هذه الجماعات وتناقض مصالحها أن استطاعت القوى الأخرى (الاسبانية والعثمانية) أن تستغل تشتتها وتعمقه لصالحها.

وبنظرة المؤرخ، ليس من المفيد أن نصدر أحكاما لتبرئة أو إدانة هؤلاء المهزومين الذين تولى المنتصرون كتابة تاريخهم. ولكي نحددهم في زمانهم ونفهم تصرفاتهم ينبغي التحلي باليقظة المضاعفة إزاء كل موقف متحزب. ولنذكر بأن هؤلاء القوم لم يشكلوا كتلة متجانسة. ففي صفوفهم نجد كل أنواع السلوك وكل تنوع ردود الفعل التي كانت مجتمعات تلك الفترة كفيلة بأن تتخذها في ظروف معينة. فالمهم هو استخلاص الاتجاهات الكبرى.

من البداية يبدو أن سوء التفاهم كان يسود العلاقات بين الحكام

---

1. انظر ترجمة قسم من كتاب Suares في الدراسات التي نشرها André Berbrugger.
2. *RA*، سنة 1865 ص 410 - 420.

Scanné avec CamScanner

التقليديين والإخوة باربروسة. فهؤلاء لم يكن قصدهم مساندة الجماعات الحاكمة بل الحلول محلها. وهذه بطبيعة الحال كانت لها نظرة أخرى. فالأسر الملكية الحفصية والزيانية كانت تعتبر أن توالي القرون على توارثها الحكم يعطيها شرعية تاريخية وكانت تنظر لهؤلاء المترشحين الجدد للسلطة على أنهم دخلاء. إن التمعن في نصوص «غزوات عروج وخير الدين»[1] وبعض النصوص الأخرى الصادرة عن العثمانيين وأنصارهم يترك الانطباع بأن خير الدين كان يشعر بضرورة تبرير استيلائه على الحكم ورد تهمة الاغتصاب عنه. ومحتوى رسالة السلطان الحفصي إلى السلطان الزياني كما ترويه «غزوات» يشير إلى هذا الوضع حيث يتهم خير الدين بأنه يريد الاستيلاء على ممالك الحفصيين والزيانيين معا. وتذكر «غزوات» كذلك خطاب خير الدين إلى أهالي مدينة الجزائر يحثهم على طلب حماية السلطان العثماني وتقديم الطاعة له ويذكرهم بمآثره هكذا: «وصل إليكم من أهل الأندلس عدد كثير وعندكم من السلاح والعدة.. لما قدمت إليكم لم يكن عندكم مدفع واحد والآن تحصل بأيديكم أربعمائة مدفع وأكثر» ويضيف : «أنا لم أغتصب هذه المدينة من يد واحد منهما... وإنما... خلصتها من يد الكافر». في الحقيقة أن البلاد التي استولى عليها خير الدين كانت تابعة إما للحفصيين أو للزيانيين.

إن التاريخ سجل أعمال خير الدين ونتائجها، وهي عظيمة بلا شك. لكن قصدنا هنا ليس إصدار الأحكام بل محاولة تفهم دوافع الأطراف المختلفة. وحين يتحدث خير الدين مثلا عن خيانة سلطان تونس وسلطان تلمسان فمن الواضح أن الخطاب الأيديولوجي لخير الدين له مسحة «حديثة» تبعده عن عقلية الجماعات المغاربية التقليدية.

1. نختصرها في الصفحات التالية بكلمة «غزوات».

Scanné avec CamScanner

إن خير الدين يحكم على مواقف الأطراف المتنازعة انطلاقا من فكرة «القضية المقدسة» التي يجب الدفاع عنها. إنه بهذه النظرة يرتفع كثيرا عن مستوى خصومه. لكن لا ينبغي دفع المقارنة مع عصرنا الحاضر إلى حد الوقوع في مفارقة تاريخية لكن المؤكد أن هناك بونا شاسعا بين خير الدين والحكام التقليديين. وكان هؤلاء من وجهة نظرهم، يعتبرون أنه غرر بهم وخدعهم. وتتوالى الروايات المتشابهة مشيرة إلى تكرار نفس السلوك:

- استنجد حاكم مدينة الجزائر القبلي الشيخ سالم التومي الثعالبي بعروج الذي لبى الدعوة وقدم مع أنصاره إلى المدينة ثم قتل الشيخ سالم واستولى على الحكم. ثم ترك أخاه خير الدين خلفا عنه في المدينة واتجه نحو وسط وغرب البلاد. وكانت انتصاراته سريعة حاسمة بفضل المساندة القوية التي قدمها له علماء ورجال الدين الذين لهم شهرة واسعة مثل أحمد بن يوسف وأحمد بن القاضي. وفي تلمسان استطاع حزب المقاومة ضد الاسبان وعلى رأسه القاضي العقباني قاضي القضاة في تلمسان وكثير من العلماء وشيوخ القبائل وبعض الأمراء الزيانيين أن يمهدوا الأمر في المدينة ونواحيها لعروج. لكن بعد توليه الحكم قام بتقتيل الأمراء الزيانيين وأنصارهم. حتى القاضي العقباني لم ينج من القتل إلا بفراره من المدينة. وهكذا أصبح هذا العالم الكبير وغيره من العلماء والأمراء والشيوخ في صف أعداء عروج الذي أدى سلوكه إلى انقلاب موقف السكان ضده. وأصبح محاصرا في حصن المدينة واستطاع الفرار مع كمشة من أنصاره يريد اللحاق بمدينة الجزائر. لكن الاسبان وأعوانهم أدركوه وقتل في المعركة بعد مقاومة باسلة. وعلى إثر هذه الأحداث نما في تلمسان تيار معاد للأتراك سيكون له انعكاساته مرارا في المستقبل.

- بعد استيلاء خير الدين على تونس في 1534 سارت الأمور في اتجاه يشبه ما حدث في الجزائر وتلمسان. فعند وصول الأسطول العثماني ثارت المدينة

Scanné avec CamScanner

ضد الحسن الملك الحفصي الموالي للاسبان ومن أجل تتويج أخيه الرشيد الذي كان نجا من المقتلة التي دبرها الحسن ضد إخوته ولجأ إلى استنبول وكانت الإشاعات التي روجت في المدينة أن الرشيد كان مرافقا لأسطول خير الدين وأنه سيجلس على عرش أجداده بعد تحرير المدينة. لكن حين دخل خير الدين تونس استقر فيها كحاكم مطلق. واكتشف السكان الخدعة وثاروا ضد خير الدين. وحسب بعض الروايات المحلية بلغ عدد القتلى في هذه الثورة نحو ثلاثين ألف ونهبت المدينة من طرف جيش خير الدين.

ثغرات وتساؤلات

في هذه الروايات بعض الثغرات. فلنمر سريعا على أحداث الجزائر لقلة الوثائق الواضحة والأكيدة. إن الوزان الذي عاصر الأحداث يصف بإيجاز كيف قتل سالم التومي غدرا من طرف عروج. وتذكر المصادر الاسبانية أن ابن الشيخ سالم لجأ عند الاسبان وطلب منهم مساعدته على الثأر لأبيه. أما «غزوات» فهي عموما تسكت عن كل الأحداث التي ليست في صالح الإخوة باربروسة. لكنها تتحدث عن ثورة قمعها خير الدين وأعدم عشرين من زعمائها.

وفيما يخص وقائع تلمسان تسمح المراسلات الاسبانية بمتابعة السير اليومي للأحداث وإلقاء الضوء على بعض ملابساتها: كما هي عادة الزيانيين، عندما تولى أبو حمو الحكم في بداية 1517 كان بعض الأمراء معارضا له وداعيا لتتويج أمير غيره. وتعقدت الأمور بالتدخل الاسباني وقدوم عروج. وحيث كان أبو حمو يتمتع بتأييد الاسبان فإن معارضيه دعوا عروج الذي وصل إلى تلمسان في سبتمبر 1517 ولقي ترحابا كبيرا. أما أبو حمو الذي طرد من المدينة فقد بعث أحد إخوته إلى اسبانيا يطلب النجدة. وفي بداية 1518 وصل آلاف من الجنود الاسبان إلى وهران. وبمساعدتهم استطاع أبو حمو أن يستأنف الهجوم

Scanné avec CamScanner

وحاصر قلعة بني راشد التي كانت بيد أنصار عروج وعلى رأسهم أخوه اسحق ومعه بضع مئات من المقاتلين. وأمام تباين القوى وافق اسحق على الاستسلام مع كل أنصاره لكن جنود أبو حمو قاموا بتقتيلهم عن آخرهم. أما الاسبان الذين كان لهم الدور الرئيسي في هذا الهجوم فلم يقوموا بأية مبادرة لمنع هذا التقتيل المنافي لقواعد الحرب. وفي نفس الوقت تقدم الجيش الاسباني لمحاصرة تلمسان. وحسب المراسلات الاسبانية نفسها، عندما حاصر الاسبان تلمسان «قام برباروس بإعدام كل أمراء الأسرة المالكة بحيث سيجد أبو حمو عند عودته إلى تلمسان نفسه ملكا مطلقا ولن تكون له أية حجة في البقاء منغلقا في حصنه. وأتمنى أن لا يترك أندلسيا واحدا ولا أهليا واحدا من أهالي وهران ومرسى الكبير اللاجئين في تلمسان على قيد الحياة، لأن الضرر الناجم منهم أكبر من الضرر الذي أحدثه برباروسة لأبو حمو»[1].

الحق أن الوقائع التالية تظهر أن عروج لم يبد الأمراء الزيانيين عن آخرهم. فقد استمروا بأعداد كبيرة يتنازعون على الحكم معتمدين بعضهم على الاسبان وبعضهم على الأتراك مع تغيير المواقف تبعا للظروف.

وكما تشير إليه المراسلات المذكورة فقد جاءت مبادرة عروج بتقتيل أمراء تلمسان وقادتها عند شعوره بالخطر داخل المدينة نفسها بينما هو محاصر من طرف الجيش الاسباني وحشود القبائل المؤيدة لأبو حمو الذي كان له أيضا أنصار في تلمسان. وقد يكون عروج بالغ في حركة القمع إلى حد ترك أثرا دائما في الذاكرة الجماعية لتلمسان.

أما عن أحداث تونس فإن شاهد عيان[2] يعطي عن ضحايا الثورة داخل المدينة أرقاما أقرب إلى الواقع. وهو جاسوس أرسله شارلكان إلى تونس وشهد

1. Elie de la Primaudaie, « Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1504-1534), lettre d'Oran, 27 Fév. 1518, *RA*, 1875, p.148-153

2. نفس المصدر ص 344 وما بعدها

Scanné avec CamScanner

القتال في الشوارع بين جيش خير الدين والثوار ويتحدث عن حوالي ألفين من القتلى.

وفي 1535 قاد شارلكان جيشا قويا إلى تونس حيث طرد خير الدين منها وأعاد السلطان الحسن إلى عرشه. وترك جيشه ينهب المدينة بطريقة فظيعة. وفي رسالة بعثها من تونس في 23 جويلية 1535 يشرح شارلكان موقفه بهذه الكلمات: «إن برباروسة قد فر. وفي نفس اليوم استولينا على تونس. وبما أن السكان لم يستقبلوا ملكهم كما كان ينبغي عليهم أن يستقبلوه وكما هو حق من حقوقه، فقد رأيت عقابا لهم على عنادهم أن أسمح بنهب المدينة»[1].

حركات شعبية بقيادة دينية

عرفت الفترة الممتدة بين منتصف القرن الخامس عشر ونهاية القرن السادس عشر في المغارب نمو حركات بقيادة رجال الدين لمواجهة الهجمات المسيحية. وفي داخل هذه الحركات عدد كبير من العلماء ورجال الزوايا. وأول مثال على دور العلماء في هذا التصدي الجديد للخطر الخارجي، هو العالم الجزائري الكبير عبد الرحمن الثعالبي. كان رجل علم وتقوى وبعد سنوات من طلب العلم في بجاية سافر إلى تونس والقاهرة والجزيرة العربية وتركيا. ثم استقر في الجزائر متفرغا للتدريس والتأليف. إن دراساته وأسفاره جعلته شديد الإحساس بتطور الوضع الدولي. وكان يتوقع هجوما أوروبيا قريبا على بجاية كرد فعل على استيلاء المسلمين على القسطنطينية. وكان يحث السكان على الاستعداد لمواجهة الخطر، ويذكر بأن هذه الأخطار المحدقة قد أنبأه بها الرسول نفسه الذي رآه في المنام. إن رسالته التي أشرنا إليها سالفا كتبت بعد 1453 وقبل 1471 (سنة وفاته). وهو يذكر أنصاره بتخوفاته من هجوم

1. نفس المصدر ص 495 - 496

Scanné avec CamScanner

المسيحيين على بجاية والمدن الساحلية ويخبرهم أنه بحمد الله قد نجح في إقناع سكان مدينة الجزائر ونواحيها بنصائحه. ويشير عليهم باتخاذ الدروع من الخشب لا من الجلد لأنها أمتن وأكثر فاعلية. إن لهجة الرسالة وشخصية صاحبها وتعدد أنصاره تشهد على أن هناك تعبئة جماهيرية على أسس دينية.

وهذا الغليان بدأ ينمو في كافة الأقطار المغاربية أمام الخطر المسيحي الذي عبر الثعالبي عن الشعور به. فبعد فتح القسطنطينية (1453) أعلن البابا تنظيم حملة صليبية ضد الأتراك. واستجاب له البرتغاليون الذين قاموا بمهاجمة الموانئ المغربية واستولوا في 1458 على القصر الصغير قرب سبتة التي كانت تحت سيطرتهم. وفي 1471 احتلوا أرزيلا وطنجة وعرفت كل مدن الساحل الأطلسي المغربية نفس المصير بين 1505 و1513. واستولى الاسبان من جهتهم على مليلة في 1497. وبعد سقوط غرناطة في 1492 بدا من الواضح أن لهم خطة توسعية في الأقطار المغاربية. واستولوا على أهم الموانئ المغاربية وأخضعوا الأسر الحاكمة في فاس وتلمسان وتونس. وفي هذه الظروف الخطيرة بدأت الحركات الشعبية في الأقطار المغاربية تتحرك لمواجهة الغزاة.

ففي الغرب نظم أنصار الجزولي حركة دينية واسعة الانتشار مهدت لحركة السعديين الذين أحرزوا على انتصارات ضد البرتغاليين فتحت لهم أبواب الحكم. بعد ذلك لم يتردد السعديون في قمع الحركة الدينية الجزولية التي مهدت لهم طرق النجاح كذلك تحالفوا مع الاسبان والبرتغاليين ضد العثمانيين.

وفي القطر التونسي قام الشيخ أحمد بن خلوف الشابي (1431-1492) بتنظيم طريقة دينية تزايدت قوتها في أواخر القرن الخامس عشر. وجاء

Scanné avec CamScanner

بعده ابنه سيدي عرفة الذي أعطى للحركة طابعا سياسيا بمهاجمة الأسرة الملكية الحفصية المتعاملة مع الاسبان، ونجح في تكبيدها هزائم جسيمة رغم مساعدة الجيش الاسباني لها، وفي إقامة حكم شمل أجزاء واسعة من القطر التونسي ومن شرقي الجزائر. وكانت القيروان الحاضرة التاريخية والدينية الكبرى هي عاصمة هذا الحكم الثائر. لكن فيما بعد تنازعوا مع درغوث الذي تغلب عليهم واستولى على القيروان. ولجأ الشابية إلى منطقة توزر حيث بقي نفوذهم السياسي والديني مصدر مشاكل متكررة لحكام تونس والجزائر.

أما في المغرب الأوسط، فإن أحمد بن القاضي كان بشكل ما المواصل والمحقق لمشروع الثعالبي. فقد استجاب آلاف من المقاتلين من وسط وشرق الجزائر لندائه للجهاد ضد الاسبان. وساند بفعالية كبيرة الإخوة برباروسة الذين عينوه واليا على المنطقة الشرقية أي النصف الشرقي من القطر الجزائري التابع لحكمهم. وفي 1519 عينه خير الدين وعلماء وأعيان الجزائر على رأس وفد إلى استنبول لنقل رسالتهم إلى السلطان سليم الأول[1].

إن «غزوات» نفسها تعترف بقيمة أحمد بن القاضي كعالم ورجل دين تقي الخ. ويصفه المؤلفون المعاصرون بأنه بلغ مكانة مرموقة وقوة وشهرة بفضل تزعمه للقوى الشعبية التي نهضت لتحرير بجاية من أيدي الاسبان. وعلى هذا الأساس تحالف مع الإخوة برباروسة. وليس لدينا معطيات كافية تلقي الضوء على أسباب نزاعه مع خير الدين هذا النزاع الذي أدى إلى طرد خير الدين من الجزائر وتولى أحمد بن القاضي الحكم فيها في بداية عقد العشرينيات. وبعد سنوات قليلة استعاد خير الدين الحكم في مدينة الجزائر وجابه قوى ابن القاضي والحفصيين المتحالفة وهزمهم وانتهى الأمر بمقتل أحمد بن القاضي

1. انظر عبد الجليل التميمي، «أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519»، م ت م، عدد 6، جويلية 1976، ص 116 - 120.

Scanné avec CamScanner

في إحدى المعارك. واستمرت أسرته تحكم منطقة جرجرة وتتبع سياسة متقلبة مع الأتراك والاسبان. لكن نفوذها صار محصورا في منطقة جبلية ضيقة وفي ظروف جعلتها تعترف بتبعيتها لحكام الجزائر.

من هذا العرض الوجيز يمكن أن نستخلص بعض الثوابت التي طبعت أهم الحركات السياسية-الدينية في الأقطار المغاربية:

- إنها جندت الجماهير ضد العدوان الخارجي المسيحي في إطار غير الإطار التقليدي الذي تتحكم فيه الأسر الملكية. وهكذا ساهمت في زعزعة الأسس التي كانت تضمن استمرار النظم التقليدية.

وقد وصلت هذه الحركات إلى الحكم في مجموع الأقطار المغاربية واتسمت ممارستها للسلطة بخصائص أثبتت وجود ظاهرة سوسيولوجية متكررة. فبعد الاندفاع الأولي المتميز بقوة الوازع السياسي-الديني، تظهر آثار تولي الحكم ومتطلباته وتهبط شعلة الحماس لتخلفها العادات المرتبطة بما تمنحه السلطة من ميزات وتمتع بخيرات الدنيا. وهكذا تبرز نفس العيوب التي كانت تطبع الحكام السابقين والتي أدت إلى الثورة عليهم، ويتضح للعيان أن الحكام المنبثقين من هذه الحركات هم أيضا تتحكم فيهم النعرات القبلية وحب السلطة والطموح الشخصي ومحاباة الأقارب، الخ. إن خيبة الأمل وغيرها من العوامل، تدفع أجزاء كبيرة من أنصار هذه الحركات في المدن والأرياف إلى التخلي عنها.

هل كان هذا التطور نتيجة للتناقضات داخل هذه الحركات أم هو يعود إلى نقص النضج السياسي لدى زعمائها بالمقارنة مع شخصيات من طراز خير الدين ودرغوث؟ ولنذكر مثلا أنه في بعض الأحيان تحالف زعماء هذه الحركات مع المسيحيين ضد خير الدين ورفقائه الذين بقوا على الدوام أعداء صامدين في وجه الاسبان والبرتغاليين.

Scanné avec CamScanner

وفي قيادة هذه الحركات يجب ألا نهمل العامل الشخصي. أما قاعدتها القبلية فقد كانت تتعرض لمواقف من النوع التالي: في المعركة التي قادها عروج وأحمد بن القاضي لتحرير بجاية، بعد انتصارات محدودة ضد الاسبان، سقطت أمطار غزيرة في بداية الخريف قرر على إثرها آلاف المقاتلين أن يتركوا الميدان ليسارعوا بحرث أراضيهم. هذه الحادثة التي يرويها هاييدو[1] تبعا لشهادات بعض الأتراك المسنين في الجزائر، تتوافق مع الظاهرة الملاحظة بشكل واسع والتي تخص الانفجارات الشعبية التي تصعد بسرعة حتى تبلغ قوة هائلة ثم تنطفئ بنفس السرعة.

تلاحظ هذه الظاهرة كذلك في الحركة الشابية. إن العدد والاتساع والقوة التي بلغها تجنيد التنظيمات القبلية والطرقية خلف الحركة الشابية شيء باهر. فقد كانت وراءها قبائل الحنانشة وأولاد سعيد ودريد والهمامة والطرود وأولاد مهلهل والنمامشة والحراكتة والنبايل، الخ[2]. ونفوذ هذه القبائل كان يغطي وسط وغرب القطر التونسي ويمتد إلى مناطق الجزائر الشرقية من البحر إلى الصحراء. مع ذلك استطاع درغوث ببضعة آلاف من الجنود أن يهزم هذه الحشود القبلية التي كانت تجمع أحيانا عشرات الآلاف من المقاتلين. ولم يكن جيش درغوث أشجع منهم. فهي قبائل معروفة ببسالتها ولكن تنظيم درغوث كان يتمتع ببعض التجديدات السياسية والعسكرية التي سنتحدث عنها فيما بعد.

الأندلسيون

جاءت هجرة الأندلسيين إلى المغارب على إثر الاجتياح الاسباني لمناطق الأندلس. فمنذ القرن الثالث عشر مع سقوط الباليار وبلنشية ومرسية وقرطبة

1. Diego de Haëdo, *Histoire des rois d'Alger*, trad. H. de Grammont, P., Ed. Bouchène, 1998, p. 29

2. علي الشابي، مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية، م ت م، عدد 13 و14، جانفي 1979، ص 55 - 81.

Scanné avec CamScanner

واشبيلية توالت هذه الهجرات نحو المراكز البحرية المغاربية. وكانت طلبات النجدة الأندلسية تتكرر ورغم بعض الانتصارات المؤقتة فإن المساهمة المغاربية في نجدة الأندلس لم توقف الخطر. وبدأ ينمو عند الأندلسيين شعور عبر عنه الكاتب الكبير ابن الخطيب (1313-1374) الذي رسم لوحة مليئة بالتشاؤم عن غرناطة ومصيرها وتحدث فيها عن الأندلس كأمة غريبة مقطوعة عن الكل[1]. إن نكبة الأندلس بقيت كصدمة نفسية أخذت صورة الحنين إلى الفردوس المفقود الذي لم يفتأ الأدب العربي يتغنى به على مر القرون.

جلب الأندلسيون إلى مناطق هجرتهم ليس فقط تقنيات جديدة بل كانوا قبل كل شيء مصدر الشعور العنيف المعادي للاسبان والمتشبث بإرادة استعادة الأرض السليبة. إن دورهم في تنمية القرصنة المغاربية ابتداء من القرن الرابع عشر ما زال مجهولا إلى حد كبير لغياب الدراسات المعمقة حول الموضوع. لكن من المعروف أنهم جعلوا من بعض الموانئ مثل شرشال وبرشك قواعد بحرية أندلسية كان لها دور مهم في القرصنة.

ومع مجيء أسطول كمال رايس الذي أرسله بايزيد الثاني في 1486 لنجدة الأندلس، بدأ التعاون المتين بين الأتراك والأندلسيين. وبعد سقوط غرناطة في 1492 وفشل ثورة 1499 وقرار الاسبان بإجبار المسلمين على التنصر، قرر عدد كبير منهم الهجرة. وتذكر «غزوات» أن سفن خير الدين نقلت 70 ألف منهم إلى الديار المغاربية. ومهما كانت صحة الأرقام فالمؤكد أن مساندة الأندلسيين لخير الدين وخلفائه كانت ذات أهمية كبيرة. يذكر المهدي البوعبدلي في مقدمته الطويلة المدعمة بكثير من الوثائق الأصلية النادرة لكتاب الثغر الجماني[2] قصيدة للعالم الديني محمد التواتي يدعو فيها المسلمين إلى الجهاد

---

1. انظر A. de Prémare, «*Maghreb et Andalousie au XVe siècle*», éd. Univ. De Lyon, 1981, p. 74.

2. أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية، الجزائر، 1973، ص 15-16.

ضد الاسبان والاعتماد بالأخص على الأندلسيين لأن لهم خبرة بالحرب وقوة شكيمة في الفتك بالاسبان.

وحسب مراسلة اسبانية[1] من بجاية سنة 1536 كانت القوات التركية في الجزائر تتكون من ألفين من الأتراك و7000 أو 8000 من الأندلسيين. وبعد عشرين سنة ذكر فيليب الثاني للسفير الفرنسي في مدريد أنه يوجد في الجزائر نحو 15000 من الجنود الرماة ببنادق ذلك الوقت المدعوة arquebuses (قربينة) منهم 6000 أندلسي من «الجنود الجيدين جدا».

على العموم قدم الأندلسيون لخير الدين مساندة ثابتة على الدوام. وكما يبينه لويس كارداياك[2] كان الأندلسيون يعتبرون العثمانيين بمثابة الأمل الأخير في استرجاع وطنهم. وقد لاحظ المؤرخون نوعا من التوافق بين ثورات الأندلسيين في اسبانيا وحملات الأسطول العثماني على الشواطئ الاسبانية والبرتغالية. وبشكل واسع كانت التنبؤات تنتشر بين الأندلسيين تعزز اعتقادهم في حملة تحريرية تنطلق من الأراضي المغاربية بعد تحرير بجاية ووهران وسبتة. وكان كل انتصار يحرزه الأتراك على الاسبان يقوي العزم ويخلق دفعة جديدة من النشاط المتحمس لدى هؤلاء المقاومين المصرين على استرجاع بلادهم من أيدي الاسبان.

أما في داخل الأقطار المغاربية الممزقة والتي خيبت آمالهم كما تشهد على ذلك كثير من كتاباتهم المعاصرة فقد نما بين المهاجرين الأندلسيين شعور قوي بشخصيتهم المتميزة الراسخة على الدوام وسلوك جماعي متفرد قائم على التآزر والوحدة المتينة. وقد جندوا قدرتهم على التنظيم والانضباط ومعارفهم

---

1. E. de la Primaudaie, *op.cit.*, *RA*, 1877, p. 85.

2. انظر:

Louis de Cardaillac, « Le Turc suprême espoir des Morisques » in *Actes du 1er Congrès d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*. Univ de T., 1979, t 2, p. 37-46.

وكذلك كتابه الرائع *Morisques et Chrétiens, un affrontement majeur*, P., 1977.

Scanné avec CamScanner

التقنية وخصوصا في صنع الأسلحة النارية وسفن القرصنة، جندوها في خدمة خير الدين. وبفضل صلاتهم بمواطنيهم الذين بقوا في بلادهم ومعرفتهم المباشرة للأرض واللغة والسكان داخل اسبانيا، فقد ساعدوا كثيرا في تسهيل عمليات الأسطول العثماني ضد السواحل الاسبانية والبرتغالية. ومن هذه الزاوية كان دور الأندلسيين لا يقل أهمية عن دور الاتراك والعلوج.

وسواء كان الدافع لديهم أملهم في أن ينجح العثمانيون في تحرير وطنهم أو شعورهم بأنهم أجانب مضطهدون أحيانا في بعض المناطق المغاربية، فإن المكافحين الأندلسيين، ظلوا على نوع من التحفظ والانزواء في الصفوف الخلفية. ورغم أهميتهم العددية والتقنية، فإنهم لم يحاولوا أبدا أن ينازعوا الأتراك والعلوج على السلطة. يلاحظ مثلا أنه بين هؤلاء الأنصار الصامدين مع خير الدين، لم يحتل أحد منهم الصفوف الأولى في المسئوليات إلى جانب المشارقة والعلوج من أمثال درغوث وصالح رايس وحسن آغة وعلج علي، الخ. وحسب معلوماتنا حاليا، لم يبرز أي قبطان أندلسي على رأس الأسطول الجزائري قبل القرن السابع عشر. فهل كانت سياسة الأتراك في استبعاد الأهالي عن مراكز السلطة تمتد إلى الأندلسيين رغم مساهمتهم الجماعية الكبيرة في تكوين جيش عثماني نظامي في الجزائر في القرن السادس عشر؟

ملاحظة أخيرة لتكميل اللوحة، إن الاندلسيين في الأقطار المغاربية مثل أية جماعة بشرية في ظروفهم لا يشكلون دائما وحدة اجتماعية متناسقة. فهم متكونون من عناصر مختلفة لها مستوى نضالي متباين. صحيح أن الانطباع الذي تتركه آثارهم المختلفة يوحي بقوة وعمق إيمانهم بقضيتهم. إيمان ديني ووطني في نفس الوقت، يظهر من خلال مآثرهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر. مثلا في مدينة الجزائر كانت أوقاف الأندلسيين تتميز عن غيرها بأنها في كثير من الأحيان لا ترمي إلى المحافظة على الأملاك بيد الورثة

Scanné avec CamScanner

بل لها هدف مباشر ومرجع أولي ديني-وطني في خدمة مجموع الأندلسيين.

قوة العقيدة إذن حيث تتداخل فيها المشاعر الدينية وإرادة استرجاع الوطن السليب والانتقام من عدو كان يبدو لهم خائنا للعهود المبرمة وشديد القسوة والطغيان الشرس. تلك كانت في خطوطها الكبرى مواقف الأندلسيين إزاء الاسبان. مع ذلك لم تنعدم الأحداث التي تشير إلى اتجاهات أخرى. مثلا كان آلاف منهم يفضلون العودة إلى بلادهم على البقاء في المهجر رغم خطر التنصير الإجباري. وما أكثر الأندلسيين الذين فضلوا البقاء في وطنهم واستعمال التقية لمواجهة التنصير الإجباري وعاشوا حياة الذل والعسف والاضطهاد ولكنهم لم يغادروا وطنهم. وكم كتب العلماء والفقهاء من نصوص تدين «من تغلب على وطنه النصارى ولم يهاجر». ويجدر أن نذكر هنا أنه في تلك الفترة كان عدد من سكان الأقطار المغاربية، من بينهم أمراء وشيوخ قبائل تحالفوا مع الاسبان وانتهوا إلى اعتناق المسيحية. ومن جهة أخرى كان من بين عشرات الآلاف من الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام في أقطار المغرب والمشرق، في ظروف تماثل أحيانا في فظاعتها الظروف التي سلطت على المسلمين في اسبانيا، كان كثير من العلوج اختاروا عن طواعية، لكن بدوافع لم تكن دائما مرتبطة بقوة المعتقد وصفائه، أن يقتحموا المغامرة الكبرى في خدمة الإسلام.

Scanné avec CamScanner

الفصل الثالث

قوى المواجهة

2. الرياس والانكشارية

مر قيام الحكم العثماني في المغارب بمرحلتين. الأولى كانت من صنع رياس البحر (1512-1533) والثانية (1534-1574) تمت بيد الانكشارية الذين أعطوا للإيالات المغاربية أسسا متينة دائمة.

وقبل الدخول في تفاصيل هذا التطور، يبدو من المفيد توضيح بعض النقاط حول هذين الركنين من أركان الحكم العثماني في المغارب، وهما الرياس والإنكشارية. إن هايدو أشار أحيانا إلى قيام نزاعات ظرفية بين الفريقين في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وانطلاقا منها فسر دي غرامون كل تاريخ الجزائر في العهد العثماني بالصراع بين الرياس (وهم عموما علوج حسب المؤلف) والإنكشارية «الأتراك».

في الواقع أن العلوج لم يكن عددهم كبيرا بين رياس البحر إلا فيما بين أواخر القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر. وكانوا كذلك منتشرين بكثرة بين الإنكشارية. وابتداء من القرن الثامن عشر صاروا أفرادا قلائل لهم دور ضئيل.

إن عوامل الصراع على الحكم متعددة. ولا يمكن تحديدها إلا بالتمييز بين الفترات حسب نوعية العناصر التي لها الدور الرئيسي فيها.

Scanné avec CamScanner

رياس بمسئوليات متنوعة

في كلتا الفترتين كانت نواة الحكم متكونة من رجال هم في الأصل رياس ولكنهم تحولوا إلى قادة سياسيين وعسكريين يقودون العمليات في البر والبحر. تلك كانت حال الإخوة بربا روسة ورفقائهم ونوابهم (قارة حسن، محي الدين رايس، درغوث، صالح رايس، سنان رايس، حسن آغة، حسن بن خير الدين، حسن قورصو، علج علي، الخ). ويلاحظ أنه بين العناصر القيادية المذكورة في هذه القائمة لا يوجد سوى ثلاثة علوج هم حسن آغة وحسن قورصو وعلج علي. وكلهم تولوا قيادات عسكرية ومدنية قبل أن ينتقلوا إلى مسئوليات أخرى. ولهذا فإن الفصل النهائي بين رياس وانكشارية في هذه الفترة ليس له معنى في مستوى القيادة. وحتى في القاعدة لم يكن هذا التمييز بسيطا في البداية لأن رفاق عروج وخير الدين من الأتراك والمشارقة والعلوج كانوا يخوضون معارك برية وبحرية على السواء. وكان معظم الطاقم القتالي داخل السفن الحربية يتكون من جنود سحبوا من الجيش البري للقيام بعمليات على سطح البحر. ومنذ البداية كان هناك إنكشارية داخل الأسطول العثماني. تذكر پالميرا بروميت[1] مثلا أنه في سنة 1495 أعطى بايزيد الثاني لكمال رايس 300 انكشاري صبهم في طاقم أسطوله كما أن السپاهية (الفرسان الصبايحية) كانوا مجندين داخل الأسطول في الحرب بين العثمانيين والبنادقة (1499-1502).

يجب كذلك توضيح نقطة التباس أخرى في الكتابات الغربية حول الرياس والقراصنة، ولهذا الغرض يكفي ذكر بعض الأمثلة: كان كل الرياس الأتراك الذين لهم صلة بالمغارب يوصفون بأنهم قرصان. وفيما يخص كمال رايس تقول

جهاد

1. Palmira Brumem, *Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery*, State Univ. of N. Y. Pr., 1994, p.218

Scanné avec CamScanner

پالميرا پروميت بحق أن نعته بالقرصان هو «موقف غير لائق ومضلل»[1]. وتذكر بهذا الصدد قصة حصلت لتاجر مسيحي من مدينة پيرا التقى بأسطول كمال رايس في 1501 وأظهر له جواز مروره. واستقبله كمال رايس بعطف وقال له « هذا الجواز مقصود بيانه للقرصان. أما أنا فلا أهاجم السفن التجارية». وتذكر أيضا سيرة سيد علي رايس مؤلف «مرآة الممالك» الذي قاد تشكيلة من الأسطول العثماني أثناء فتح جزيرة رودس في 1522. وكان أبوه وجده من الضباط البحريين وشارك هو شخصيا في عدة حملات بحرية وتخصص في العلوم البحرية والجغرافية مثل معاصره پيري رايس المؤرخ والجغرافي الذي رسم خرائط العالم المعروف آنذاك وكان كذلك من قادة الأسطول العثماني. كما تذكر معاصره حيدر رايس المدعو نيقاري المولود في استنبول في حوالي 1492 ومات سنة 1572. وكان كذلك من ضباط البحر وعمل كرايس تحت قيادة خير الدين برباروسة وصار فيما بعد قائد أسطول. وكان مؤرخا وأديبا. وكان منزله مقر اللقاءات الدورية المنتظمة بين النخبة المثقفة في استنبول. ألف كتابا عن حياة سنان رايس على طريقة «غزوات». ولكن الذي أعطاه شهرة خالدة هو براعته الفنية كرسام: « إن كل عمله الفني يتلخص في ثلاث لوحات تعتبر روائع فنية رسم فيها صور خير الدين باربروسة وسليمان القانوني وسليم الثاني. وفيها أناقة راقية تصور الشخصيات الثلاثة بطرق مختلفة تجعل كل واحد منهم يعبر بكثافة عن شخصيته»[2].

إننا هنا أبعد ما نكون عن الصور الكاريكاتورية التي تعطيها بعض المؤلفات عن «لصوص البحر الأتراك والبربريسك».

---

1. المصدر السابق، ص 103 - 105
2. Jean- Paul Roux, « L'art ottoman » in R. Mantran, dir., *L'Empire ottoman*, Paris, Fayard, 1989, p. 680.

Scanné avec CamScanner

صحيح أن كمال رايس والإخوة برباروسة ودرغوث وغيرهم من رياس هذه الفترة كانوا قراصنة في البداية. لكن بعد ذلك اندرج نشاطهم في إطار رسمي حيث تولوا مسؤوليات متعددة (سلطان الجزائر، قائد الأسطول، بيلرباي، الخ). ولهذا فإن بروميت محقة في رفضها لأوصاف متأثرة بعقليات ومساجلات الماضي البعيد. أوصاف وصور زائفة لا تسمح بوضع الأمور في ظروفها الملموسة وتقدير مكانة وميزات وعيوب وأعمال الأشخاص في إطارها الزمني.

أوائل الرياس

من هم هؤلاء القادمون الجدد إلى جزيرة المغرب؟ كما أشرنا سابقا ظهرت في السنوات الأخيرة عدة دراسات[1] وضعت تجربة الإخوة برباروسة في إطار الحملات البحرية العثمانية الرسمية وغير الرسمية التي جاءت لمساندة الأندلسيين والمغاربة المهددين بالغزو المسيحي.

كمال رايس

أشهر الرياس العثمانيين الذين سبقوا برباروسة إلى المغرب هو كمال رايس، خال پيري رايس. وكان على رأس أسطول جال في غربي البحر المتوسط في سنوات 1480 وشن هجومات على الاسبان والبرتغاليين باتصال مع المغاربة والأندلسيين. وجعلته مآثره شهيرا عند المسلمين والمسيحيين. استدعاه بايزيد الثاني وعينه على رأس تشكيلة رسمية من الأسطول العثماني وأرسله سنة 1486 لنجدة الأندلس كما أسلفنا. وذاع صيته في الحرب ضد البندقية (1499-1502) وعاد إلى المغرب حيث قاد عدة حملات ضد الشواطئ والجزر الاسبانية والإيطالية في 1505-1508. وفي هذه الفترة حسب قول پاولوجيوڤو

1. انظر بالأخص كتب ودراسات ألسين و ج-ل. باكي ڭرامون وپالميرا برومت وعبد الجليل التميمي وسوجك وڤاتن وڤينشتاين وهس وپيرا اسپموس. وكثير من هذه الدراسات نشرت في المجلات الآتية، *AO* و*AHROS* و*REMM* و*RHM* و *Turcica*

Scanné avec CamScanner

(1483-1552) الذي استشهد به المؤرخ سڤات سوجك، ربما كان الإخوة برباروسة من مرافقيه في بعض حملاته. كما كلف كمال رايس بتطهير بحر إيجة من لصوص البحر المسيحيين والمسلمين ومن أهمهم فريق كان على رأسه قارة درموش. وقد اعتقل هذا الأخير وشنق في 1503. وفي الصفحات التي كتبها پيري رايس عن خاله كمال رايس، يتحدث عنه بكثير من الإجلال الذي بلغ أحيانا حد التقديس.

وفي هذه السنوات اشتهر قرصان تركي آخر هو مصلح الدين كردغلو بفضل حملاته المنطلقة من الموانئ المغاربية. وكانت قاعدته بنزرت حيث استقر بترخيص من السلطان الحفصي. وتذكر «غزوات» أنه كان مع محي الدين رايس يملكان 14 سفينة قرصنة في حين كان خير الدين يملك سبع سفن وكان لتونس سبع سفن أخرى. وكان هذا الأسطول المتألف من 30 سفينة يقوم بحملات مشتركة. وفي 1516 كاد كردغلو أن يستو على البابا في إحدى غزواته على الشواطئ الإيطالية. وفي 1513 استدعاه سليم الأول للمشاركة في الحملة على مصر. وعلى رأس 36 سفينة كان نصفها تقريبا من القوادس (galères) سافر إلى مصر حيث استقبله السلطان العثماني في مدينة القاهرة. ثم رجع إلى بنزرت واستدعي من جديد في 1522 للمساهمة مع الأسطول العثماني في الحملة التي قادها سليمان القانوني لفتح جزيرة رودس.

وقبل فتح العثمانيين لمصر كان الرياس الأتراك يساعدون سلاطين مصر المماليك في الحرب ضد البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي. مثلا سليمان رايس الذي كان قرصانا في السابق عين على رأس تشكيلة من عشرين قادسا لحراسة الشواطئ التابعة للمماليك. ذلك أن غارات الأساطيل المسيحية لم تكن تقتصر على السواحل المغاربية بل تجاوزتها إلى السواحل المشرقية على ضفاف البحر الأحمر والمحيط الهندي.

Scanné avec CamScanner

لم تكن الموانئ المغاربية مكتوفة الأيدي، ففي كل قاعدة منها سفن قرصنة تبلغ ما بين 10 و 15 قادسا وعدد مقارب منها من الغليوطات وغيرها من السفن المتوسطة والخفيفة. وفي هذا الجو العام يندرج قدوم الاخوة بربروسة الى الموانئ المغاربية.

الأخوة بربروسة[1]

تبعا لأبحاث سفـات سوجك وغيره من المؤرخين الأتراك الحاليين، يميل أهم المتخصصين في الدراسات العثمانية إلى ترجيح كون الإخوة بربروسة من أصل تركي لا من أصل مسيحي وأن أباهم كان جنديا في حامية مدلي حيث استقر بعد أن شارك في فتح هذه الجزيرة وتزوج امرأة مسيحية وكان لهما في حوالي عقد 1470 أربعة أطفال هم إسحق وأروج (عروج) وخضر (خير الدين) وإلياس. قتل إلياس في معركة بحرية. وبعد مغامرات متنوعة استقر عروج في جربة في حوالي 1512-1513 كقرصان والتحق به شقيقاه. وقد بالغت «غزوات» في تضخيم مآثرهم البحرية وسارت على منوالها المصادر الأروبية في القرن السادس عشر التي ساهمت كثيرا في صنع أسطورتهم. لكن في هذا المجال تعتبر الأساطير نفسها عنصرا مهما لا يجوز إهماله، ذلك أن المجد الذي فتح لهم طريق الحكم هو نتيجة مشتركة لمآثرهم الحقيقية وللأصداء المضخمة التي راجت عنها بين الجماهير والتي زاد في مفعولها الرمزي شعور اليأس والإحباط السائد في الأوساط المغاربية والأندلسية المهددة في جوهر وجودها والمتطلعة إلى البطل المغيث.

لن نبحث هنا بالتفصيل كل العمليات التي سجلتها «غزوات». لكن أهميتها

1. كلمة بربروسة وهي كلمة أروبية معناها اللحية الصهباء. كانت تطلق أولا على عروج كما تثبت ذلك المراسلات الاسبانية المؤرخة في سنوات 1517 - 1518. لكن خير الدين ايضا كان ينعت بها ونظرا لاشتهار هذا الوصف تبناه خير الدين نفسه والأتراك من بعده حيث يسمونه خير الدين بربروسة. ويقال أيضا عن مجموع الإخوة بربروسة.

Scanné avec CamScanner

الأساسية تظهر في نتائجها الفعلية. فقد أدت إلى تشكيل أسطول وموانئ وترسانات تبنى فيها السفن من أكبر أنواع القوادس أو الأغربة إلى بقية أنواع السفن المتوسطة والخفيفة وإلى تكوين جيش نظامي قوي ونمو قواعد وعواصم سياسية لها تاريخ مشهور. وأدت في النهاية إلى قيام دول تتبعها كيانات قطرية ثم توسيعها وترسيخها فيما بعد بواسطة القوات العثمانية.

إن الإخوة بربروسة، وقد سبقتهم شهرتهم، جاؤوا إلى المغرب الأوسط كسند للمقاومة التي كان يقودها أحمد بن القاضي بالأخص ضد الغزو الاسباني واستقروا في جيجل وشاركوا في هجومين على بجاية فيما بين 1514 و1515. ومن هنا استنجد بهم سكان مدينة الجزائر في 1516 حيث استولى عروج على السلطة وبويع كسلطان الجزائر. وهكذا بدأت عملية تشكيل الكيانات القطرية العثمانية في المغارب. وحول صلات عروج بالقراصنة الأتراك العاملين في الموانئ المغاربية، ما تزال كثير من النقاط غامضة رغم تقدم الدراسات حول هذا الموضوع في السنوات الأخيرة، ولهذا نكتفي هنا ببعض الملاحظات الموجزة.

إن البروز الساطع للإخوة بربروسة ألقى نوعا من الظل على بعض الرياس الكبار سواء كانوا قراصنة مستقلين أو من رفاق كمال رايس والإخوة بربروسة. مثلا هل براق رايس المذكور من بين القراصنة العاملين في المغارب هو نفس براق رايس الذي يصفه حاجي خليفة بأنه كان قائد الأسطول وكان من أتباعه كمال رايس وقارة حسن رايس؟ وقارة حسن[1] هذا قد يكون الأول من بين اثنين أو ثلاثة كانوا يحملون نفس الاسم. وكان يملك ثلاثة سفن قرصنة من

---

1. حول هؤلاء القرصان الأوائل ، فيما عدا كتاب حاجي خليفة «تحفة الكبار» السابق الذكر انظر: Nicolas Vatin, *L'ordre de Saint-jean de Jérusalem, l'empire ottoman et la Méditerranée orientale entre les deux sièges de Rodhes, 1480-1522*, éd., Peters, Louvain- Paris, 1994.

Scanné avec CamScanner

نوع السفن الشراعية المسماة« fustes » (فوستة) في 1497 والتحق بالسلطان في 1498 ومات في 1499. وهذا القرصان الملتزم بالشرعية هو شقيق لص البحر الشهير قارة درموش الذي سبق ذكره. وكان هناك قارة حسن آخر له سفينتا قرصنة سنة 1506 وثلاث سفن سنة 1513. فهل هو نفس الشخص الذي تذكره «غزوات» من بين القراصنة العاملين في المياه المغاربية برفقة الإخوة بربروسة والذي كان له دور كبير في أحداث هذه السنوات؟ فقد اختاره الأندلسيون كقائد لهم في شرشال وهي قاعدة بحرية كان لها آنذاك دور في الغزو البحري وأسطول متكون من سفن قرصنة من نوع الغليوطات الخفيفة. وحسب «غزوات» كان قارة حسن قد عينه خير الدين على رأس الناحية الغربية وتحالف مع أحمد بن القاضي الذي كان على رأس الناحية الشرقية ونظما ثورة ضد خير الدين أدت إلى طرده من مدينة الجزائر ولجوئه من جديد إلى جيجل. لكن فيما بعد هزم الثائران وقتلا.

ومن الرياس المعروفين في هذه السنوات، نذكر محي الدين رايس وهو فيما يبدو رايس آخر غير محي الدين پيري رايس السابق ذكره، وشعبان رايس وصادق رايس ومراد آغة ويوسف رايس وأيدين رايس المعروف في الغرب باسم كاشيا ديابولو (رعب الشيطان). أما أشهر رفاق بربروسة وهم سنان رايس ودرغوث وصالح رايس فسنعود إليهم مرارا.

وتبعا للمعطيات المتوفرة يلاحظ تنوع الأصول الاجتماعية والإثنية واختلاف المسارات والمواقف عند هؤلاء الرياس الأوائل. إنهم أتوا إلى المغارب تحت راية الجهاد، فهم يشكلون على هذا الأساس جماعة لها سمات مشتركة. لكن عندما نتمعن في مسارهم الشخصي نلاحظ كيف كان حب السلطة والثروة والشهرة يحتل عندهم مكانا لا يقل عن تعلقهم الثابت بالقضية الكبرى التي جاءوا لخدمتها.

Scanné avec CamScanner

إن الصراعات الداخلية التي كثيرا ما كانت دموية أدت إلى القضاء على البعض لفتح طريق السلطة للبعض الآخر. إن صعود العلوج إلى القمة مع بقاء الشخصيات الأندلسية والمغاربية في الصفوف الخلفية رغم تجربة هؤلاء الفنية وكثرة عددهم، يمكن تفسيره جزئيا بأن الإخوة بربروسة كانوا يتخوفون سياسيا من مكانة هذه الشخصيات عند الأهالي وقدرتها على تجنيدهم وراءها في الصراع على السلطة. وهذا لا يعني أن خير الدين مثلا لم يختر مساعديه ونوابه من بين أكفأ الرياس وأقدر القادة. فمنذ المرحلة الأولى ظهرت مواهب رفاق خير الدين ومقدرتهم القيادية.

وفي هذه المرحلة كانت انتصارات القراصنة تقوي خزينة الحرب وتجتذب عناصر جديدة. وكما قلنا كان إنقاذ آلاف الأندلسيين ونقلهم إلى الأراضي المغاربية له دور كبير في تعزيز القوى المناصرة للعثمانيين. كذلك كانت آفاق الصعود السريع في السلم الاجتماعي نحو مراكز السلطة والثروة والجاه تغري كثيرا من المغامرين الأوروبيين ومن الأسرى المسيحيين إلى اعتناق الإسلام والمشاركة في هذه الملحمة الجماعية. أما رفاق بربروسة من «الأتراك» فالواقع أنهم كانوا من أصول مختلفة (أتراك، يونان، عرب مشارقة، بوشناقية، ألبان، الخ). وأما دور العلوج فسينمو ويترسخ في المراحل التالية كما سنرى ذلك فيما بعد.

عدد المقاتلين: زيادة معتبرة

حسب هاييدو، كان الجنود الأتراك مع بربروسة حوالي الألف في البداية. وكانوا 1100 في الهجوم الثاني على بجاية و1300 في 1516 أثناء الحملة الاسبانية الأولى على مدينة الجزائر في عهد عروج. وفي هذه الحملة قتل أو أسر حوالي 3000 جندي اسباني. صحيح أن العاصفة عرقلت الأسطول الاسباني لكن من البديهي أن المدافعين المسلمين عن المدينة كانوا يعدون بالآلاف. وفي

Scanné avec CamScanner

الحملة الاسبانية الثانية في أوت 1519 فقد الاسبان نحو 5000 جندي. ومن الواضح أن آلاف المقاتلين المسلمين في هذه المعركة كان معظمهم من الأهالي والأندلسيين. إن خير الدين الذي أصبح «سلطان الجزائر» كما تنص على ذلك كثير من وثائقه الرسمية، كان يشعر أن وضعه متخلخل أمام غير الأتراك الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في جيشه. وفي نهاية أكتوبر-بداية نوفمبر 1519، جمع أعيان المدينة ودفعهم إلى كتابة رسالة إلى السلطان العثماني سليم الأول تطلب منه المساعدة والحماية. وعين وفدا لحمل هذه الرسالة إلى استنبول وإعلام السلطان بالأوضاع الصعبة والأخطار التي تحيط بالمسلمين في المغارب. وقد سبق الحديث عن ذلك. كان لهذه المبادرة تاثير حاسم على سير الأحداث لأنها الأصل في ضم القطر الجزائري إلى الإمبراطورية العثمانية وفي توالي التدخلات العسكرية العثمانية التي ضمنت استقرار وبقاء الإيالات العثمانية في الجزائر وطرابلس وتونس.

إن خير الدين هو قائد عسكري من أعلى طراز وله حس سياسي دقيق، كان يشعر بضعف موقفه وضرورة ضمان الحماية والسند من طرف السلطان العثماني. ولم يأت هذا السند في صورة مادية وعسكرية بسرعة. ففي السنوات الأولى من العقد 1520 اضطر خير الدين إلى مغادرة الجزائر واللجوء إلى جيجل مدة تقدر بثلاث سنوات على الأقل حيث استأنف عمليات القرصنة. وبعد عودته المظفرة إلى الجزائر كان أهم حادث حاسم هو استيلاؤه في 1529 على الحصن الاسباني المشرف على ميناء الجزائر والذي أقامه الاسبان لمراقبة المدينة سنة 1510. وكان لهذا الانتصار دوي كبير ساهم في تقوية الكتلة المعادية للاسبان. لكن في بداية 1530 كانت قوة خير الدين الأساسية تتمثل في أسطوله المتكون من حوالي 20 قادسا وغليوطة. ولم يزد عدد الجنود الأتراك كثيرا عما كان عليه في السابق. ففي مراسلة اسبانية في 1533 قدر

Scanné avec CamScanner

عدد هؤلاء الجنود بـ 2600 منهم 1200 في مدينة الجزائر. وفي هذه السنة قرر خير الدين السفر إلى استنبول حيث عين كابودان باشا (قائدا عاما للأسطول العثماني) وترك حسن آغة خليفة عنه في الجزائر.

ابتداء من سنة 1534 بدأت الأمور تتغير جذريا بتدخل الأسطول العثماني ومعه الجيش البري في الأراضي المغاربية. ففي هذه السنة جاء خير الدين على رأس 84 قادسا لطرد السلطان الحفصي الحسن المتعاون مع الاسبان من تونس؛ وحسب جاسوس الاسبان السالف الذكر[1] المبعوث إلى تونس كانت قوات خير الدين تتألف من 1800 انكشاري و6500 من مختلف الجنود الأتراك واليونان والألبانيين و600 علوج أكثرهم من أصل اسباني.

هكذا بدأ عهد جديد أصبحت فيه الصراعات داخل الأقطار المغاربية تندرج في إطار المواجهات الكبرى بين العثمانيين والاسبان. وأصبحت تدخلات هذه القوى العملاقة لها مستوى آخر. ففي 1535 غزا شارلكان تونس بأسطول مكون من 400 سفينة وجيش بلغ عدد الجنود المشاة فيه25000. وفي سنة 1541 قاد شارلكان حملة على مدينة الجزائر بعمارة « تتألف من 516 سفينة من بينها 65 قادسا.وعليها12330 بحارا و23900 جنديا. إنه جيش يعد من أكبر جيوش القرن السادس عشر شارك فيه عدد كبير من نبلاء اسبانيا وألمانيا وايطاليا»[2].

في سنة 1557 هاجم سلطان فاس مدينة تلمسان التي كان يدافع عنها القائد التركي صفا. ومشى حسن باشا بن خير الدين لنجدته بـ 6000 من رماة البنادق ذات الفتيلة (mousquets) من الأتراك والعلوج و16000 من الأهالي. وغادر جيش فاس المدينة عندما علم بقدوم حسن باشا الذي واصل سيره حتى بلغ أسوار فاس.

---

1. انظر E. de La Primaudaie, *op.cit.*, *RA*, 1875, p. 266-267

2. H. de Grammont, *Histoire…*, *op.cit.*, p. 68

Scanné avec CamScanner

تقريبا بنفس القوات التي انضمت لها حامية تلمسان وبالأخص حشود كبرى من فرسان القبائل، خاض حسن باشا معركة مازغران الشهيرة في سنة 1558 حيث قتل القائد الاسباني ألكوديت وأسر ابنه ونائبه، و«سقط أكثر من 12000 جندي اسباني بأيدي المنتصرين»[1].

وبعد عشر سنوات، حاول علج علي بيلرباي الجزائر أن يحرر وهران والمرسى الكبير بجيش فيه 14000 من رماة بنادق الفتيلة وعدد كبير من المقاتلين من الأهالي. ولمساندة ثورة الأندلسيين في اسبانيا أرسل علج علي أسطولا محملا بالجنود والأسلحة. لكن عاصفة قوية شتت الأسطول واستطاع 4000 جندي اللحاق بالثوار الأندلسيين[2].

وفي جربة في 1560 كانت العمارة الاسبانية تتألف من 12000 جندي و45 قادسا و35 سفينة شراعية كبرى من نوع بوارج ذلك العهد التحقت بهم 8 قوادس أخرى. وهزمت هذه القوى من طرف الأسطول العثماني المتكون من 74 قادسا كبيرا و8000 انكشاري بقيادة الأميرال پيالي باشا ومشاركة جيش درغوث المتكون من «800 رماة بنادق الفتيلة و200 فارس و10000 من المقاتلين من الأهالي»[3].

وفي 1573 هاجم دون جوان[4] تونس بعمارة مؤلفة من 107 قادسا و31 سفينة شراعية كبرى و27.500 جنديا. وفي السنة التالية جاء الأسطول العثماني بقيادة علج علي الذي عين كابودان باشا بعد معركة ليپانت في 1571، ومعه جيش بقيادة سنان باشا لتحرير تونس. وكانت هذه القوة متكونة من 250 قادسا و40 سفينة نقل و60.000 مقاتل[5].

---

1. F. Braudel, *La Méditerranée...*, *op.cit*, t II, p. 284
2. نفس المصدر ص 366 و H. de Grammont, *Histoire...*, *op.cit.*, p.102
3. H. de Grammont, *Histoire...*, *op.cit.*, p.93
4. نفس المصدر ص 110
5. نفس المصدر ص 111

Scanné avec CamScanner

وكلما استقر الوضع كان معظم الجيش العثماني ينسحب لكن القوى المتبقية كانت في كل مرة أهم من السابق. ففي إيالة تونس بقي ما بين 3000 إلى 4000 انكشاري بعد تحريرها نهائيا من الاسبان في 1574. وفي إيالة الجزائر في نفس الوقت كان عدد الإنكشارية يقدر بحوالي الضعف أو أكثر. وتزايد هذا العدد كثيرا في السنوات التالية. ففي مختلف فترات القرن السابع عشر كان المؤلفون الأوروبيون يقدرون عددهم بين 5000 و6000 في مدينة الجزائر. أما في مجموع الإيالة فيقدرهم لوجي دي تاسي بحوالي 12000 في سنة 1720. وهو رقم أكدته الدراسة العلمية المتينة التي قام بها جون دوني وسبق ذكرها. فمن هذه الفترة وجد في سجلات الجند بمدينة الجزائر عددا إجماليا هو 11.897. وسينخفض عددهم كثيرا خلال القرن الثامن عشر والعشريات الأولى من القرن التاسع عشر مؤشرا إلى غروب الهيمنة العثمانية.

مع أن بعض هذه الأرقام مجرد تقديرات تقريبية، فإنها تبرز الدور القوي لتدخل القوات العثمانية البرية والبحرية في الإيالات المغاربية بين 1534 و1574 مما أدى إلى ترسيخ ودوام هذه الإيالات. أما في إيالة الجزائر بالأخص رغم أن الأسطول والجيش العثماني لم يكن لهما أي دور مباشر في قيام هذه الإيالة واستقرارها، فإن تجنيد الانكشارية من الأتراك والعلوج كان له دوره المهم. فبينما كانت كثير من المراكز الرئيسية تنتقل من يد إلى أخرى في الفترة الأولى فقد تميزت الفترة الثانية باستقرار حاميات عسكرية مكونة من الانكشارية في الموانئ وفي كثير من المدن الداخلية. وكانت هذه الحاميات قوية التنظيم حسنة التدريب ومسلحة بالبنادق والمدافع حتى في أصغر المراكز والبروج. وهكذا كانت الركيزة الأساسية للسلطات الجديدة كفئة مغلقة لها امتيازات خاصة وتمارس السيادة الجماعية على البلاد وتشكل المصدر الدائم للسلطة المركزية.

Scanné avec CamScanner

وبهذا المعنى كان ضم الإيالات المغاربية للامبراطورية العثمانية هو جزئيا نتيجة للفتح العسكري. جزئيا فقط لأن القوى المتكونة من الأهالي كان لهم دور أساسي. وقد رأينا فيما سبق الأهمية العددية للرماة الأندلسيين. ومنذ هذه الفترة وطوال العهد العثماني كانت هناك أيضا وحدات عسكرية منظمة ومأجورة تدعى زواوة التي أعطت زواف zouaves بالفرنسية. وهي من منطقة زواوة التي كانت حسب ابن خلدون تمتد من بجاية إلى دلس.

جوهريا استطاعت الحركات الشعبية الكبرى التي نهضت لمقاومة الغزو الاسباني أن تجبر السلطات الجديدة على ترك أجزاء كبيرة من الحكم المحلي بيد عائلات الشخصيات القيادية التي برزت في هذه المقاومة. وسواء كانت قاعدة الحكم المحلي قبلية أو إقليمية أو دينية، فقد استطاع أصحابه أن ينتزعوا من الانكشارية تنازلات كبيرة تمثلت في نظام السلطة المزدوج مع تحديد مسئوليات واختصاصات متميزة لكل من الطرفين.

Scanné avec CamScanner

الفصل الرابع

الحرب والقرصنة في زمن بربروسة
1546 - 1512

المرحلة المغاربية

لنعد إلى التمييز الذي أقمناه سابقا بين ما قبل وما بعد 1533.

منذ وصول الإخوة بربروسة إلى جربة وتونس (حوالي 1512) إلى حين ذهاب خير الدين إلى استنبول في 1533، لم يكن لنشاط القراصنة المسلمين في المغارب علاقات عضوية مع الأسطول العثماني الرسمي. صحيح أن هذا الأخير كان في بعض الأحيان يطلب مشاركة هؤلاء القراصنة كما حدث عند فتح مصر ورودس.

في هذه المرحلة الأولى لم تكن القرصنة موحدة بل كانت عبارة عن مغامرة فردية. إن كبار القراصنة الذي نجحوا في تكوين تشكيلة من السفن تحت قيادتهم كانوا في الواقع يجمعون حولهم شخصيات مستقلة بسفنها وأتباعها ترتبط مع هؤلاء القادة بصورة ظرفية أو مستمرة حسب طبيعة الروابط التي تعقدها فيما بينها.

وكان الوضع يختلف بعد 1533. فالعمليات الكبرى كان يشنها الأسطول العثماني كقوة رسمية منظمة سواء شاركت فيها وحدات القرصان المستقلة أم لا. ولنأخذ كمثال الحملة على تونس في 1534. كان مع خير الدين 84 سفينة كبرى من نوع القوادس منها 18 ملكه شخصيا و5 ملك قراصنة آخرين.

Scanné avec CamScanner

وباعتبار هذه الخصائص نلقي نظرة عامة على أهم أحداث الفترة الأولى.

حول «غزوات»

«غزوات» هي المصدر الرئيسي المباشر فيما يخص تاريخ الإخوة باربروسة وغزواتهم. وحول أهم نسخ «غزوات» بالتركية والترجمات عنها بالعربية أو بمختلف اللغات الأروبية، تقدم دراسة ألدو غالوتا[1] معلومات ثمينة. والترجمة العربية التي نشرها عبد القادر نور الدين[2] في 1934 تعتبر ملخصا جيدا للأحداث التي روتها «غزوات». أما الترجمة الفرنسية التي نقلها سندر رانغ Sander Rang اعتمادا على ترجمة ڤنتير دي بارادي ففيها كثير من الأخطاء والتحريفات التي أشار إليها عدة مؤلفين.

وفيما يخص رواية «غزوات» للأحداث، لن ندخل هنا في نقد متمحص لكل حادث مروي وهو في حد ذاته عمل مفيد لكن يتجاوز إطار هذه الدراسة. فنكتفي هنا ببعض الملاحظات :

- تأليف «غزوات» كان بقصد التنويه بدور خير الدين. فهو يحمل هكذا طابعا تبريريا وتقريضيا. والأحداث التي يرويها ليست مختلقة لكنها موجهة بطريقة محابية للإخوة برباروسة. فكل الأعمال التي قد تنال من سمعتهم أغفلت أو قدمت بصورة ايجابية. مثلا لم تشر «غزوات» إلى مقتل الشيخ سالم التومي في الجزائر أو إلى مذبحة أمراء وأعيان تلمسان التي دبرها عروج حسب المصادر الأهلية والأروبية على السواء.

---

1. Aldo Gallotta, «Le gazavât di Hayreddîn Barbaroussa », *in Studi Magrebini*, III, Napoli, 1970, p. 85-160.

2. غزوات عروج وخير الدين، نشر عبد القادر نور الدين، الجزائر، 1934.

Scanné avec CamScanner

- إن أرقام «غزوات» هي على العموم مبالغ فيها. مثلا حملة دييغو دي فيرا على الجزائر في 1516 كانت تضم حوالي 3000 جندي كما تثبته الوثائق الاسبانية المنشورة في ملحق غومارا المذكور سابقا وليس 15000 كما تزعم «غزوات». كذلك كان مع منتادا في هجومه على الجزائر في 1519 حوالي 5000 أو 6000 جندي لا 20.000. ويمكن الاستمرار في ضرب الأمثلة. ولنلاحظ كذلك أن أرقام بعض المؤلفين الغربيين فيها أيضا مبالغات. مثلا هاييدو يقدر عدد جنود دييغو دي فيرا بعشرة آلاف. وفي الحالات التي ذكرناها وأمثالها تعتبر الوثائق الرسمية الاسبانية هي أوثق المصادر.

- رغم انعدام التأريخات في «غزوات» فكون الأحداث مروية حسب تسلسلها الزمني يسمح بشكل تقريبي بتصحيح بعض الأخطاء في تاريخ الأحداث الواردة عند بعض المؤرخين الاروبيين. لكن في هذا المجال عموما تعتبر الوثائق الرسمية سواء منها العثمانية أو الغربية إن وجدت هي العنصر الحاسم. لكنها مع الأسف نادرة عن هذه الفترة.

المصادر الغربية

عند المقارنة بين مختلف مصادر القرن السادس عشر التي استعملها في كتابة تاريخه عن الجزائر العثمانية، يعتبر هنري دي غرامون أن كتاب تاريخ حكام الجزائر لهاييدو هو «أكمل وأصح المصادر التي وصلتنا عن السبعين سنة الأولى من تاريخ الأوجاق»[1]. عن هذه السنوات يشير دي غرامون إلى مؤلفات الوزان وغومارا ومارمول وسواريس. والواقع أن هذه الكتب مثل غيرها من مؤلفات القرن السادس عشر عن هذا الموضوع فيها كثير من الثغرات عن حياة الإخوة باربروسة.

---

1. H. de Grammont, *Histoire..., op.cit.*, p.102 إن دي گرامون هو مترجم كتاب هاييدو إلى الفرنسية بعنوان : Diego de Haëdo, *Histoire des rois d'Alger*, P., Ed. Bouchène, 1998.

Scanné avec CamScanner

ولعل أقدم هذه المؤلفات هو كتاب حسن الوزان[1] (Léon L'Africain) وهو كتاب غني بالمعلومات والمشاهدات المباشرة والملاحظات المهمة عن الأقطار المغربية في بداية القرن السادس عشر. لكنه لا يتحدث عن عروج إلا عرضا.

والمؤلف حسن الوزان هو عالم كانت أسرته الأندلسية استقرت في فاس بعد سقوط غرناطة في 1492. وكلف بمهمة رسمية في مصر. وأثناء سفره مرورا بالمغرب الأوسط في 1515-1516 شارك إلى جانب عروج في معركة بجاية حسبما يروي عن نفسه. وعند الرجوع من مصر أسره قرصان إيطالي أهداه إلى البابا ليون العاشر الذي عمده سنة 1520 وسماه جون ليون الإفريقي. وكان يعرف عدة لغات. وقد كتب «وصف افريقيا» بالإيطالية في 1526. واشتهر المخطوط لما فيه من غزارة المعلومات ودقة الملاحظات واستعمل في أروبا منذ 1529 وطبع في البندقية سنة 1550 ثم ترجم بعد سنوات إلى عدة لغات أروبية منها الفرنسية. والمعلومات التي يحتويها عن بداية الإخوة برباروسة هي على ندرتها شهادات جديرة بالاعتبار والنقد بالمقابلة مع الشهادات والوثائق المعاصرة.

في 1545، ألف الأسقف الاسباني لوبيز دي غومارا (F. Lopez de Gomara) كتابا بعنوان La Cronica de Los Barbarrojas (وقائع الإخوة برباروسة). وكان هذا المؤلف مقربا من كبار شخصيات الحاشية الملكية الاسبانية وعلى اطلاع بسير الأمور السياسية. وهو يعكس الموقف الرسمي الاسباني في ذلك العهد. وأهمية هذا المؤلف تكمن بالأخص في الوثائق الرسمية التي نشرها في الملحق Appendice الذي سبقت الإشارة إليه. ويمكن استكمالها بالوثائق الاسبانية التي نشرها وترجم بعضها لاپريمودي السالف

1. Léon L'Africain, *Description de l'Afrique*, P.,Maisonneuve, 1981, 2 vol.

Scanné avec CamScanner

الذكر والوثائق التي استعملتها ونشرت بعضها شنتال دي لا ڤيرون[1] وبالوثائق العثمانية التي سبقت الإشارة إليها. إن مجموع هذه الوثائق هو الذي يسمح بتصحيح وتدقيق وتأريخ الحوادث بصورة موثقة.

إن افريقية مارمول[2] كما يدل عليها العنوان الاسباني الأصلي هي وصف عام على طريقة كتاب حسن الوزان. وقد اعتمد مارمول كثيرا على هذا الكتاب وكذلك على ملاحظاته الشخصية في عين المكان وجمع بين ما حكاه له الجنود القدماء وما نقله عن الكتب التي سبقته. ولد مارمول في حوالي 1520 وصاحب منذ بداية شبابه القوات الاسبانية في عملياتها بالأقطار المغربية. وقد أسر بالقرب من وهران في 1545 وبقي في الأسر سنوات طويلة تعلم العربية أثناءها. وبعد افتدائه فضل البقاء في المغرب ورافق السلطان السعدي محمد الشيخ في حملاته خصوصا في الجنوب. وأقام في فاس وتلمسان وتونس وعاد إلى اسبانيا في 1564 واعتمد على ذاكرته ومطالعاته في تحرير كتابه. وإذا انطلقنا من الجزء الثاني الذي يتحدث فيه عن المناطق التي تكون منها القطر الجزائري، يظهر أن بعض معلوماته مستقاة من مؤلفات سبقت تكوين القطر الجزائري العثماني. كذلك أرقامه فيها مبالغات وما يذكره عن الإخوة برباروسة فيه أخطاء كثيرة كما لاحظت ذلك شانتال دي لا ڤيرون في مقدمة كتابها السابق الذكر حيث قارنت بين ما يقوله وبين الوثائق الرسمية الاسبانية. لكن أهم وأفضل ما في كتاب مارمول هو وصفه الاجتماعي والإثنوغرافي للقبائل والتشكيلات المغاربية وإن كان يتصف أحيانا بعدم الدقة وينقل من مختلف المؤلفات ومن الحكايات الشفوية دون حس نقدي متعمق.

---

1. Chantal de la Véronne, *Oran et Tlemcen dans la première moitié du XVI*[e] *siècle*, P.,Geuthner, 1983.

2. Luis del Marmol-Carajal, *Descripciòn general de Affrica, Grenade, 1575*, 3 vol., trad. fr. par N. d'Ablancourt, sous le titre de *L'Afrique de Marmol*, P.,1667, 3 vol.

Scanné avec CamScanner

أما دييغو سواريس منتانيس الذي كان عاملا وجنديا بالحامية الاسبانية في وهران في الربع الأخير من القرن السادس عشر، فهو مؤلف كان في البداية شبه أمي، تعلم في كهولته بتكوين عصامي وله كتابان[1] لقيا كثيرا من النقد. ولعل أشد نقاده هي نللي بلوم[2] التي تعتبر أن ما يمكن أخذه من كتابيه هو وصف الأماكن فقط وأنه لا يمكن أن يطلب منه شيء من الدقة الوقائعية. ومنذ بربريغر وديڤو إلى لاڤيرون أخيرا، سلط كثير من النقد على أخطائه في رواية الأحداث وتأريخها. لكن كما يلاحظ بروديل[3] فإن سواريس «يمتاز بحيوية روايته للأحداث التي جرت بين 1567 و1573». وشهادته لها قيمتها فيما يتجاوز الوقائع السياسية والعسكرية. كذلك يأتي بالمعلومات عن السنوات التي عاشها مباشرة في المنطقة الوهرانية لم يرد ذكرها في الكتب الأخرى.

إن هاييدو بالمقارنة مع من سبقوه هو بدون شك أكمل المؤلفين كما يصفه دي غرامون. في الواقع أن كثيرا من معلومات هاييدو عن فترة الإخوة برباروسة تطابق ما جاء في «غزوات» عموما وقد تكون مأخوذة منها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وهاييدو مفيد جدا بما أضافه إلى «غزوات» من معلومات استقاها في الجزائر في 1577-1581 أو من المصادر الغربية المباشرة. وفي كتابه كثير من الأخطاء التي صححها غرامون أحيانا أو نقل عنها كما هي أحيانا أخرى.

ودون التنقيص من قيمة هؤلاء المؤلفين الذين أثروا معلوماتنا عن الموضوع بطريقة أو بأخرى، فإنه يمكن القول بلا تردد أن تجديد معرفتنا لبدايات إيالة الجزائر والظروف التي أحاطت بها يعود إلى العقود الأخيرة. ولا يدخل

1. Diego Suarez Montanèz, Cronica de Oran, trad. fr. de Berbugger *in l'Akhbar d'Alger*, 1864 et Historia de Maestro Ultimo..., dont Casenave a traduit deux chapitres in *BSGO*, 1925.

2. Nelli Blum, *La Croisade du Cardinal Ximenès en Afrique*, Oran, 1896.

3. F. Braudel, *Les Espagnols..., art. cit*, p. 189

في إطار هذا التجديد ذلك العدد الكبير من الكتب الرومانسية عن حياة ومغامرات الإخوة باربروسة. إنها تنقل مكررة نفس «المعلومات» المتداولة بطرق وبنوعية في الكتابة لا تدخل في نطاق اهتماماتنا. إن التجديد التاريخي الحقيقي تم بفضل الفحص الصبور المدقق للأرشيفات العثمانية والغربية من طرف باحثين ذكرناهم وسنعود إليهم مرارا.

قرصان أهالي؟

لنا أن نتساءل لماذا لا تذكر المصادر المعاصرة أي اسم لقرصان من أصول مغاربية أو أندلسية في زمن الإخوة برباروسة. فنحن نعرف من شهادات متنوعة وجود عدد من هؤلاء القرصان في تلك السنوات. وفي المرسى الكبير حسب سواريس[1] كان القرصان المحليون يملكون 12 غليوطة قبيل استيلاء الاسبان على المدينة. وكانوا يشتركون مع قراصنة وهران الذين كانوا أكثر عددا وأقوى عدة لمهاجمة الشواطئ الاسبانية. ويفسر الاسبان تدمير مدينة هنين تدميرا تاما واستعباد كل سكانها بأن هجماتهم على الشواطئ الاسبانية أدت إلى كثير من الخراب فيها. وكان قراصنة شرشال من الأندلسيين كثيرين حسب حسن الوزان[2]. وتذكر «غزوات» أنه حينما كان خير الدين يملك 7 سفن في تونس كان قراصنة تونس لهم أيضا 7 سفن. وكانت بجاية في وسط القرن الخامس عشر تملك أسطول قرصنة قويا « بقيادة محمد بن علي مهدي... واستطاعت الجزائر أن تتجاوز بجاية تماما منذ سنوات 1460. فمن الجزائر أقلع الأسطول الذي هاجم شواطئ توسكانة في 1472 وأنزل قواته في فريجيس في 1475. كذلك هاجمت 16 سفينة من مدينة الجزائر عليها 500 مقاتل قرية سلورا قرب بلنسية وقتلت 30 من السكان وأسرت الباقي»[3].

1. D. Suarez, Mers el –kebir, trd.. fr. de Berbrugger, *RA*, 1875, p. 337
2. Jean Léon L'Africain, *Description...*, *op.cit.*, t II, p. 345
3. Jacques Heers, *Les Barbaresques, op.cit.*, p. 146

بدون شك كانت النشاطات البحرية متعددة والقراصنة كثيرين في الموانئ المغاربية. لكنهم لم يتركوا أصداء قوية ترددها المصادر المتوفرة. وبحث هذا الموضوع يتطلب استطلاع مصادر أخرى قد تكون متوفرة وإن كانت لم تجتذب الأنظار كثيرا حتى الآن. ويمكن أن نلاحظ أن عمليات القرصان المحليين ربما كانت من النوع العادي الذي لا يسجل كأحداث مهمة في أمهات الكتب التاريخية.

قوة بصدد التكوين

سنحاول أن نتابع بالتسلسل الزمني أخبار القرصنة على يد الإخوة برباروسة. وقد ذكرنا سابقا أن تاريخ وصولهم للأراضي المغاربية ليس 1504 كما يردد منذ هاييدو حتى الآن بل في حوالي 1512-1513. إن هاييدو ينسب لهم غنائم في 1504-1505 كان اغتنمها كمال رايس أو غيره من القرصان الأتراك الأوائل. وهاييدو يعتمد على شهادات بعيدة عن الأحداث. وكثيرا ما يتابع خطوة بخطوة رواية «غزوات» للوقائع ويضيف لها تأريخات محددة لم ترد فيها.

يلاحظ على الإخوة برباروسة كما تصورهم «غزوات» أنهم منذ بداية أمرهم اهتموا بأن يكون نشاطهم البحري في إطار شرعي. فقد كان عروج يعمل تحت لواء سلطان مصر المملوكي الذي أعطاه سفينة قرصنة. بعد ذلك عمل تحت سلطة وبسفينة هي ملك للأمير كركد العثماني. وحين هزم هذا الأمير على يد أخيه سليم الذي تولى السلطنة في 1512، ذهب عروج إلى تونس حيث رخص له السلطان الحفصي بالعمل كقرصان في موانيه. وكان محور عمله وعمل إخوته الذين التحقوا به هو مساعدة الأندلسيين. إن إلحاح «غزوات» على هذه الصفة الشرعية والجهادية يهدف بوضوح إلى تمييز هؤلاء «المجاهدين» عن القراصنة الذين كانوا يعملون بشكل فردي مستقل وبطرق

Scanné avec CamScanner

تقربهم أحيانا من لصوص البحر الذين كانوا يعيثون فسادا في مختلف البحار سواء كانوا ينتمون إلى المسيحية أو إلى الإسلام.

كانت بدايات الإخوة بربروسة متواضعة. لكن الغنائم تكاثرت سواء في جربة أو في تونس حيث التحق خير الدين بأخيه عروج ورفاقه بسفينة اشتراها. وذهبوا معا للقرصنة واستولوا على سفينتين إحداهما من أعظم السفن مشحونة قمحا وزع مجانا على سكان تونس والأخرى عبارة عن جفن كان من العلو كأنه أحد الأبراج وبه كمية كبيرة من الملف والمنسوجات الحريرية. وسافروا من جديد بقصد الغزو بثلاثة أجفان واستولى خير الدين على جفن اسباني عظيم قاده إلى تونس وكافأه السلطان الحفصي بأن أعطاه أفضل سفنه. وتوالت الغنائم وازدادت ضخامة منها الاستيلاء على سفينتين إحداهما مليئة بالذخيرة والمواد الثمينة ثم على أربع سفن ثم على قادس كبير هو قادس أميرال مسيحي.

وبعد العودة إلى تونس أخذ الإخوة بربروسة في بناء أربع سفن. وفي غزوة جديدة أخذوا عشرين سفينة فيها 3800 مسيحي مما أثار حماس سكان تونس حسب «غزوات» التي تذكر أن هذه الغنائم لم يسبق لها مثيل.

إن غنائم الفترة التونسية تمتد تقريبا إلى سنة 1514. ففي هذه السنة وقعت أول محاولة لتحرير بجاية انتهت بالفشل وجرح فيها عروج ونقل إلى تونس حيث بتر الجراحون ذراعه المصاب. وبعد سنة جرى الهجوم الثاني على بجاية حيث كان مع الإخوة بربروسة الزعيم الديني أحمد بن القاضي على رأس «20.000 من البربر». وهكذا بدأت الفترة الجيجلية ثم الجزائرية.

وإلى جانب المعارك البرية توالت غزواتهم البحرية وتزايدت غنائمهم وكذلك تكبدوا بعض الخسائر. ففي بجاية اضطروا إلى إحراق سفنهم التي كانت راسية في وادي السومام والتي لم يستطيعوا سحبها إلى البحر لنزول

Scanné avec CamScanner

مستوى الماء في الوادي. واستقر عروج في جيجل بينما ذهب خير الدين مع ثلاث سفن إلى تونس حيث قام بصناعة أربع سفن أخرى. وأخذ النصارى أو دمروا بعض سفن الإخوة بربروسة في حلق الوادي ميناء تونس. لكن إذا وازنا بين الغنائم والخسائر في هذه الفترة نصل تبعا للتفاصيل التي ترويها «غزوات» إلى نتائج ايجابية للغنائم تزيد عن مائة سفينة. وكانت بعض السفن المغتنمة تفكك ويستعمل خشبها في صناعة قوادس وغليوطات وسفن شراعية من نوع الفوست (fustes) وكل هذه الأنواع من السفن هي أكثر أهلية وتكيفا مع نوع القرصنة التي كانوا يقومون بها.

أهمية الغنائم

من الطبيعي أن تكتفي «غزوات» بذكر الغنائم التي تعتبر حادثا مهما لضخامتها وقيمتها الحربية أو المالية. وبعضها مفصل كثيرا (عدد الأسرى، عدد قطع الملف وطول المنسوجات الحريرية مقدرا بالذراع، عدد القناطير من مختلف السلع، الخ.) وعن غنيمة حصلها القرصان الجريء سنان رايس، تقول «غزوات» أن قيمة التخميس عنها بلغت 100 ألف دينار. وكثير من الأرقام المستديرة من هذا النوع، إلى جانب المبالغات المعتادة، تعني فقط أهمية الغنيمة. ورقم 3800 أسير في غزوة بحرية واحدة، المذكور سلفا هو أيضا من المبالغات الواضحة. كذلك رقم 2.800 جندي مسيحي أسروا في 9 سفن كانت تحمل النجدة لحصن البنيون في 1529. وبعض الغنائم تؤكدها المصادر الغربية (غومارا، هاييدو، الخ) وتعطي تفاصيل عن تاريخها وظروفها. مثلا المعركة البحرية التي قتل فيها الأميرال بورتاندو سنة 1529 وأخذ قادسه القيادي وستة قوادس أخرى من طرف تشكيلة جزائرية كان يقودها أيدين (كاشيا ديابولو) وكان من بين الأسرى ابن الأميرال بورتادو وستة رياس مسيحيون أخذوا مع قوادسهم ومئات من جنودهم وبحارتهم. ولعلها هي نفس المعركة

التي تقول عنها «غزوات» بأنها أدت إلى اغتنام 9 سفن عليها 2.800 جندي.

إننا على أية حال رغم التفاصيل التي تعطيها «غزوات» وغيرها من المصادر أبعد ما نكون عن المعرفة الدقيقة الكافية عن أرباح وخسائر العمليات التي قادها الإخوة بربروسة. وكل محاولة إحصائية عن هذه الفترة الغامضة هي من قبيل المستحيل. فبدلا من تقديم لوحة شاملة مفصلة، نكتفي ببعض الأمثلة التي تبين تنوع القرصنة والتداخل المتزايد، كما سنرى ذلك فيما بعد، بين القرصان المسلمين من كل الموانى المغاربية والمشرقية وبين الأسطول العثماني الرسمي:

- في 1529 كان شارلكان ينوي الهجوم برا وبحرا على البندقية. لكن استيلاء خير الدين على البنيون والهجمات المتوالية التي نظمها ضد الأسطول الاسباني دفع هذا الإمبراطور إلى التخلي عن مشروعه.

- جاء في رسالة[1] كتبها نائب الملك الاسباني في بلنسية إلى الإمبراطورة بتاريخ 12 نوفمبر 1529: «لقد أعلمت جلالتكم بطريق البريد عن الحالة التي تعيش فيها المملكة خصوصا بسبب المحن التي تصيبها من جراء العمليات والتخريبات وأعمال النهب التي يقوم بها المغاربة والأتراك أعداء عقيدتنا الكاثوليكية.. إنهم أخذوا سكان القرى التابعة لبارونية برسنت Barcent وسيد هذه القرية وكل المورسكيين القاطنين بمورلة في مقاطعة أوليفا».

- يقول جاك هيرس[2]: «في 1531 سجل ضباط جنوة المكلفون بإحصاء موارد وسكان قرية أندورا Andora الكبيرة على الرفييرا 500 أسرة، 2500 نفس، 550 رجلا قادرين على حمل السلاح» ثم أضافوا «وإلى جانب هذا هناك 130 أسيرا عند المغاربة أو الأتراك» أي أن خمس الرجال كان بيد المسلمين.

---

1. Lòpez de Gomara, *Appendice…*, *op.cit.*

2. Jacques Heers, *Esclaves et domestiques au Moyen-Age dans le monde méditerranéen*, Paris, Fayard, 1981, p. 241.

Scanné avec CamScanner

- في بداية 1530 قام قرصان مسلم من أصل برتغالي بهجوم على منطقة الغرب باسبانيا وعلى مناطق الأندلس وكان معه سفينتان من الجزائر وسفينة من باديس وأخرى من تطوان إلى جانب سفينته القيادية من نوع الفوستة التي لها 16 دكة تجديف وأرسى قرب فاروا حيث نزل 100 جندي أسروا 50 أو 60 شخصا. وفي طريق العودة استولوا على سفينة من الرأس الأخضر محملة بالقطن والعاج. وكانت جملة الغنائم 70 أو 80 أسيرا مع سلع متنوعة[1].

- في بداية 1531 التحق خير الدين بالأسطول العثماني في أودون وقام المجموع بغزو الساحل التيراني. وفي شهر ماي غزت 12 سفينة مغاربية بحر الأدرياتيك واتجهت 12 سفينة أخرى نحو رأس سانتا ماريا وأخذت منها 3 سفن قرب كاليبولي. وفي 1532 استولت أربع سفن مغاربية على غنائم مهمة في خليج تارانت. وفي منتصف أفريل من نفس السنة هاجمت 6 سفن مغاربية أخرى دير سانتا ماريا دي لاجيسيا ثم اتجهت نحو الساحل الدلماتي وفي العودة أخذت 3 سفن في قناة أوترنتا. واستكملت تحصيل الغنائم ثم عادت إلى موانيها. من جهة أخرى في نفس السنة قامت 4 سفن أخرى على ساحل بولونيانو في جنوب ايطاليا وحاصرت مدينة صغيرة حيث واجهت مقاومة قوية أجبرتها على الانسحاب. وكان المنتظر أن يلتحق خير الدين بالأسطول العثماني في أودون Odon لكنه لم يأت إلى هناك إلا في 1533. والمعلومات الواردة في هذه الفقرة مأخوذة كلها من وثائق أوروبية محلية رسمية[2].

- وتذكر «غزوات» أن خير الدين بعد أن تلقى رسالة السلطان العثماني التي بلغها له سنان شاوش جمع ديوانا كبيرا من العلماء والشيوخ والأعيان

1. Luis de Sousa, *Les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557*, trad. Ricard, R., Ed. des Belles Lettres, 1940.

2. Jean Aubin, « Une frontière face au péril ottoman : la terre d'Otrante » in Gilles Veinstein, éd., *Soliman Le Magnifique en son temps*, Paris., La Documentation française, 1992, p. 464-484.

Scanné avec CamScanner

وأخبرهم بذهابه وبتعيين حسن آغة خليفة عنه. وقبل السفر اكتشف مؤامرة دبرها 7000 من الأسرى النصارى واستولى على سفينة كبرى كانت قادمة لنصرة المتآمرين. وسافر في 1533 على رأس أسطول من 44 سفينة. وفي الطريق استولى على 18 سفينة ثم على اثنتين.

قبل عشرين سنة مضت قدم خير الدين إلى تونس بسفينة قرصنة كان اشتراها. وهو الآن يترك في الجزائر وفي كل الموانئ التابعة لها أساطيل قوية بيد قادة سيكون لهم صيت كبير في التاريخ. إن خير الدين كقائد سياسي وعسكري محنك يعرف اختيار الرجال الأكفاء. فنوابه وخلفاؤه وزملاؤه (درغوث، حسن آغة، صالح رايس، حسن بن خير الدين، علج علي) أظهروا عمليا مقدرتهم الفائقة. لقد ترك الجزائر وهي كما يقول في إحدى خطبه تملك 400 مدفع أو أكثر ولم يكن لها مدفع واحد قبل مجيئه. إنه بعد الاستيلاء على حصن البنيون «هدم السور والبناءات القائمة عليه ولم يترك منها سوى الأبراج المستديرة التي بنى عليها منارا بحريا وبطاريات مدافع. واستخدم حجارة الأبنية المهدمة لربط الجزر الصغرى فيما بينها وهي عبارة عن صخور ناتئة في البحر متوالية في خط مستقيم من حصن الجزيرة إلى شاطئ المدينة. وهكذا بنى رصيفا يحمل اسمه إلى الآن يقابله رصيف آخر رأسي وبتقاطعهما ضمنا حماية ميناء الجزائر من رياح الشمال والشمال الغربي العنيفة في هذه الأرجاء»[1].

هكذا نمت مدينة الجزائر بسرعة وتحصنت بقوة للقيام بدورها الجديد كعاصمة لقطر بصدد التكوين وهو قطر الجزائر في العصور الحديثة. ومهما كان تعدد الوسائل والجهود ومنها الانتصارات في المعارك البرية الكبرى، فمن الواضح أن للقرصنة التي قادها الإخوة برباروسة ورفاقهم دورا كبيرا في بناء دولة الجزائر وتنامي قوتها البحرية.

---

1. H. De Grammont, *Histoire*..., *op.cit.*, p.51.

Scanné avec CamScanner

تحت قيادة استنبول

من 1534 إلى 1546 كانت حركات الأسطول الجزائري تحت الإشراف المباشر لخير الدين الذي عين قائدا عاما للأسطول العثماني في 1534 ومندرجة في استراتيجية ومعارك الإمبراطورية العثمانية. ومن الضروري أن نلاحظ هنا أن هذه المعارك كانت معارك بين الأساطيل ولم تكن القرصنة فيها سوى شكل إضافي من أشكال الحرب حسب تعبير بروديل.

المعارك من أجل تونس

منذ تولى منصبه الجديد، بدأ خير الدين في إعداد الحملة على تونس. ولهذا الغرض جند الإمكانيات للتعجيل في بناء عشرات القوادس في ترسانات غاليبولي (مقر الأميرالية) وفي استنبول.

في الطريق إلى تونس في بداية صيف 1534، هاجم جنوب إيطاليا حيث فاجأ مدينة ريجيو وخرب منطقة كالابرية واستولى على سكان صو ولوسيدو وكريتارو. وحقق غنائم كبيرة أيضا في خليج نابولي وفي سرلونغا (عدد كبير من الأسرى) وفي فوندي (150 أسيرا). وبعد الاستيلاء على بنزرت وحلق الوادي استولى على تونس بسهولة بفضل موقف السكان. لكن الوضع في البلاد لم يكن مستقرا. فمنذ سبتمبر راجت الأخبار عن التجهيزات الهائلة التي أعدها شارلكان لغزو مملكة تونس. واحتياطا لهذا الهجوم الذي لم يكن عند خير الدين قوى كافية لمواجهته، قرر توزيع أسطوله في أماكن مختلفة. فحسب مراسلة اسبانية[1] كان مع خير الدين 84 قادسا، 6 منها رجعت إلى استنبول و10 أرسلت إلى الجزائر و10 إلى عنابة و15 إلى بنزرت و18 وضعت في مستودعات بحيث بقي 20 قادسا فقط مع 7 قوادس أتى بها سنان رايس من جربة، لحراسة حلق الوادي والشواطئ القريبة من تونس.

1. Iribe, in La Primaudaie, « Documents… », *op. cit.*, p. 348

Scanné avec CamScanner

وبعد معركة عنيفة استولى شارلكان على حلق الوادي في جويلية 1535 ثم احتل تونس التي أباح لجيشه نهبها. ودام النهب ثلاثة أيام. يصف أحد مرافقي الجيش الاسباني[1] الوضع في تونس هكذا: « وبعد أن دخل عساكرنا تونس لم يحترموا أي شيء وخربوا كل شيء وأسروا كثيرا من السكان. رغم ذلك لم يغنموا كثيرا لأن الأعيان حين تركوا المدينة على إثر برباروسة أخذوا معهم ثرواتهم وزوجاتهم وأطفالهم».

وفي رسالة مؤرخة في 27 جويلية 1535 يقول نفس المرافق[2] إن « تقتيل سكان تونس استفحل إلى درجة أن كثيرا من الجثث بقيت في المنازل والشوارع ولم تدفن بحيث خلق جوا موبوءا نتنا جعل الإمبراطور يفر بسرعة من المدينة».

ويذكر كتاب الحوليات في تونس أن ثلث سكان المدينة قتلوا وثلثا آخر أسروا وأن إتلاف المكتبات كان من أسباب تدهور تونس العلمي في العهد العثماني. والأرقام التي يوردها هؤلاء المؤلفون (من 30 ألف إلى 70 ألف قتيل) هي تقديرات مبالغ فيها لكنها تعبر بطريقتها عن شعور الناس بفداحة الخسائر.

بعد المعركة انسحب خير الدين «بأموال كثيرة و4000 أتراك» عن طريق البر نحو عنابة أين وجد قوادسه ومن هناك التحق بالجزائر التي غادرها في سبتمبر مع 32 قادسا باتجاه جزر البليار وعاصمتها ماهون التي خربها و«أسر فيها نحو 5000 أو 6000 شخص واستولى على سفينتين من نوع الكارافيل إحداهما كانت تحمل كثيرا من نبلاء وفرسان اسبانيا»[3].

وكانت تحركاته يتابعها المسئولون الاسبان الذين كان جواسيسهم منتشرين في كل الأنحاء وكان Doria قائد أسطول شارلكان في الحملة على تونس قد

---

1. في رسالة من A. Rosetti الى دوق إستة، مؤرخة في 22 جويلية 1535، أوردها Gabriel Médina في دراسته عن حملة شارلكان على تونس. وهي منشورة في : R T, 1906, p. 184-194 et p. 301-307.

2. La Primaudaie, *op. cit.*, p. 186 sq. 3

3. E. Charrière, *Négociations de la France dans le Levant*, P., 1848, t . I, p. 272-277

كمن بأسطوله في مياه بورتو فارينا لمفاجأة خير الدين عند رجوعه من البليار. وقد ساهم كل حلفاء الاسبان في المغارب في البحث عن بربروسة وفي محاربة الأتراك. لكن رغم الانتصار في تونس كانت مختلف المراسلات الاسبانية تترجم عن قلق الاسبان وتخوفهم. فقد كانوا يشعرون أن الاستيلاء على تونس رغم الوسائل الهائلة التي جندت ورغم أهمية تونس التاريخية والثقافية، هو مكسب ليس له مستقبل. فقد كان مجموع القطر يفلت من أيديهم. والملك الحفصي الحسن الذي دخل تونس مع الجيش الاسباني كان مكروها من الأهالي ولم يكن جنوده من البدو مستقرين على حال. وكانت موانئ المنستير وسوسة والمهدية بأيدي أنصار خير الدين وبقية البلاد سارت وراء قادة الثورة الدينية السياسية من الشابية. أما احتلال عنابة من جانب الاسبان في سبتمبر 1535 فقد كان كذلك متخلخلا ومهددا من طرف قوات حسن آغة المتمركزة في قسنطينة.

من جهة أخرى كان أنصار خير الدين بعد استيلائهم على سفينة (كارافيل) البرتغالية يقومون بهجمات قوية على السواحل الاسبانية والإيطالية. وبهذا الصدد يقول الكاتب الفرنسي الكبير رابلي Rabelais في رسالة بعثها من روما إلى أحد الكبراء الفرنسيين في 30 ديسمبر 1535: «يا مولاي، منذ 15 يوما، ذهب أندري دوريا لتموين عسكر الإمبراطور المتمركزين في حلق الوادي قرب تونس والذين ينقصهم كل شيء حتى الماء لأن عرب البلاد يحاربونهم باستمرار حتى أنهم لم يعودوا قادرين على الخروج من حصنهم. وقد أقام دوريا ثلاثة أيام في نابولي مع الإمبراطور ثم غادرها على رأس 29 قادسا. ويقال إنه ذهب لمطاردة اليهودي وكاشيا ديابولو اللذين أحرقا كثيرا من البلاد في سردانيا ومينورقة»[1].

---

1. Rabelais, *Oeuvres complètes*, Genève, s.d., t. III, p. 279. لقب «اليهودي» أعطاه الأروبيون لسنان رايس الذي كان من أوائل رفاق بربروسة في جربة وهو تركي من أصل مسلم لقب هكذا فيما يقال لأنه كان غير متدين. أما «كاشيا ديابولو» (رعب الشيطان) فهو لقب أطلقه الأروبيون على أيدين رايس. ويعد كذلك من أبرز رفاق خير الدين.

Scanné avec CamScanner

الحلف العثماني- الفرنسي والوضع الدولي

مما سهل الهجوم الاسباني على تونس أن الحرب بين العثمانيين والصفويين كانت على أشدها في العراق وبلاد فارس. وهذه الحرب التي جندت فيها قوى عسكرية هائلة، انتهت في 1536. وفي نفس السنة غزا شارلكان جنوب فرنسا وقامت الحرب بين فرنسا واسبانيا. وعقد الملك الفرنسي فرانسوا الأول François 1er معاهدة تحالف مع سليمان القانوني. وقررا العمل المشترك بين الأسطولين الفرنسي والعثماني ضد سواحل نابولي الإيطالية التابعة للإمبراطوية الاسبانية. وفي هذا الإطار قامت سفن فرنسية وجزائرية بهجوم مشترك على إقيزا وعلى سواحل طرطوشة»[1].

وبما أن الأسطول الفرنسي لم يستطع أولم يرد الالتحاق بأسطول خير الدين في الوقت المناسب، فإن خير الدين لم يطل الانتظار وبعد أن عبأ سفنه بالغنائم عاد إلى استنبول وقام بالتحضير لحملة أوسع. ويبدو أن هذا التحالف كان يمثل انتصارا سياسيا للحزب المتوسطي داخل الحكومة العثمانية. وهذا الحزب بقيادة خير الدين كان يدعو إلى التدخل في البحر المتوسط وبالأخص ضد البندقية. وقد سنحت الفرصة عندما ارتكب البنادقة بعض التجاوزات كانت ذريعة لإعلان الحرب.

وفي صيف 1537 حاول العثمانيون الاستيلاء على جزيرة كورنو. فطلبت البندقية مساعدة شارلكان الذي شكل حلفا مقدسا مع البابا وملك روما والبندقية، وأنهي الحصار عن كورنو بسبب العواصف والوباء الذي انتشر بين القوات العثمانية وبسبب الخلاف بين خير الدين ولطفي باشا الذي كان يقود الجيش البري. غير أن كثيرا من المراكز البحرية والجزر التابعة للبندقية

---

1. Michel Vergé- Franceschi, *Chronique maritime de la France d'Ancien Régime, 1492-1792*, P., Sédès, 1998, p. 128.

Scanné avec CamScanner

سقطت بأدي العثمانيين. كما أن هؤلاء قاموا بغارات داخل الأراضي الإيطالية الجنوبية وبالأخص منطقة الپوي Les Pouilles . واستولى العثمانيون على مدينة كاسترو ومنطقتها. وأصبحت مدينة ناپولي مهددة من طرفهم حسبما ذكرته رسالة بعثها أحد الأساقفة إلى الكاردينال دي بلي Du Bellay [1]. إن المراسلات الرسمية[2] بين المسئولين الفرنسيين وكذلك يوميات قائد الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط تلقي الضوء على بعض جوانب العلاقات بين الأساطيل الرسمية والقراصنة كما توضحها النقاط التالية:

عندما وصل القائد البحري الفرنسي غاليبولي التقى مع قرصان تاجورة (مركز بحري بالقرب من طرابلس الغرب) مراد آغة الذي كان يقود 30 قادسا باعتباره قائد تشكيلة رسمية وأحد نواب خير الدين. وكان قراصنة آخرون مثل سنان رايس ودرغوث وصالح رايس قد التحقوا بالأسطول العثماني تلبية لدعوة السلطان سليمان القانوني وشاركوا في معركة لابريـفـيزا La Prevesa في سبتمبر 1538 وفي العمليات التي سبقت أو تلت هذه المعركة. وفي معظمها كانت هذه العمليات تهدف إلى جمع الغنائم والاستيلاء على الأسرى.

لقد بقيت لابريفيزا كرمز لانتصار تاريخي أحرزه خير الدين وفتح به عهد التفوق البحري العثماني في البحر المتوسط. وهو تفوق استمر حتى معركة ليبانت Lepante سنة 1571. في الواقع لم تحدث معركة كبرى في لابريفيزا إنما أمر دوريا أسطوله بالانسحاب أمام أسطول خير الدين الذي اكتفى بمناوشات استهدفت مؤخرة الأسطول المسيحي. أغرق العثمانيون قادسين وغليونا واستولوا على قادس بندقي وسفينة تابعة لأسطول البابا. وكما يلاحظ

1. E. Charrière, *Négociations…, op.cit*, t II, p. 337-338.

2. المصدر السابق، الجزء الثاني، مراسلات من روما والبندقية، واستنبول، ويوميات الحملة للأميرال الفرنسي *Journal de croisière du Baron de St Blancard*

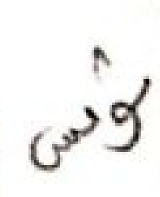
Scanné avec CamScanner

ماريمان[1] فإن هجمات خير الدين في لابريفيزا استهدفت البنادقة والبابويين ولم تتعرض لسفن دوريا. ومن المعروف أن بعض المؤلفين استندوا إلى وقائع من هذا النوع استنتجوا منها شكلا من التواطؤ بين القائدين الكبيرين دوريا الجنوي المعروف بتقلباته في تأجير قواته لمن يدفع أكبر ثمن وخير الدين القرصان السابق المعروف أيضا بمناوراته السياسية البارعة.

رغم ضعف الأهمية العسكرية لمعركة لابريفيزا فقد كانت لها نتائج كبيرة استمرت أكثر من ثلث قرن[2].

إنها أولا كرست التفوق البحري العثماني مدة ثلث قرن تقريبا. وتلاها في مارس 1539 سقوط الموقع الاسباني الهام كاستيلنوڤو Castelnovo وحاميته المؤلفة من عدة آلاف من الجنود الاسبان بيد خير الدين الذي استولى كذلك على عدة مقاطعات ومراكز تابعة للبندقية. إن المصادر العثمانية تتحدث عن 15000 أسير بيد خير الدين الذي قدم بهم إلى استنبول حيث استقبله السلطان بتكريم بالغ.

من جهة أخرى انفتح المجال لعدة عمليات ذات أهمية.



فعلى رأس 25 قادسا ومعها سفن أصغر من نوع البرغنتين جاءت من الموانئ المغاربية المرتبطة بالعثمانيين، هاجم درغوث سواحل الأدرياتيك والمياه الإيطالية الجنوبية واستولى على عدة سفن وغزا جزيرة كاپرايا وجلب منها 700 أسير.

- جاء في رسالة من البندقية مؤرخة في 7 فيفري 1539 أن شارلكان يتشكى من الأضرار المستمرة التي ألحقها قراصنة الجزائر بسواحل قطلانية

---

1. R. B. Merriman, *Suleiman the Magnificent, 1520-1566*, N.Y., 1966.

2. انظر F. Braudel, *La Méditerranée...*, *op.cit*, p. 227

وغرناطة ومن كون 20 سفينة شراعية جزائرية تقوم حاليا بمهاجمة هذه السواحل وتضيف الرسالة أن الإمبراطور يفكر في إعداد حملة قوية ضد مدينة الجزائر.

- سجل الأميرال الفرنسي في يومياته البحرية المذكورة سابقا أنه التقى في المياه التونسية مع ثلاث سفن قرصنة محملة بالأسرى التحقت بالمنستير قاعدة أنصار درغوث في المنطقة.

ولنلخص أهم الأحداث الدولية:

-الخيار البندقي: بعد لابريفيزا

قامت البندقية بمساع لطلب الصلح مع العثمانيين. لكن هؤلاء تشددوا في شروطهم وأطالوا المفاوضات رغم جهود الحلفاء الفرنسيين لصالح البندقية. في النهاية عقد الصلح في أكتوبر 1540 وفقدت البندقية بموجبه مراكز نابولي دي ملفيزيا ونابولي دي رومانيا إلى جانب الجزر التي استولى عليها خير الدين واعترفت البندقية بتبعيتها للدولة العثمانية كما أجبرت على دفع 300.000 دوقة كتعويضات حرب. وفي المقابل منح العثمانيون البنادقة بعض الامتيازات التجارية جعلت منهم منافسين جديين للفرنسيين في هذا الميدان. وهكذا حظي البنادقة بثلاثين سنة من السلم بشروط مساعدة نسبيا لتجارتهم مع الشرق وفي البحر المتوسط، رغم التفوق التجاري البرتغالي الناجم عن اكتشاف طرق جديدة مؤدية إلى توابل الشرق.

رد الفعل الاسباني

كان هذا الرد دبلوماسيا وعسكريا. في الميدان الدبلوماسي عقد الاسبان معاهدة صلح مع الفرنسيين سبقت المعاهدة المبرمة بين العثمانيين والبندقية. وفي الميدان العسكري، في الوقت الذي سحب فيه العثمانيون قواتهم من البحر

المتوسط لتعزيز جيشهم المحارب في المجر ووسط أروبا، هجم الاسبان على مركز كاستلنوفو وانتزعوه من العثمانيين ووضعوا فيه حامية قوية. لكن بعد عشرة أشهر استرجع خير الدين هذا المركز.

وقوع درغوث في الأسر

في ربيع 1540 قام دوريا على رأس 55 قادسا بحملة في خليج قابس لمطاردة درغوث الذي كما يقول المؤرخ الفرنسي دي لا غرافيير[1] جعل الاسبان والإيطاليين يتأسفون على أيام خير الدين. وجاءت إشارات بأن درغوث لوحظ في مياه جنوة. وانتشرت سفن دوريا بحثا عن درغوث في مياه صقلية وسردانية. وفي أحد خلجان كرسيكا المعروفة بحسن علاقاتها مع القراصنة المغاربة، فوجئ درغوث وهو بصدد تنظيف وجلفطة سفنه. ومن جملة 9 قوادس وغليوطات كانت معه، لم ينج إلا قادس واحد بقيادة مامي رايس. وأسر درغوث وقضى ثلاث سنوات يجدف في قوادس دوريا إلى أن افتداه خير الدين بـ 3000 دوقة.

نهب جبل طارق

ردا على أسر درغوث، أرسلت الجزائر في سبتمبر 1540 أسطولا لمهاجمة جبل طارق. نهبت المدينة ووقع كثير من سكانها في الأسر. وكان لهذا الحادث دوي كبير في اسبانيا وأعطي الأمر للأسطول الاسباني بالبحث عن الأسطول الجزائري وتدميره. وفي جزيرة البوران التقى الاسبان ببعض سفن الجزائر. وحسب المصادر الاسبانية بعد قتال عنيف تكبد فيه الاسبان خسائر جسيمة، تم القضاء على 11 سفينة جزائرية من جملة 16 سفينة شاركت في المعركة وأسر رئيسان كانا يقودان هذه المجموعة هما قمراني وعلي حامد. في الحقيقة

1. J. De La Gravière, *Les Corsaires barbaresques et la marine de Soliman le Grand*, Paris, Plon, 1887, p. 22-23.

أن هذين الرئيسين كانا في السنة التالية من جملة الرياس الذين شاركوا في الدفاع عن الجزائر ضد عمارة شارلكان.

حملة الجزائر

عادة تقدم عمليات القرصنة كذريعة تبرر الهجوم على بلد معين. أما عن الحملة على الجزائر فإن الطرفين يتفقان على أن هجمات القراصنة الجزائريين كانت من أسبابها. فيذكر مارمول الذي شارك في الحملة أن الهدف منها كان تخريب «هذه القاعدة التي كان ميناؤها عادة مملوءا بسفن المسيحيين التي يجلبها القرصان من أنحاء البحر المتوسط، مشحونة بالأسرى والغنائم»[1].

ويذكر «مخطوط المحكمة»[2] من جهته أن من جملة أسباب هذه الحملة، استيلاء الرايس الجزائري كتشك علي على سفينة اسبانية مليئة بالسلع والنقود التي تحملها لحامية وهران. والسفينة المعنية هي فعلا سفينة كانت تحمل أجرة الحامية في وهران والمرسى الكبير وكميات من الرصاص والأسلحة و 70 مسيحيا منهم أربع نساء. أسر الجميع وأرسلوا إلى الجزائر مع الغنائم[3]. كما استولى الجزائريون على سفينة كارافيل اسبانية في مياه نابولي. الواقع أن حملة بهذه الأهمية تندرج في منظور وآفاق أوسع ويأخذ تجهيزها مدة طويلة ويجب أن تراعى قبل تقريرها ملابسات مجموع الحالة الدولية والزمن الملائم.

1. *L'Afrique de Marmol, op.cit.*, t II, p. 332.

2. سمي هكذا لأنه وجد في مقر المحكمة بمدينة الجزائر. نشره وترجمه إلى الفرنسية روني باسي René Basset مع جملة وثائق جزائرية بعنوان: *Documents musulmans sur le siège* d'Alger en 1541, P., Leroux, 1890. وهذا المخطوط يحمل بالعربية عنوان «هذا تاريخ قدوم الإنبراطور» وهو يعود لشاهد عيان. ويقال إنه نقل عن تقرير بعثه حسن آغا إلى استنبول.

3. أنظر التفاصيل في Ch. De La Véronne, *Oran...*, *op.cit.*, p. 162

Scanné avec CamScanner

فعلا استمر الإعداد للحملة عدة شهور. وكانت التجهيزات المجندة لها معروفة ومتابعة عن قرب من طرف حسن آغة الذي كانت المعلومات تصل إليه من مرسيليا ومن طولون[1]. وقد اتخذ احتياطات دفاعية ذكرها مخطوط المحكمة بالتفصيل وطلب النجدة من خير الدين. وبذل هذا جهودا كبيرة لإقناع الحكومة بضرورة إرسال الأسطول لمساندة الجزائر واصطدم بمعارضة الوزير الأعظم (رئيس الحكومة) لطفي باشا في غياب السلطان الذي كان شخصيا يقود الحملة على المجر.

في النهاية وصلت الأخبار إلى السلطان الذي أعطى الأمر بإرسال الأسطول إلى الجزائر. لكن هذا الأمر وصل بعد فوات الأوان. وبعد عودة سليمان القانوني عزل لطفي باشا من رئاسة الحكومة.

أورد دي غرامون[2] بطريقة حية وموثوقة تفاصيل الحملة. يقول: إن الأسطول الاسباني كان يشمل «516 سفينة منها 65 قادسا كبيرا ويحمل 12.330 بحارا و23.900 جندي. وهي من أكبر حملات القرن السادس عشر. وكان كل نبلاء اسبانيا وألمانيا وإيطاليا قد أرسلوا متطوعين من صفوفهم. وبعث البابا قريبه كولونا ليشارك فيها وأرسلت مالطة 140 من أشجع فرسانها و400 من أفضل محاربيها».[3]

إن دي غرامون كمؤرخ وكضابط متخصص يحب تحليل المعارك الكبرى بشيء من التفصيل. وروايته المفصلة عن حملة الجزائر والمستقاة من أوثق المصادر الغربية مازالت مرجعا يعتمد عليه كثير من المؤرخين الفرنسيين والإنكليز والعرب، الخ. وهو يصور بدقة وكفاءة مختلف التدابير التي اتخذها

1. E. Cat, *Mission bibliographique en Espagne*, Paris., Leroux, 1891

2. H. de Grammont, *Histoire..., op. cit.*, p. 68-75

3. نفس المصدر، ص 68.

Scanné avec CamScanner

شارلكان وسير المعركة ودور العاصفة في إفشالها، الخ. لكن دائما بالاستناد إلى المصادر الغربية فقط رغم توفر المصادر العربية المترجمة إلى الفرنسية مثل «مخطوط المحكمة» وغيره من الوثائق المتعلقة بهذه الحملة. إنه لم يول أهمية لهذه الوثائق الأصلية التي كان بإمكانها أن تضيء له جوانب أخرى من المعركة وأن تساهم لديه في تكوين نظرة متكاملة عنها.

النتائج (1541 - 1546)

إن هزيمة شارلكان في الجزائر كانت لها نتائج هامة في الداخل والخارج. أولا كما يقول «مخطوط المحكمة» ترك الجيش الاسباني غنائم كبيرة بيد المسلمين. وحسب تقرير أرسله جاسوس فرنسي إلى الملك فرانسوا الأول ونشره شاريير E. Charrière السابق الذكر، فقد شارلكان في هذه الحملة كل المدفعية والذخيرة الحربية والخيل و130 سفينة و17 قادسا دون الخسائر البشرية والمادية في أرض المعركة. وقدرت قيمة الخسائر المادية في هذا التقرير بحوالي 4 ملايين دوقة. أما المؤرخ ماريمان في المصدر السابق الذكر فيذكر أن 12000 جندي اسباني أسروا أو قتلوا.

إن الجانب الرمزي في هذه المعركة له أهميته حيث تلعب المعتقدات دورها المعهود. فكل من الفريقين يدعو الله أن ينصره. والعاصفة الشديدة التي حطمت جزءا كبيرا من الأسطول الاسباني وسهلت انتصار المسلمين فسرها هؤلاء بأنها نصر إلهي للمؤمنين على الكفار. وقد بقي سكان الجزائر يحتفلون بعيد أحد الأولياء يقال أنه تنبأ بانتصار الجزائر في معركة غير متكافئة إطلاقا في بدايتها ولم يكن من المتوقع أن تستطيع الجزائر الإفلات من قبضة هذه القوى الهائلة. ومن اليسير أن نتصور النتائج التي ترتبت عن هذا الانتصار- المعجزة، حتى لدى السكان الذين كانوا يرفضون هيمنة «الأتراك».

Scanné avec CamScanner

تقدم داخلي

فعلى الصعيد الداخلي استطاع حكام الجزائر في سنوات قليلة أن يوسعوا ويرسخوا سلطتهم على مناطق واسعة من القطر. ففي الشرق أصبحت إمارة أسرة بن القاضي في جرجرة وإمارة بني عباس في شرقها تابعتين رسميا للجزائر وأحيطت هذه المناطق بأبراج وحصون تقيم فيها حاميات دائمة وأهمها برج بويرة وبرج زمورة وبرج بوعريريج ومسيلة. وفي الجنوب أصبحت أسرة بوعكاز من الدواودة تحكم مناطق الواحات باسم الجزائر وأقيمت حامية قوية دائمة في بسكرة لمراقبتها. وفي الغرب كانت بداية النهاية للمملكة الزيانية وللسيطرة الاسبانية التي تعتمد في هذه المناطق على الصراعات والطموحات بين الأمراء وأصهارهم الأقوياء وشيوخ القبائل، الخ. في 1543 قام حسن آغة بهجوم بري وبحري على وهران أدى إلى الحد من النفوذ الاسباني في نواحيها. وقام حسن آغة كذلك بتحصين مدينة مستغانم وتقوية حاميتها وتعزيز مينائها. وتخلى أمير تنس حامد العبدي عن الاسبان وكذلك زعيم بني راشد منصور بن أبي غانم وشيوخ قبيلة سويد ذات الأهمية الكبرى في هذه الجهات. ودعا الزعيم الديني الفغول الناس إلى الجهاد ضد الاسبان ووضع كل نفوذه في مساندة العالم الشهير محمد الخروبي الذي أوفده حسن آغة إلى تلمسان لإقناع السلطان الزياني مولاي محمد بالمساهمة في الحرب ضد الاسبان. وبينما كان جيش تلمسان يحاصر وهران من الجنوب كان أسطول الجزائر يمنع السفن الاسبانية من تقديم النجدة لهذا الموقع الاسباني الهام.

أمام هذه الحالة الخطيرة، طلب حاكم وهران ألكوديت من الحكومة الاسبانية إنجاده بقوات كبيرة. لكن هذه الحكومة التي كانت في حرب على عدة جبهات في أروبا لم تكن لديها إمكانيات تخصصها له. غير أن ألكوديت استطاع بمساعدة أسرته وغيرها من كبار الإقطاعيين في اسبانيا أن يتكفل

Scanné avec CamScanner

بتجنيد 4000 مقاتل جديد في الأراضي الاسبانية ونقلها إلى المناطق الوهرانية، حيث جمع حوالي 12000 جندي هجم بهم على تلمسان واستولى عليها في 6 فيفري 1543 بعد أن غادرها أهم سكانها. وقام جيش الكوديت بنهب المدينة وعين عليها سلطانا جديدا لم يستطع التحكم في الوضع. وبعد ثلاثة أسابيع غادر الاسبان تلمسان إلى الأبد.

وفي مدينة الجزائر دبرت مؤامرة ضد حسن آغة مرتبطة بما أشيع عن أن موقفه كان متخاذلا أمام الحملة الاسبانية. وساعدت هذه الأجواء على اندلاع ثورة في منطقة مليانة الموالية تقليديا للزيانيين. لكن حاجي باشا الذي تولى الحكم بالنيابة بعد استقالة حسن آغة الطوعية أو الإجبارية، نجح في قمع الثورة وإعادة الاستقرار إلى المنطقة. وعند وصول الباشا الجديد حسن بن خير الدين إلى الجزائر عين حاجي باشا على رأس حملة إلى المناطق الغربية، واستطاع هذا بمساعدة الشيخين الخروبي والفغول أن يتحكم في الأوضاع في تلمسان التي دخلها حسن بن خير الدين سلميا في أكتوبر 1545 ورحب به سكانها وبايعوه. في أوت 1546 أعد الكوديت حملة على مستغانم واحتل مازغران وضواحي مستغانم لكن هجومه على المدينة فشل وواجه جيشه صعوبات كبيرة واضطر إلى الانسحاب تحت الهجمات القوية المتواصلة لعدد متزايد من المقاتلين المسلمين.

إن الأرقام التي يذكرها الاسبان والتي نقلتها شانتال دي لاڤيرون[1] عن وثائقهم ومؤلفاتهم المعاصرة (130 ألف إلى 180 ألف منهم 30 ألف فارس حسب موراليس) فيها كثير من المبالغة الواضحة لكنها تعبر عن ضخامة القوى التي جندها أنصار حسن بن خير الدين. وفي النهاية استطاع الاسبان أن يخففوا من ضغط هذه القوى بفضل مدفعيتهم وأسلحتهم النارية وأن يلجأوا إلى قاعدتهم في وهران.

---

1. Ch. De La Véronne, *Oran...*, *op.cit.*, p. 183.

Scanné avec CamScanner

نجاحات مغاربية

في كل المغارب كان تراجع الاسبان والبرتغاليين له طابع حاسم. فانتصار السعديين على البرتغاليين سنة 1541 فتح الطريق لتحرير كل الموانئ المغاربية الواقعة على سواحل المحيط الأطلسي من سيطرتهم. وفي القطر التونسي استقر درغوث في جربة سنة 1544 وأصبح يشرف على جزء من الساحل التونسي. ومن هذه القواعد كان يشن عمليات بحرية أعطته شهرة كبيرة. كذلك كانت انتصاراته داخل القطر مرحلة أولى نحو التحكم في أهم المناطق بقطري تونس وطرابلس الغرب. وفيما يخص هذه الأخيرة كان دور مراد آغة فيها أساسيا لكن درغوث كما يقول بروديل[1] هو الذي « جدد حقيقة في هذه المناطق الشرقية مغامرة برباروسة في المنطقة الجزائرية».

في هذه الظروف شعر الحسن الحفصي صنيعة الاسبان بتزعزع موقفه وذهب إلى اسبانيا يطلب المساعدة. وفي غيابه استولى ابنه حميدة على الحكم وبدأ الحرب ضد الاسبان الذي لم يعد بيدهم سوى حصن حلق الوادي. وهكذا حطمت المطامح الاسبانية في الاستيلاء على الأقطار المغاربية وكانت هذه النتيجة متصلة بظروف دولية نلخصها بإيجاز.

وضع دولي جديد

نجم عن معارك لابريـڤيزا والجزائر تعزيز موقف خير الدين وحزبه المؤيدين لاستراتيجية هجومية في البحر المتوسط. وفي 1542 دخلت فرنسا من جديد في حرب ضد اسبانيا التي كانت تلاقي صعوبات كبيرة في صراعها مع اللوثريين. وساعد ذلك على التعاون بين الفرنسيين والعثمانيين. وطلب الفرنسيون من خير الدين مساعدتهم فهاجم خليج ليون بأسطول مكون من

1. F. Braudel, *Les Espagnols...*, *op.cit.*, p. 348

Scanné avec CamScanner

110 قادسا و40 غليوطة. وبعد أن اكتسح الشواطئ الإيطالية واستولى على نيس بالتعاون مع جيش وأسطول فرنسا، احتل تولون ورفض أن يغادرها إذا لم يعطه الفرنسيون تعويضات مالية بقدر الجهد الحربي الذي بذله أسطوله. فقدم له الدوق دنغان Duc D'Enghin 800 ألف إيكي (حوالي 800 ألف قرش إسباني). يقول شاريير[1] إن «32 أمين خزانة من تولون قضوا ثلاثة أيام في ملء أكياس بألف أو ألفين أو ثلاثة آلاف إيكي في كل واحد منها». وحسب تقرير حرره خير الدين باللغة التركية عن نفقات أسطوله في هذه الحملة وترجم إلى الفرنسية[2] كان تجهيز الأسطول قد كلف الخزينة العثمانية 1.200.000 دوقة. ويفصل هذا التقرير كل العمليات التي قام بها الأسطول منذ أبحر في 3 أفريل 1543. فبعد أيام قليلة هاجم ريجيو دي كالابريه واستولى عليها كما استولى على سفينة معادية في نفس النواحي. ثم قنبل نيس ثم أرسل صالح رايس على رأس 40 قادسا بالاشتراك مع الفرنسيين لغزو المدينة فغادرها أهلها واحتلها صالح رايس. وتقول مصادر أخرى إن المدينة أحرقت ونهبت. ثم أرسل خير الدين 25 قادسا بقيادة صالح رايس وحسن تشلبي للقيام بتحصيل غنائم في خليج ليون وشواطئ اسبانيا حيث هوجمت مدن روزاس وكاداكيس وامپورياس وپالاموس وخربت كثير من الموانئ والقلاع والقصور. واستولى الأسطول على سفينة تجارية وأغرق سفينة كبرى مشحونة بالعساكر الاسبان. وينقل نفس المصدر عن جوف Jove وصفه للاستيلاء على مدينة ريجيو وأن سكانها غادروها لكن حصنها كان يقود الدفاع عنه الحاكم الاسباني دييغو غايتانو Diego Gaetano. وبعد قنبلة الحصن استسلم الحاكم وأسر 70 جنديا

1. E. Charrière, *Négociations…*, *op.cit.*, t II, p. 578.

2. Jean Denys et Jane Laroche, « L'expédition en Provence de l'armée de mer du Sultan Soliman sous le commandement de l'Amiral Hayreddin Pacha, dit Barberousse (1543-1544) d'après des documents inédits», *Turcica*, t.I. 1969, p.161-211.



Scanné avec CamScanner

اسبانيا وكثير من السكان. أما غايتانو وزوجه وأولاده فقد تركوا أحرارا عدا إحدى بناته كانت رائعة الجمال أخذها خير الدين وتزوجها. وبعد شهور ذهب غايتانو لزيارة ابنته في استنبول واستقبله خير الدين بحفاوة.

تحــول؟

لقد ألححنا كثيرا فيما سبق على أن قرصنة الجزائر ومجموع الأحداث السياسية والعسكرية في المغارب في ذلك العهد لا يمكن فهمها إلا إذا وضعت في إطار متوسطي عام. وكثير من الحالات المعينة بدقة تبين لنا كيف كانت تعبئة الأسطول العثماني تشمل مساهمة قطع بحرية من الجزائر ومن غيرها من المراكز البحرية المغاربية المرتبطة بالعثمانيين بشكل أو بآخر. ومن غير أن تكون بالضرورة منسقة من طرف قائد الأسطول العثماني فقد كانت كثير من عمليات القرصنة ذات الأهمية تتم بتعاون عدة قوى بحرية مغاربية وقد تندرج إلى حد ما في نطاق الحملات الكبرى التي يشنها الأسطول العثماني. ذلك أن هذا الأخير لم يكن يخوض معارك برية وبحرية فقط بل كان ينظم حملات شبه سنوية للتزود بالأسلحة والرجال والأموال على حساب العدو. وكانت الحروب لها تكاليف باهظة ترهق كاهل العثمانيين والاسبان معا وتؤدي دوريا إلى أزمات مالية وكذلك اجتماعية وسياسية.

وفي 1545 استؤنفت الحرب ضد إمبراطورية فارس الصفوية. واتخذت على الأقل في بدايتها طابع «الحرب الطائفية» مثل الحرب التي كانت قائمة بين شارلكان وغيره من الكاثوليك ضد البروتستانت الأوروبيين. ولنذكر بأن الحركة الصفوية انطلقت من الأناضول حيث اكتست الثورة الاجتماعية طابعا دينيا وقادها مؤسسو الصفوية من الأتراك وزعزعت أركان الإمبراطورية العثمانية قبل أن تتجه شرقا وتستقر في الأراضي الفارسية. وقد أعلن بعض علماء استنبول الرسميين أن الصفوية مخالفة لمبادئ الإسلام على أساس

Scanné avec CamScanner

بعض الانحرافات الأولية لدى مؤسسي الحركة لكنها صححت فيما بعد في اتجاه مذهب شيعي معتدل لا يختلف كثيرا عن مذاهب السنيين. لكن في منتصف القرن السادس عشر كانت الصفوية تشكل منافسا سياسيا خطيرا للإمبراطوية العثمانية بغض النظر عن الاختلافات المذهبية. وكان داخل الحكومة العثمانية حزب قوي من أنصار الحرب ضد الصفويين ويعارض جماعة خير الدين المنادية بتوجيه الجهود في البحر المتوسط.

وفاة خير الدين

في 4 جويلية 1545 توفي خير الدين. وطرأت تغييرات هامة بعد وفاته. فقد كان قائد الاسطول وبيرلباي جزر بحر إيجة برتبة وزير له اليد الطولى على حكومة الجزائر التي كان يتولاها خليفته وعلى مجموع السياسة المتبعة في الأقطار المغاربية.

وبعد وفاته، سلمت قيادة الأسطول لضباط من الجيش البري فعين محمد صوقولو كاپودان باشا من 1546 إلى 1550 وخلفه قوجه سنان باشا من 1550 إلى 1554. وخفضت مسئوليات الكاپودان باشا ومالية الأسطول والأراضي التابعة لقائده. وفي هذه السنوات كان كبار الرياس مثل درغوث وصالح رايس هم الذين يقودون فعليا الأسطول العثماني. ولم يعد قطر الجزائر تحت الإشراف المباشر للكاپودان باشا الذي لم يبق بيده سوى نوع من المراقبة على أساطيل القواعد المغاربية.

من الواضح أن بعض هذه التغييرات مرتبط مباشرة بوفاة خير الدين. فقد كان شخصية فذة لها مكانة خاصة داخل الحكومة العثمانية. إن رتبة وزير ومنصب بيلرباي واتساع اختصاصاته كقائد للأسطول هي امتيازات شخصية منحها له السلطان سليمان القانوني تكريما له واعترافا بدوره في فتح الأقطار المغاربية وفي النهوض بالأسطول الذي جعل منه أول قوة بحرية في البحر المتوسط.

Scanné avec CamScanner

غير أن عوامل أخرى كان لها دورها في التغييرات التي أدت إلى نوع من الابتعاد وعدم إعطاء الأولوية لشئون البحر المتوسط. فالهدنة التي عقدت في 1545 وجددت في 1547 بين السلطان العثماني وشارلكان تبعت الصلح المبرم بين فرنسا واسبانيا. وهذه العودة إلى حالة السلم وابتعاد الحكومة العثمانية عن مشاكل البحر المتوسط كان لهما طابع ظرفي نسبي ومؤقت، كما سنرى ذلك في الفصل التالي.

Scanné avec CamScanner

الفصل الخامس

الأمبراطوريات بين الحرب والسلم

إن هدنة الخمس سنوات بين العثمانيين والهابسبورج لا تعني انتهاء الصراعات المحلية بين «زبائن» وأتباع الأمبراطوريتين ولا نهاية القرصنة التي يقوم بها من الجانبين قراصنة مستقلون نسبيا. أين تبدأ وأين تنتهي عملية هجوم «غير رسمية»، وكيف يمكن وصفها في حالة السلم بين الدول المعنية؟

النصوص والأفعال

فلنبحث بعض الحالات ذات الدلالة:

- إن هدنة جوان 1547 بين سليمان القانوني وشارلكان تشمل مبدئيا أتباعهم وغيرهم من «دافعي الإتاوة». لكن فرسان يوحنا المقدس (الذين يدعون عادة فرسان مالطة منذ إقامتهم في هذه الجزيرة) الذين منح لهم شارلكان مدينة طرابلس الغرب بعد استيلائه عليها، استمروا في القيام بأعمال القرصنة ضد المسلمين. من جهة أخرى كان «القرصان المستقلون» مثل مراد آغة ودرغوث استمروا كذلك في غزواتهم ضد الاسبان وحلفائهم.

- في مفاوضات جاءت فيما بعد للصلح بين العثمانيين ودوق توسكانيا الكبير الذي كان له السيادة على فرسان سانت إيتيان الذين كانوا مثل فرسان مالطة يمارسون القرصنة ضد المسلمين، حاول هذا الدوق أن يفصل مشكلة

Scanné avec CamScanner

هؤلاء القرصان عن عملية الصلح باعتبارهم ليسوا تابعين لتوسكانيا. وكما يقول بروديل[1] «إنه أنكر سلطته وهي حقيقية».

- لم يخبر شارلكان عامله في وهران ألكوديت عن هدنة 1547. وكان حسن باشا هو الذي كتب له في جوان 1548 يخبره أنه تطبيقا لمعاهدة الهدنة، فقد أمر الرياس الجزائريين بأن لا يهاجموا السفن والأراضي الواقعة تحت حماية اسبانيا. وأجابه ألكوديت أنه لم يتلق معلومات عن ذلك من اسبانيا ولكنه يثق فيما جاء في رسالته وسيعمل طبقا لذلك[2]. لكن في 1549 حين دخلت سفينتان جزائريتان في مياه أرزيو حجزهما الاسبان وأرسلت الجزائر مبعوثا لعلاج المشكل في وهران. ومن جديد توترت العلاقات نتيجة لاستيلاء قرصان جزائريين على سفينتين اسبانيتين. ومن بين المأسورين كان حاكم مليلة الاسباني وأخوه. وقد افتداهما ألكوديت بـ 4500 إيكي وتتابعت الحوادث من نفس النوع، بمبادرة من هذا الجانب أو ذاك.

- من جهة أخرى بعثت الجزائر وحدات إلى تلمسان لمناصرة الأمير الزياني الموالي للعثمانيين. وطلب ألكوديت من الحكومة الاسبانية أن تخبره إذا كان ملك تلمسان يعتبر من محميي اسبانيا الذين تشملهم المعاهدة. كما حاول أن يتحقق من الشائعات التي انتشرت زاعمة أن حسن باشا رخص سريا لرياس الجزائر أن يواصلوا القرصنة ضد الاسبان بشرط المحافظة على السر عن هذا الترخيص.

- كانت الجزائر تطبق على طريقتها أوامر السلطان الخاصة بالهدنة. فأثناء سنوات الهدنة، كانت التقارير الاسبانية تشير مرارا إلى وجود أسطول درغوث في الجزائر والموانى التابعة لها. إن بيلرباي الجزائر حسن بن خير

1. F. Braudel, *La Méditerranée…, op.cit*, t II, p. 195.

2. Ch. De La Véronne, *Oran…, op.cit*, p. 257sq

الدين، كان صهر درغوث وكانت صلات شخصية قوية تربط درغوث برياس الجزائر منذ عهد خير الدين. والسلم المعقود بين الإمبراطوريتين منبثق من استيراتجية عالمية. لكن في الإطار المغاربي كان الموقف إزاء اسبانيا متوترا ليس فقط بسبب احتلالها لموانئ مغاربية بل كذلك بسبب اضطهاد مسلمي الأندلس الذين كانوا يرفضون التنصير الإجباري ويحاولون بكل الإمكانيات أن يحافظوا على دينهم.

دور درغوث

- إن القرصنة التي كان يقودها درغوث كانت تندرج في هذا الإطار وكانت فعلا ذات طابع مغاربي نظرا لمشاركة رياس من مختلف الموانئ المغاربية فيها. وكان درغوث منذ استقراره في جربة بعد رجوعه من الأسر، يقوم أثناء سنوات 1547-1549 بهجمات قوية على السواحل الاسبانية وعلى صقلية وساردانيا والميزوجيورنو. وقام بتخريب ثلاث قرى في مالطة في 1547. وفي 1548 استولى على سفينة من سفن قرصان مالطة محملة بـ 20 ألف إيكي. وهاجم خليج نابولي وغزا بوزوليس Pouzzoles وكاستلمار Castelmare «وحمل سفنه بالأسرى إلى أن كادت تغرق من كثرتهم»[1]. ثم رفع لواء المفاوضات لافتداء هؤلاء الأسرى. وفي بداية 1550 استولى درغوث على المهدية التي لها موقع طبيعي قوي التحصين وأبراج دفاعية جعلت منها إحدى المواقع البحرية الإستراتيجية. وأعطى الاسبان لهذا الحادث أهمية كبرى. وفي مارس 1550 كتب نائب الملك الاسباني في نابولي يخبر شارلكان عن الحادث ويؤكد له أن المهدية لها أهمية تساوي أهمية مدينة الجزائر. وكتب شارلكان إلى السلطان يحتج على هذا «النقض للهدنة» لأن الموقع تابع لسلطان تونس الذي هو تحت



1. المصدر السابق نفس الصفحات.

Scanné avec CamScanner

حماية شارلكان. وفي ماي- جوان بدأت التجهيزات لأسطول قوي بقيادة دوريا للهجوم على المهدية.

- وتوقعا لهذا الهجوم، وضع درغوث 500 مقاتل في المهدية وعزز مركزها بالمدافع والبنادق، الخ. وقام مع نائبه علج علي بتنظيم عمليات لتشتيت قوات العدو وإشغالها في مناطق أخرى وضاعف الهجومات البرية والبحرية بالتعاون مع أسطول الجزائر (غزو ونهب راپالو وكاستلمار، غزوات على السواحل الإيطالية والأندلسية وكذلك في كورسيكا وساردانيا، الخ).

حصار المهدية

قبل مهاجمة المهدية جاءت نجدات جديدة لتقوية العمارة الإسبانية بعد أن لقيت هذه مقاومة قوية في المنستير وفي قرقنة. ودام حصار المهدية ثلاثة أشهر وكان الاستيلاء عليها مكسبا مؤقتا لأن الاسبان لم يستطيعوا المحافظة عليها لمدة طويلة. وفي رسالة جديدة لسليمان القانوني، يتشكى شارلكان من نشاطات درغوث ويشرح للسلطان أنه هاجم المهدية التي هي قاعدة قرصان بسيط ولا تشكل نقضا للهدنة بين الإمبراطوريتين. وجوابا على هذه الرسالة، اشترط العثمانيون الانسحاب من المهدية وتشكوا من فرسان مالطة الذين يهاجمون سفن التجار والحجاج المسلمين.

وفي صيف 1551 بادر العثمانيون بإعلان الحرب على الهابسبورج في المجر لأن هؤلاء قاموا بتحصينات فيها خرق للهدنة بين الطرفين.

الرد العثماني

بعد الاستيلاء على المهدية، هاجم دوريا جربة وحاول حصار درغوث فيها في أفريل 1551 واستطاع درغوث أن يشق قناة داخل الرمال وأن ينجو بأسطوله. (3 قوادس و15 غليوطة) وأن يبحر في مكان غير متوقع. وفي طريق

Scanné avec CamScanner

الالتحاق بالأسطول العثماني استولى قرب قرقنة على النجدات المرسلة إلى دوريا (قادس صقلي وسفينة محملة بالبشماط والبارود ثم استولى على غنائم أخرى على سواحل مالطة ووصل إلى نيغربونت Négrepont حيث التحق بالأسطول العثماني الذي كان يقوده الأميرال الشاب سنان باشا ونائبه صالح رايس. إن الهيئة الرائعة التي كان يتحلى بها أسطول درغوث أثارت الإعجاب ونوعا من الحسد لدى سنان باشا حسبما يقول حاجي خليفة. ومن بين رفاق درغوث في هذا المظهر المثير للإعجاب كان يوجد علج علي. واتجه الأسطول نحو الغرب. وعند الوصول إلى ميسين أرسل سنان باشا رسالة إلى نائب الملك الاسباني في نابولي وجدد له طلب الانسحاب من المهدية. وإذ لم يصله أي جواب إيجابي اجتمع بنائبيه صالح رايس ودرغوث لتقرير خطة العمل. فقام درغوث بمهاجمة أوغستا Augusta وغيرها من المراكز في صقلية وتحقيق بعض الغنائم. واتجه معظم الأسطول العثماني نحو جزيرة مالطة التي خرب فيها كثيرا من القرى وكانت أهم الأضرار ألحقت بجزيرة غوزوا Gozzo المالطية حيث أسر 5000 أو 6000 شخص.

وفي أوت وصل الأسطول إلى طرابلس الغرب التي كانت قاعدة فرسان مالطة منذ 1510 ومنها ينطلقون لمهاجمة التجار المسلمين. وبعد حصار دام تسعة أيام استسلمت القاعدة. فأمام عدم التكافؤ الكبير بين القوى أجبر المرتزقة الكالابريون والصقليون (وعددهم 650 مقاتلا) فرسان مالطة الثلاثين أن يقبلوا الاستسلام[1].

إن فتح طرابلس الغرب اعتبره العثمانيون انتصارا كبيرا رغم تواضع المدينة في تلك الآونة وضعف الحامية التي كانت تحتلها. إن طرابلس الغرب

---

1. كان الأسطول العثماني مؤلفا من 99 قادسا و15 غليوطة و3000 إنكشاري والبحارة حسب الوثائق الرسمية المنشورة في دراسات بيراسيموس وفانشتين السابقة الذكر. أما الأرقام التي وردت في كتب بعض المؤلفين الغربيين فهي أعلى من هذه الأرقام. كما هي العادة فإن الأرقام الرسمية الصحيحة تقل دائما عن أرقام المؤلفين.

Scanné avec CamScanner

ستزداد أهميتها وتقوى بعد بضع سنوات سواء بوصفها عاصمة إيالة يحكمها بيلرباي أو كقاعدة قرصنة يقودها رجال من طراز مراد آغة واليها الأول وخلفه درغوث. كما أن قيمتها ستكبر كمركز استقطاب للذهب السوداني الذي استمر في الوصول للقواعد المغاربية مدة أكثر من قرن. وبعد عملية طرابلس بدأت فترة جديدة من الحرب العامة في أوربا والبحر المتوسط حيث تحالف العثمانيون والفرنسيون من جديد ضد شارلكان.

الحرب والدعاية

شن الاسبان حملة دعاية قوية حول قضية طرابلس الغرب. فقد استغلوا جانبا حساسا بطريقة تشبه وسائل الدعاية في حروب اليوم. ذلك أن الموضوع شديد الحساسية لأنه يتعلق «بفرسان القديس يوحنا» حصن الحروب المقدسة ضد المسلمين وفوق كل ذلك كان معظم هؤلاء الفرسان من أصل فرنسي. وهكذا أذيعت بشكل واسع نشرات تهاجم هنري الثاني ملك فرنسا متهمة إياه بأنه شارك العثمانيين في هذا الهجوم. واضطر الملك الفرنسي إلى التدخل لدى فرسان مالطة طالبا منهم تبرئة الفرنسيين. وقد كرر هذا الزعم المؤلف الاسباني لوبزدي غومارا[1] الذي اتهم الفرنسيين بأنهم ساعدوا المسلمين في تقتيل الفرسان المسيحيين كما زعم أحد التقارير الاسبانية أن 30 قادسا فرنسيا أو أكثر شاركت في حصار طرابلس الغرب[2].

إن الواقع الذي استغله الاسبان وحرفوه هو أن السفير الفرنسي دارامون D'Aramon بعد القيام بمهمته في الجزائر ذهب للبحث عن سنان باشا لإقناعه بعدم مهاجمة طرابلس الغرب والتوجه بدلها إلى المهدية. وكان مسافرا مع حاشيته على ظهر قادسين وغليوطة. وحين مر بمالطة علم أن

1. F. Lòpez de Gomara, *Annals…, op.cit.*, p. 145
2. Ch. De la Véronne, *Oran…, op.cit.*, p. 308

Scanné avec CamScanner

الأسطول العثماني متجه نحو طرابلس الغرب. وذهب لملاقاته وكان إذن في المياه الطرابلسية عندما حاصرها العثمانيون وقد قام بدور الوسيط ونجح في إنقاذ حياة وحرية الفرسان المحاصرين ونقلهم في سفنه إلى مالطة بعد استسلامهم.

مهارات دبلوماسية



يمكن في هذا المجال التمييز الدبلوماسي بين ما هو جزء من العلاقات الرسمية بين الدول وما يمكن إرجاعه إلى نشاط القرصان المستقلين الذين ليسوا تماما معتبرين رسميا من رعايا الدولة المعنية. وهذا التمييز يظهر واضحا في الدراسة الموثقة التي كانت مقدمة[1] لكتاب نيكولاي. فحتى بعد أن رفض الاسبان إرجاع المهدية، لم يهاجمهم سنان باشا وإنما بعث «القرصان» درغوث يخرب أوغستا ومحلات أخرى في صقلية. أما هو فقد هاجم مالطة «وكر القرصان» وتفادى المهدية التي هي بيد الاسبان وهاجم طرابلس الغرب «قاعدة القرصان المالطيين». من الجانبين كانت الدولتان تستعملان زبائنهما القرصان لكن ظاهريا لا توافق على تصرفاتهم في وقت السلم. لكن هذه المهارات الدبلوماسية لم تمنع نشوب الحرب من جديد لأسباب متعددة تبدو أهم وأخطر في نظر كل من الفريقين.



في الواقع أن حرب القرصنة بدأت من الطرفين الفرنسي والاسباني بأسابيع قبل إعلان الحرب رسميا بين هاتين الدولتين. ففي أوت 1551، أي في حين كانت طرابلس الغرب محاصرة، استولت قوادس فرنسية على سفن اسبانية كما أن الاسبان استولوا على سفن فرنسية في المياه الهولندية. أما التعاون العثماني-الفرنسي فلم يبدأ إلا في 1552.

1. M-Ch. Gomez Géraud et S. Yérasimos, *Introduction à l'ouvrage de N. de Nicolay, Dans l'empire de Soliman Le Magnifique*, Paris, Pr. Du CNRS, 1989, p. 19-21.

الحملات البحرية الفرنسية-العثمانية (1552-1558)

عند مطالعة المراسلات الرسمية الفرنسية والعثمانية[1]، تتكون لدى القارئ عن الحروب في إيطاليا وكورسيكا فكرة بعيدة تماما عن المزاعم المعتادة حول «التخريبات التركية-البربارسك». إن هذه الوثائق تبين أن الفرنسيين كانوا يأملون رسميا اجتياح وتخريب هذه المناطق وأن هذه الاكتساحات قد أمر بها رسميا السلطان العثماني. كما أن هذه الوثائق تنير جوانب من تصورات وعقليات ذلك الزمان لا نشير إليها إلا عرضا وباختصار كبير.

بعد المرور بطرابلس الغرب، واصل السفير الفرنسي رحلته إلى استنبول مرورا بمالطة وبعث تقريرا عن رحلته إلى الملك الفرنسي هنري الثاني في مراسلة[2] مؤرخة في 16 أوت 1551. وهو يعبر فيها عن أمله بأن درغوث ورفاقه، «سيجتاحون ويخربون ما استطاعوا في صقلية... وكذلك في مناطق كالابريا Calabre والپوي Pouilles». إن اجتياح هذه المقاطعات هو في نظر الفرنسيين إضعاف للعدو الاسباني الذي كان يسيطر عليها وهو نفس الهدف الذي يرمي إليه درغوث الذي يقصد أيضا أن يأسر أكبر عدد من الناس ويحرز على ما أمكن من الغنائم. وكانت قيمة الأسرى كبيرة سواء عند افتدائهم أو لأن جزءا منهم كان ينضم لطائفة العلوج المتزايد دورها في القرصنة المغاربية.

وفي شتاء 1551-1552 بذل الفرنسيون كثيرا من المساعي في استنبول للحصول على مساهمة الأسطول العثماني في مشروعهم الرامي إلى الاستيلاء على مملكة نابولي. واتفق الطرفان على تنظيم حملة مشتركة من الأسطولين العثماني والفرنسي وعلى أن يلتقي الأسطولان في مياه نابولي.

---

1. انظر E. Charrière, *Négociations...*, *op.cit.*, t II, p. 205 sq والوثائق التي نشرها Ribier بعنوان *Lettres et mémoires d'Etat...*, Paris. 1677, t II ، والوثائق العثمانية في دراسة G. Veinstein المنشورة في مجلة *ROMM*, 1985, p. 36-37

2. نشرها Ribier ونقلت في مقدمة نيكولاي المذكورة آنفا ص 22.

Scanné avec CamScanner

السلطان والرياس

في 3 ماي 1552، أعطى السلطان الأمر لسنان باشا أن يبدأ الحملة وأوضح له أن عليه أن يحقق الاتصال بالأسطول العثماني قرب نابولي وأن لا يترك التشكيلات البحرية تبتعد عن بعضها في المناطق الخطرة وأضاف: « سوف لا تبقى ساكنا بل ستحرق وتنهب وتخرب الأراضي التابعة للعدو الملعون التي تصل إليها»[1]. وأرسل الديوان السلطاني أوامر إلى درغوث وإلى صالح رايس بالمساهمة في الحملة بأساطيلهما. وكما يلاحظ جيل ڤاينشتاين[2] فإن السلطان العثماني حين يتوجه إلى هؤلاء القرصان يخاطبهم بلهجة لا يستعملها عادة مع موظفيه وتابعيه. ففي الأمر الذي بعثه إلى درغوث في 14 أفريل 1552 «يحيي السلطان قيمته وبسالته ومهارته وتمكنه من المعرفة البحرية»[3]. كذلك في رسالة السلطان إلى صالح رايس الذي وصل إلى الجزائر في نهاية أفريل بعد تعيينه بيلرباي الجزائر. وكانت الرسالة مؤرخة في 7 ماي 1552. و«مثل الرسالة إلى درغوث، يبدأ السلطان بتحية خصاله الكبيرة وتجربته ومهارته في أمور البحر وحسن معرفته بحالة العدو... كما يشيد السلطان بالخدمات الكبرى التي قدمها»[4].

ومنذ جانفي 1552 كتب السفير الفرنسي Aramon من استنبول إلى هنري الثاني يخبره بتعيين صالح رايس بيلر باي الجزائر، ويصفه بأنه «شخصية لها حسن تدبير وسلوك غير الذي يوصف به... ملك (حاكم) الجزائر السابق». والسفير كما هي عادة ذلك الزمن يستعمل كلمة roy (ملك) يقصد بها حاكم أو والي الجزائر. ولم تكن الكلمة تعني الملكية ذات السيادة الكاملة كما هي في

---

1. مقدمة نيكولاي، المصدر السابق، ص 23

2. G. Veinstein, *art.cit.*, p. 36-67

3. نفس المصدر

4. نفس المصدر

Scanné avec CamScanner

عصرنا الحديث وهو يشير إلى حسن باشا بن خير الدين الذي رفض أن يلبي طلباته وكان السفير المذكور قد لقي بعض الصعوبات حين مروره بالجزائر.

في مراسلات أرامون مع هنري الثاني، يتحدث عن مآثر درغوث وحسن نيته نحو الملك الفرنسي. وقد كتب هنري الثاني رسالة في جوان 1552 «إلى السيد العظيم درغوث باي»[1] يهنئه ويؤكد مناصرته له.

في الواقع لم تكن حملة 1552 مرضية لأي من الطرفين. فحسب الاتفاق بينهما اتجه سنان باشا نحو ناپولي وفي طريقه هاجم ريجيودي كالابر وپوليكاسترو. وفي خليج ناپولي انتظر الأسطول الفرنسي الذي بقي في مياه كورسيكا لأنه كان متخوفا من أسطول دوريا الذي كان مسيطرا على خط المرور بين جنوة وكورسيكا. وحاول السفير الفرنسي آرامون الذي كان مصاحبا للأسطول العثماني أن يقنع سنان باشا بمواصلة الطريق لإجبار دوريا على الفرار. وفي النهاية أقنع درغوث سنان باشا بالاتجاه غربا والتقى الأسطول العثماني بأسطول دوريا وهزمه وأجبره على الفرار واستولى على 7 قوادس محملة بالجنود الاسبان. ثم قرر العثمانيون العودة إلى قواعدهم. ولم يغادر الأسطول الفرنسي كورسيكا إلا في 25 أوت قاصدا الالتحاق بالأسطول العثماني في المياه الإيطالية. وطلب قائد الأسطول الفرنسي من سنان باشا أن يعود أدراجه نحو ناپولي. لكن القائد العثماني قرر بالاتفاق مع نائبه درغوث أن يواصل طريق العودة واقترح على القائد الفرنسي أن يأتي معه لقضاء فصل الشتاء قي الشرق. ووافق القائد الفرنسي على هذا الحل. وهو كما يقول مؤرخ فرنسي[2] الحل الأكثر تعقلا نظرا لاقتراب فصل الخريف غير المناسب.

---

1. رسالة منشورة في E. Charrière, *Négociations*..., t II, chap. IV

2. Jean Béranger, « La politique française en Méditerranée au XVI^e siècle et l'alliance ottomane » *in La guerre de course en Méditerranée (1515-1830)*, éd. Par M. Vergé-Franceschi et A-M. Graziani, Ajaccio, 2000, p.18.

Scanné avec CamScanner

تحالف مرتج

أثناء حملة 1553 كان الأسطول العثماني (94 سفينة منها 70 قادسا) والأسطول الفرنسي (24 قادسا وغليوطتان) يعملان معا في صقلية. واستوليا على جزيرة بنتيليريا Pantelleria حيث التحق بهما أسطول الجزائر. وأدت العمليات المشتركة إلى الاستيلاء على جزيرة إلب Elbe وعلى الجزء الأكبر من كورسيكا ومواقعها الرئيسية. من جهة أخرى هاجم صالح رايس على رأس 40 قادسا وغليوطة جزيرة ميورقة دون تحقيق نتائج مهمة ثم اتجه إلى جبل طارق حيث استولى على عشر سفن اسبانية وبرتغالية.

إن حملة 1553 كان فيها نتائج مرضية للفرنسيين لكنها لم تكن مرضية لدرغوث الذي تشكى من الفرنسيين ومن سنان باشا. فأسطول درغوث هو الذي تكفل بنقل القوات الفرنسية إلى كورسيكا ومحاربوه دفعوا ثمنا غاليا (500 قتيل في الاستيلاء على بونيفاسيو Bonifacio) وقدموا تضحيات كبيرة من أجل فتح كثير من المواقع لحساب الفرنسيين. ففي نظر درغوث أن الفرنسيين اكتسبوا مواقع ومناطق بفضل جهود قواته ولم يقدموا له ثمن هذه الجهود. ولهذا هددهم بالانسحاب واستطاع الحصول على تعهد بمبلغ من المال من القائد الفرنسي ومن سمبيرو كورسو Sampiero Corso زعيم الثوار الكورسيكيين الموالين للفرنسيين.

أما القائد العام للأسطول العثماني سنان باشا فقد كان يغار من الدور المتزايد الذي أصبح لنائبه درغوث واستغل قضية شكاوى البندقية من درغوث فحاول معاقبته. لكن بعد بضعة شهور توفي سنان وعين درغوث على رأس الأسطول في حملة 1554. وفي هذه السنة كان الفرنسيون يشتكون من قلة التعاون التي أظهرها درغوث حيث تأخر في الالتحاق بقواتهم التي كان الأسطول الجزائري يساعدها في كورسيكا وشواطئ توسكانا. والحقيقة أن

Scanné avec CamScanner

تجهيزات أسطوله كانت ضعيفة وفضل جمع الغنائم بقدر الإمكان وهاجم منطقة الپوي واستولى على ڤست Veste حيث أسر 6000 شخص فيما يقال.

وفي 1555 كانت الحملة بقيادة الكاپودان باشا پيالي باشا وهو شاب ليس له تجربة عسكرية واعتمد على مساعدة نائبه درغوث الذي عين بيلرباي طرابلس الغرب بعد وفاة مراد آغة في نفس السنة. وبعد انضمام أسطول الجزائر إليه، ساعد الأسطول العثماني الفرنسيين في عملياتهم بكورسيكا وتوسكانيا وقام ببعض العمليات في المياه الإيطالية الجنوبية وفي مقاطعة كالابرية.

ولم تنظم حملة مشتركة فرنسية عثمانية في 1556 و1557. أولا بسبب الهدنة المبرمة في جوان 1556 بين فرانسوا الأول وشارلكان. وبعد نقض الهدنة كان للعثمانيين دوافعهم الخاصة لتخفيض نشاطهم في البحر المتوسط.

وقررت حملة مشتركة في 1558 لكن الأسطول العثماني بقيادة پيالي باشا بعد سلسلة من الهجمات على ريجيو وسورنت وكاييت ومينورقة انتظر بلا جدوى الأسطول الفرنسي قرب بونيفاسيو. في النهاية اجتمع قادة الأسطولين قرب مرسيليا لبحث التدابير الخاصة بالعمليات القادمة. أما پيالي فإنه رفض المشروع الفرنسي الهادف إلى احتلال مناطق جديدة لصالح الفرنسيين لكن بفضل الوسائل التي يوفرها الأسطول العثماني.

وقد فسر البعض قلة المساهمة العثمانية في العمليات المشتركة بأن پيالي وغيره من القادة العثمانيين تلقوا رشاوى من قادة المواقع والمناطق المستهدفة حتى لا تتعرض لهجوم من طرف العثمانيين ومهما كانت صحة هذه الاتهامات التي قد يكون بعضها محتملا فهناك أسباب أخرى أساسية يجب اعتبارها.

إن أوامر السلطان العثماني مراعاة للظروف العامة نصحت قادة الأسطول بالحذر والحد من عملياتهم كما تبينه الوثائق التي نشرها ڤايشتاين في مقاله الآنف الذكر. وفعلا كانت الحرب ضد الصفويين حيث جند ما يقدر بنحو

Scanné avec CamScanner

300000 جندي عثماني حسب شهادات المعاصرين. وكان الجيش العثماني يخوض الحرب كذلك ضد الهابسبورج في المجر وكان جزء من الأسطول قد أرسل إلى البحر الأحمر ضد البرتغاليين بينما كانت تدور في الساحة المغاربية معارك حاسمة ضد الاسبان وكان للأسطول في هذه المعارك دور هام كما سيتبين في الفصل القادم.

Scanné avec CamScanner

الفصل السادس

من صالح رايس إلى علج علي

إن الأحداث المتوالية في سنوات 1550 تظهر انكماش نفوذ الاسبان وحلفائهم في الأقطار المغربية. وهو انكماش يعود الدور الرئيسي فيه إلى الطاقة الهجومية للجزائر. ومن أجل تحديد مسيرة الأحداث، ينبغي أولا تحديد مكانة الشخصيات التي قامت بالدور الرئيسي ومن خلالها إظهار طبيعة العلاقة بين الأقطار المغربية واستنبول في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

صالح رايس

ولد في الإسكندرية حسب البعض أو في غربي الأناضول حسب آخرين. وكان صالح رايس مع درغوث وسنان رايس من أهم رفاق برباروسة. ومنذ 1529 كان يعتبر في طليعة رياس الجزائر. وقد اشتهر بالأخص بدوره الحاسم كقائد تشكيلة في معركة لابريفيزا وفي عمليات كبرى تالية ثم كنائب للقائد العام للأسطول العثماني. ومثل خير الدين ودرغوث كانت له تجربة طويلة في أقطار المغرب والصراعات السياسية والعسكرية الدائرة في النصف الغربي من البحر المتوسط.

في جانفي 1552 عين بيلرباي الجزائر في ظروف مغربية ودولية معقدة يمكن توضيحها انطلاقا من دراسة بعض الوثائق العثمانية.

ليس من الأمور العادية أن يكتب السلطان العثماني لأعيان إيالة لتزكية والٍ جديد مرسل إليهم. إن رسالة السلطان إلى أهالي الجزائر مرتبطة بظروف

Scanné avec CamScanner

خاصة تشرحها رسالتان أرسلهما السلطان إلى ملك فاس. والرسائل الثلاث[1] تحمل نفس التاريخ (بداية جانفي 1552) وهي محررة باللغة العربية، كما هو الحال آنذاك حين توجه الرسائل إلى أهالي العالم العربي.

تبدأ الرسالة الموجهة إلى أهالي الجزائر بتعيين الفئات المعنية بها من «العلماء والفضلاء والفقهاء والأئمة والخطباء وجميع الصلحاء والقواد والنقباء وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية» وتعلمهم أن صالح باشا عين بولاية الجزائر «لفرط شهامته وشجاعته وكمال قوته وصلابته وحسن سيرته وصفاء سريرته» وتأمرهم بطاعته والاتحاد حوله.

وفي الرسالة الأولى إلى السلطان السعدي محمد الشيخ، يشرح سليمان القانوني بأن حسن باشا عزل لأنه « لم يحسن المجاورة مع جيرانه» ويشيد بخصال الوالي الجديد صالح باشا على نسق ما جاء في الرسالة إلى أهل الجزائر ويخبره أنه أمر صالح باشا بالتعاون معه وأن يعمل لاتفاق أمراء الإسلام ضد الكفار، الخ. ويدعوه إلى العمل بنفس الاتجاه.

أما الرسالة الثانية فإلى جانب التعابير الفخمة من طراز ذلك العصر تخبر «حاكم فاس يومئذ الشريف محمد» بأنه «حباك إحساننا الشريف العالي السلطاني..فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية».. الخ.

إن صالح رايس في البداية تصرف مع الملك السعدي طبقا للأوامر السلطانية وذهب إلى حد أنه منحه الغنائم الهامة التي أخذها من الاسبان والبرتغاليين في حملة جبل طارق. لكن العلاقات توترت بسرعة بينهما. ومن الواضح أن سلوك العثمانيين كان منطلقا من دراسة الأوضاع الدولية. فقد تجددت الحرب مع شارلكان وتفاقم الصراع مع الصفويين مما دفع العثمانيين إلى المرونة في مواقفهم في الجبهات الأخرى.

1. خليل الساحلي «تقليد صالح باشا ولاية جزائر الغرب سنة 1552»، م ت م، عدد 2، جويلية 1974 ص 125 - 133.

Scanné avec CamScanner

من جهة أخرى كان لمحمد الشيخ دوافعه في رفض العروض العثمانية. إنه شخصية قوية له مطامح كبيرة ولم يكن يقبل اللهجة المتعالية التي استعملها السلطان العثماني الذي اعتبره كأنه أحد ولاته وأنه أنعم عليه الخ. ويصفه بأنه «حاكم فاس» بينما كان محمد الشيخ أعلن نفسه خليفة المسلمين وأمير المؤمنين منذ استولى على فاس وقام بحملة على تلمسان يحاول الاستيلاء عليها وعلى منطقتها. ولم ينجح في المحاولة الأولى فعاود الكرة في السنة التالية بجيش قوي تحت قيادة ثلاثة من أبنائه وقد هزم هذا الجيش المتكون من حوالي 17000 مقاتل من طرف صفا قائد تلمسان. ولم تمنعه هذه الهزائم من الثبات في موقعه خصوصا في الظروف العامة المحيطة بالعثمانيين الذين كانوا يحاربون على جبهتين في نفس الوقت مما جعل محمد الشيخ يعتبر أن الفرصة سانحة لتوسيع المناطق التابعة له وتوطيد حكمه.

مع ذلك استقبل محمد الشيخ بكثير من الحفاوة سفير صالح رايس، الشيخ محمد الخروبي الذي جاء للتفاوض في إنهاء النزاع وتأكيد خط الحدود بين القطرين. وتم الاتفاق بين الجانبين لكن الصلات الودية كانت قصيرة الأمد. فقد كان محمد الشيخ يعتبر أن الظروف ملائمة للتوسع على حساب حكام الجزائر الذين كانوا يواجهون صعوبات كبيرة في المناطق الشرقية.

حملات صالح رايس

في رسالة[1] بعثها أعيان قسنطينة في نوفمبر 1555 إلى سليمان القانوني للإشادة بدور صالح رايس وحملاته الثلاث المظفرة، تظهر بشكل مبطن الصعوبات الداخلية التي أدت إلى فرض هذا الصنف من إعلان الولاء على

1. د. ناصر الدين السعيدوني، رسالة من أعيان قسنطينة إلى السلطان سليمان القانوني في شأن صالح رايس (963 هـ/1555م) في كتاب تحية تقدير للأستاذ شارل روبير أجرون، إعداد وتقديم الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات افترسي-زغوان، 1996، الجزء الثاني ص 161 - 177.

Scanné avec CamScanner

الأعيان. محتوى الرسالة باختصار أن صالح باشا في سنته الأولى مهد البلاد ونشر فيها السلم والاستقرار وفي سنته الثانية هزم أعداء الملة إلى أن أجلاهم إلى المغرب الأقصى وفي العام الثالث حرر بجاية من يد أعداء الدين. وتشيد الرسالة بخصال صالح باشا وتكثر من تعابير الولاء والطاعة والإجلال للسلطان العثماني. وبالمقارنة مع رسائل مماثلة، منذ أول رسالة بعثها أعيان الجزائر في 1519 إلى السلطان سليم الأول إلى آخر رسالة منهم إلى السلطان العثماني في 1818 تطلب من السلطان رعاية وحماية داي الجزائر الجديد حسين باشا، يمكن القول عموما أن هذه الرسائل كلها كانت مرتبطة بظروف أزمة أو صعوبات داخلية كبيرة تجعل الحكام يوحون إلى الأعيان بكتابة هذا النوع من الرسائل إلى استنبول.

وكون المبادرة جاءت من قسنطينة يرجع في نظرنا إلى الوضع الخطير الذي عرفته قسنطينة ومنطقتها فقد اندلعت فيها ثورة منذ سنوات واستمرت الإضطرابات إلى أن مهد صالح رايس الأوضاع واستطاع إخضاع قسنطينة ومنطقتها من جديد. فقد كان صالح رايس قاد في 1552 حملة في شرق وجنوب القطر أوصلته إلى توقرت وورقلة اللتين أجبرهما على دفع إتاوة للجزائر وكانت هذه المدن الجنوبية من أهم محطات تجارة الذهب السوداني وأجبرت كذلك على دفع كميات كبيرة من الذهب لصالح رايس. وبخصوص هذه الغنائم تذكر الحوليات أن نزاعا وقع حول اقتسامها بين صالح رايس وأمير قلعة بني عباس الذي اعتبر أن نصيبه منها لم يكن بالقدر الذي بذله جيشه في هذه الحملة. وانتشرت الثورة وامتدت إلى المناطق الشرقية وإلى قسنطينة. ويبدو حسب بعض هذه الحوليات أن الإضطرابات لم تنته تماما إلا في سنة 1559 بعد رجوع حسن باشا بن خير الدين إلى الحكم.

Scanné avec CamScanner

ولتجنب مثل هذه الإضطرابات ضاعف صالح باشا الحاميات في أبراج المدن ووطد دعائمها ونظم طرق تعاملها مع قياد وشيوخ الأوطان المعنية.

وفي الغرب، جدد الملك السعدي تدخلاته في مناطق الحدود وعقد تحالفا مع الاسبان. وكان يعتمد أيضا على شيوخ القبائل والطرق الدينية المعادية للأتراك. أما صالح رايس فقد كان بيده بعض وسائل النجاح. فعندما استولى على السفن الاسبانية والبرتغالية وعلى ميناء باديس عثر بين المأسورين على أحد الأمراء الوطاسيين، هو أبو حسون وأتى به إلى الجزائر. والوطاسيون كانوا ملوك فاس إلى أن طردهم منها محمد الشيخ في 1549. وكان لهم أنصار كثيرون حتى في صفوف جيش السعديين. وكان أنصار الطريقة الجزولية التي ساعدت محمد الشيخ على الوصول إلى الحكم ثم انقلب عليها وسلط عليها القمع وكذلك أنصار أحمد بن يوسف العديدون في شرقي المغرب الأقصى مستعدين لمساندة الوطاسيين. إن تدخلات السعديين في مناطق الحدود أدت إلى اندلاع الحرب من جديد. وفي معركتين متتاليتين في تازة ثم قرب فاس هزم محمد الشيخ وانسحب إلى مراكش. ونصب صالح رايس بوحسون كملك في فاس في 1554 وجعل في ميناء باديس حامية تركية ثم رجع إلى الجزائر، لكن الملك الجديد بوحسون كان وضعه متخلخلا.

فالأموال الطائلة التي اضطر إلى تقديمها إلى صالح رايس أدت إلى ابتزاز الناس وإفقارهم وبالتالي سخطهم[1]. وكان محمد الشيخ قد استطاع بسرعة أن يستعيد قواه ويملك المبادرة. فعبأ جيشا قويا وتقدم نحو مدينة فاس وأثناء المعركة التي كان بوحسون بصدد كسبها، قتل هذا واسترجع محمد الشيخ فاس وبدأ يتجهز لمواجهة حكام الجزائر من جديد. ولهذا الغرض اتفق مع الاسبان على عمل مشترك ضد الأتراك.

---

1. يذكر أ. كور في كتابه: A. Cour, *L'établissement..., op. cit.*, p. 115-1116 أن فاس دفعت لصالح رايس 400 ألف مثقال من الذهب.

Scanné avec CamScanner

إن المراسلات الاسبانية[1] توضح النقاط الرئيسية في هذه المفاوضات. فقد عرض محمد الشيخ على الاسبان أن يقود بنفسه 30 ألف فارس إذا منحه الاسبان 12 ألف جندي سيقوم هو بتمويل تجهيزهم ويدفع مقدما 100 ألف مثقال ذهب كأجرة مسبقة لهؤلاء الجنود. وفي رسالة مؤرخة في 9 أوت 1555 بعثها الكوديت إلى وريث العرش الاسباني يقول فيها: «يبدو أن الله تولى بنفسه تسيير هذه المفاوضات التي لها أهمية كبرى في خدمة صاحب الجلالة (ملكنا) وفي خدمة معاليكم».

واطلع صالح رايس على هذه الاستعدادات وأعد حملة على الاسبان. وفي سبتمبر 1555 استولى على بجاية وحصل فيها على غنائم غنية ونحو 600 أسير. ثم طلب مساعدة الأسطول العثماني لتنظيم هجوم على وهران والمرسى الكبير. وفي جوان 1556 مات بالطاعون في الوقت الذي كان يتهيأ فيه لقيادة الجيش إلى وهران. وتولى نائبه حسن قورصو الحكم بالوكالة فقام بحصار وهران وهكذا منع الاسبان من تنسيق قواهم مع السعديين. وهذا لم يمنع محمد الشيخ من اغتنام فرصة الأزمة السياسية التي تلت موت صالح رايس للقيام بهجوم جديد على المناطق الجزائرية الغربية.

هذه هي الحالة عند تولي حسن باشا بن خير الدين الحكم من جديد في الجزائر.

عودة حسن باشا

وصل حسن باشا بن خير الدين إلى الجزائر في صيف 1557. وكان رجوعه مرتبطا بالحالة الداخلية في الجزائر وبالسياسة العثمانية الجديدة بعد فشل محاولات التهدئة إزاء السعديين.

1. أنظر E. de la Primaudaie, *Documents...*, *op. cit.*, *RA*, 1877, p. 288 sq وبالأخص رسائل ألكوديت في صيف 1555.

Scanné avec CamScanner

على الصعيد الداخلي، عرف الحكم أزمة خطيرة تمثلت في رفض استقبال الباشا الجديد المبعوث من استنبول وهو محمد تكالي. ولشرح هذه الأزمة يبسطها هاييدو[1] متبوعا بدي غرامون زاعما بأنها صراع بين الانكشارية والرياس. لكن عندما نتمعن عن قرب في وظائف وأصول ومسارات أهم الأطراف المشاركة في الصراع على الحكم، يتبين أنه كان يوجد في كل من الجانبين المتصارعين قياد وأغوات من الإنكشارية وبعضها كان من رياس البحر، وكذلك رياس كانوا أيضا من قادة الإنكشارية في الجيش، كذاك في كل طرف كان هنالك أتراك وعلوج. صحيح أن قائد رياس الجزائر، شلوق رايس وهو من أصل تركي كان له دور رئيسي في حل الأزمة لصالح الباشا القادم من استنبول لكن كان من بين مساعديه المقربين اثنان من القياد أحدهما مصطفى أرنووط الذي تولى الحكم بالوكالة بعد مقتل تكالي. إن هذا الأخير لم يكن في مستوى المسئولية على ما يبدو. فقد أظهر كثيرا من الجشع والشراسة ونشر السخط عليه في عدة أوساط مما أدى إلى مقتله بعد مدة قصيرة من وصوله. والأهم من ذلك بدون شك هو أنه كان أول باشا يبعث إلى الجزائر من استنبول من خارج مجموعة القادة الذين أظهروا مقدرتهم وتدرجوا في المسئوليات في الديار المغاربية والذين كانوا من رفاق الإخوة برباروسة وخلفائهم أو من أبنائهم وأقاربهم وكان تعيين بيلرباي الجزائر يتم دائما من بين صفوفهم. وهذه التقاليد التي كان لها استثناء واحد هو تعيين الباشا محمد تكالي، ستظل معمولا بها بعد ذلك في العقود الثلاثة التالية.

إن اندلاع الأزمة في الجزائر أحيا الآمال في استرجاع الزيانيين لملكتهم في تلمسان. إن زعيم إحدى الفرق الزيانية القوية، منصور بن أبي غانم طلب من

---

1. Haëdo, *Histoire..., op. cit.*, p. 113 sq et H. de Grammont, *Histoire..., op. cit.*, p. 86 sq.

Scanné avec CamScanner

محمد الشيخ أن يساعده على تنصيب حفيده ملكا في تلمسان. وأمام الهجوم المنسق بين السعديين والزيانيين تحصنت الحامية التركية في قلعة تلمسان ونظمت المقاومة بقيادة صفا وصمدت في وجه المهاجمين بانتظار وصول النجدة من الجزائر. وبعد وصول حسن باشا بن خير الدين إلى الجزائر بقليل هيأ جيشا قويا قاده بنفسه لتخليص تلمسان. فهزم السعديين وطاردهم حتى أبواب فاس. لكن خطرا جديدا ظهر في السنة التالية.

معركة جزائرية؟

بدأ المشروع الذي صاغه ألكوديت يتجسد في الواقع. فرغم قلة المال استطاع أن يجند آلاف المقاتلين في اسبانيا. وأعطاه الملك السعدي موافقته على التدخل بجيشه بالتنسيق مع الجيش الاسباني لتنظيم حركة كماشة تحصر بين فكيها جيش الجزائر. أما منصور بن أبي غانم فقد جند آلاف المقاتلين للمشاركة في المعركة ضد الأتراك. وهكذا كان يبدو أن للمعركة المتوقعة طابعا مصيريا حاسما.

كان الهدف الأول الذي سار نحوه ألكوديت هو مستغانم. وهي قاعدة هامة تتحكم في المواصلات بين الجزائر وتلمسان. إن تفاصيل المعركة التي جرت في المسافة الفاصلة بين مستغانم ومازغران (قرية على بعد 4كم من مستغانم) معروفة. فقد أوردها هاييدو[1] وغيره من المؤرخين وقام دي غرامون[2] بتحليل تفاصيلها من وجهة نظر الخبير العسكري المتميز. سنكتفي إذن ببحث بعض العناصر التي احتوتها القصيدة التي نظمها الاخضر بن خلوف بعد المعركة.

1. Haëdo, *Histoire..., op. cit*, p. 126-129

2. H. de Grammont, *Histoire..., op. cit.*, p. 89-91.

Scanné avec CamScanner

إن القصيدة[1]، عبارة عن رواية حقيقية للمعركة من طرف شاهد عيان، وهي تبدأ هكذا:

يا فـارس مـن ثـم جيت اليوم   قـصـة مازغـران معلـومـة

ثم يصف سير الجيشين نحو ميدان المعركة، وكان جيش الجزائر تتزايد قواته في كل مرحلة فمن كل الجهات كان المتطوعون يتوافدون ليلتحقوا «بسلطان عادل طاعته الأمة» وعند الاقتراب من مستغانم استبشر خير الدين بتدفق فرسان سويد وبني راشد وعبد الواد ومغراوة، الخ. إن اللوحة العامة للقوى القبلية المنضمة لجيش الجزائر تعطي للحركة طابعا «جزائريا».

والمهم أن الشاعر يشيد بفرسان هذه القبائل المسيطرة التي كانت في الماضي تتقاتل فيما بينها لأن بعضها يناصر الزيانيين وغيرهم يساند الحفصيين. وهي الآن مصطفة خلف نفس الراية.

وفي العادة كانت الإشادة بالانتصارات الكبرى هي من عمل شعراء وكتاب ومؤرخين رسميين ينفذون أوامر الحكام ويشيدون بهم. أما الاخضر بن خلوف هنا فحين يتحدث عن قائد المعركة يسميه «الأمير حسن» أو «ابن خير الدين» ويقول عنه أنه حين أتاه شيوخ سويد «قالوا يا مير لا تليان» عند ذاك «استشرح سلطاننا وزيان راها قومه الزاهية ترعد». بكلمة، إن القصيدة نشيد لتخليد مجد المقاتلين عموما. ألفه رجل تقي كانت قصائده عادة مخصصة للمدائح النبوية والأذكار الدينية. وتفاصيل المعركة كما يرويها لا تبتعد كثيرا عن رواية الاسبان. يقول الشاعر:

---

1. منذ نشرها Sonneck في مختاراته المسماة *Chants arabes du Maghreb*, P., 1902 ثم محمد قاضي في كتابه الكنز المكنون في الشعر الملحون، الجزائر ، 1928، عرفت القصيدة طبعات متوالية في عدة مختارات شعرية ودراسات. ويذكر المهدي البوعبدلي في مقدمته السابقة الذكر للثغر الجماني ص 22 وما بعدها، معلومات جديدة عن حياة الشاعر الذي كان من قادة معركة مازغران حسب البحاثة الكبير الراحل الشيخ البوعبدلي. وقد بقي الاخضر بن خلوف في منطقة مستغانم معتبرا إلى اليوم كأحد الأولياء يزار ضريحه وتنظم حوله مواسم شعبية.

Scanné avec CamScanner

حـزنـاهـم للسـور ذاك اليـوم تسـعة آلاف ابـقـات مغـنومة

من حيط الدشرة لحوض الدوم عشر آلاف امشات محطومة

وحسب دي غرامون كان عدد الاسبان في المعركة بين عشرة آلاف و12 ألف ومعهم عدة آلاف من الأهالي المتحالفين معهم. وقد قتل أو أسر كل الجيش الاسباني وقتل القائد العام ألكوديت وجرح ابنه الذي بقي في الأسر سنتين في الجزائر إلى أن افتدي بمبلغ كبير. إن توالي نشر قصيدة ابن خلوف منذ استقلال الجزائر يعني أن معركة مازغران أصبحت من معالم الذاكرة الجماعية الرسمية التي هي في طور التكوين والتجديد.

نتائج المعركة

إن انتصار حسن باشا يعود أيضا إلى هشاشة التحالف المعقود بين أنصاره. فقد كانوا كلهم عازمين على محاربة الأتراك لكنهم غير مستعدين أن يتركوا أحد حلفائهم يتقوى على حساب الآخرين.

ففي الوقت الذي كان محمد الشيخ في تلمسان أحوج ما يكون إلى مساعدة الاسبان، امتنع هؤلاء عن مساعدته إما لحسابات عندهم أو لأنهم كانوا غير مستعدين. وبعد موت محمد الشيخ الذي قتله في أكتوبر 1557 وفد مبعوث من الجزائر لهذا الغرض، فإن ابنه الذي خلفه في الحكم لم يشأ أو لم يستطع أن يتدخل إلى جانب الاسبان في الوقت اللازم.

أما منصور بن أبي غانم، فإن أنصاره أنفسهم هم الذين تخلوا عنه وانضموا إلى جيش الجزائر أثناء المعركة وهكذا وضعوا حدا نهائيا لمطامحه في بعث الحكم الزياني. وأدرك هذا الشيخ المستميت في الصراعات منذ عشرات السنين أن صفحة طويت وانسحب من الميدان السياسي بصفة نهائية. وبهذا المعنى أيضا يمكن أن يقال أن مازغران كانت معركة «جزائرية»

Scanné avec CamScanner

فقد أنهت وجود الأسر الملكية العتيقة والإمارات المتعددة التي كانت تعمل كل واحدة منها لحسابها الخاص. وبعد هذه المعركة أصبح الاسبان محصورين في وهران والمرسى الكبير ولم يعد لهم أي وجود على بقية الساحل الجزائري. وصارت موانئ الجزائر وعنابة وبجاية وشرشال وتنس ومستغانم مراكز لبحرية جزائرية لم تعد خاصة بمدينة بل بمجموع القطر الجزائري. إن كل الإمارات والمشيخات القبلية أصبحت تعترف بتبعيتها رسميا لدولة الجزائر. وإن كانت هذه النتائج لم تتوطد تماما. ففي داخل البلاد هناك مناطق جبلية أو صحراوية بقيت تبعيتها الرسمية لحكم الجزائر تتعرض للهزات.

وفي مجموع الأقطار المغاربية بقي الوجود العثماني غير مستقر وعرف صعوبات مختلفة. في 1556 انطلق درغوث من طرابلس الغرب في هجوم ضد المملكة الحفصية التي استعادت بمساندة الاسبان بعض سلطتها وكان الاسبان ما زالوا يحتلون حصن حلق الوادي. واستطاع درغوث بمساعدة الجزائر وجزء من سكان القطر التونسي أن يستولي على جربة وقفصة وصفاقس وأن يطرد الشابية من القيروان في نهاية 1557. لكن الجنوب الغربي من هذا القطر بقي بيد الشابية وتونس وجزء من الساحل بيد الحفصيين. ولهذا أرسل حسن باشا بن خير الدين ودرغوث وفدا إلى استنبول يطلب المساعدة العسكرية لطرد الاسبان نهائيا من كل المواقع المغاربية وتوحيد الأقطار المغربية داخل الإمبراطورية العثمانية.

في استنبول كان تطور الوضع الدولي وبعض العوامل الداخلية، منها الصراع بين حزب التدخل في البحر المتوسط وحزب التدخل شرقا، تتحكم في اتخاذ القرارات. وفي 1560 أرسل درغوث نائبه علج علي في مهمة عاجلة إلى استنبول لطلب التعجيل بإرسال الأسطول العثماني لمواجهة الهجوم الاسباني على جربة. وجاء الأسطول بقيادة پيالي رسميا وعلج علي عمليا فهزم العمارة

Scanné avec CamScanner

الاسبانية وأسر منها بين 10 آلاف و12 ألف شخص. ويلاحظ غودفري فيشر[1] أن الإنكليز حيوا هذا الانتصار وفرحوا به لأنه يبعد عنهم تهديد الأسطول الاسباني. إن هذا المثال وما هو من هذا القبيل يدفع إلى الحذر والتشكك في مصداقية من يبسطون صراعات ذلك الزمن في عبارات الجهاد الإسلامي والصليبية المسيحية.

بعد الانتصار رجع الأسطول العثماني إلى قواعده وبدأت المشاكل والصعوبات تظهر من جديد. فبقصد ضمان الوسائل الكفيلة بتوطيد الاستقرار في الحكم، عقد حسن باشا اتفاقات مع بعض الحكام المحليين وقرر أن يزيد من عدد الأهالي داخل القوات العسكرية وأن يجند عددا كبيرا من زواوة. وهذا القرار أثار تخوف الإنكشارية الذين اعتقلوا حسن باشا في جوان 1561 وأرسلوه إلى استنبول محاطا بجماعة من الضباط الذين كلفوا بأن يشرحوا للحكومة العثمانية أن حسن باشا كان يريد الاستقلال عن استنبول. لكن الحجج التي قدمها ابن خير الدين أقنعت العثمانيين واستطاع الرجوع إلى منصبه في 1562 وبأمر من استنبول قام بتنظيم حملة على وهران ومرسى الكبير. ورغم القوة النارية لدى جيشه فقد ردت كل الهجمات. ذلك أن المهندسين الاسبان حسنوا نظامهم الدفاعي بتقنيات جديدة مستوردة من إيطاليا: فكثافة الجدران والاستحكامات وإقامة شبكات اتصال وتحرك متقنة جعلت تقريبا من المستحيل الاستيلاء على هذه المواقع الدفاعية. وكما يلاحظ أندروهس[2] فإن هذه المعارك كانت توطئة لحملة مالطة.

---

1. Godfrey Fisher, Barbary Legend, L., 1957, tra. fr. *La Légende barbaresque*, Alger, OPU, 1991, p. 128.

2. Andrew C. Hess, *The Forgotten Frontier, A History of Sixteenth Century Iber-African Frontier*, Univ. Chicago Press, 1978, p. 82

Scanné avec CamScanner

حملة مالطة

إن الأوامر[1] التي أرسلها سليمان القانوني إلى حسن باشا ودرغوث وعلج علي وغيرهم من المسئولين في الأقطار المغربية تبين أنه كان يولي أهمية كبيرة لحملة مالطة. إن الوسائل التي استخدمت كانت عظيمة جدا بالنسبة للعصر. فالى جانب الأسطول (140 قادسا، 10 ماهونات، 20 سفينة دائرية) وجيش يتألف من 30 إلى 36 ألف جندي بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا، وصل من الجزائر 40 قادسا وسفن أخرى محملة بآلاف الجنود بقيادة حسن باشا. والتحق بهم درغوث بأسطوله وجيشه وقاد شخصيا الهجوم على حصن سانت إيلم الذي تم الاستيلاء عليه لكن درغوث أصيب بقنبلة أثناء الهجوم وتوفي. أما بقية الحصون فلم تسقط رغم تعدد الهجمات وقوتها. واستمر الحصار من 15 ماي إلى 12 سبتمبر 1565. وكانت قلة التنسيق وتأخر بعض القوى في الوصول إلى المعركة وقوة النظام الدفاعي واستبسال المدافعين بالإضافة إلى وفاة درغوث ووصول النجدات الاسبانية جعلت مصطفى باشا يقرر رفع الحصار. وكان هذا الفشل حادثا له أصداء في منتهى الضخامة. فسكان طرابلس الغرب بدأوا يغادرون مدينتهم مخافة هجوم مسيحي[2]. وأرسل علج علي بسرعة كبيلرباي جديد في طرابلس الغرب فهدأ الأوضاع ووضع حدا لحالة الذعر.

علج علي

إن مسار هذا الرجل ورحلته الطويلة نحو القمة وهي رحلة مراحلها جزائرية ومغاربية وعثمانية، تجسد بطريقتها تداخل هذه المجالات والسير نحو الاستقطاب في إيالات مغاربية متميزة.

---

1. د. خليل الساحلي، وثائق عن المغرب العثماني في أثناء حرب مالطة سنة 1565، م ت م، عدد 7 - 8، جانفي 1977، ص 40 - 60 وأحمد توفيق المدني، من وثائق الجزائر العثمانية: العثمانيون والجزائريون يستعدون لإنقاذ هران وحصار مالطة، م ت، الجزائر، 1975 ص 37 - 47 و A. S. Ilter, *Şimali Africada Türkler*, Istanbul, 1936-1937, t 1, p. 140sq
2. خليل الساحلي، المصدر السابق.

ولد علج علي في حوالي 1520 في منطقة كالابريا في جنوب إيطاليا وكان حسب برنتوم[1] قسا أسر حين ذهابه إلى نابولي للدراسة وأتي به إلى الجزائر في حوالي 1536. وبقي عدة سنوات يجدف في قوادس الجزائر ثم دفعته الرغبة في الانتقام من أحد خصومه إلى اعتناق الإسلام. وتدرج بسرعة في سلم المسئوليات إلى إن أصبح من رياس البحر الشهيرين. والتحق بدرغوث في جربة وساهم معه في الهجمات على السواحل الإيطالية والاسبانية ابتداء من 1547. وفي 1551 كان أحد أكبر الرياس الذين قدمهم درغوث لسليمان القانوني. وبقي في خدمة درغوث حين تولى الأخير ولاية طرابلس الغرب في 1555. وساهم كقائد تشكيلة في عدة حملات ومعارك خاضها الأسطول العثماني. وبعد تعيينه على رأس إيالة طرابلس الغرب في 1565، استطاع إخماد الثورة الواسعة التي قادها رجال الدين وشيوخ القبائل في هذه الإيالة منذ سنوات ووضع حدا نهائيا لها في 1557. وفي جوان 1568 عين بيلر باي الجزائر خلفا لمحمد باشا بن صالح رايس الذي كان في السنة السابقة قد خلف في هذا المنصب حسن بن خير الدين الذي استدعي إلى استنبول.

وحسب وثائق عربية نشرها عبد القادر نور الدين[2]، بدأ علج علي حال وصوله في تحصين الجزائر وتقوية الجيش وتعزيز أسلحته وعتاده الحربي ونشر السلم بين مختلف المسئولين المحليين المتنازعين في الشرق والغرب وبدأ في بناء برج باب الواد. ومنذ 1569 قام بمد المجاهدين الأندلسيين بالرجال والأسلحة. لكن هذه الثورة الأندلسية الواسعة كانت حاجتها إلى السلاح والإطارات تزيد كثيرا عما كان يصلها من نجدات. وعندما بلغت هذه الثورة

1. Brantôme, *Oeuvres complètes*, P., 1858-1895, t II, p. 63

2. A. Noureddine « Un épisode de l'histoire de l'Ancien Alger », *in Mélanges E-F. Gautier*, Tours, 1937, p. 395 sq

Scanné avec CamScanner

أوجها في الأندلس، قام علج علي بهجوم على تونس التي استولى عليها وطرد منها السلطان الحفصي أحمد الذي خيب آمال السكان فيه. وترك علج علي حامية من الانكشارية في تونس وعين على القطر نائبه القايد رمضان وعاد هو إلى الجزائر. لكن القلعة الحصينة في حلق الوادي بقيت بيد الاسبان وعدم الاستقرار بقي يسود بعض مناطق القطر التونسي. وبعد رجوعه إلى الجزائر أعطى علج علي للقرصنة دفعة جديدة كانت لها آثار بعيدة.

وفي 1571 غادر الجزائر للقيام ببعض العمليات في شرقي البحر المتوسط ثم التحق بالأسطول العثماني للمشاركة في معركة ليبانت Lépante . وكانت هذه المعركة أعظم هزيمة ونكبة عثمانية في القرن السادس عشر. فأكثر من 200 سفينة أسرت أو أغرقت و30 ألف مقاتل قتلوا أو جرحوا و3000 أسروا[1]. واستطاع علج علي أن ينقذ 30 أو 40 قادسا أو أكثر حسب بعض الروايات. إن دوره في ليبانت جعل السلطان العثماني يمنحه لقب قلج (السيف) ويعينه في منصب كاپودان باشا وبقي فيه من 1571 إلى حين وفاته في 1587. وطوال هذه السنوات بقي على صلة وثيقة بالإيالات المغاربية وكان له نوع من الإشراف والسلطة على أساطيل هذه الأقطار كما أن المدة الطويلة التي قضاها في هذه الديار وصلاته الشخصية بالمسئولين فيها من ولاة وقادة أسطول ورياس الخ. وكثير منهم كانوا من رفاقه، جعلته يولي اهتماما خاصا بهذه الإيالات ويدافع عن مصالح ومطالب قادتها أمام الحكومة العثمانية. إن آخر عملية قام بها في المغرب كانت عملية حاسمة. فردا على الحملة الاسبانية على تونس في 1573، جاء على رأس الأسطول العثماني بصحبة قائد الجيش البري سنان باشا فوضع حدا نهائيا للمملكة الحفصية والوجود الاسباني في هذا القطر. إن قوة هذه الحملة بلغت درجة أفزعت الاسبان الذين فكروا في الجلاء عن وهران

1. F. Braudel, *La Méditerranée..., op. cit.*, t II, p. 397

Scanné avec CamScanner

كما يقول بروديل[1] الذي يضيف بحق أن العثمانيين في الواقع كانوا منهكين مثل الاسبان. وهذا الإنهاك هو الذي يفسر السير السريع نحو الاستقلال النسبي في اتخاذ القرار في الداخل والخارج لدى الإيالات المغاربية، وهذا الاستقلال النسبي قائم أيضا على القوة الذاتية المتزايدة التي أصبحت لها وبالأخص في إيالة الجزائر. ومنذ هذه الحملة أصبحت تونس إيالة عثمانية يقودها بيلرباي كما هو الحال في الجزائر وطرابلس الغرب.

ومنذ هذه الفترة، صارت هذه الإيالات المغربية، لها ميزات خاصة تميزها عن بقية الإيالات العثمانية. إن تطور القرصنة وبالأخص بعض الأحداث المرتبطة بها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ستبين طبيعة هذه الميزات وسيتركز الفصل القادم في بحثها فيما يخص إيالة الجزائر.

---

1. المصدر السابق، ص 428 - 429

Scanné avec CamScanner

الفصل السابع

صعود القرصنة الجزائرية
1579 - 1550

في الفصول السابقة اضطررنا إلى تجاوز الإطار الضيق لقرصنة الجزائر لأن هذه كانت مرتبطة ومحكومة باستراتيجيات وحروب الإمبراطورية العثمانية. وكان العثمانيون هم الذين يحددون باستمرار تقريبا المهام المناطة بكل إيالة في مجال الحرب وحرب القرصنة، حينما يتعلق الأمر بعمليات ذات أهمية تقرر بتنسيق مع الأساطيل والجيوش العثمانية.

إن هذه التبعية التي كانت تربط القرصنة بالحرب لم تختف تماما في النصف الثاني من القرن السادس عشر لكن بأشكال مختلفة بدأت القرصنة تأخذ شيئا من الاستقلال وتنمي خصائص ستتسع وتتضخم في القرن السابع عشر، قرن القرصنة الحقيقي.

القرصنة

وكما كان الأمر في الماضي، تجمع غزوات القرصنة على العموم قراصنة أو تشكيلات من مختلف الموانئ المغاربية بتنسيق أم لا مع الحملات الكبرى التي كان يشنها الأسطول العثماني. ولهذا من الصعب ومن الضروري في نفس الوقت التمييز وتحديد دور كل قاعدة بحرية نظرا لأن الجزائر والموانئ التابعة لها كانت تشارك فيها على الدوام تقريبا. وهذا ما يدعو أيضا إلى بعض التكرار. فالعمليات التي سبق ذكرها سنعود إلى بحثها إذا كانت تشمل عمليات قرصنة قامت بها سفن الجزائر.

Scanné avec CamScanner

كيف تتداخل العمليات العسكرية الكبرى والحركات التي يمكن أن يطلق عليها صفة القرصنة؟ بعض التفاصيل التي ننقلها عن شارل منشيكور[1] تجسد جيدا هذه الحالات. في 1550 قامت عمارة اسبانية قوية معها جيش يبلغ 40 ألف جندي فيما يقال، بحصار المهدية. ونظم درغوث ونائبه علج علي مناورة لإشغال العدو فقاد جزءا من أسطوله نحو خليج ناپولي واستولى على قادسين منها وعلى قادس من جزيرة مالطة يحمل 24 ألف إيكي واجتاح مدينة كاستلمار وأسر سكانها وأرسل عدة تشكيلات في مختلف الاتجاهات. وفي 11 ماي 1550 تشير تقارير اسبانية أنه اتجه من مدينة الجزائر نحو أرزيو ومعه 25 سفينة منها «18 لها حجم كبير»[2].

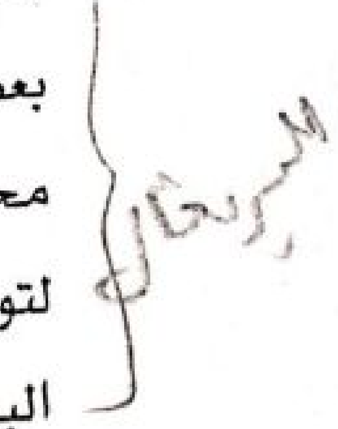
وفي 12 ماي، لوحظ مع 22 سفينة في جزر هابيباس. وكان معه 7 قوادس ذات 20 دكة تجديف. وبعد بضعة أيام كانت 35 سفينة تحت قيادته تطارد سفن الأعداء في سواحل الأندلس وهاجمت مدينة ڤيلا جيوزا Villajoyosa ودمرت فيها بعض المباني. ثم ذهب جزء من هذا الأسطول إلى خليج جنوة لمهاجمة بلاد الأميرال دوريا واجتاحت مدينة راپالو. وقام جزء آخر متكون من حوالي عشر سفن بغزو البحر التيراني واستولى على بعض الغنائم. من جهة أخرى استولى ثلاثة رياس لهم سفينتان من نوع الفوست وسفينة بريغنتين قرب ناپولي على سفينة تحمل النبيذ بعثها نائب الملك في ناپولي إلى ابنه الذي كان يقود تشكيلة من الأسطول المحاصر للمهدية. ثم انتقل الثلاثة نحو جزيرة ڤنتوتيني Ventotene حيث استولوا على سفينة من نوع طرطن (مركب وحيد الصاري) تحمل 20 مسافرا ذاهبين إلى روما. وبعد هذه الغنيمة رجعت بريغنتين إلى قاعدتها في جربة واتجه الرئيسان الآخران نحو الشمال. وفي

1. Charles Monchicourt, « L'insécurité en Méditerranée durant l'été 1550 », *RT*, 1917, p. 317 sq.

2. Ch. De La Véronne, *Oran…*, *op. cit.*, p. 293.

Scanné avec CamScanner

المشاركة في عمليات مختلفة منسقة بين بعض الموانئ المغاربية والاستيلاء على بعض السفن وعلى العشرات من الأسرى، وبالأخص على سفينيتن كاراڤيل محملتين بأثمن السلع، أصبح غنزالڤيس يمتلك ثروة معينة. وكان يستعد لتوظيفها في شراء منسوجات حريرية والانتقال بها إلى الجزائر حين أسره البرتغاليون في 1554.



ظروف القرصنة في كورسيكا

بعض جوانب القرصنة تتوضح من خلال الوقائع التي حدثت أثناء الحملة الفرنسية- العثمانية في كورسيكا باتصال مع نشاطات زعيم ثوار كورسيكا سمپيارو كورصو Sampiero Corso . وكما يقول بروديل[1] ففي هذه الحملات كان كل المقاتلين يعيشون عالة على السكان. فوق ذلك كان قرصان الجزائر والقرصان المسلمون عموما وأحيانا حتى الأسطول العثماني نفسه، كانوا لا يمتنعون عن خطف الرجال والنساء والأطفال الذين يحملونهم في سفنهم كأسرى. وهذا على الأقل ما تشهد به الشكاوى التي بعثها السكان إلى حكامهم الجنويين. ويجدر أن نلاحظ أن بعض هذه الهجومات كانت تتم خارج الإطار الرسمي للحملة المشتركة. فهناك إذن نوع من الاستمرارية للقرصنة حتى في إطار التحالف بين المسلمين والمسيحيين. وتبقى القرصنة بمنطقها الخاص وطرق عملها المتميزة. وهذه قائمة فيها بدون شك ثغرات كثيرة عن هجمات القراصنة المغاربة في كورسيكا:

- في 1550 تعرضت إيڤيزا Evisa الواقعة في داخل الجزيرة لهجوم سلك «أصعب طريق ممكنة في الجزيرة»[2] وأدى إلى أسر 70 أو 80 شخصا.

---

1. F. Braudel, *La Méditerranée..., op. cit.*, t II, p. 247

2. رسالة كوميسار كالڤي إلى الهيئة المكلفة بإدارة الجزيرة في جنوة، مؤرخة في 7 جويلية 1550 وذكرها A.-M. Graziani في الكتاب الذي ألفه مع M. Vergé-Franceschi بعنوان La Guerre de *La guerre de Course en Méditerranée (1515-1830)*, Ajaccio, 2000, p. 83

Scanné avec CamScanner

- في 28 أكتوبر 1551، نزل 300 مقاتل من 8 سفن قرصنة واجتاحوا Carcopino وقبضوا على نحو 160 شخصا. وفي بضعة أيام قبل ذلك، كانت Palasca قد تعرضت لهجوم جديد. «لكن معظم سكانها استطاعوا الفرار، عريانين كما ولدتهم أماهتهم وأسر منهم 25 شخصا»[1].

- في مارس 1552 نظمت 5 سفن (فوست) مغاربية على الأقل عملية ضد Porto Vecchio وSan Gavino وكانت «جيدة التنظيم وردتها القوى الدفاعية المحلية بمشقة كبيرة»[2].

- في 1556 قامت وحدات من القوى العثمانية التي أتت لمساعدة الثوار الكورسيكيين بغزو مقاطعة أرنانو Ornano (وهي مولد زعيم الثوار سمبيارو كورسو الذي صار عقبه يحمل لقب النبالة d'Ornano). والواقع أن طبائع العصر كانت هكذا. فسمبيارو نفسه وهو الزعيم الشعبي في كورسيكا خرب تماما حصن إستريا وقتل كل حاميته في الحرب الثانية التي خاضها ضد الجنويين (حرب 1563–1569) كما أن جنوده قاموا بتقتيل حامية سرتين بعد استسلامها على شروط منها ضمان حياتهم[3].

- وحسب بن نصار[4] فإن جنوة لم تكن تهتم بالدفاع عن كورسيكا التابعة لها وكانت هذه الجزيرة تتعرض لهجمات مستمرة يقوم بها القراصنة من كل الموانئ المغاربية. وهكذا «ففي 1559، فاجأ الجزائريون قرية Ambiegna البعيدة بضعة أميال عن الشاطئ وهي على مرتفع 360 مترا. وأسر فيها الشاب جيوفاني فالنتينو... مع 40 شخصا من القرية. وفي 1561 تسلق درغوث

---

1. نفس المصدر، ص 84.

2. Giani de Moro « L'île assiégée » *in A. M.* Salone et F. Amalberti, *Corse, images et cartographie*, trad. fr. par A.- M. Graziani, Ajaccio, 1992 p. 24.

3. المصدر السابق، ص 221.

4. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens…, op.cit.*, p.221.

Scanné avec CamScanner

ورجاله ربوة براندو في شبه جزيرة رأس كورسيكا واستولوا على الطفل بيترو دي بوكو، عمره 5 سنوات مع أمه وإخوته وكثير من سكان القرية».

وفي التحضير لمحاولته الثانية تحرير كورسيكا من سلطة الجنويين قام سمپيارو بزيارة للجزائر وتونس حيث كان له كثير من الأصدقاء ثم سافر إلى استنبول في 1562. وهذه الصلات الودية لم تكن تمنع استمرارا القرصنة في أراضي «البلد الصديق». إن بعض قراصنة الجزائر الكبار كانوا من أصل كورسيكي. فحسن قورصو (أي الكورسيكي) كان على رأس السلطة في الجزائر قبل مقتله في 1557. وفي الهجومات على ساحل الجزيرة في 1559 كان إلى جانب علج علي الذي هو من أصل كالابري (جنوب إيطاليا) رايس اسمه الأصلي فيليبو دي بينو[1] Philippo de Pino الذي أصبح من أهم رياس الجزائر باسم مامي قورصو.

وحينما كان سمبيارو يتهيأ في مرسيليا للسفر إلى الجزائر بمساعدة صديقه ومواطنه توماس لانش كانت 8 غليوطات جزائرية في ميناء مرسيلية وكان يقودها علج علي الذي أتى إلى هذا الميناء ومعه سفينتان إحداهما من راغوس والأخرى من البندقية استولى عليهما وعلى 54 شخصا أسرهم في إحدى قرى كورسيكا. وكان من رفاق علج علي رايس يدعى سيروكو قورصو وهو من أصل كورسيكي وعرض على سمپيارو أن يحمله في غليوطته إلى الجزائر لكن سمپيارو فضل السفر في سفينة جعفر آغا الذي كان يتهيأ للرجوع إلى الجزائر بعد سفارة رسمية تولاها لدى ملك فرنسا. وفي الجزائر استقبل سمپيارو بحفاوة من طرف حسن باشا بن خير الدين الذي كتب له توصية خاصة لصالحه إلى السلطان العثماني وبعث معه 15 سفينة محملة بالسلع الثمينة وبـ 600 رقيق مسيحي هدية منه لمختلف المسئولين العثمانيين.

---

1. انظر -Anton Pietro Philippini, *Chronique de la Corse*, 1560-1594, trad. fr. de A.- M. Graziani, Ajaccio, 1995, 2 vol. et A.- M. Graziani, *op.cit*. وفيما عدا إعلام آخر فكل المعلومات التالية عن كورسيكا مأخوذة من هذين الكتابين.

Scanné avec CamScanner

وكان قرصان جزائري يدعى «كاناريسو» وهو من أصل إيطالي قد استولى سنة 1562 على سفينة كورسيكية في مياه كورسيكا وذهب بغنائمه وأسراه إلى عنابة حيث كان مامي قورصو مرسيا. وتعرف مامي قورصو على أحد الأسرى من أهل قريته فأطلق سراحه وعاقب الرايس كاناريسو لأنه تعدى على أشخاص معتبرين تحت حماية الملك الفرنسي حليف الجزائر.

بهذه الأمثلة نرى كم هي معقدة ومتنوعة هذه الصلات والسلوكات من الجانبين. إن مامي قورصو نفسه كان في 1560 قد اجتاح مرسيغليا وسنتوري ثم بورغو وفسكوفاتو هي كلها أماكن في كورسيكا وطنه الأصلي. وفي 1578 غزا من جديد مقاطعة أرنانو موطن صديقه سمپيارو واستمر في غزو واكتساح مناطق كورسيكا التي يعرفها جيدا لأنها موطنه الأصلي ولأنه لم يفتأ يغزوها منذ ربع قرن.

وأثناء الحرب الثانية التي شنها الكورسيكيون ضد سيطرة جنوة كانت صلاتهم مع الجزائر وثيقة لكن القرصنة الجزائرية في هذه الديار كانت مستمرة. فتعرضت بغوغلية لهجوم القرصان بقيادة مراد رايس الذي استولى على 82 شخصا في أوت 1564 كما أسر 44 كورسيكيا في أمبينيا في مارس 1565. وفي سنوات 1570 أيضا كان التجار الكورسيكيون المقيمون في الجزائر وعنابة والباستيون، الخ. كأنهم في وطنهم لكثرة زملائهم وأصدقائهم من المسئولين الجزائريين من أصل كورسيكي لكن القرصنة بقيادة مراد رايس بالأخص كانت في هذه السنوات على أشدها في كورسيكا حيث تضاعفت الهجمات على القرى وبالأخص في مقاطعة سرتين التي اكتسحت عاصمتها وأسر عدد كبير من سكانها.

وبفضل الفحص المدقق في الوثائق المحلية الأصلية من طرف المؤلفين الذين ذكرناهم فيما فوق، فإن المعلومات المذكورة عن كورسيكا مفصلة ومحققة

Scanné avec CamScanner

وهي تسمح لنا بمقاربة الواقع بصورة جزئية نظرا لما فيها من ثغرات كثيرة. ويلاحظ أن النتائج بالأرقام عن ثلاثة عقود من الغزوات البحرية المغاربية في كورسيكا لا تعطي أكثر من بضع مئات من الأسرى رغم أن هذه الجزيرة قريبة من الأقطار المغربية ويعرفها جيدا قراصنة هذه الأقطار وهي غير محمية بفعالية من حكامها الجنويين وقريبة من الموانئ الفرنسية الجنوبية التي هي ملاذ للحلفاء المغاربة. وحتى الحلفاء الفرنسيين كانوا يتعرضون لهذا النوع الخاص من القرصنة التي يقوم بها المغاربة أحيانا.

القورصو والقرصان - الحرامية

إلى جانب القرصنة وحرب القرصنة، هناك ما يسميه ميشيل فنتناي «القورصو». وهو نوع من القرصنة أثبتت الأبحاث الحديثة أنه كان متبعا من طرف المسلمين والمسيحيين على السواء.

ويذكر أوجرون[1] بعض الغنائم التي حصلها قراصنة فرنسيون ضد الاسبان في فترة سلم بين البلدين في سنوات 1580 ويدعوها بعبارة لطيفة هي (قورصو-لصوصية البحر corso-piraterie). وكان القراصنة الإنكليز أيضا يهاجمون السفن الفرنسية في وقت السلم. والاسكوك Ilscoques وهم لاجئون مسيحيون من المناطق التي فتحها العثمانيون وأعطاهم الملوك الهابسبورج ميناء Segna على الأدرياتيك ليستقروا فيه. ويصف فريدريك لان[2] نشاطاتهم بأنهم «يعيشون بالأخص من نهب السفن المارة.. ويهاجمون أيضا السفن الراغوسية والبندقية» ويضيف فيما يخص البندقية أن الأكثر ضررا هم الإنكليز الذين ينهبون الاسبان كذلك. وهؤلاء لم يكونوا أقل تعديا من غيرهم. فالقراصنة الذين يساندونهم استولوا في سنة واحدة على 12 بارجة

1. M. Augeron, « De la cause au Parti : Henri de Navarre et la course protestante (1568-1589) » in Ch. Hermann, éd., *Enjeux maritimes des conflits européens, XVI^e^- XIX^e^*, Nantes, 2002, p. 27-58.

2. Fredreric Lane, *Venise, une république maritime*, Paris, Flammarion, 1994, p. 508-509.

Scanné avec CamScanner

بندقية معادلين بذلك هجمات القراصنة الإنكليز والشماليين. أما الهولنديون الثائرون على الاسبان في 1565-1570 فقد استمروا في أعمال القرصنة ضد الاسبان بعد أن نالوا استقلالهم من اسبانيا. ويقول الشاعر الاسباني الكبير Quevedo [1]: «إن الهولنديين... الثائرين على الله وعلى الملك قد حصلوا بنجاحهم في أعمالهم على شهرة كمحاربين وكسبوا ثروات طائلة وهم يعتزون بأنهم الابن البكر للمحيط. إنهم يستولون على الذهب والفضة من سفننا كما تستولي سفننا على هذه الثروات من بلاد الهنود». إن بروديل[2] لعلى حق حين يذكر حالات أخرى من القورصو-لصوصية لدى البلدان المسيحية فيما بينها ويلاحظ « كيف علمونا التاريخ حتى تظهر لنا مثل هذه الوقائع العادية جدا بين بحارة كل البلدان في ذلك الزمن، كأنها شيء غريب مدهش».

حالات القورصو

إن الحالات التي كانت محل شكاوى رسمية من الدول المسيحية لدى العثمانيين على أساس أنها اعتداء في وقت السلم هي حالات نادرة حسبما عثرنا عليه في الوثائق المختلفة. وسنبحثها هنا باعتبارها تحمل بذور تطور قادم أو تنبئ بشكل ما بهذا التطور الذي ستعرفه القرصنة الجزائرية بعد 1580 وفي القرن السابع عشر والذي سيعطيها طابعها الخاص ومؤسساتها المتميزة وسلوكها المتفرد وخطابها المعبر عنها.

إن الشكايات الفرنسية ضد التجاوزات التي ارتكبها القراصنة الجزائريون أو المغاربة هي على العموم قديمة. ففي 1535 عند صياغة بنود المعاهدة التي منحت الفرنسيين امتيازات في الأراضي العثمانية، ألح الفرنسيون على إدراج بند يحرم على القرصان الجزائريين أي هجوم على السفن الفرنسية[3].

---

1. نقلا عن Pierre Vilar, *Or et monnaie dans l'histoire*, Paris, Flammarion, 1974, p. 240
2. F.Braudel, *La Méditerranée..., op. cit.*, t II, p.193.
3. E. Plantet, *Correspondance..., op. cit.*, t I, p L VI

Scanné avec CamScanner

وقد ذكرنا سلفا التعدي على أشخاص هم في حماية الفرنسيين من طرف قرصان جزائري قام مامي قورصو بمعاقبته في 1562. وفي نفس السنة[1] بعث الفرنسيون سفيرا إلى الجزائر يطالب بتعويضات عن أضرار أحدثها قرصان جزائريون.

وفي رسالة بعثها من استنبول في 4 أوت 1565، يخبر السفير الفرنسي ملكه بأنه « بين للباشا كل الضرر والأذى الذي يحدثه يوميا قراصنة الجزائر وطرابلس الغرب ضد رعاياك»[2]. وحسب التعليمات[3] التي أعطيت لمبعوث مرسيليا إلى استنبول تبلغ الأضرار التي أحدثها قراصنة الجزائر وطرابلس الغرب لتجارة مرسيليا في 1560 بين 3 و400 ألف إيكي (أخذ 10 أو 12 سفينة كبرى وعدد كبير من القوارب).

عموما، في هذه السنوات، كانت استنبول تتدخل بحزم لدى المسئولين في الإيالات المغاربية الذي لم يتعودوا بعد مخالفة أوامر السلطان جهرا. لكن بدأوا في ابتكار المناهج والأساليب للمداورة والتجاوز المغلف أو حتى رفض تطبيق هذه الأوامر بدعاوى مختلفة.

وكانت إحدى الحجج التي استعملت كثيرا فيما بعد هي القول بأن كل الوسائل بذلت لاسترجاع السلع المنهوبة من طرف القراصنة لكن هؤلاء نجحوا في إثارة السكان والإنكشارية وجعلوا من المستحيل استرجاعها.

وبهذا المعنى كتب م. دي. منيون[4] (M. de Ménillon) من مرسيليا إلى الملك شارل التاسع في 10 مارس 1574 يخبره أن «ملك الجزائر» أرسل

1. F.Braudel, *La Méditerranée..., op. cit.*, t II, p.303.
2. E. Charrière, *Négociations, op. cit.*, t II, p. 801.
3. R. Collin et J. Billioud , *Histoire du commerce de Marseille*, t III, p. 269
4. E. Charrière, *Négociations..., op. cit.*, t III, p. 553.



Scanné avec CamScanner

له هدايا وهو يبلغه أنه « أراد أن يرسل رعايا الملك الفرنسي تنفيذا لأوامر السلطان لكن القراصنة وعلى رأسهم مامي أرنووط أثاروا جمهور الشعب». فعلا في سنوات 1572-1574 كتب السلطان سليم الثاني إلى بيلرباي الجزائر عرب أحمد ثم إلى خلفه رمضان حول قادسين فرنسيين أخذهما مراد رايس ويجب ردهما لفرنسا[1] وفي 1579 كتب رمضان باشا المذكور بعد تعيينه واليا على تونس رسالة « مليئة باللطف إلى ملك فرنسا حول الاستيلاء على بعض السلع الفرنسية»[2].

في الواقع أن الشكايات الفرنسية استمرت في استنبول وتوالت رسائل السلطان مكررة نفس الأوامر عدة سنوات حول نفس القضية التي بقيت بدون حل. وهذا أمر له معناه. صحيح أنه في الماضي كذلك كانت الأجوبة الرافضة لأوامر السلطان تعتمد على حجج ومبررات مختلفة لكن دائما في ظروف خاصة لها ملابسات معينة. مثلا في 1551 حين هدد الصدر الأعظم رستم درغوث بمعاقبته لاعتدائه على سفينة بندقية في وقت السلم، انصرف درغوث عائدا إلى قاعدته في جربة ليواصل نشاطاته كقرصان مستقل[3]. إن درغوث كان هو الذي يقدم للسلطان طوعا كفاءة استثنائية وقوة منظمة على أفضل طراز ومناطق شاسعة أحرزها بنفسه. وكان السلطان واعيا بهذه الحالة. وقد كتب في جانفي 1552 رسالة إلى درغوث يخاطبه فيها بعبارات تحية وإطراء لا يستعملها عادة مع موظفيه كما أشرنا إلى ذلك من قبل. وفي 1559 نهب قرصان من الإيالات المغاربية سفينتين بندقيتين مما أدى إلى مشاكل مع البندقية. وكانت الحالة مختلفة في 1551 حين بعث حسن باشا بن خير الدين

---

1. أرشيف الجزائر، الرصيد العثماني، دفاتر مهمة، سجلات رقم 21، 24 و25.
2. G. Fisher., *Légende barbaresque, op. cit.*, p. 133.
3. A. S Ilter, *op. cit.*, p. 59-60

Scanné avec CamScanner

وفدا يقوده قاضي الجزائر إلى السفير الفرنسي آرامون ليعتذر له باسم حسن باشا ويبين له أن ما حصل لمرافقيه الفرنسيين ليس بمبادرة الوالي بل هو موقف من هيئة القضاء بالمدينة ليس له أي يد فيه»[1]. وبعد شهر واحد من هذا الحادث عزل حسن باشا وعين صالح رايس بدله. ومن بين الإهانات التي تعرض لها هذا السفير الفرنسي في الجزائر، نهب سفينيتن مرافقتين له والتهديد بالاحتفاظ ببعض مرافقيه من النبلاء كرهائن لأن بعض الأسرى المسيحيين في الجزائر فروا ولجأوا إلى السفن المرافقة للسفير الفرنسي.

إن هذه الأمثلة تبين أن بعض التبريرات المقدمة ليست مجرد تعلات بل هي تذكير لحقيقة قائمة وهي أن هذه « الجمهوريات القرصانية العسكرية» ليس من السهل التحكم فيها. وحين توضع هذه الحالات في الإطار العام لنشاطات القرصنة والقورصو في ذلك العهد في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وغيرها من البحار، تظهر نظرا لندرتها، كمجرد حالات تجاوز وكاستثناءات لقاعدة مطبقة بصرامة أو كخرق لهذه القاعدة يسلط العقاب على أصحابه وترد غنائمه أو ما يعادلها إلى أصحابها الشرعيين. إن هذه الحالات تمثل بداية بذور ستنمو وتترعرع في العقود التالية.

ضد الكتلة الاسبانية

إن الدراسات الموثقة والمفصلة مثل التي ذكرناها عن كورسيكا، هي نادرة ولا تغطي سوى فترات قصيرة أو نواحي وأماكن محدودة. وبعضها[2] يتعلق بهجمات

---

1. Nicolas de Nicolay, *op. cit.*, p. 62

2. أنظر الدراسة الجماعية التي قامت بها جمعية « Amici di Peagna» وعنوانها: *Corsari « Turchi » e Barbareschi in Liguria*, Ceriale, 1986 ; S. Raurich, « La pirateria berberisca en las costas de Catalonia », *Revista General de Marina*, mars 1943, p. 318 sq ; H. Sancho de Sopranis, « Cadiz y la pirateria Turcho- Berberisca en al siglo XVI », *Archivo del Instituto de Estudios Africanos*, n° 26, sept. 1953, p.7-77 والمؤلفات والدراسات التي سنذكرها فيما بعد.

Scanné avec CamScanner

القرصان «الأتراك» والمغاربيين ضد السفن والجزر والسواحل الإيطالية والإيبرية. وفي الدراسات الجزئية التي أمكننا الإطلاع عليها، يمكن القول عموما أنها مثل التفاصيل المذكورة سابقا عن كورسيكا تسجل عمليات ووقائع ذات نتائج محدودة فيما عدا العمليات الكبرى التي كان ينظمها الأسطول العثماني. وهنا يجب التذكير بأن كثيرا من الدراسات الأروبية لا تفرق كثيرا بين الحملات العثمانية الرسمية وأعمال القرصنة المحدودة. وفي كثير من هذه الدراسات تستعمل كلمة «تركي» بمعنى مسلم. وكلمة «برباريسك» تطلق على كل الأقطار المغاربية بما فيها المغرب الأقصى الذي كانت بعض موانيه في هذه الفترة تتعاون فعلا مع بقية الموانى المغاربية لشن حملات ضد الأروبيين.

ولنلق أولا نظرة سريعة على بعض العمليات الكبرى التي كان يقوم بها الأسطول العثماني وأعمال القرصنة المصاحبة لها:

في 1551 قام الأسطول العثماني بغارات في المناطق الكالابرية ثم غزا جزيرة غوزو التي احتلها تماما وأسر فيها آلاف الأشخاص. وكان درغوث في نفس الوقت يجول بأسطوله غربي البحر المتوسط وقام بغارات على ضفاف تاجيا.

وفي 1552 كان درغوث على رأس الأسطول العثماني وهزم دوريا واستولى على 7 قوادس من أسطوله واجتاح جزيرة بنتيليريا في حين كانت بعض السفن المغاربية تهاجم سان جوڤينو في سردانيا.

وفي 1553 بينما كان الأسطول العثماني في كورسيكا لمساندة الفرنسيين في الاستيلاء على الجزيرة، نظمت هجمات أخرى على مناطق الپوي وصقلية ونزل حوالي ألف جندي في مقاطعات ليكاتا وپوزولو غير أن المقاومة المحلية ردتهم على أعقابهم وكبدتهم خسائر جسيمة. من جهة أخرى التحقت 20 سفينة جزائرية بالأسطول العثماني في مياه پيامبينو ثم جالت في السواحل الإيطالية إلى أن بلغت جزيرة ألب التي اجتاحتها.

وكانت العمليات المغاربية في كثير من الأحيان منسقة مع الأسطول العثماني وأعمالها عبارة عن جزء من الحملة العامة لهذا الأسطول. يقول دي غرامون[1]: « في 1552 أرسل هنري الثاني النبيل دالبيس D'Albisse إلى الجزائر ليدعو البيلرباي إلى مهاجمة السواحل الاسبانية واعدا إياه بالعمل من جهته، وفي نفس الوقت كان درغوث على رأس الأسطول العثماني يعمل بالتنسيق مع دي لا غارد (قائد الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط) لسد الطريق على الدوق دالب Duc D'Albe (قائد الجيش الاسباني). وتلبية لدعوة الملك الفرنسي ذهب صالح رايس في بداية جوان 1553 من الجزائر على رأس 40 سفينة حربية وأنزل قواته في ميورقة ونهب الأرياف وكبدته حامية ماهون بعض الخسائر. واصل طريقه على السواحل الاسبانية ولم تكن النتائج كبيرة ثم اتجه نحو ميناء باديس بعد أن استولى على عشر سفن اسبانية وبرتغالية. وكانت التشكيلة الحربية[2] التي استولى عليها صالح رايس متكونة من 3 سفن حربية مزودة بكثير من الذخيرة والمقاتلين وكل ما يلزم ومن 2 كاراقيل مكلفة بتموين القواعد البرتغالية في المغرب الأقصى. وهذه التشكيلة كان يقودها إنياسيو نونيز الذي وقع في الأسر مثل تشكيلته بعد معركة عنيفة ونقل إلى الجزائر. وقد افتدى فيما بعد مع كل «رفاقه من الأسرى البرتغاليين كبار وصغارا»[3].

وقد ذكرنا سابقا أن درغوث في 1554 كان غير راض على الحملة السابقة التي كلفت ضحايا كثيرة من أسطوله ولم يعطه الفرنسيون الترضيات اللازمة على ما بذله من أجلهم، فقرر أن يقصر أهم عملياته في الحملة الجديدة على جمع الغنائم (حوالي 6000 شخص أسروا في ڤييست).

---

1. H. de Grammont, *Histoire...*, *op.cit.*, p. 83

2. R. Ricard, « Les Portugais et l'Afrique du Nord sous le règne de Jean III (1521-1557) d'après la chronique de Francisco de Andrade, *Hespéris*, t. 14, 1937, p. 259-345.

3. نفس المصدر.

وفي 1555 غزا الأسطول العثماني من جديد منطقة كالابريا واستولى على مدينة پاولو. وقام أسطول درغوث من جهته بهجمات على Ospedaletti وColdirodi في ليغوريا الغربية بينما اجتاحت 3 سفن مغاربية برغيغي. وتعرضت سان لورانزو في ليغوريا إلى هجمات أسطول درغوث وعلج علي. وفي سيريلا Cirella استولى علج علي على 76 شخصا.

وفي السنوات التالية عرفت القرصنة المغاربية عموما والجزائرية بالأخص نشاطا واسعا. وكما يقول بروديل[1] أصبحت الجزائر أهم قاعدة مغاربية تنطلق منها هذه الحملات. لكن يبقى من الصعب التمييز بين الدور النسبي لكل من الموانئ المغاربية حين تقوم بعمليات مشتركة أو حين تطلق المصادر الأوروبية عليها اسم «برباريسك» أو «ترك» دون تحديد.

1558: أسر آلاف الأشخاص في كالابريا وكان الهجوم مشتركا بين العثمانيين و«البربريسك». ثم غزوا مينورقة واستولوا على Ciudada. وعن ماهون التي نهبت تقول مراسلة[2] من البندقية مؤرخة في أوت 1558 «أنهم أخذوا كل الغنائم التي أرادوا».

1558: تلاحظ التقارير الاسبانية[3] في جويلية أن 14 سفينة تكمن قرب نيبلا في الأندلس. هل هي نفس التشكيلة التي غنمت أسرى في جنوب البرتغال ثم حملت العلم الأبيض أمام قادش إعلاما باستعدادها للتفاوض لافتداء الأسرى؟

1560: قبل وبعد معركة جربة التي سقط فيها عشرات من الأجفان وآلاف من الجنود الاسبان بيد العثمانيين قام درغوث وعلج علي بهجمات متوالية

1. F. Braudel, *La Méditerranée...*, *op. cit.*, t . II, p. 203 sq.

2. E. Charrière, *Négociations...*, *op. cit*, t. II, p. 487.

3. F. Braudel, *La Méditerranée...*, t. II, p. 284.

Scanné avec CamScanner

على سردانيا وصقلية واستولوا على عدة سفن من جنوة وفلورانسا وموناكو كانت في طريقها للالتحاق بالأسطول المسيحي في جربة. كما أن 30 سفينة مغاربية هاجمت مدينة نابولي وحاصرت الميناء. وبعد جربة أصبح الأسطول العثماني تقريبا متغيبا عن الحملات في البحر المتوسط وحل محله أسطول الجزائر وأسطول درغوث وكان درغوث كثير المرور والإقامة بمدينة الجزائر وكان التنسيق بين الأسطولين شبه مستمر. كذلك كان التعاون مع بعض موانئ المغرب الأقصى التي كانت شبه مستقلة عن مملكة فاس أمرا جاريا ويظهر ذلك من الأمثلة الآتية:

1561: 14 قادسا وغليوطة مسلمة («تركيسك» تسميها التقارير) كانت في مياه اشبيلية في ماي. وفي أوت كانت 17 سفينة أطلقت عليها نفس التسمية تجول مياه الغرب البرتغالي. وفي نفس الصيف هوجمت السواحل الإيطالية وبالأخص توسكانيا وأبروز. وفي صقلية غزيت أوغستا واستولى درغوث على 7 أو 8 قوادس صقلية. وكان قراصنة الجزائر ينسقون حملاتهم على اسبانيا مع الثوار الأندلسيين، وفي جبل طارق استولوا على سفينة من المقاطعات الشمالية تحمل إلى القواعد الاسبانية في الأراضي المغاربية «5 أو 6000 بندقية من طراز القربينة (arquebuses) وعدد من المسدسات والدروع وغيرها من الأسلحة الهجومية»[1].

1562: في أفريل حاولت سفن الجزائر أن تفاجئ الجنويين في طبرقة. وبعد أيام هاجمت منطقة پورتو موريزو في ليغوريا واستولت على 56 شخصا ثم على 8 أو 10 أشخاص في أنتينيانو. وعند وصولهم إلى مرسيليا تزود القراصنة الجزائريون لدى شركائهم المرسيليين بالأغذية والذخيرة وقالوا لهم إنهم

---

1. رسالة من سلطات إشبيلية إلى فليب الثاني في 17 ماي 1561 ذكرها بروديل ويعتبر بروديل أن هذه السفن جزائرية . (*op.cit.*, t II, p.203)

Scanné avec CamScanner

استولوا على سفينتين تجاريتين كما أشرنا إلى ذلك سابقا. وفي الأدرياتيك طاردت القوادس المسيحية تشكيلة من القرصان «البرباريسك» واستولت على 5 سفن (من نوع الفوستة) منها 3 ملك تكري رايس وهو قرصان أصله من منطقة غايتانو وكان نشر كثيرا من الخراب في منطقة الهوي.

1563: في مارس حاصرت 40 سفينة جزائرية مدينة وهران وذهبت 10 قوادس كبيرة تراقب السواحل الاسبانية. وفي ماي لوحظت 12 سفينة منها قرب غاييت. وفي جوان وصل 42 قادسا اسبانيا إلى وهران لكن السفن الجزائرية كانت غادرتها فلم تحدث معركة كبيرة وإنما استولى الاسبان على 3 سفن صغيرة وعشرة قوارب وعلى شيطية فرنسية محملة بالرصاص والذخيرة والزرد. وفي أوت كانت 9 سفن جزائرية بين جنوة وساڤونة وفي سبتمبر لوحظت 13 سفينة جزائرية على شواطئ كورسيكا ثم 32 سفينة على الساحل الكالابري. وأرسل الجواسيس الاسبان من مرسيليا رسالة إلى فليب الثاني يخبرونه أن أسطولا جزائريا كبيرا قد أقلع من ميناء الجزائر ومن الموانئ الأخرى التابعة للقطر[1].

1564: 42 سفينة أمام جزيرة إلب (45 حسب مراسلة فرنسية ذكرها بروديل) لمساندة ثورة كورسيكا. غنائم وأسرى في كورسيكا وبالأخص من الاسبان. وفي رسالة بعثها ضابط أسير اسباني في الجزائر إلى فليب الثاني في 29 أكتوبر 1564 يخبر فيها الملك الاسباني « أن من المحزن رؤية كل المسيحيين الذين يجلبون في كل يوم إلى هذا البلد من رجال ونساء وأطفال قد لا يمر يومان على وصولهم حتى يتحولوا إلى مسلمين»[2].

---

1. F. Braudel, *La Méditerranée…*, t. II, p.203.

2. Sakina Missoum, *Alger à l'époque ottomane, La médina et la maison traditionnelle*, Aix-en- Provence, Edisud, 2003, p. 160

Scanné avec CamScanner

1565: حصار مالطة. وقد رأينا فيما سبق الأهمية التي كان السلطان العثماني يوليها لهذه المعركة وكيف كانت الخسائر العثمانية فيها فادحة وقد قتل فيها درغوث. وكانت المساهمة الجزائرية فيها قوية وبالتالي فخسائر الجزائر يمكن أن تقدر بنسبة مشاركتها.

1566: استولى العثمانيون على Chio بمساهمة الأسطول الجزائري الذي شارك أيضا في حملات عثمانية في الأدرياتيك حيث اكتسحت عدة مواضع. وفي هذه العمليات كما يقول بروديل[1] كان «الأسطول العثماني في كل مرة يأسر على الأقل 5 أو 6000 شخص».

من جهته استولى الأسطول الجزائري على 18 سفينة من بلاد الباسك الاسبانية أمام مالقة وقام بغارة على منطقة غرناطة أسر فيها 4000 شخص. وفي مجموع الفصل استولى الجزائريون على 50 سفينة في نواحي جبل طارق.

1568-1569: في 1568 هزم الرايس الجزائري قارة علي (وهو غير قارة علي السابق الذكر) أسطول أمير بيامبينو الذي جاء بقصد مهاجمة عنابة. وفي 1568-1569 قام الأسطول الجزائري بهجومات على السواحل الاسبانية بتنسيق مع الثوار الأندلسين الذين أرسل لهم علج علي بيلرباي الجزائر حوالي 4000 جندي ومعهم أسلحة وذخيرة للثوار. لكن هذه النجدات كانت أقل مما هو ضروري للثوار في وجه القوى الهائلة التي جندها الاسبان ضدهم. وبصورة عامة كان العالم العثماني منهك القوى بعد الحروب التي خاضها على جبهتين في أوروبا وفي بلاد فارس. ومنذ 1566 كان القحط فظيعا في الشرق الأوسط وقد أهلكت المجاعة كثيرا من الناس في مصر وسوريا كما أن الجفاف ساد الجزائر في 1567 و1568. لكن الكتلة الاسبانية كانت كذالك مرهقة.

1. F. Braudel, *La Méditerranée…*, t II, p. 336.

Scanné avec CamScanner

1570: في حين كانت ثورة غرناطة ومنطقتها مندلعة، شن علج علي هجوما على تونس واستولى عليها وواصل الهجوم البحري على اسبانيا وحلفائها فاستولى على 3 قوادس مالطية منها قادس الأميرال وعلى أكثر من 80 فارسا من فرسان مالطة الذين حملهم إلى الجزائر. وساهم أسطول الجزائر في حصار وفتح جزيرة قبرص كما نهب جزيرة سيفالونية وسواحل اقريطش (كريت) وجزيرة كورفو واستولى على مدن سوبوت وإلغلي وبار التابعة للبندقية[1].

1571: في ليبانت حيث دمر معظم الأسطول العثماني، كما ذكرنا، أظهر علج علي مقدرته بإنقاذه الأسطول الجزائري من الدمار. وبالمقارنة مع مكاسب وخسائر عمليات القرصنة كانت خسائر هذه المعركة أضعافا مضاعفة. لكن القدرة على تجديد القوى في هذه الإمبراطوريات كانت كبيرة. فبعد سنة واحدة كان للعثمانيين 230 قادسا. وتقول تقارير اسبانية أن الأسطول العثماني أصبح يتكون من 247 أو من 300 قادسا[2].

1573: في حين هاجم الاسبان مدينة تونس كما رأينا سابقا قام الأسطول العثماني باحتلال قلعة كاسترو في أوترنتا. وتسببت العواصف في غرق 8 قوادس عثمانية وكان الأسطول العثماني يتهيأ لطرد الاسبان من تونس.

1574: في المعركة لتحرير تونس كانت مشاركة أسطول وجيش الجزائر لها أهمية نسبية حيث قاد رمضان 3000 إنكشاري وآلاف المتوطوعين من الأهالي وتولى أحمد عرب بأسطوله الهجوم على حلق الوادي. ويذكر شاهد العيان روفينو[3] مشاركة أهالي عدة مناطق في المعارك منهم أهل « تونس وبسكرة

---

1. S. Bono, *I Corsari*..., p. 154 sq

2. F. Braudel, *La Méditerranée*..., t. II, p. 425.

3. كان رفينو B. Ruffino من موظفي الوحدات الإطالية التابعة للجيش الاسباني في تونس وأسر ونقل مع رفاقه إلى الجزائر حيث كتب تقريره عن معارك تونس ونشره وترجمه إلى الفرنسية Paul Sebag بعنوان: *Une relation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs en 1574*, Publ..: Univ. de T., 1971.

وقسنطينة وعنابة وبنزرت والقيروان وتلمسان وطرابلس الغرب». وتذكر التقارير الاسبانية أن خسائر العثمانيين كانت جسيمة لكن المعروف عادة أن القوات المنهزمة تحاول دائما أن تضخم خسائر المنتصرين وأن تمجد بطولة الجيش المنهزم. ففي هذه المعركة قتلت أو أسرت كل القوات المسيحية (حوالي 10.000 جندي)

1575-1579: حسب سلفاتوري بونو[1] كان للقراصنة «البرباريسك» هجومات مستمرة على الشواطئ والجزر الإيطالية. والوقائع المعروفة شيء قليل بالنسبة لكثرة الهجمات وتجددها واتساعها. ومن الأحداث المعروفة الاستيلاء على قادس وعلى سفينتين من الأسطول الاسباني وكان بين الأسرى ميغال سرفنتيس مؤلف دون كيشوت الشهير واستيلاء مراد رايس على 3 سفن اسبانية وأسر 140 من ركابها كما أن مراد رايس[2] مع علج علي استولى على 4 قوادس مالطية وقادسين صقليين وحصل على غنائم كثيرة جعلته واسع الثروة وكان على رأس 8 قوادس منها 3 ملكه الشخصي كذلك استولى على شيطية محملة بالقمح في مالقة وتضاعفت الغارات على كورسكا وضواحي پاليرمة كما أن مدينة سرتين اجتيحت مع منطقتها حيث تعددت الأسرى والغنائم.

إننا هنا جزئيا في الفترة التي حلت فيها القرصنة محل العمليات الكبرى بين الكتلتين الكبيرتين. لقد صارت مدينة الجزائر هي القاعدة الكبرى لهذا النوع الجديد من النشاط. إن العوامل التي أدت إلى هذا التحول يجب بحثها في إطار عام. وهذا ما سنحاوله في الفصل التالي.

1. Salvatore Bono, *I Corsari...*, *op. cit.*, p. 165 sq

2. أنظر هاييدو D. de Haëdo, *Histoire...*, *op. cit.*, p. 182 sq

Scanné avec CamScanner

الفصل الثامن

تحـولات القـرن

دور القرصنة

انطلاقا من المعلومات المقدمة، هل يمكن تقدير دور قرصنة الجزائر خلال الفترة التي بحثناها؟

لقد كتب بروديل صفحات رائعة عن هذا الازدهار الأول والبديع الذي عرفته الجزائر والذي ارتبط بنمو القرصنة في سنوات 1560 و 1570. هذه اللوحة التي رسمها بما فيها من معطيات مستقاة من أفضل المصادر، لا تكفي للوصول إلى تقييم بالأرقام وهو تقييم يعتبره بروديل مستحيلا. وله الحق في ذلك. ومع انعدام هذا التقييم الإجمالي فإن دور القرصنة يمكن تقديره على أسس أخرى. ولتحقيق ذلك لا بد من بعض الملاحظات:

من أين تأتي الغنائم الكبرى؟ إن نظرة عامة لأحداث القرن تسمح بملاحظة أنه شهد معارك كبرى برية وبحرية. يكفي أن نذكر الحملات الاسبانية الثلاث على مدينة الجزائر ومعارك مستغانم وتونس وطرابلس الغرب وجربة. وفي كل واحدة من هذه الوقائع كان عدد الأسرى من الكتلة الأسبانية يعد بالآلاف. كذلك الأمر في المعارك البحرية التي كانت مساهمة الجزائر فيها كبيرة نسبيا.

Scanné avec CamScanner

وينبغي هنا التذكير ببعض الأرقام على ما فيها أحيانا من تقديرات تقريبية:

في 1552 دفعت ورقلة لصالح رايس 200 ألف مثقال ذهب.

في 1554 دفعت فاس لصالح رايس 400 ألف مثقال ذهب.

في 1576 دفعت فاس من جديد لجيش الجزائر 500 ألف مثقال ذهب.

ويمكن أن نقدر بصورة تقريبية الكنوز التي استولى عليها حكام الجزائر عند فتح قسنطينة وتلمسان وغيرهما من المدن الكبرى بأنها كانت من قبيل الأرقام السابقة.

وهكذا كانت الإتاوات وأعمال النهب وما أشبهها داخل الأراضي المغاربية لها وزنها إلى جانب غنائم الحرب والقرصنة ضد الاسبان وحلفائهم.

مجابهات كبرى وغارات صغيرة: وفيما يخص غنائم القرصنة ينبغي كذلك التمييز. ففي الحرب ضد الاسبان وكتلتهم كان العثمانيون يستولون على قوات محاربة وكذلك على كثير من المدنيين. وكما يقول بروديل في نص ذكرناه سابقا، كانوا في كل حملة شبه سنوية يستولون على 5 أو 6000 شخص. أما نصيب الأسطول الجزائري من هذه الغنائم العثمانية فهو تقريبا يتناسب مع مقدار مساهمته الفعلية. وكانت قطع الجزائر المشاركة في حملات الأسطول العثماني تتراوح حسب الفترات بين العشر والخمس وقد تبلغ أحيانا ربع الأسطول العثماني.

وفي الكتب الإخبارية الأخرى وغيرها من الحوليات الأروبية القديمة وكذلك في المؤلفات التاريخية الأروبية المتأخرة، لعبت الأساطير دورها في التشويه والالتباس. فنظرا لكون أعظم قادة الأسطول العثماني (خير الدين، درغوث، علج علي) كانوا من قبل قرصانا في الأقطار المغربية ونظرا للدور

Scanné avec CamScanner

المتنامي لقرصنة الجزائر فيما بعد، فقد أدى الاختزال والتبسيط بالكثير إلى اعتبار المواجهات الكبرى التي شهدها القرن بين العثمانيين والاسبان بأنها أعمال قرصنة «البرباريسك» أي الإيالات المغاربية. من جهة أخرى غطت هذه العمليات الضخمة على كل ما يجري كل يوم من أعمال قرصنة ضئيلة جدا. فقد كانت كل الموانئ الجزائرية مثل غيرها في البلاد الأخرى لها أساطيل صغيرة وسفن خفيفة تقوم على قدر قوتها بالغارة على بعض صيادي الأسماك أو التجار الصغار كما كانت هي نفسها فريسة سهلة للقوادس والأجفان وغيرها من السفن الحربية الكبرى. وبما أن ما يكسبونه أو يخسرونه من الضآلة بحيث لا يشكل حادثا تاريخيا يسجل في الكتب، فإنهم بقوا في الظل وإن كانت الأرشيفات الأروبية المحلية الخاصة بالموانئ أو بإدارات المناطق تورد هذه العمليات إذا كانت تمسها مباشرة.

بهذه الملاحظات تتضح الصعوبة في الربط الوثيق بين ازدهار الجزائر وتطور القرصنة على الأقل فيما يخص هذه الفترة التي تندر فيها المعطيات المحققة.

ازدهار الجزائر

إن الأهمية الستراتيجية التي نالتها الجزائر، تحققت بمراحل:

في بداية القرن كان ميناء الجزائر عبارة عن مرسى طبيعي متكون من سلسلة الصخور الناتئة في البحر والمتوالية من الشاطئ إلى الجزيرة الرئيسية. وهذه الجُزَيْرات الصغيرة قرب المدينة هي التي أعطت للمدينة اسمها الجزائر. وكان ميناء الجزائر دون المتوسط ويتعرض كثيرا للعواصف فكانت السفن تجر إلى الشاطئ في باب الواد على قرب ميل من المدينة. وحين فرض الاسبان على الجزائر أن تسلم لهم الحصن القديم القائم على الجزيرة الرئيسية والذي عززه الاسبان وبنوا فيه أبراجا وسموه حصن الصخرة Peñon (پنيون)

Scanné avec CamScanner

لصغر الجزيرة المذكورة. وبهذا الحصن أصبحت المدينة مهددة بمدفعيتهم ولم يكن للجزائر مدفع واحد كما يقول خير الدين.

إن أول التدابير الدفاعية التي اتخذها خير الدين في المدينة هو توسيع وتكثيف وتقوية جدران المدينة. وأنشأ أبراجا وبطاريات مدفعية عديدة.

وبعد الاستيلاء على الحصن الاسباني في 1529 بدأ عهد جديد في تاريخ الجزائر. فقد خرب خير الدين البناءات الاسبانية عدا بعض الأبراج واستعمل الحجارة لردم ما بين الصخور إلى الشاطئ وطورها ببناء أرصفة متلاقية فجعل من المرسى الطبيعي ميناء منيعا يحمي السفن من الرياح. وبنى ثكنة كبيرة للانكشارية ومعتقلا خاصا بالأسرى يأوي 2000 شخص كما أنشأ مستشفى وجوامع وفنادق ومنازل كبيرة الخ. لكن أهم منشآته كانت خاصة بتحصين أسوار المدينة وأبراجها الدفاعية[1]. واستمر خلفاء خير الدين في تقوية الحصون والمنشآت الدفاعية. ففي 1545 بنى ابنه حسن باشا الحصن الذي يحمل اسمه والذي أطلق عليه الفرنسيون «برج الإمبراطور» كما بنى حصن باب الجزيرة في 1551-1552 وتبعه حصن النجمة الذي بناه علج علي ابتداء من 1569. وقام عرب أحمد باشا ورمضان باشا وحسن ڤنزيانو بتحسين وتوسيع المواقع الدفاعية وبناء القصور والحمامات والفنادق والجوامع، الخ.

إن الرسوم والخرائط التي رسمت في القرن السادس عشر تبين تقدم المباني داخل الأسوار من أسفل المدينة إلى أعلاها. ففي الخريطة المرسومة في 1541 نرى النصف الأعلى من المدينة ما يزال خاليا من المباني[2]. أما الرسم

---

1. حول تطور المنشآت الكبرى في الجزائر في القرن السادس عشر انظر: Haëdo, Topographie..., p. 52 sq ; A. Devoulx, « Alger, étude archéologique et topographique », *R A*, 1875 et 1876 ; M.- H. Ben Mansour, Alger..., p. 156 sq ; M. Belhamissi, *Alger, la ville aux mille canons*, A, ENP, 1990, p. 19 sq et Farid Khiari, *Vivre et mourir à Alger*, Paris, L'Harmattan, 2002, p. 179 sq.

2. أنظر B. et L. Bennassar في كتاب *Les Chrétiens*...، السابق الذكر ص 266 - 267.

Scanné avec CamScanner

المقام في 1563 فتظهر فيه المباني التي شيدت في النصف الأعلى لكن ما تزال مساحات خالية. وفي خريطة[1] 1575 نرى البرجين المشيدين في 1568 و1569 خارج المدينة وكيف كانت المباني والمنشآت تملأ الفراغ في النصف الأعلى وتقترب من القصبة المبنية في قمة المدينة وإن كانت بعض الفراغات لم تسد بعد.

وفي نهاية العقد 1570 أصبحت المدينة كما يقول هاييدو[2]: «إن منازل هذه المدينة مجمعة ومتلاصقة بعضها ببعض، مما يجعلها تشبه جوز الصنوبر في قوة تلاحمه».

كانت مدينة الجزائر مدينة متوسطة قد يبلغ سكانها 4000 أسرة عند مجيء برباروسة[3] وصارت في سنوات 1570-1580 قد تصل 100 ألف ساكن حسب تقديرات معاصرة.

إن هذه المدينة المستندة إلى ربوات الساحل وإلى سهل متيجة التي كانت تشكل في القرن الرابع عشر «بلاد الجزائر» حسب تعبير ابن خلدون، لها قاعدة ترابية تمدها مباشرة بوسائل العيش.

وفي منتصف القرن السادس عشر بدأ الحكام الجدد يستولون على الأراضي القريبة من المدينة ويبنون فيها جنانات محاطة بالبساتين وأحواشا كبرى. ففي 1551 لاحظ نيكولاي[4]: «خارج المدينة من جهة الغرب توجد عدة جنانات بديعة فيها أشجار تنتج كل الثمار... وحول جناناتهم، توجد كثير من

1. Escurial, reproduit in Braudel, *La Méditerranée*..., t2, plan n°30 entre p. 192 et p. 193.

2. أنظر:

C. Monchicourt, « Essai bibliographique..., » *RA*, 1925, p. 378 sq. et *RA*, 1927, Planche VIII, *Plan d'Alger de l'Atlas Braun* (1575).

3. J. Léon L'Africain, *Description*..., *op. cit.*, t II, p. 347.

4. N. Nicolay, *Dans l'Empire*..., *op. cit.*, p. 65-66.

Scanné avec CamScanner

الآبار الجيدة الماء والأراضي حولها وإن كانت ربى ووديانا هي أراضي خصبة فيها الثمار والكروم».

وفي الجزء السابق[1] كنا نشرنا رسم بيع مؤرخ في أكتوبر 1565 ذكر فيه أحواش القبطان إنجاوالي وشلوق رايس والقائد مامي ومحمد شلبي وكلهم مسئولون كبار في حكومة الجزائر ومن كبار الملاك في الساحل ومتيجة.

وحوالي 1580، اتسع تملك الأراضي في هذه المناطق إلى فئات أخرى من سكان المدينة، يقول هاييدو[2]: «في هذه الأراضي الخضراء لا يوجد أي حضري من أهل المدينة صاحب ثروة مهما كانت، إلا وقد بنى منزلا صغيرا يتميز بياضه في هذه المناظر ويعطي للريف صبغة ساحل جنوة. وبين هذه الجنائن التي قد تتجاوز العشرة آلاف، لا أحد من الحضر من أصحابها إلا وله على الأقل أسيران مسيحيان، وكثير لهم أربعة أو خمسة أو حتى ستة أو أكثر».

وعن متيجة يضيف[3]: «في هذا السهل الواسع، كثير من الأتراك ومن الحضر لهم ممتلكات جميلة تزودهم بوفرة بالقمح والشعير والفول والبطيخ والخيار وكل أنواع الخضر. ويربون قطعانا كثيرة من البقر والغنم، الخ. وكثيرا من الدواجن ويجنون منها في كل عام وفرة من الزبد والعسل وفوق ذلك المنتجات الثمينة مثل دود القز الذي يربونه».

لتقييم الازدهار

إن مارمول[4] أيضا قد اندهش كثيرا لكثرة الرخاء في الجزائر. ويقول إن الضرائب الجمركية عن السلع القادمة من داخل البلاد كانت تتجاوز

1. L. Merouche, *Recherches*..., I, p. 163.
2. Haëdo, *Topographie*..., *op. cit.*, p. 224-225.
3. نفس المصدر.
4. *L'Afrique de Marmol*..., *op. cit.*, t. II, p. 332.

Scanné avec CamScanner

المليون إيكي ذهب سنويا. وهو رقم مستدير يعبر فقط عن الانطباع بالوفرة والرخاء.

وتبدو الأرقام[1] عن التجارة بين مرسيليا والجزائر أكثر مصداقية وهي تبلغ 200 ألف إيكي في 1556 كما أن صادرات عنابة إلى مرسيليا في هذه السنوات تقدر بين 30 و40 ألف إيكي في السنة. وهذه الأرقام وإن كانت جزئية تبين أن هناك اتجاها عاما من نمو التجارة الخارجية الجزائرية. كما يترجم عن هذا النمو تطور المبادلات مع المدن المتوسطية الكبرى ومع بريطانيا وهولندة[2].

لو حاولنا الوصول إلى رقم تقريبي عن قيمة التجارة الخارجية بمجرد المقارنة والتخمين وافترضنا أنها تبلغ نحو أربع مرات قيمة التجارة مع مرسيليا فإننا نصل إلى مليون دوقا وهو يزيد قليلا عن مليون دينار سلطاني. وبالإمكان أن نزيد شيئا ما في هذا الرقم دون الخروج عن حدود الممكن والمعقول. مع ذلك نبقى أبعد ما نكون عن قيمة التجارة الخارجية لفرنسا مثلا في منتصف القرن السادس عشر (75 مليون ليرة فرنسية (ليرة ترنوا) أي ما يقارب من 32 مليون دوقا)[3].

أما عن مداخيل الخزينة الجزائرية فإن تقديرات هاييدو لها (بين 400 و450 ألف دوقا) تعتبر محتملة. وللمقارنة كانت المداخيل الملكية الاسبانية[4] 8،7 مليون دوقا في 1577 وبلغت 12،5 مليون دوقا في 1598 ومداخيل فرنسا[5]

1. Collier et J. Billioud, *Histoire du commerce de Marseille*, Paris, Plon, 1954, t . II, p. 273-276

2. انظر الجزء الثالث الخاص بالتجارة الخارجية من بحثنا هذا وسينشر قريبا.

3. F. Braudel, *Civilisation matérielle*…, t. 2, Les Jeux de l'échange, P., Colin, 1979, p. 187.

4. B. Bennassar, *Un siècle d'or espagnol*, Paris, R. Laffont, 1982, p. 63.

5. F. Braudel, *Les Jeux*…, *op. cit.*, p. 471 sq

Scanné avec CamScanner

تجاوزت 6،5 مليون دوقا في منتصف القرن السادس عشر ، بينما كانت ميزانية الدولة العثمانية تتراوح بين 10 و15 مليون دوقا في هذه السنوات حسب تقارير الرسميين البنادقة[1].

لكن ينبغي التذكير بهذه النصيحة القديمة بأن على المؤرخين أن يحتاطوا من أرقام التقارير عن الميزانية في تلك الفترة. إن هذه الأرقام تقريبية فقط لإعطاء فكرة عامة عن المستويات المختلفة لدول وأقطار ذلك العصر.

ولاستكمال الصورة عن هذه المقارنات، ينبغي التوضيح بأنه حسب نفس المصادر التي سبق ذكرها كان سكان فرنسا يقدرون آنذاك بـ 16 مليون وسكان اسبانيا بـ 8 ملايين. أما الأرقام عن مجموع سكان الأمبراطورية العثمانية فهي أقل وثوقا. والتقديرات الأكثر شيوعا حاليا[2] فيما يخص نهاية القرن السادس عشر تتباين من 22 إلى 35 مليون وثلثها يخص مصر والإيالات المغاربية. وعلى هذا الأساس يكون تقدير سكان الجزائر في حدود ذلك الوقت بين 2 و2،5 مليون.

وإذا قارنا بين عدد السكان وقيمة الميزانية، يتبين الفارق الكبير بين هذه الدول. وفي المصدر المذكور منذ قليل، يقول بروديل إن كل شخص في أوروبا كان يدفع مقابل دوقا واحد لأميره. بينما كان ساكن القطر الجزائري في نفس الفترة يدفع لحكامه بين 0،16 و0،23 دوقا. ولو أخذنا هذا الرقم منعزلا لجعلنا نتصور أن الجزائر كانت «جنة جبائية». ولكن يجب الحذر من المفارقة التاريخية وإسقاط الواقع الراهن على ذلك الماضي. فالرعايا في الجزائر ربما

---

1. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1974، ص 473.

2. Albert Hourani, *Histoire des peuples arabes*, Paris, Seuil, 1993, p. 310 ; Halil Inalcik et D. Quataert, ed., *An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300-1914*, Cambridge Univ., Pr., 1994, p. 29 sq ; P. Bairoch, *Victoires et déboires*, Paris, 1997, t. II, p. 521.

Scanné avec CamScanner

كانوا مثل غيرهم من المعاصرين لهم يرهقهم حكامهم المحليون ويعتصرونهم اعتصارا بكل أنواع السلب والابتزاز. لكن هؤلاء الحكام المحليين من شيوخ القبائل وقياد الأوطان وما فوقهم مباشرة لم يكونوا يدفعون إلا جزءا ضئيلا من ابتزازاتهم للحكم المركزي.

صحيح أن الضغط الجبائي كان على المدى الطويل في ازدياد مطرد في مختلف البلدان. وفي الجزائر كان توطد الحكم المحلي في يد القياد والبايات يتماشى مع تعدد الضرائب والرسوم الإضافية و«الهدايا» و«الضيافة» و«اللزمة» الخ. وكان كل ابتراز جديد يعتبر سابقة مفروضة على الناس وبتكرارها على مر السنين تتخذ مظهر العادة المرعية والحق الشرعي. إن هذه الظاهرة مرتبطة في جوهرها بتقدم تحكم الدولة في المجتمع وبالطابع الخاص لهذه الدولة. وهي مشكلة سنعود إليها في الفصل القادم. ولننظر الآن إلى مظهر آخر من مظاهر ازدهار القرصنة، وهو نمو القوة البحرية.

بحرية الجزائر

منذ البداية، كان الأسطول هو أحد الأدوات الأساسية التي انبنى عليها الحكم في الجزائر ولأسباب متعددة فإن معلوماتنا عن هذا الأسطول قليلة عن هذه الفترة وكثيرة متزايدة في الفترات التي تليها. وفيما يخص السنوات المعنية هنا فإن عدة أسئلة لم تتوفر الإجابة الكافية عنها، منها بالأخص مسألة عدد ونوعية السفن. فالشهادات والوثائق المعاصرة تقدم أرقاما تتعلق في الحقيقة بسنة أو سنتين لا بعدة عشرات من السنين لأنه تبعا للظروف كان العدد يصعد ويهبط سالكا في مسيره تقلبات كثيرة. وكانت هذه المصادر غالبا ما تتحدث فقط عن سفن مدينة الجزائر لا عن سفن القطر في مجموعها.

حسب «غزوات» (ص 99) كانت الجزائر تملك 9 سفن قرصنة وعند وصول خير الدين كان معه 15 سفينة وصنع 8 سفن أخرى. وانطلاقا من بعض

Scanné avec CamScanner

الوثائق الفرنسية والاسبانية، اعتبر دوڤو[1] أن أسطول الجزائر كان «يتكون من 60 سفينة في 1530 إذا ألحقنا به في الحقيقة سفن القراصنة المستقلين».

وفي سنوات 1560-1570 نمت البحرية مع صعود القرصنة. ففي ماي 1564 «جاء في تقرير إخباري من مرسيليا إلى فيليب الثاني الذي علق عليه بخط يده، أنه خرجت للقرصنة 50 سفينة من الجزائر و30 من طرابلس الغرب و16 من عنابة و4 من باديس»[2].

وعن سنة 1581 يعطي هاييدو[3] قائمة مفصلة مع اسم رايس كل سفينة وعدد مقاعد التجديف الخ. وهذه القائمة فيها 36 قادسا وغليوطة في مدينة الجزائر. وهو يقدر أسطول شرشال والموانئ الواقعة بين شرشال والجزائر بين 20 و25 فرقاطة. ويضيف بروديل[4] إلى هذه الأرقام «عددا معينا من البريغانتين والصنادل» التي كانت موانيها في شرقي مدينة الجزائر.

حاول فيشر[5] من جهته أن يعيد النظر في هذه الأرقام معتمدا بالأساس على بعض المصادر الإنكليزية التي تقدر أن أسطول الجزائر في 1544 كان يتكون من 8 قوادس و12 فوستة وكان لها في 1555 ما بين 20 و30 قادسا خفيفا لكن حسن التجهيز وفي 1581 كان لها 36 سفينة «صغيرة جدا». ونظرا لانعدام أرقام رسمية وثيقة يمكن الاستمرار في الجدل حول هذه الأرقام بلا نهاية. لكن يمكن أن نلاحظ أن المقارنة بين مختلف المصادر التي سبق ذكرها تؤدي إلى ترجيح تقديرات بروديل. مثلا مما ورد ذكره أعلاه أنه كان لمدينة الجزائر 36 قادسا عدا السفن الأخرى. وفي 1553 قامت 40 قادسا وغليوطة

1. A. Devoulx, « La Marine de la Régence d'Alger », *RA*, 1869, p. 385.
2. F. Braudel, *La Méditerranée*, t. II, p. 205.
3. Haëdo, *Topographie*..., *op. cit.*, p. 99-102.
4. F. Braudel, *La Méditerranée*..., t. II, p. 207.
5. G. Fisher, *La Légende*..., p. 127 sq.

Scanné avec CamScanner

وبريغنتين جزائرية بمهاجمة ماهون وفي 1563 كانت 40 سفينة من الجزائر تحاصر وهران و10 سفن أخرى تراقب الشواطئ الاسبانية.

— وبالمقارنة مع الأسطول الاسباني (146 قادسا في 1574) يعتبر أسطول الجزائر قوة ثانوية كما أنه كان بالنسبة للأسطول العثماني يشكل نحو الربع أو الخمس من هذا الأسطول حسب الأوقات المختلفة. لكن بالنسبة لقطر الجزائر والإيالة التي تشكلت فيه وقواها الداخلية في هذه السنوات، وبالنسبة للأهداف التي يرمي لها هذا الأسطول وهي أهداف قرصنة، فإن هذه الوسائل المستعملة في إطار محدود تعتبر وسائل ضخمة.

سفن كبرى وصغرى

إن الفارق الكبير بين التقديرات في المصادر المختلفة يعود أيضا إلى اختلاف المنطلقات التي تنظر من خلالها هذه الدولة أو تلك. وقد وضح فيشر نفسه أن تقارير تلك الفترة كانت تميز بين السفن التركية وهي قوادس كبيرة وأحيانا ضخمة جدا وبين سفن الجزائر وهي عموما سفن صغيرة. فعلا كان الإنكيز مثلا، وقد بدأوا ينمون صلاتهم التجارية في البحر المتوسط، يهتمون قبل كل شيء بالإمكانيات القتالية لمختلف الأساطيل في هذا البحر. ومن وجهة النظر هذه، كانت القوادس والغليوطات لها قيمتها بسبب المدفعية المنصوبة فيها وكثرة الإنكشارية التي تحملها، حتى وإن كانت بعض الغليوطات الخفيفة تبدو لهم «صغيرة جدا». أما السفن الصغرى من نوع بريغنتين الخفيفة، فقد كان حجمها ومستهدفاتها تجعل منها سفنا لا يعتد بها من الناحية الحربية. ولهذا توضع في قوائم أخرى عير قائمة القوادس والغليوطات. وهذا ما فعله هاييدو مثلا.

وعلى العموم منذ البداية وطوال القرن السادس عشر كانت الجزائر تفضل الغليوطات الخفيفة التي هي فعلا أصغر حجما من القوادس وإن كانت مثلها

تعتمد على التجديف مع الاستعمال الظرفي للقلوع لكن ميزتها هي أنها أسرع من سفن الدول الأخرى في البحر المتوسط.

وكان هاييدو يصنف السفن حسب عدد مقاعد التجديف فيها. وكل مقعد عليه ثلاثة مجدفين بصورة عامة. وقائمته عن 36 قوادس وغليوطات مدينة الجزائر، تحتوي على 3 قوادس لها 24 مقعدا في كل جانب و12 غليوطات من 22 مقعدا في كل جانب دائما و8 غليوطات من 20 و1 من 19 و10 من 18 و2 من 15 مقعدا.

للمقارنة، كانت بعض القوادس الكبرى لها 25 مقعدا أو أكثر في كل جانب. وكل مقعد في هذه القوادس الضخمة له 4 أو 5 مجدفين وأحيانا 6. وكانت أحيانا تزيد عن 50 مترا طولا و9 متر عرضا وتحمل عددا من المدافع قد يبلغ 8 مدافع في المقدمة و8 في المؤخرة و8 مدافع ضد الأشخاص في كل من الجانبين[1]. وكان للجزائر بعض القوادس الضخمة من هذا القبيل متأتية من غنائم الحرب والقرصنة لكنها نادرة بل استثنائية. فأهم سفن القرصنة في الجزائر هي كما رأينا في قائمة هاييدو وهي غليوطات من 18 إلى 22 مقعد. وهي على العموم هيفاء لا يزيد عرضها عن 6 متر مقابل 40 متر أو أكثر طولا.

ومما جاء في كتاب القبطان[2] Pantero- Pantera عن التقنيات البحرية في القرن السادس عشر «أنه في الأقطار المغربية... يصنعون غليوطات كبيرة مثل القوادس العادية، وتشبهها في كل شيء لكن ليس لها درابزين ولا صاري أمامي. وأرباب السفن يصنعونها على هذا الشكل حتى لا يكونوا مجبرين من السلطان العثماني على وضعها تحت تصرفه لو كان لها هذه العناصر الموجودة

1. Geoffroy Parker, *La Révolution militaire en Occident, 1500-1800*, Paris, Gallimaed, 1993, p. 115 sq.

2. ذكرت في الترجمة الفرنسية لـ Haëdo, *Topographie...*, p. 88 وهي تعليق من المترجمين لشرح الفارق بين القوادس والغليوطات.

Scanné avec CamScanner

في كل قادس». فعلا لم يكن قراصنة الجزائر متحمسين للمشاركة في الحروب البحرية العثمانية. لكن من أسباب هذا الخيار أن سفنهم هدفها القرصنة وهم لذلك يفضلون أن تكون أخف وبالتالي أسرع وأكثر مرونة وطواعية في الاستعمال والمناورة البحرية.

إن السفن الصغرى التي يسميها هاييدو brigantins أو frégates تختلف عما سمي فيما بعد فرقاطة فقد كانت سفنا صغيرة تسير أيضا بالتجديف والقلوع مثل الغليوطات لكن لصغرها وقلة أهميتها الحربية لم تكن تدرج في التقارير الرسمية المتعلقة بتقدير القوى البحرية للدول. وهي على العموم لا تشارك في العمليات الحربية وتكتفي بالقرصنة في إطار ضيق. مع ذلك فإنها حسب هاييدو كانت تحدث أضرارا كبيرة في اسبانيا قد تزيد عن أضرار السفن الكبرى. وكانت أهم موانيها هي شرشال التي يسكنها كثير من المهاجرين الأندلسيين الذين لهم معارف وأقارب في القرى الأندلسية وكانت لهم معرفة جيدة بالبلاد ولغتها. فكانوا يخفون سفنهم في الأجوان ويتنكرون في ملابس مسيحية وينظمون كمائنهم بفعالية. وهذا ما يجعل عملياتهم لها فعالية كبيرة. وهذه السفن الصغيرة كانت حسب هاييدو لها عدد من المقاعد ما بين 8 و13 مقعدا ولم يكن فيها جدافون من العبيد النصارى بل كان كل الجدافين فيها هم من المتطوعين الذين يشاركون في المعارك ويأخذون نصيبهم من الغنائم.

أشكال الحكم الجديد

بعض خصائص هذا الحكم كانت جديدة في المغارب. وبالدرجة الأولى كان الباشوات ونوابهم والأغوات وقادة الأسطول وغيرهم من كبار القياد وكبار القراصنة كانوا من أصول تركية ومشرقية أو من العلوج.

ومع أن هؤلاء الحكام مسلمون، فقد كانوا بأصلهم الإثني ولغتهم وتقاليدهم أجانب عن سكان الأقطار المغربية. وكان الأتراك وما انتسب إليهم يتمتعون

Scanné avec CamScanner

بامتيازات خاصة بهم. فهم معفون من السخرة وغيرها من الأمور الإجبارية ومن بعض أنواع الضرائب. وكان لهم بحكم انتمائهم الإثني احتكار المسئوليات العليا وكذلك الالتحاق بهيئة الإنكشارية، فيما عدا بعض الاستثناءات.

ولم يكن الإنكشارية يشكلون القوة المسلحة الوحيدة وإنما هي البنية العسكرية المسيطرة على المجتمع وتتألف من وحدات نظامية مأجورة ودائمة. وهي هيئة لها وسائل قوية جعلت منها أداة الحكم الرئيسية. وإلى جانب القواعد والترتيبات العسكرية الدائمة كان المجلس العام للإنكشارية يصادق دوريا على ميثاق يعتبر كنوع من القانون الأساسي للحكم. إن أغاني الإنكشارية التي نشرها وترجمها إلى الفرنسية جون دوني[1] تعبر عن أديولوجية هذه الجماعة الفاتحة وتخلد أمجاد الغزاة. و«غزوات» وما أشبهها من المؤلفات تقدم عناصر التبرير التاريخي للحكم. وكان لهيئة الإنكشارية طريقة دينية خاصة بهم يعتبر حاجي بكداش أباها الروحي. وكان الإنكشارية مثل كل الأتراك والعلوج على المذهب الحنفي. إن هيئة الإنكشارية كانت تحمل البذور التي جعلت منها فيما بعد المصدر الوحيد للسلطة بل وفوق ذلك نوعا من الحكم الجماعي، لها السيادة الجماعية على البلاد، أي «جمهورية عسكرية» تدير البلاد لصالحها الخاص وتميل أحيانا إلى الاستقلال في نفس الوقت عن السلطان العثماني وعن مجتمع الأهالي وتدبر سياستها العامة وفقا لمصالحها الخاصة سواء اتفقت مع مصالح البلاد العامة أم لا.

غير أن هذا الحكم كان يصادف قوى مقابلة تحد من ثقله. فهو مضطر أن يعمل في إطار القوانين والتنظيمات التي قد يؤدي تجاوزها إلى ردود فعل على مستويات مختلفة.

---

1. Jean Deny, «Chants des janissaires turcs d'Alger », *in Mélanges René Basset*, Paris, Leroux, 1925, t. II, p. 33-175.

Scanné avec CamScanner

قبل كل شيء لم يكن الأهالي جمهورا ساكنا. فالهزات الكبرى التي مر بها القرن السادس عشر قد جندت جماهير غفيرة من المقاتلين. إن معارك بجاية والجزائر ومستغانم والمساهمة الجماهرية الواسعة فيها بينت القوة الهائلة التي تحتويها هذه الإمكانيات. صحيح أن حمل السلاح ضد السلطة لم يكن شيئا عاديا بل يلجأ إليه الناس حين لا يبقى غير هذه الوسيلة لحل النزاع. وفي الظروف العادية كان رجال الدين يقومون بدور الوسيط وقد يعظون الحكام ويذكرونهم بواجبهم ويبحثون عن حلول يقبلها الطرفان. صحيح أنه في معظم الأوقات كان وعاظ السلاطين والأمراء يكتفون بالشكليات التي قد لا تخلو من التملق والتذلل. لكن من جهة كان بعض العلماء يتميزون بضمير حي وشخصية قوية فيقفون بحزم في وجه الظلم والطغيان ويجبرون الحكام على التراجع. ومن جهة أخرى كان الدفاع عن مصالح الفئات المهنية له تقاليد عريقة وهو مسجل في قوانين المدينة وتنظيماتها. وكانت التجاوزات الكبيرة تعرض الحكام لمخاطر الثورة والانقلابات العسكرية ولهذا كانوا يتحاشونها غالبا وتبقى تصرفاتهم في حدود مرسومة يحاولون مراعاتها.

وعلى ما فيها من تعدد وتنوع كانت صراعات القرن السادس عشر تعبر عن اتجاه عام هو رفض الحكم الجديد. ولم يكن الأمر يخص «سليطانات» و«شبه إمارات تافهة» متشبثة بالسلطة كما يصورها البعض بل يتعلق بهويات مدنية وقبلية وجهوية وطرقية قوية متمسكة بتقاليد لها جذورتمتد عبر قرون متعددة. وكمثال فإن الثورات الكبرى التي عرفتها قسنطينة وناحيتها بين 1554 و1572 كانت في نفس الوقت تعبيرا عن إرادة حاضرة تاريخية كبرى في الدفاع عن مكانتها المهددة وعن الوحدة المتينة التي تربط المدينة بالقوى الريفية المحيطة بها.

Scanné avec CamScanner

إن هذا يطرح مشكلة تنوع ردود الفعل أمام التدخل العثماني. وفي هذا المجال يجب التمييز بين الفترات المختلفة وبين الاتجاهات المتباينة إذا كانت المعطيات الوثائقية المتوفرة تسمح بهذا التمييز.

في البداية استقبل القراصنة الأتراك استقبال الأبطال وبسرعة أظهروا أنهم رجال سلطة أشداء وأثاروا ضدهم ردود فعل عنيفة. وفي النهاية انتصروا بمساعدة الأسطول العثماني وبالأخص لوقوف قطاعات واسعة من المجتمع إلى جانبهم. إن الرفض مثل المساندة مرتبطان بالطابع المزدوج لهذا الحكم الجديد، حكم استبدادي وتحريري في نفس الوقت.

الزمر والسلطة

إن وجود زمر قوية داخل الجماعات المسيطرة في الجزائر هو في حد ذاته عائق كبير أمام التحكم المطلق. مثال على ذلك يعطيه الدفاع المستميت المتعدد الأشكال وهو أحيانا عنيف، عن مصالح القرصنة من طرف قوى ضغط لها نفوذ ووسائل قوية.

وهنا ينبغي أن نميز بين قوى الضغط مهما كان تأثيرها وبين الزمر السياسية والعسكرية التي تتألف منها السلطة. فالقرصنة بمصالحها القوية وامتداداتها الواسعة داخل المجتمع وخطابها الغازي «كجهاد ضد الكفار» قد تستخدم أحيانا بيد بعض المترشحين للحكم لكن الصراعات على الحكم قلما كانت بين القراصنة والإنكشارية خلافا للمزاعم التي طالما رددت. فأكثر المسئولين في هذه الفترات زاولوا مهام عسكرية في البر والبحر كما شاركوا في أعمال القرصنة. وقد رأينا فيما سبق أن كثيرا من الباشوات وأغوات الإنكشارية وكبار القياد كانوا هم أنفسهم أرباب سفن وقد يقودونها بأنفسهم في عمليات القرصنة.

Scanné avec CamScanner

العلوج

هناك أيضا تعميم فيه كثير من التبسيط وهو المعارضة بين الأتراك والعلوج[1]. فالأمور لم تكن بهذه البساطة. فلننظر إلى هذه الظاهرة المتمثلة في وجود عدد كبير ودور متزايد للأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام وأطلق عليهم اسم العلوج. والظاهرة جديدة في الأقطار المغربية. صحيح أن الحفصيين والزيانيين والمرينيين كانوا يستعملون كجنود بعض المرتزقة الأوروبيين وكان بعضهم يتخلى عن دينه لصالح الإسلام. لكن في جمهورهم حافظ هؤلاء الجنود المرتزقة على دينهم المسيحي وكانوا بهذه الصفة حرسا خاصا لبعض الملوك. لكن عددهم بقي محدودا وظلوا يشكلون قوة إضافية.

إن أهميتهم المتزايدة في الإيالات المغاربية ابتداء من القرن السادس عشر يثير في الأذهان ذكرى المماليك، هذه الهيئة الحاكمة المتألفة من فرسان- عبيد انبثقت منهم أسر مالكة حكمت مصر وسوريا من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر. لكن العلوج لم يشكلوا أبدا هيئة متميزة مثل المماليك فقد كانوا دائما جزءا من الجماعة الحاكمة العثمانية. ويسميهم هاييدو «الأتراك بالمهنة» وكما يلاحظه C. H. Imbert فهناك اتجاه عام إلى المبالغة في عددهم ودورهم السياسي. إن الإخوة بربروسة ودرغوث وصالح رايس ورمضان باشا وغيرهم كثيرا ما اعتبروا من العلوج وهذه المزاعم يفندها اليوم مؤرخون

---

1. بقي موضوع العلوج الذين يسميهم الأوروبيون renégats (المرتدين) موضوع دعاية دينية وحقل سجالات لا نهاية لها. وقد بدأ يخرج من الإطار السجالي بفضل مؤلفات عديدة تبحثه من وجهة تاريخية علمية. انظر بالأخص :
G.Turbet-Delof, *L'Afrique.., op. cit.*; T. Bachrouch, *Formation barbaresque et pouvoir à Tunis au XVII^{e} siècle*, Publ.. de l'Univ. de T. , 1977, p. 38 et sq .; B. Bennassar, « Conversion ou reniement . Modalité d'une adhésion des Chrétiens à l'Islam (XVI^{e}-XVII^{e}), *AESC*, 1988, p. 1349-1366 ; A. Gonzales-Raymond, *La Croix et le Croissant*, éd. Du *CNRS*, 1992 ; J. Dakhlia, « Turcs de profession » in M. Garcia- Arenal (dir.), *Identités religieuses en Islam méditerranéen*, Paris. Maisonneuve et Larose, 2000, p. 141-150 et F. Khiari, *Vivre et mourir à Alger*, Paris, l'Harmattan, 2002 , p. 70 sq.

Scanné avec CamScanner

أتراك بالاستناد إلى مصادر عثمانية بعضها وثائق رسمية. ويضيف إمبير في دراسته التي أشرنا إليها سابقا أنه نظرا لصمت الوثائق الرسمية العثمانية فمن الصعب تقدير المساهمة الحقيقية التي قدمها العلوج في الميادين المختلفة. وبالأخص من الصعب معرفة عددهم المضبوط في فترة معينة. وبالطبع فإن التحفظات التي قد نبديها إزاء بعض التقييمات لا تعني بالضرورة رفض شهادات المعاصرين في الموضوع. فمبالغاتهم نفسها تشير نوعا ما إلى أهمية الظاهرة. وبجمهورهم الواسع كان العلوج بدون شك مساهمة بشرية أروبية كبيرة إلى البلاد الإسلامية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط. فمنذ 1551 يعتبر نيكولاي[1] أن «أغلب من يدعون أتراكا في الجزائر.... هم مسيحيون مرتدون». أما هاييدو[2] فيذكر أنه في مدينة الجزائر في نهاية عقد 1570 كان العلوج وأبناؤهم «أكثر عددا من بقية السكان الأهالي والأتراك واليهود، إذ لا توجد أمة مسيحية لم تقدم للجزائر نصيبها من العلوج».

إن المؤلفات الكثيرة التي كرستها الهيآت الدينية الكاثوليكية لمصير العبيد المسيحيين تجعل من الضغوط المسلطة عليهم السبب الرئيسي في اعتناقهم للإسلام. طبعا، إن حالة الاستعباد هي في حد ذاتها أفظع مس بكرامة الإنسان وتحتوي على آلام يومية لا تطاق بالنسبة لفئات معينة من هؤلاء العبيد. وتغيير دينه هو أقصر طريق للخروج من العبودية. لكن من المشكوك فيه أن يكون ملاك العبيد مهتمين كثيرا بتغيير مماليكهم لدينهم في وقت كان فيه القراصنة أحوج ما يكونون لآلاف من المجدفين.

وقد كان جزء هام على الأقل من عمليات شراء العبيد المسيحيين عبارة عن مضاربة مالية لأن قيمة افتدائهم أعلى بكثير من قيمة الشراء. من جهة

1. N. de Nicolay, *Dans l'Empire...*, p. 65.

2. D. de Haëdo, *Topographie...*, p. 62.

Scanné avec CamScanner

أخرى تظهر الصلات الوثيقة بين المعتقين وأربابهم السابقين أنه كان يوجد بينهم علاقات يمكن تصويرها بمثال كثيرا ما نصادفه في الوثائق العثمانية، هو زواج المعتقين بابنة أو قريبة معتقهم.

يضاف إلى ذلك أنه لاعتبارات متعددة كان آلاف من الأوروبيين يأتون طوعا وعمدا للجزائر بقصد اعتناق الإسلام واغتنام فرصة الإثراء والصعود في سلم السلطة. الخ. وهذه بعض الأمثلة:

– في 1549، فر عدد كبير من الجنود الاسبان من ثكناتهم والتحقوا بالجزائر رغبة منهم في المشاركة في فوائد القرصنة[1].

– خصص بروديل[2] لهذه الالتحاقات الطوعية بالمعسكر الآخر فقرة طويلة نقتطف بعضها: «في جربة 1560، قبل أن تستسلم القلعة للأتراك، فر عدد من الاسبان والتحقوا بالعدو... وبعد مدة قصيرة، في حلق الوادي، اكتشفت مؤامرة لتسليم القلعة للمسلمين. وفي صقلية كانت القوارب كثيرا ما تنطلق حاملة شحنات من المرشحين للارتداد. وفي غوا، نفس الظاهرة عند البرتغاليين... ومن كورسيكا وسردانيا وكالابريا وجنوة والبندقية واسبانيا ومن كل أنحاء العالم المتوسطي، كان العلوج يلتحقون بالإسلام».

– في 284 حالة اسبانية نعرفها بواسطة وثائق محاكم التفتيش عن ظروف الالتحاق بالإسلام بين 1560 و1700، كانت 29,57 % منها اختيارية أي 84 حالة منها 62 حالة فرار جنود. ويضيف بن نصار[3] أن هذه الأرقام هي أقل من الحقيقة، لأنه لم يدرج فيها سوى الحالات اليقينية. وكثير من هؤلاء العلوج الذين اعتنقوا الإسلام في الجزائر، ربما لأنهم كانوا صغار السن، أظهروا

1. Ch. De La Véronne, *Oran...*, p. 285.

2. F. Braudel, *La Méditerranée...*, t. II, p. 133.

3. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens...*, p. 201.

Scanné avec CamScanner

قدرة على التكيف وجهدا في الاندماج في مجتمعهم الجديد تحدثنا عنه في الجزء السابق (ص 203 وما بعدها)

ولنضف إلى الحالات المذكورة العناصر الآتية:

كان منصب ناظر المواريث المخزنية (يدعى أمين بيت المال فيما بعد) وهو منصب يتطلب معرفة باللغة العربية والفقه والقوانين والتنظيمات المحلية، يشغله بصورة شبه دائمة علوج فيما بين 1557 وأواخر القرن السادس عشر. وهذه قائمة، بدون شك غير كاملة، مستقاة من الوثائق الشرعية بمدينة الجزائر لنظار المواريث المخزنية:

1559 محمود بن عبد الله معتق حسن باشا

1565 حسين بن عبد الله معتق حسن باشا

1570 جعفر بن عبد الله معتق علي باشا

1572 يوسف بن عبد الله

1578 مصطفى بن عبد الله.

1584 مراد بن عبد الله

1587 حسراف بن عبد الله معتق شلوق باشا

أواخر القرن السادس عشر علي خوجة بن عبد الله

الأسياد والأتباع

يمكن أن نتساءل كيف كان العلوج في ظروف تلك الفترة يستطيعون الوصول إلى منصب الباشا في الإيالة. إن الطرق إلى قمة السلطة كانت مليئة بالحواجز والفخاخ بسبب صراعات الزمر في الجزائر واستنبول. ولنأخذ مثال ثلاثة من أشهر باشوات الجزائر الذين لا شك في أنهم من العلوج: حسن آغة وعلج علي وحسن ڤنزيانو. لهم صفة مشتركة هي الكفاءة التي أظهروها في الميدان

Scanné avec CamScanner

في ظروف حاسمة وكونهم تابعين لسيد قوي يحميهم. كان حسن آغا كما هو مسجل على شاهد قبره «مملوك خير الدين». وإذا فسرنا حرفيا هذا الشاهد، فمعناه أن حسن آغة بقي إلى حين وفاته مملوكا غير معتق لخير الدين. لكن يبدو أن كلمة مملوك كانت في الجزائر في هذه الفترة تعني في نفس الوقت العبد الذي لم يعتق والعبد الذي أعتق. مثلا هناك تسجيلان يخصان القايد صفير. في أحدهما يدعى عتيق وفي الآخر يدعى مملوك خير الدين. ومهما كان الأمر فإن حسن آغة رباه خير الدين كأنه ابنه ويقال أنه تبناه. وكان ناظر أموره الخاصة ومحل ثقته الذي يكلف بالمهام الدقيقة والقائد الكفء في جيش خير الدين. وحين غادر خير الدين الجزائر في 1533 عين حسن آغة على رأس حكومة الجزائر. وبقي في هذا المنصب إلى سنة 1544 قبيل وفاته بمدة قصيرة. وقد رأينا أعلاه كيف كانت حماية خير الدين له ثمينة حين أثيرت الشبهات حول موقفه عند حملة شارلكان على الجزائر في 1541..

أما علج علي فإن وضعه مختلف بل هو استثنائي إلى حد كبير. إنه مثل الإخوة بربروسة ومثل درغوث لم يكن تابعا لأحد بل تكون بشكل عصامي. صحيح أنه كان مساعد ونائب درغوث وخلفه على رأس إيالة طرابلس الغرب في 1565. كما وجد سندا وحماية عند پيالي باشا القائد العام للأسطول العثماني وكان علج علي نائبه في حملة جربة في 1560. لكن هذه الصلات لم يكن لها الطابع الخاص الذي يميز التبعية الشخصية والانتماء إلى بيت من بيوت سادة العبيد فقد كان هؤلاء بعد عتقهم يبقون من موالي معتقهم وتربطهم به صلات قوية شبيهة بصلات التبني.

إن هاييدو يتحدث عن أحد أشكال هذا التعلق والانتماء عندما لخص موجز حياة ڤنزيانو السياسية[1]. وكان هذا من مماليك درغوث ثم علج علي، ويقول

1. D. de Haëdo, *Histoire*..., p. 178 sq.

Scanné avec CamScanner

هاييدو عنه أنه « كان دائما ماهرا، يعرف جيدا كيف يدبر الأشياء بجرأة ودراية وكان بخصاله وكذلك بعيوبه المشينة المعتادة عند الأتراك قد لقي حظوة عند علج علي». وهكذا حصل في 1577 على منصب باشا الجزائر وأثار سخط الأهالي الذين بعثوا وفدا إلى استنبول في أواخر 1579 للتشكي منه. لكن علج علي، حسب هاييدو، تدخل لدى والدة السلطان لحمايته وقدم لها هدية بقيمة 30 ألف إيكي. وبعث السلطان جعفر باشا كبيلرباي في الجزائر وكلفه بالتحقيق في التهم الموجهة إلى ڤنزيانو. لكن علج علي اتصل بالباشا الجديد وقدم له 20 ألف إيكي هدية وطلب منه أن يتوانى في مهمة التحقيق ويبحث عن وسائل التخفيف من هذه الاتهامات. وفي الجزائر نجح جعفر باشا في جمع شهادات لصالح ڤنزيانو. وهكذا استطاع هذا بفضل مساعي علج علي أن يعين من جديد بيلرباي الجزائر في 1582. في الحقيقة أن حسن ڤنزيانو (البندقي) كان من كبار القرصان ومن أكفأ قادة الأسطول وقد عين بعد وفاة علج علي في 1587 قائدا عاما للأسطول العثماني.

وفي شخصه يتجسد مفتاحان أساسيان من مفاتيح الصعود الاجتماعي في هذه الأوساط المتباينة الأصول والمسارات: الكفاءة المهنية وحسن التصرف الذي يميز الموالي ورجال الحاشية والزبائن التابعين للكبار.

الأحلاف والمصاهرات

إن روابط الولاء والانتساب والمصاهرة وهي النواة المركزية التي تتشكل حولها في معظم الأحيان الزمر والتحالفات السياسية، هذه الروابط تستحق بحثا معمقا نأمل في القيام به مستقبلا. ولنلق هنا نظرة سريعة على أحد أشكالها وهي المصاهرات. إنها تقوم بدور مهم كوسيلة اندماج اجتماعي للعلوج. وهي تخص كل الفئات الاجتماعية كما تبينه الأمثلة الآتية:

Scanné avec CamScanner

- في 1560 تزوج حسن باشا بن خير الدين، بنت بن القاضي «سلطان كوكو» وزوج أحد المحظيين عنده وهو القائد العلج حسن غريغو (اليوناني الأصل) بأخت زوجته.

- كان رمضان باشا عند مغادرته الجزائر قد بلغ 55 سنة. وحسب هاييدو[1] « كانت له زوجة واحدة علجة من كورسيكا ولدت له ابنا سنه الآن 21 سنة وبنتين تزوجت إحداهما علجا اسبانيا غنيا اسمه القايد مامي وتزوجت الثانية القايد خضر وهو ابن أحد العلوج من ناپولي».

- كان العلج مامي بن عبد الله أوضباشي في 1572 عندما بدأ يشتري أزواج حرث في ساحل الجزائر. وفي 1589 كان آغة واشترى 6 أزواج في سوماتة. وبعد وفاته باع أبناؤه الصغار هذه الأراضي في 1608 بموافقة الباشا رضوان زوج إحدى بنات مامي آغة المذكور.

- القايد رضوان بن عبد الله (سمي السابق) المعتق في 1556 من طرف الباشا محمد تكالي، تزوج بنت العلج القايد جعفر قطانية. وهذا القايد لم يرد اسمه في قائمة هاييدو الخاصة بكبار القياد. ولكنه من أقواهم وأغناهم باعتبار عدد المسئولين في إيالة الجزائر الذين هم من عتقائه والذين ذكروا في مختلف الوثائق العثمانية. وقد مات القايد رضوان سنة 1608 أي بعد أكثر من نصف قرن من تاريخ عتقه. حياة طويلة قضاها في مستويات مختلفة بين الأوساط الحاكمة في الجزائر.

- أما القايد مراد فهو على رأس قائمة هاييدو، إنه ختن علجة اسبانية أسرت عند الاستيلاء على حصن الـهنيون في 1529. وهو نفسه من العلوج السلاف الجنوبيين وكان والد زوجة السلطان السعدي عبد الملك. وحسب هاييدو فقد كان يدعى حاجي مراد وكان من أغنى وأقوى قياد الجزائر وأكثرهم نفوذا.

---

1. D. de Haëdo, *Histoire*..., p. 177.

Scanné avec CamScanner

عوامل الانصهار

في الفئات المتوسطة كان الانصهار في البيئة المحلية والامتزاج بمختلف الأوساط يشمل كل الأصول الإثنية. وهذه بعض الأمثلة:

- تزوج العلج اليایاباشي حسين بن عبد الله حفيدة الفقيه الأندلسي.
- كان الأسطى البربري الأصل يحي بن يعيش المتوفى في 1574 قد تزوج العلجة التي أعتقها المعلم علي الجباسي.
- في عام 1572 تزوجت التركية فاطمة بنت درغوث عتيق أبيها المعلم جعفر بن عبد الله وكان هذا اشترى في نفس السنة دارا كبيرة بديعة كانت ملك العلج قولاق بن عبد الله.
- في 1577 كان الفقيه الأندلسي الثري، سعيد بن أحمد، باع نصف دكان لزوجه معتقة المدجن إبراهيم. والتدجين بطريقة «شبه صناعية» كان من الخصائص التي لفتت نظر المبعوث الرسمي الفرنسي، الجغرافي والرحالة نيكولاي[1] الذي يذكر أن سكان الجزائر «لهم أفران مثل التي نشاهدها في ألمانيا وفي داخلها بقليل من الدفء يضعون بيض الدجاج الذي يحضن ويفرخ من غير مساعدة الدجاج. ولهذا فليس من الغريب أن يكون عندهم كل هذا الدجاج».

وفي هذه الأوساط كانت الحركية الاجتماعية قوية جدا. راعي من سردانيا أو ابن صيادي أسماك كالابري أو بحار كورسيكي قد يصبح «ملك الجزائر». لكن المسيرة طويلة وشاقة. إذا أخذنا مثال علج علي، بعد اعتناقه الإسلام في منتصف عقد 1540 كان من بين الرفاق المقربين الذي قدمهم درغوث للسلطان سليمان القانوني في 1551. وكان نائبا لدرغوث حين أرسل في مهمة

1. N. de Nicolay, *Dans l'Empire*..., p. 65

Scanné avec CamScanner

إلى استنبول في 1560. وأخيرا صار باشا بيلرباي طرابلس الغرب في 1565. عشرون سنة من التدرج في السلم الاجتماعي قبل الوصول إلى القمة. وهذه المدة تعتبر متوسطا جيدا لمسار استثنائي. وهو بطبيعة الحال من المسارات النادرة. لكن هناك كما رأينا عدد كبير من العلوج الذين هم قياد ورياس وتجار كبار، الخ.. أما معظم الآخرين فيبقون في أسفل السلم او يزاولون مختلف الحرف كصناع ومعلمين وأصحاب دكاكين، الخ.

وينبغي التوضيح أن الأبناء المولودين في أرض الجزائر من آباء علوج هم مثل أبناء الأتراك يصنفون في فئة القولوغلية. وهم باعتبار أن أمهم غالبا ما تكون من الأهالي يشكلون نوعا من الجسور بين الأتراك والعلوج من جهة ومجموع الأهالي من جهة أخرى. إنهم على المدى الطويل عامل هام في انصهار العناصر الأجنبية داخل المجتمع الحضري.

هناك مسائل أخرى تخص العلوج سنعالجها في الفصول القادمة إذ أن العلوج في «قرن القرصنة» كان حضورهم قويا في الواقع وبقيت آثاره في الوثائق المتوفرة.

علينا الآن أن نحاول أن نلقي نظرة سريعة على الطريقة التي كان الأهالي يستقبلون بها هؤلاء القادمين الجدد إلى حظيرة الإسلام وهو سؤال من الصعب الجواب عليه لأن الوثائق المختلفة في ذلك العصر لا تميزهم عن غيرهم من المسلمين. وكلمة علج التي تطلق عليهم لم تستعمل في وثائق الجزائر كوصف لكبار المسئولين العلوج إلا بضع مرات منها مثلا علج علي. وكانت أسماؤهم هي الأسماء الجارية عند كل المسلمين وإن كانت بعض الأسماء أكثر تداولا بينهم مثل مامي ومراد وجعفر وعلي وصفير وحسن ورمضان وحسين ورضوان. وكلهم يطلق عليهم «ابن عبد الله» بعد الاسم ولكن بعض المسلمين الآخرين كان أبوهم يسمى عبد الله، أي أنه إذا لم يسمح السياق بالتمييز أو إذا لم

Scanné avec CamScanner

يوصفوا بكلمات مثل مملوك، عتيق، الخ.فمن الصعب التأكد من أنهم علوج. وفيما حصلنا من معطيات، يبدو لنا أن الحذر من العلوج والشك فيهم لم يكونا شائعين ما عدا الحالة التي تخص حسن آغة التي أشرنا إليها سابقا. صحيح أنه باستثناء حالات نادرة أظهر العلوج وفاء وتماسكا ومتانة موقف في المسئوليات التي تولوها. وهي خصال جديرة بالذكر لا للتنويه بمآثرهم أو لاستبعاد كلمة «مرتد» التي يستعملها الأروبيون في حقهم وما تحمله من مظاهر الإدانة بل ببساطة للدعوة إلى دراسات معمقة لهذه الظاهرة البشرية الجديرة بالاعتبار.

دور السلطان العثماني

كان السلطان العثماني يتدخل ضد التجاوزات، لكن كما رأينا، لم يكن دوره كملجأ ضد المظالم، مستقلا عن صراعات الأجهزة والزمر داخل الحكم في استنبول وفي الجزائر.

إن السلطان كان يقوم بدور الراعي لمبادئ العدل والحامي لرعاياه من عسف الولاة والحكام المحليين. وبهذا الصدد نقدم أمثلة لها دلالتها وسنعلق عليها باختصار فيما بعد. كان الباب العالي فعلا بابا مفتوحا للشكايات من كل نوع[1]. ففي أكتوبر 1568 تبعا لشكاوى أهالي الجزائر ضد الباشا محمد بن صالح رايس ونائبه، أمر السلطان العثماني بعزلهما وإرجاع الأموال المسلوبة إلى أصحابها.

1. أنظر بهذا الصدد دراسة شكيب بن حفري المقدمة إلى الندوة الدولية عن الذكرى المئوية الخامسة لسقوط غرناطة، نشرها عبد الجليل التميمي، زغوان-تونس 1993، جزء 2 ص 31 - 52 ودراسة عبد الجليل التميمي، الملكية العقارية ونظام الزعامت والتيمار بايالة تونس العثمانية، 1574 - 1588، م ت ع د ع، زغوان، أكتوبر 1995، ص 187 - 210. وفيها 21 وثيقة عثمانية هي أحكام سلطانية تخص تجاوزات قام بها ولاة تونس والجزائر وطرابلس الغرب بين 1574 و1588؛ وكذلك مختلف الوثائق العثمانية التي نشرها سميح إلتر في كتابه السالف الذكر.

Scanné avec CamScanner

وفي 1572 اشتكى أندلسيو الجزائر لدى استنبول من استبعادهم من بعض المناصب فجاءت الأوامر إلى الباشا والقاضي بضرورة تعيين الأندلسيين في مختلف الوظائف حسب أهليتهم. وقد جدد الأندلسيون عرائض الشكوى وحصلوا في النهاية على مرغوبهم بفضل التدخل السلطاني.

وفي 1574 قدمت شكاوى جديدة من أهالي الجزائر ضد البيلرباي عرب أحمد فعين بدله رمضان باشا الذي اتهم بدوره في 1576 بأنه استولى على مبالغ تقدر بعدة آلاف من الدنانير السلطانية. وأعطى الباب أوامر لوكلائه في تركيا والإيالات المغاربية بأن يسترجعوا هذه المبالغ «مع تفادي أي نزاع أو خلاف» وإعلام السلطان بما حدث.

ويجدر التذكير هنا بأن المساعي المبذولة لدى الباب العالي والقرارات المتخذة إزاءها تندرج في جو من الصراع بين الزمر سواء في الجزائر أو في أستنبول. والحالة الأخيرة تبين جيدا كيف كانت تتم تصفية الحسابات بين هذه الزمر.

إن الوثائق التي تحتوي على اتهامات موجهة لرمضان باشا كانت مقدمة للباب العالي من سلفه الذي هو خصمه ومنافسه، عرب أحمد كما هو مثبت في الأمر السلطاني الخاص به. وفي مجموع القضايا المذكورة، تلاحظ المحاباة والتباين في المواقف حسب ميزان القوى الآني. فمثلا أمام تجاوزات من نفس القبيل عوقب محمد بن صالح رايس بقسوة كما تبينه الوثائق المعنية بينما اكتفى الأمر فيما يخص رمضان باشا باسترجاع الأموال مع تفادي أي نزاع. وهذه الأمثلة تبين كيف كانت المبادئ المعلنة والتطبيقات الفعلية لا تتطابق بالضرورة في النظام العثماني.

ولنلاحظ أخيرا أن هذه التدخلات السلطانية ستكون نادرة أكثر فأكثر في السنوات التالية وستختفي تماما ابتداء من منتصف القرن السابع عشر، وهي فترة سينمو فيها الاستقلال الفعلي لحكام الجزائر.

Scanné avec CamScanner

وابتداء من 1580 تبدأ مرحلة جديدة ستتخذ فيها الجزائر خصائص وأبعادا يرتبط تطورها بالقرصنة التي ستعرف هي أيضا تغييرات جوهرية.

إن دخول قرصنة الجزائر في العهد المركنتيلي حسب تعبير دي غرامون هو بدون شك نتيجة لقرن من المواجهات الكبرى. وليس من الضروري التذكير بأن هذه المواجهات كانت في نفس الوقت حربية وأيديولوجية. وهناك على الأقل أمر يتفق فيه الطرفان المتواجهان وهو الكفاءة السياسية والعسكرية العالية التي كان يتمتع بها كبار القادة على الساحة المغاربية وهم خير الدين ودرغوث وعلج علي. كان الثلاثة من رياس البحر وأظهروا قدرتهم أولا كقراصنة ثم كرجال دولة ورجال حرب. وقد انطبعت الإيالات المغربية الثلاث بطابعهم.

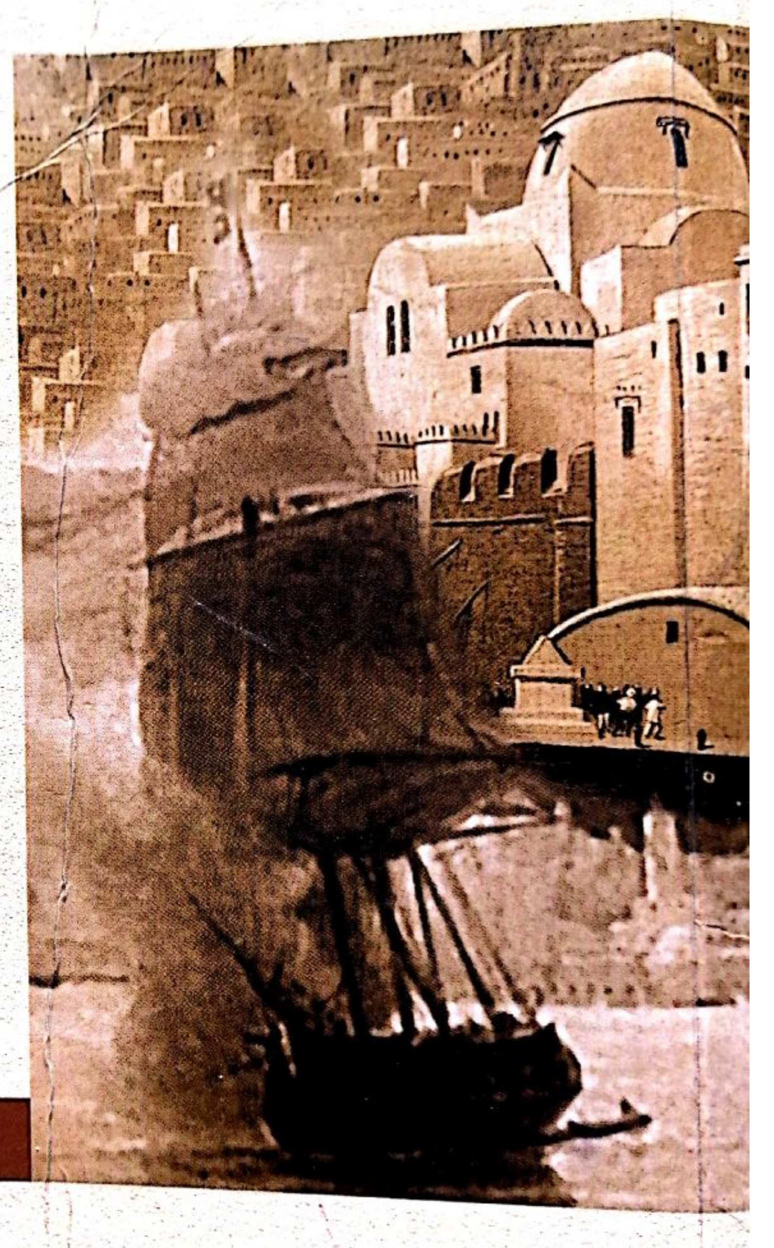
إن تطور الجزائر كإحدى القواعد الكبرى للقرصنة في البحر المتوسط يعود إلى أن مؤسسي هذه الدولة كانوا من كبار القراصنة وإلى استمرار الجزائر في هذا الخط طوال القرن المنصرم. وفي النهاية تشكل نوع من التبلور حول القرصنة. وهذه الظاهرة قد ساعد عليها انسحاب العثمانيين والاسبان كما أنها نتيجة تطور داخلي للقرصنة ومجتمعها.

فابتداء من سنوات 1580، توفرت الشروط للانتقال إلى «قرن القرصنة» الذي سنبحثه في القسم التالي.

Scanné avec CamScanner

المنور مروش

دراسات عن الجزائر في العهد العثماني



القرصنة، الأساطير والواقع

الجزء الثاني

دار القصبة للنشر

القسم الثاني

قرن القرصنة

1580 - 1699

طوال هذا القرن ستكون القرصنة كمؤسسة مركنتيلية مستقلة هي النشاط المركزي في حياة مدينة الجزائر. فقبل 1580 لم تكن سوى عنصر من عناصر المجابهات الكبرى التي عرفتها المرحلة. وبعد نهاية القرن السابع عشر ستصبح عنصرا ثانويا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وكذلك في الحياة السياسية والدبلوماسية للجزائر العثمانية.

صحيح أن قسمات مؤسسة القرصنة في هذا القرن الجديد قد تشكلت ونضجت في العقود الأخيرة من القرن الماضي ولن تختفي تماما في القرن الثامن عشر. لكن خلال فترة القرصنة بكل معنى الكلمة عرفت هذه الخصائص نموا كبيرا وأصبح لها تأثير قوي على اقتصاديات ومجتمع الجزائر. إن تنظيم القرصنة أصبح جاهزا واضح المعالم. وصارت لها قواعد ثابتة وتقنيات متجددة ووسائل ضخمة متزايدة.

ويشتمل قرن القرصنة على فترة صعود إلى الذروة وفترة أخرى عرفت نوعا من المد والجزر. ولما كانت التحولات لا تتم بين يوم وليلة فهناك بالضرورة نوع من الاصطناع والتعسف في تحديد الفترات بتاريخ معين. لكن بصورة عامة يمكن القول بأن النصف الثاني من القرن السابع عشر أقل ازدهارا من النصف الأول. ونظرا لطول مدتها والمشاكل التي تطرحها والتنوع الثري للرجال الذين شكلوها فإن فترة ازدهار القرصنة ستأخذ مكانا أوسع في الصفحات التالية.

الفصل التاسع

من قـرن إلى آخـر

في نهاية سنوات 1570 ينتهي الصراع الذي نشب مع بداية القرن السادس عشر بين العثمانيين والاسبان على الساحة المغاربية. فقد كان فتح تونس في 1574 آخر عملية كبرى للأسطول العثماني في الأقطار المغربية. والاسبان من جهتهم حولوا أنظارهم إلى آفاق أخرى.

وبالنسبة لكل من هذين المعسكرين كانت هذه الحروب التي كلفتهما خسائر باهظة في الرجال والعتاد مسئولة إلى حد كبير عن الإفلاس المالي الذي أصاب كلا الإمبراطوريتين. إن الجهود الهائلة التي تطلبتها رغبتهما النهمة في فتح أقاليم واسعة كانت في نظرهما مظهرا للعظمة والمجد الأمبريالي، هذه الجهود أنهكت القوى وغرست بذور التدهور والانحطاط في هذا الجسم المتضخم.

ظروف دولية جديدة

ابتداء من 1580، نمت ظروف دولية جديدة. فالاسبان الذين خرجوا منهكين بعد قرن من الحروب، عرفوا هزائم متوالية من أهمها تدمير أسطولهم على يد الإنكليز وانتصار الثورات ضد سيطرتهم في البرتغال وهو لندة.

أما العثمانيون فإن الهزائم والخسائر التي تكبدوها في حروبهم في أروبا وبلاد فارس قد صاحبها اندلاع الثورات من جزيرة المغرب إلى داخل الأناضول

وتكرر الأزمات المالية والسياسية. ورغم الجهود الجديرة بالتنويه، التي بذلها علج علي، فإن تفوق الأسطول العثماني أصبح صفحة مطوية من الماضي.

وفي التطورات التي ستغير ميزان القوى في القرن السابع عشر تتداخل حلقات من الحوادث الظرفية وعناصر بنيوية لها مدى أعمق وأكثر دواما.

إن الانتصار الإنكليزي على «العمارة التي لا تقهر» كما يسمي الاسبان أسطولهم، هذا الانتصار الذي حطم الأسطول الاسباني في 1588، وكذلك الثورة الهولندية التي انتزعت استقلال بلادها الفعلي عن الاسبان منذ 1608، هما حادثان يؤشران إلى ظهور قوتين أساسيتين على المسرح الدولي.

وتطورات صراع هذين البلدين مع اسبانيا سيكون لها دورها في تطور القرصنة بالجزائر. ودون الدخول في التفاصيل، يجب التشديد على أن الهولنديين والإنكليز أثناء الحرب ضد اسبانيا كانوا يقومون بهجمات قوية متوالية ضد البحرية الاسبانية وضد الأسطول التجاري الاسباني. وعندما طرد هؤلاء القراصنة من الموانئ الإنكليزية بعد إبرام معاهدة الصلح مع الاسبان، التحقوا بالموانئ المغاربية حيث سيكون لدورهم تأثير حاسم في عدة ميادين:

- إن القرصنة الجزائرية التي كانت دائما محصورة في البحر المتوسط ستنطلق نحو المحيط الأطلسي الذي أصبحت تتركز فيه المبادلات التجارية البحرية. إن إثراء البلاد الواقعة على ضفاف هذا المحيط كان يتزايد ويجلب إليه كل القناص من صيادي الثروات.

- إن التحكم في الملاحة في عرض المحيط يتطلب تقنيات لم يكن المسلمون يملكونها. فالإنكليز والهولنديون هم الذين أصبحوا يقومون بصناعة السفن الشراعية المتكيفة مع المحيط الأطلسي سواء في الجزائر وتونس أو في سلا وغيرها كما كانوا هم أهم رياس هذه السفن.

- من الآن فصاعدا ستعتمد الجزائر تماما على التقنيات الأروبية في القطاعين الوحيدين اللذين كان لها فيهما اهتمام بالتقدم التقني وهما الملاحة في أعالي البحار والتسليح.

التقدم التقني والهيمنة

إن التخلف التقني بالنسبة لما أحرزته أروبا من تقدم يطرح مشكلة عامة. فقد نشاهد كما لاحظناه عن القرون الماضية، بعض الإنشاءات والتجديدات يقوم بها المسلمون في ميادين محدودة منعزلة. كذلك بلغت الإمبراطورية العثمانية مستوى عاليا من القوة السياسية والعسكرية وحافظت على بعض المستوى في الميادين البحرية والعسكرية في القرن السابع عشر. لكن تخلفها التقني والعلمي بالنسبة لأروبا الغربية لم يفتأ يتفاقم.

في أروبا الغربية، لم يعد الأمر يتعلق ببعض التجديدات التقنية المنعزلة بل هي تحولات متوالية بلا انقطاع ومندرجة في ثورة حقيقية في البنى وفي الذهنيات. إن هذه التطورات التقنية والعلمية هي نوع من الإبداع الجماعي الواسع الذي تقوم به بعض الأنوية التقدمية التي هي فعلا جزء صغير من المجتمع ككل، كما يقول پيير ڤيلار[1] ولكن كما يلاحظ هذا المؤرخ الكبير أيضا، فإن الأنوية تخلق ثروات جديدة وتغير البنى التقليدية وكذلك نظم الحكم. وتؤدي إلى نضج الظروف الاجتماعية التي يبلغ فيها التطبيق العلمي نقطة الانطلاق الضرورية لاستمراره في النمو والازدهار.

إن العلاقة الجديدة التي ربطتها أروبا مع العلم والتقنية تجاوزت مستوى المهارة الحرفية. إنها مجددة، متسائلة، مجربة، ناقدة ليس فقط في العلم (غاليلي، كوبرنك، كبلر، نيوتن، الخ) بل أيضا في الفلسفة والتاريخ والفيلولوجيا والأدب والبحث والتفكير حول الدين وفي كل ميادين الإبداع الفني.

---

1. Pierre Vilar, *Une histoire*..., p. 95-96.

إن هذا التقدم العلمي والتقني يستند إلى بنى اقتصادية واجتماعية جديدة تطلق الفكر التجديدي وتحطم حواجز الظلامية والتجهيلية. لا شك أنه في أروبا نفسها كانت هذه الثورة الاجتماعية والذهنية تسير في جو من التمزقات والمد والجزر. ولم تتفاد بعض الانزلاقات التي ما زالت تطرح علينا كثيرا من التساؤلات اليوم. فخلافا لما كان يحلم به بعض المفكرين ليست الإنسانية صفحة بيضاء ولا هي عجين يقولب ويشكل في كل الصيغ. إن لها تاريخا متنوعا وثقافات وهويات وهي تقاوم وتطرد كل التطعيمات الاصطناعية والتقليد الأعمى والتحديث بالقرارات من أعلى.

استقلال ذاتي متوطد

إن الاستقلال الإداري في الإيالات هو من الميزات البنيوية داخل الإمبراطورية العثمانية. فهذه الإمبراطورية الشاسعة التي تمتد في ثلاث قارات كانت مجموعا غير متجانس من البلدان المفتوحة أو المرتبطة بها بأشكال مختلفة وكانت نظم الحكم فيها لها كثير من المرونة فمنها الولايات التي تدفع من ضرائبها مبلغا سنويا لاستنبول ومنها دول تابعة للإمبراطورية حيث تكتفي بنوع من الولاء الاسمي وبإرسال هدايا محددة من وقت لآخر. وفيما عدا استثناءات مرتبطة ببنية البلاد أو قربها من المركز، فإن كل باشا بيلرباي كان «ملكا في مملكته» يديرها بمساعدة الديوان مراعيا لتقاليدها المحلية وللبنى التقليدية للحكم المحلي والقبلي التابع للقطر.

وفي هذا الإطار، كانت الجزائر تتوطد كدولة تابعة للإمبراطورية، أي أنها في نفس الوقت كيان سياسي له كل مقومات الدولة بالمعنى المتداول آنذاك، وهو من جهة أخرى عضو وجزء داخل الإمبراطورية العثمانية.

إن دولة الجزائر لم يكن لها طابع قومي بالمعنى الحديث للكلمة. لكن مع مرور الزمن، كما بيناه في غير هذا المكان، تكون نوع من الشعور بالانتماء إلى

دولة قطرية موحدة، وكان هذا القطر-الدولة يدعى في الكتابات والمؤلفات الجزائرية، وطن الجزائر. إن عدم تجانس هذا المجموع وتعدد الجماعات وخصائصها فيه، والطابع الأجنبي للحكم على مدى ثلاثة قرون والظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لم تكن تتهيأ لتشكيل كيان سياسي من النوع الحديث الذي يطلق عليه اليوم كلمة أمة بالمعنى القومي (nation) أو الوطني.

إنها دولة تشكلت في صيغ العصر واتخذت منذ البداية مبادرة طوعية بالالتحاق بالإمبراطورية العثمانية. وهذه الظروف الخاصة لنشأتها وانضمامها للإمبراطورية أعطتها خصائص معينة. إن رئيس هذه الدولة، خير الدين برباروسة، استمر بعد التحاقه بالإمبراطورية، وعلى منوال أخيه المؤسس للدولة، أروج برباروسة، يحمل لقب سلطان الجزائر، كما تثبته وثائق العصر. وفيما بعد سمي باشا بيلرباي الجزائر. وحين استيلائه على تونس في 1534، قام بضرب ميدالية تذكارية نقش فيها : « خير الدين باشا الجزائر وسلطان تونس».

ومن هنا تظهر كل ما تحتويه الأوضاع المختلفة داخل الإمبراطورية من حالات الالتباس والتنوع: يأتي قائد عام للأسطول العثماني ليستولي على تونس باسم السلطان العثماني الذي عينه كابودان باشا ووزيرا في حكومته ويعلن عن نفسه بأنه سلطان البلاد المستولى عليها دون أن يتملص من واجباته نحو سيده السلطان العثماني. فالحقيقة أن عبارة «سلطان تونس» لم تكن سوى مادة للاستهلاك المحلي أي أنها تشير إلى كون نهاية السلطنة الحفصية لا تعني زوال رتبة تونس السلطانية.

وفي إمبراطورية «كونية» تغطي العالم كله حسب دعاوى الإيديولوجية والخطاب الرسمي للإمبراطورية العثمانية، فهناك إمكانية لكل الألقاب

والرتب الملوكية والأميرية داخل هذا العالم الشاسع. ولنذكر بهذا الصدد أنه داخل إيالة الجزائر كانت على الأقل ثلاثة إمارات محلية يحمل حكامها لقب «سلطان» (سلطان مجانة المقراني وسلطان جمعة صهاريج بن القاضي وسلطان تقرت بن جلاب) ولكن حكام الجزائر يطلقون عليهم رسميا لقب شيخ. إنهم ليسوا سوى شيوخ مناطقهم.

وفي هذا التنوع لرتب البلاد والأقطار داخل الإمبراطورية العثمانية، كان للجزائر وضع خاص. إنها رسميا «دار الجهاد» وهو لقب يقابل لقب «معقل الحرب المقدسة» التي تطلقه الدول المسيحية على مالطة. إن الجزائر كدولة داخل الإمبراطورية بقيت إلى سنة 1830 تقدم فروض الولاء للسلطان وتطبق ما تنطوي عليه من دعاء للسلطان العثماني في خطبة الجمعة كما أن اسمه مسجل على كل القطع النقدية ذات القيمة. وفي المراسلة مع استنبول كان حكام الجزائر يظهرون أوصاف التبعية كخدام للسلطان يحملون له كل عواطف الإجلال والتوقير. ولم تكن هذه المظاهر مجرد شكليات. إنها تعبر عن وحدة الإمبراطورية وعن الطابع شبه المقدس للسلطان، لا كشخص طبيعي بل كرمز باعتباره « سلطان الإسلام».

إن الوضع الخاص الذي كان للجزائر تدعم بفضل الخصال الاستثنائية التي كان يتمتع بها مؤسسو وحكام الإيالات المغاربية (خير الدين ودرغوث وعلج علي بالأخص). إن ميزتهم الكبرى كقادة وبناة دول قد ساعدت على توثيق صلاتهم الشخصية بالقادة العثمانيين كما سهلت حرية المبادرة التي كانت متروكة لهم. فهم بالسمعة العالية والخدمات الكبرى التي قدموها بالإضافة إلى بعد إيالاتهم عن المركز قد نجحوا في توطيد تقاليد شبه استقلالية في العلاقات الخارجية. ومنذ القرن السادس عشر كانت حرية المبادرة متكررة بالأخص في ميدان القرصنة وهو ميدان مطبوع بعدم انضباط رياسه وبكثرة

الحالات التي يسودها الالتباس والغموض. وقد أعطينا في فصول مختلفة من هذا الكتاب أمثلة معينة من حالات عدم الانضباط لـ درغوث، مراد رايس... الخ وهي حالات كانت فيها الغنائم والهجمات على حساب بلاد هي في حالة سلم مع الإمبراطورية. وأحيانا كانت بعض رعايا الإمبراطورية العثمانية نفسها عرضة للاعتداء من طرف هؤلاء القراصنة. وكانت الحكومة العثمانية في القرن السادس عشر تتخذ تدابير ضد هذه التجاوزات خلافا لما سيصير عليه الأمر فيما بعد. صحيح أنها كانت أيضا تتعامى عن بعضها أو لا تستطيع فرض قراراتها. صحيح أن البيلربايات كانوا يظهرون استعداداتهم لتطبيق الأوامر. لكن المجالس العامة للضباط والرياس، الخ كانت ترفض الخضوع لها. بل تذهب أحيانا إلى حد رفض استقبال البيلرباي المرسل من استنبول وطرده وإرجاعه إلى من بعثوه. وهكذا شيئا فشيئا توطدت تقاليد الاستقلال الذاتي الواسع حتى في مجال العلاقات الخارجية. إن المحرك الرئيسي والموضوع الدائم لهذا النوع من العلاقات كان يتمحور في القرصنة التي كانت مصالحها تمس ليس فقط أرباب السفن والبحارة بل كذلك فئات واسعة من السكان. وكان بالتالي على استنبول أن تراعي هذه المشاعر والمصالح الواسعة. وبهذه الصورة كانت القرصنة عاملا حاسما في السير نحو الاستقلال الفعلي في السياسة الخارجية.

وهذه الوضعية التي ستتدعم فيما بعد بدأت تحت أشكال مختلفة منذ العقود الأخيرة للقرن السادس عشر. وهكذا مثلا كانت معاهدات الهدنة التي أبرمت بين العثمانيين والاسبان بين 1577 و1585 لا تنطبق على نشاطات القراصنة في الإيالات المغاربية. وبسرعة أدركت الدول الأوروبية أن أنجع طريقة هي حل مشاكلها مباشرة مع هذه الإيالات. ولا تطلب تدخل استنبول إلا إذا واجهت صعوبات كبرى في عين المكان.

وبمرور الزمن تراكمت هذه السوابق الدبلوماسية وسمحت مثلا لحكام الجزائر أن يستعملوها كحجة لرفض تدخل استنبول في شئونهم الخارجية.

قرصنة في طور التحول

في معظم القرن السادس عشر كانت القرصنة تبدو كمجرد عنصر مساعد في العمليات الحربية... وفي نهاية المطاف توطدت وصارت تمثل النشاط الأساسي والمحوري لإيالة الجزائر. إنها تشغل قطاعا هاما من الحياة الاقتصادية. ونمت حولها فئة اجتماعية ديناميكية ذات نفوذ قوي. وكأنها بقصد تغطية تحولها إلى مؤسسة مركنتيلية وأممية، ركزت خطابها العام على أمجاد «الجهاد ضد الكفار».

إن اتساع نشاطاتها ابتداء من سنوات 1570 يمكن اعتباره كتتويج لتطور طويل يعود أصله إلى قدوم القراصنة العثمانيين بل إلى ماض أكثر قدما. والواقع أن التطورات الجديدة وإن كانت تستند إلى تجربة يمتد طولها عبر القرون، فإنها بالأخص مرتبطة بوضع دولي عرف تغييرات عميقة.

إن إنهاك المعسكرين الكبيرين العثماني والاسباني وانتقالهما إلى مجالات صراع كبرى تدور خارج البحر المتوسط، كل هذا خلق وضعا جديدا ساهم في إعطاء خصائص وأبعاد لقرصنة الجزائر ستطبعها لمدة طويلة. وبالمقارنة مع الأضرار التي كانت تحدثها القرصنة الإنكليزية والهولندية والفرنسية بالمعسكر الاسباني فإن آثار القرصنة الجزائرية كانت محدودة ومتواضعة. لكنها بالنسبة لمجتمع الجزائر وموانيه التي تشارك في القرصنة، فإن النتائج كانت لها قيمة معتبرة وستتزايد بشكل محسوس في العقود التالية. إن ما يسميه دي غرامون العهد المركنتيلي للقرصنة بدأ يتشكل في سنوات 1570 وبلغ نضجه ابتداء من 1580.

مؤسسة كسبية[1]

في هذه الفترة المفصلية اتخذت القرصنة طابع المؤسسة الخاصة من أجل الربح بصورة شديدة الوضوح. وكانت سفن القرصنة إما ملكية لكبار القرصان والحكام أو لشركات ذات أسهم يتم فيها توزيع الغنائم حسب قواعد لم تتغير كثيرا خلال ثلاثة قرون. تقليديا كان نصف الناتج الخالص للقرصنة يأخذه أرباب السفن حسب عدد الأسهم التي يملكونها. ويوزع النصف الآخر على مجموع البحارة والمقاتلين، وكان عدد الأسهم محددا بدقة من أصغر بحار إلى رايس السفينة. وبقي هذا التحديد لتوزيع الغنائم معمولا به تقريبا بنفس المقاييس التي سندرسها عند تحليل سجل الغنائم.

عن كون الجزء الأكبر من السفن كله يملكه الرياس[2] هو في حد ذاته إشارة إلى ازدهار القرصنة وتوفيرها لأرباح كبيرة لأصحابها في بداية هذه المرحلة الجديدة. كما يشير ازدياد عمليات القرصنة وعدد السفن المخصصة لها في العقود القادمة إلى أنها كمؤسسة من أجل الربح كانت لها مردودات مالية عالية.

وكانت القرصنة تستفيد كثيرا من المساعدات المباشرة وغير المباشرة التي كانت الدولة تتكفل بها. وقد رأينا في الفصول السابقة كيف اتسعت وتوطدت المنشآت الخاصة بالميناء والترسانة والأرصفة والمخازن والمستودعات وغيرها من المنشآت البحرية. صحيح أن الحكام كان من واجبهم توطيد المواقع الدفاعية للمدينة وتنمية قدراتها الحربية لكن هؤلاء الحكام كانت لهم مصلحة مباشرة في تنمية القرصنة سواء باعتبارهم من أرباب السفن أو لكونهم أكبر

---

1. حول الطابع الكسبي للقرصنة، انظر F. Khiari, *Vivre et mourir à Alger*, Paris, L'Harmatan, 2002

2. D. de Haëdo, *Topographie…*, p. 99-100.

الملاك لآلاف العبيد الذين كانوا يستعملون كمجدفين في هذه السفن. وكان هؤلاء العبيد يستخدمون أيضا مقابل أجر يدفع جزء منه لملاكهم في المنشآت البحرية وفي صناعة السفن وكذلك في مجموع العمليات المرتبطة بالقرصنة. ويذكر هاييدو كذلك أن الدولة هي التي كانت تزود سفن القرصنة بالمؤونة (بشماط، رز، زيت، زيتون، لحم مجفف، فواكه جافة، الخ) وفي مقابل هذه المساهمة كان للدولة نصيب من الغنائم متناسب مع مساهمتها وإلى جانب ذلك كانت الدولة تأخذ البنجك (خمس الغنائم مبدئيا لكنه في الواقع كان بين السبع والثمن حسب مقاييس سنعود إليها فيما بعد).

عالم من الأجانب

كان الأتراك والمشارقة والعلوج والأندلسيون يشكلون الجزء الرئيسي من القرصان. إنه عالم من أجناس مختلفة قلما يوجد بينهم بعض الأهالي إذا استندنا إلى ما تقدمه الوثائق والشهادات المتوفرة حاليا من معلومات). صحيح أن الرصيد العثماني في أرشيفات الجزائر تندر فيه الوثائق الخاصة بالقرن السادس عشر. ونجد فيه ذكر عشرات من أسماء القراصنة من أصل تركي، أروبي أو مشرقي وليس بينهم أهالي. وهي حالة خاصة بالقرن السادس عشر. وسنرى فيما بعد كيف نما دور القرصان من أصل أندلسي ثم بعد ذلك من الأهالي. غير أن عدم ذكرهم في هذه الوثائق النادرة لا يعني بالضرورة أنهم غير موجودين في الواقع. لكن يمكن الاستنتاج بأن مساهمتهم في القرصنة في هذه الفترة كانت ضئيلة أو هامشية.

إن تنوع الأصول الإثنية للقراصنة لم يمنع تكوين لوبي قوي يدافع بشدة عن مصالح القرصنة. إن فعالية قوة الضغط التي كان يمارسها هذا اللوبي يمكن توضيحها بأمثلة عديدة. فكم من مرة كان حكام الجزائر تحت ضغط استنبول أو لأسباب دبلوماسية يميلون إلى إرجاع السفن والأسرى والغنائم

إلى الدول المطالبة بها على أساس أن عملية الاستيلاء كانت غير شرعية، ويضطرون إلى التراجع عن قرارهم تحت تهديد الهياج الشعبي.

ومن المعروف كذلك أن الدور المزدوج لضغوط القراصنة ومناورات شركائهم من تجار مرسيلية وغيرهم من مستوردي سلع غنائم الجزائر في الموانئ الأروبية قد حالت طيلة عشرات السنين دون إقامة قنصليات أروبية في الجزائر للتخوف من نشاطها الرامي إلى منع عمليات القرصنة غير الشرعية.

إن فعالية هذا اللوبي كانت مرتبطة بالأخص بالأهمية الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تمثلها القرصنة لدى فئات واسعة من سكان مدينة الجزائر وغيرها من الموانئ المرتبطة بهذه العمليات. فمن أدنى حمال ينقل الغنائم في الميناء إلى الباشا الذي كان له مثل كل كبار الحكام نصيب في القرصنة وقد تكون عدة سفن ملكا خاصا له، كانت تتكتل الفئات دفاعا عن مصالحها في القرصنة.

القرصنة والقوة العاملة

في مدينة الجزائر كانت النشاطات الصناعية والتجارية المنبثقة عن القرصنة تشغل كثيرا من الناس. وانطلاقا من المعطيات التي قدمها هاييدو وغيره من المؤلفين المعاصرين قدر فونتناي[1] أن « القرصنة كانت تضمن تشغيل ربع القوة العاملة في الجزائر» أي حوالي 4000 شغل من 15 إلى 17000 شغيل من سكان المدينة.وهم حوالي 60.000 باستثناء العبيد الذي يقدرون بنحو 20.000 منهم 5000 كانوا يستخدمون في التجديف في غليوطات الجزائر. إن تقدير سكان مدينة الجزائر في سنوات 1580 بحوالي 80000 هو تقدير

1. M. Fontenay, « La place de la course dans l'économie portuaire : l'exemple de Malte et des ports barbaresque », *AESC*, nov-déc. 1988, p. 1321-1347.

يؤدي إلى اعتبار أن كثافة السكان في هذه المدينة التي لا تزيد مساحتها عن 50 هكتارا هي من أقوى ما يكون بمقاييس العصر كما يقول أندري ريمون[1]. لكن كما يلاحظ تقرير[2] الجواسيس الاسبان في 1587 «إن الجزائر مليئة بالسكان كأنهم دكوا في بيضة». ونفس التقرير يقدر عدد الإنكشارية في مدينة الجزائر بنحو 6000 ويتحدث عن 25000 يمكن تجنيدهم في المدينة. والواقع أن مجموع الجنود الدائمين (إنكشارية وصبايحية وزواوة) قد يصل إلى حوالي 10000 وهم في معظمهم عزاب يسكنون في الثكنات والمقرات الجماعية.

إن البنية الديموغرافية للمدينة كثيرة الخصوصية والغرابة فعلا وكانت تتعرض لكثير من التقلبات بفعل القرصنة والمواجهات الكبرى. فإلى جانب الجنود والعبيد الذين كانوا كلهم عزابا تقريبا كانت المدينة تكتظ بالعلوج. ومعظمهم رجال بلغوا سن الرشد وأدت ظروفهم الطوعية أو الإجبارية إلى وجودهم في الجزائر منذ سنوات قليلة بحيث أن كثيرا منهم كانوا ما يزالون عزابا. كذلك كانت حال كثير من العمال البرانية الذين جذبتهم إلى المدينة فرص العمل المتوفرة بكثرة نظرا لكثرة أشغال البناء والتحصين الخ في حاضرة سريعة النمو.

إن هذا العدد المتزايد من المهاجرين والمنقولين في ظروف متعددة إلى المدينة كان يضاعف إمكانيات انتشار الوباء باكتظاظ هؤلاء الناس في تجمعات سكنية كبيرة. إن الثكنات والفنادق للجنود والضباط و«الحمامات-المعتقلات» للعبيد والمقاهي والحمامات والتبارن وعنابر النوم الجماعية للعمال وغيرهم من المارين بالمدينة والزوايا والمدارس للطلبة وأهل العلم من الفقراء، كل هذه المحتشدات كانت بؤرات لمختلف الأمراض المعدية.

---

1. André Raymond, *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, Sindbad, 1985, p. 63.

2. Rapport de Lanfreducci et Bosio, édité et traduit par Ch. Monchicourt, *RA*, 1925, p. 535 sq

الأسرى

إن أخطر المجاعات والأوبئة التي أصابت مدينة الجزائر والمناطق الأخرى في الفترة المعينة وقعت في سنوات 1552-1556؛ 1572-1574 و1577-1580 وكانت تحصد بالأخص أفواج العمال سواء كانوا أحرارا أو عبيدا وإن كانت الفئات الأخرى وحتى الفئات الموسرة لا تنجو دائما من الأوبئة. وحسب هاييدو[1] مات ثلث سكان المدينة في 1572-1574 وأكثر من 5000 شخص ماتوا بالطاعون في شهري جانفي-فيفري 1580. من الواضح بمثل هذه الأحداث أن عدد السكان كان يتعرض لتقلبات كبرى وإن كانت الأرقام المذكورة ليس لها أساس وثيق. ولنعد إلى عدد السكان: 20000 عبيد، 10000 جنود، 50000 مدنيين أحرار. إذا اعتبرنا أن في البنية الديموغرافية في «العهد القديم» مثل بنية الجزائر في ذلك العصر كان الرجال البالغون يشكلون حوالي ربع السكان المدنيين الأحرار والنساء لا تعمل إلا نادرا خارج المنزل وأن الأطفال كانوا يدخلون ميدان العمل في سن مبكرة فإن رقم 15000 عاملا حرا في المجالات المدنية هو رقم ممكن. وينبغي أن نضيف بأن عددا من الجنود المقيمين في المدينة كانوا يشغلون مناصب في الإدارة والحرف والتجارة ويشاركون بالأخص في عمليات القرصنة. وكانت المشاركة في معارك برية أو بحرية كبرى تؤدي أحيانا إلى انخفاض عددهم بشكل كبير. كما أن فترات السلم إذا طالت مدتها كانت تؤدي إلى التخفيض في عدد الجنود.

وكان العبيد هم الذين يتعرضون لتقلبات كبيرة في عددهم. فعدد المجلوبين إلى المدينة من الأسرى الجدد كان يزيد أو ينقص تبعا لغنائم الحرب والقرصنة والخسائر الكبرى الناجمة عن الكوارث الطبيعية وعمليات الافتداء الواسعة التي تخص أحيانا مئات الأسرى في العملية الواحدة وكذلك عمليات

1. D. de Haëdo, *Histoire...*, p. 167 et p. 187.

اعتناق الإسلام التي كانت بدورها تؤدي إلى الخروج من العبودية حالا في معظم الأحيان.

إن المعارك الكبرى سواء توجت بالانتصار أو بالهزيمة وكذلك الفواجع الطبيعية الكبرى هي حالات استثنائية معروفة ونتائجها معروفة كذلك بشكل أو بآخر. أما الأمر الذي لا نعرفه بصورة يقينية فهو العدد السنوي للأسرى المجلوبين للجزائر. غير أننا نعلم أنه رغم العوامل المذكورة التي تؤدي إلى انخفاض عدد الأسرى في الجزائر فقد بقي عددهم عاليا حسب التقارير والشهادات المعاصرة. يمكن إذن أن نعتبر أن عدة مئات منهم كانوا يجلبون للجزائرسنويا.

سنتعرض فيما بعد لمشكلة العلوج الذين تتطلب أهميتهم دراسة مفصلة أما موضوع افتداء الأسرى، فمن المعروف أنه كتبت عنه مؤلفات كثيرة أغلبها من صنع رجال الدين المسيحيين الذين كانت مهمة الافتداء من اختصاصهم بصورة تكاد تكون احتكارية. وسنعود للموضوع لذا نكتفي هنا بموجز سريع.

في كل الأزمنة كان افتداء الأسرى يصحب تقلبات الحرب والقرصنة. وفي الجزائر[1] قامت «رهبانية الرحمة»(Ordre de la Merci) بين 1516 و1602 بـ 73 مهمة افتداء افتدت فيها 12500 أسير بمتوسط 171 في كل مهمة و140 سنويا. أما رهبانية التثليث (L'ordre de la Trinité) فقد بدأت رحلاتها إلى الجزائر في 1540. وفي رحلتها الثانية في 1545 تفاوضت في افتداء 200

---

1. انظر بالأخص عبد الهادي بن منصور *Alger*..., A-H. Ben Mansour , ص 163 وما بعدها؛ H.de Grammont, E.de la Primaudaie, « Documents… » RA, 1877, p. 280 sq ; M. Fontennay, « La place de la course » art. cit. والمقال الأخير لفنتناي فيه نقاش لأرقام الافتداء المختلفة التي تتعلق خصوصا بالقرن السابع عشر كما أن هناك أرقاما كثيرة في الجزء الثاني من كتاب هنريون *Histoire des missions catholiques du baron Henrion*, Lille, 1899; *Histoire*..., p. 91 ; E. Friedman, *The Captives*..., p. 126 sq

أسير. وفي 1555 بعث ملك البرتغال وفدا لافتداء الأسرى في الجزائر. كما أن مبعوثا من فليب الثاني تفاوض في الجزائر في جويلية 1557 حول المبالغ اللازم تقديمها لافتداء أسرى من رتب عالية. أما تحرير دون مارتن ابن الكونت الكوديت والضباط الذين أسروا معه في معركة مازغران من الأسر في 1558 فقد تم في 1560 بعد دفع فدية عالية عن كل واحد منهم. وفي 1577 كلف افتداء 140 أسير في الجزائر حوالي 6،5 مليون مارافيدي دفعتها اسبانيا.

وعن فترة تشمل جزءا من القرن السابع عشر يعتبر عبد الهادي بن منصور في كتابه الآنف الذكر أن المتوسط السنوي لما كانت تدفعه اسبانيا لافتداء أسراها كان يبلغ حوالي 60 ألف إيكي (لافتداء 140 أسير في المتوسط).

سوق مضاربة

وخلافا للأسطورة الواسعة الرواج، لم تكن إيالة الجزائر حتى في أوج عهود القرصنة في مقدمة الدول المالكة للعبيد في البحر المتوسط. فالعبيد كانوا محصورين في مدينة الجزائر ومنطقتها ولم يتجاوز عددهم 20 ألف على أكبر تقدير. وفي نفس الفترة كان عدد العبيد يتجاوز 100 ألف في اسبانيا[1].

والظروف التي كان يعيشها هؤلاء العبيد في الجزائر كانت كثيرة التنوع حسبما يصفها شهود عاشوا في الأسر في هذه الفترة (Rocqueville ; Chastelet des Bois الخ). وكما يلاحظه فونتناي في المقال السابق الذكر فإن العبودية تغيرت خصائصها في الجزائر في القرن السابع عشر. ذلك أن الجزائر قد تخلت عن السفن التي تسير بالتجديف ولم تعد في حاجة إلى آلاف المجدفين من العبيد. فإلى جانب البحث عن اختصاصيين في البحرية والتسليح، كان المقصود من جلب الأسرى هو الحصول على مبالغ الفدية بالدرجة الأولى. وكانت سوق

1. M. Fontenay, « L'esclavage en Méditerranée occidentale au XVII[e] siècle » *in La Méditerranée occidentale au XVII[e] siècle, AHM*, n° 14, Pr. de l'Univ. de Paris-Sorbonne, 1990, p. 11-50.

المضاربة لها أشكال مختلفة. فليس من المصادفة أن أكبر ملاك للعبيد هم أميرالات الأسطول إذ كانوا في نفس القوت من أهم ملاك السفن ومن أكبر القراصنة ومن أكبر تجار العبيد. وكل واحدة من هذه الاختصاصات كانت تجلب لهم أعدادا من الأسرى. وقد اشتهر القبطان بتشنين في كل هذه الميادين وكان له كثير من المقلدين الذين ساروا على منواله من بين خلفائه على رأس الأسطول. والحق أنه كان اختصاصيا بارعا في المضاربة على فدية الأسرى. وكان له جواسيس بين الأسرى ومنهجيات بحث واستعلام لاكتشاف الأسرى الذين لهم مكانة اجتماعية في بلادهم وكان يعاملهم غالبا «كضيوف» يتمتعون بصنوف الرعاية والاعتبار التي يتطلبها مركزهم، بانتظار وصول فديتهم.

أثمان الفدية

إن وصول المبالغ الكبيرة لافتداء الأسرى، التي كانت تدفعها اسبانيا بالأخص قد أدى إلى ثورة حقيقية في الأسعار في سنوات 1580. وأثر هذا في أسعار شراء الأسرى. مثلا كانت الأسعار المسجلة بين 1580 و1610 في المتوسط هي أقل من 100 قرش اسباني لكنها عموما أعلى بكثير من الأسعار التي كانت متداولة فيما قبل. ولنلاحظ أن السعر المتوسط للعبيد المسلمين في أسواق نابولي[1] وفي توسكانة كانت حوالي 100 دوقة في 1605. وفي العقود التالية[2] تراوحت هذه الأسعار من 100 إلى 150 قرش اسباني في المواني الأروبية المتوسطية (مرسيليا، نابولي، جنوة، ليڤورن، الخ.) أما في الجزائر فقد بقي سعر شراء الأسرى الأروبيين في القرن السابع عشر أقل من سعر الأسرى المسلمين في المواني الأروبية.

---

1. M. Fontenay, « L'empire ottoman et le risque corsaire au XVII[e] siècle, *RHMC*, avr-juin, 1985, p. 196 sq.

2. M. Fontenay, « L'esclavage… » *art. cit* ; div. art. de *ROMM*, 1985, n° consacré aux Ottomans en Méditerranée ; M. Belhamissi , *Les captifs*…, p. 275 sq

الفديات

استنادا إلى أسس إحصائية واسعة قدرت فريدمان[1] ثمن الفدية المتوسط بين 125 و150 قرش اسباني في مدة تشمل القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفي القرن الثامن عشر صعدت الأسعار إلى 500 بزوس للجنود و1000 بزوس للضباط. وقد شمل بحثها فدية 9500 أسير في 53 مهمة افتداء تمت بين 1575 و1769 ولكن المتوسط الذي يشمل فترة بهذا الطول يتجاهل الفروق الكبيرة بين الفترات. وهذه أمثلة توضح الموضوع:

- إن أسعار الفدى[2] المسجلة في القنصلية الفرنسية بالجزائر في 1579-1582 كانت من 35 إلى 77 إيكي للبحارة ومن 41 إلى 156 إيكي لأصحاب القوارب والسفن الصغيرة.

- كان متوسط[3] أسعار الفدى لـ 757 أسير مسيحي في الجزائر في 1660 و1664 و1666 هو 216 قرش اسباني.

- 1691 حسب القنصل الفرنسي[4] في الجزائر «أتى رجال الدين الاسبان (إلى الجزائر) ومعهم 300 ألف قرش افتدوا بها 753 أسير من كل البلاد» أي أن فدية كل أسير كلفتهم 398،4 قرش اسباني.

- متوسط 23 عملية افتداء في القرن السابع عشر تخص 4237 أسير قدرت بـ 250 إيكي لكل أسير بما فيها النفقات الإضافية[5].

---

1. E.Friedman, *Spanish Captives…*, p.147
2. P. Grillon, « En marge d'un manuscrit du XVIe siècle », *RHCM*, janv. 1966, p.67.
3. C. Larquié, « Le rachat des chrétiens en terre d'Islam au XVIIe siècle, *RHD*, 1980, p. 297 sq.
4. AN, P., AE , B1 116 Fos 498-505.
5. معلومات من مراسلات القنصلية الفرنسية بالجزائر والدراسات المذكورة سلفا

ولنذكر بأن هناك عوامل متنوعة تدخل في تحديد قيمة الفدية. ففي 1627-1628 نجح سمسون نابولون[1] في الحصول على افتداء 300 أسير بمبلغ 60 ألف ليرة فرنسية أي بمتوسط 86 قرش اسباني لكل أسير لكنه أتى معه بـ 200 أسير جزائري كانوا يجدفون في السفن المسيحية، وافتداهم هو في مرسيليا بمبلغ 60 ألف ليرة كما أنه وزع 70 ألف ليرة كهدايا لأكبر أعضاء الديوان في الجزائر.

بغض النظر عن الظروف الدبلوماسية، كان المستوى الاجتماعي والكفاءة المهنية وغيرها من العوامل الشخصية لها نصيب في تحديد قيمة الفدية. مثلا كان بعض الشيوخ العجزة من أصل متواضع يعتقون أحيانا بدون أي مقابل ويردون مجانا إلى ذويهم. أما فارس من فرسان مالطة فلا يفتدى بأقل من 2000 قرش اسباني. وفي 1663 افتدي ربان سفينة من أسطول الهنود الاسباني (يسمى الاسبان سكان أمريكا الأصليين بالهنود ويطلقون على أسطولهم المكلف بحمل وحراسة المعادن النفيسة والسلع المجلوبة من أمريكا بأسطول الهنود) بمبلغ 3000 قرش أشبيلي. وكان معه عضو في مجلس قشتالة افتدي بمبلغ 5000 قرش. وقد بلغت فديات بعض الشخصيات الاسبانية الكبرى مبلغ 30 ألف قرش اسباني.

إن التخصص في المضاربة على الفداء كان يتطلب معارف كان الأندلسيون يمتلكونها تماما. وقد اغتنوا كثيرا بفضل العمليات كما بيناه في الجزء السابق.

1. H. de Grammont, Relations..., *RA*, 1879, p.134 sq.

الفصل العاشر

تطور مؤسسة

1. التنظيم

إن بعض جوانب المؤسسة البحرية لم يعرف تغييرا يذكر خلال القرون العثمانية الثلاثة. وسنبحثها فيما بعد. وسنشدد هنا على القطاعات التي عرفت تغييرات كبرى من قرن إلى آخر والتي كان ينظر لها في أغلب الدراسات كأنها هياكل ساكنة. هذه القطاعات التي عرفت تطورا كبيرا تخص أجهزة القمة في هذه المؤسسات من عهد كبار القباطنة إلى عهد ناظر البحرية. كذلك بارتباط مع التجديدات التقنية وتطور الأوضاع الدولية، عرف الأسطول تحولات هامة في القرن السابع عشر وسندرسها في المقطع الثاني من هذا الفصل.

القباطنة

نظرا للطابع المركنتيلي الذي اتخذته القرصنة في القرن السابع عشر فإن أكبر الرياس المشهورين بمآثرهم كانوا عموما يصلون إلى رتبة قبطان أي قائد تشكيلة من الأسطول. لكن فيما يظهر لم تكن وثائق الرصيد العثماني بالجزائر تطلق دائما هلى هؤلاء كلمة قبطان. إن قبطان في الجزائر العثمانية معناه أميرال، قائد الأسطول. لكن الأمور لم تكن باستمرار بمثل هذا الوضوح. مثلا قد تطلق كلمة قبطان على أحد نواب القائد العام للأسطول وكما أشرنا إلى ذلك تطلق أيضا في بعض الأحيان على أحد الرياس المكلفين بقيادة إحدى تشكيلات الأسطول. وزيادة في التوضيح نقدم هنا بعض الأمثلة الملموسة.

وصف مراد رايس في إحدى المراسلات[1] الدبلوماسية الفرنسية في سبتمبر 1586 بأنه «القائد والقبطان العام للقوات البحرية في الجزائر». أما تقرير لنفريدو تشي وبوزيو[2] المؤرخ في أول سبتمبر 1587 فإنه يذكر على رأس قراصنة الجزائر أرنووط مامي و«مراد رايس الذي هو الآن قبطان كل قراصنة الجزائر».

إن هذين النصين في تناقض مع بعض الوثائق الجزائرية الرسمية. فقد جاء في رسالة بعثها آغة وإنكشارية الجزائر في 25 أكتوبر 1586 إلى دوق توسكانا الكبير، جاء فيها «قبطاننا أرنووط مامي باي»[3].

والواقع أنه منذ تعيينه[4] على رأس أسطول الجزائر في 1574 إلى مغادرته للجزائر في منتصف عقد 1590 كان أرنووط مامي يذكر دائما في مختلف الوثائق والشهادات بأنه قبطان الجزائر. وفي نفس الفترة كان مراد رايس هو النائب الأول والمساعد الرئيسي للقبطان وإن كانت مآثره الكبرى وشهرته الواسعة وطريقة حياته البسيطة المتقشفة قد جعلته يحظى باعتبار وتقدير وسمعة بين الرياس وغيرهم قد تكون أعلى من سمعة واعتبار القبطان.

ومن الجدير بالذكر أن منصب القبطان في هذه الفترة كان يتمتع باستقرار طويل مقارنة بمنصب الباشا والآغة وغيرهما من المسئولين الكبار. فأرنووط مامي ومراد رايس شغلا هذا المنصب على التوالي وكانت مدة بقائهما فيه الواحد بعد الآخر تزيد عن ثلث قرن. فقد بقي مراد رايس قبطان الجزائر

1. E. Charrière, *Négociations*..., t. IV, p. 451.

2. Lanfreducci et Bosio, texte..., tra. P. Monchicourt, *RA*, 1925, p. 540.

3. في رسالة نشرتها وترجمتها إلى الفرنسية مونيك بوسي Monique Bosset في مذكرتها لنيل شهادة الدراسات العليا D.E.S بجامعة الجزائر في 1971، وذكرها بلحميسي M. Belhamissi, *Les Captifs*..., p. 159.

4. انظر أرشيف الجزائر، الرصيد العثماني، دفاتر مهمة، دفتر رقم 24 ص 82، مارس 1574.

من 1595 إلى 1607. وفي رسالة بعثها إلى دوق توسكانا الكبير في 16 فيفري 1596، وضع مراد رايس توقيعه بهذا الشكل: «مراد باي قبطان عام البحر والأرض في مملكة الجزائر»[1]. وفي رسالة إلى شيخ وأعضاء بلدية مرسيليا في 15 أفريل 1597 يمضي «مراد باي قبطان الجزائر»[2]. وفي جواز مرور محرر في 6 سبتمبر 1604 مسلم إلى أسيرين وقع افتداؤهما أمضى أيضا «مراد باي قبطان الجزائر»[3]. أما الترجمة الفرنسية لرسالة إلى ملك أنكلترا مؤرخة في 2 فيفري 1607 وأمضى عليها باشا الجزائر ومراد رايس فإنها تصف مراد رايس بأنه «قبطان البحر في الجزائر»[4].

إن ذهاب مراد رايس من الجزائر في 1607 قد تلاه بمدة قصيرة ذهاب نائبه جعفر جنويز. بعد ذلك صار منصب القبطان لا يعرف نفس الاستقرار الطويل. فالذين بقوا مدة طويلة في هذا المنصب هم فقط سليمان باي (1610-1620) وفيما بعد علي بتشنين (1637-1645). وسنرى في الصفحات التالية أن بعض هؤلاء القباطنة ليسوا معروفين إلا باعتبارهم قادوا إحدى التشكيلات البحرية في إحدى العمليات. إن الفراغ الوثائقي والغموض في تحديد المناصب لا يسمحان بتوضيح المواقف بصورة أكيدة في كل الحالات. فمن جهة، كما أسلفنا، لم تكن الوثائق تطلق دائما صفة القبطان على الرياس المعروفين بأنهم كانوا من قادة الأسطول. وتضاف إلى ذلك مشاكل التزمين الدقيق. مثلا لا نعرف عن القبطان علي رايس سوى أنه كان والد أحد الرياس المتوفى في 1628. واسم القبطان والي رايس ورد فقط سنة 1642 في رسم بيع دار ورثتها ابنته منه. وفي رسم آخر مؤرخ في 1656، نجد بالمناسبة أن القبطان

1. F. Braudel, *La Méditerranée*..., t II, p.201.
2. E. Plantet, *Correspondance*..., t I, p. 4.
3. J. Pignon, *Gènes*..., p.80.
4. G. Fisher, *La Légende*..., p. 204.

محمد رايس الفلامنك قد توفي سابقا في تاريخ لا تحدده الوثيقة. ها هم ثلاثة قباطنة لا نعرف عنهم سوى هذا القليل. وهذه حالة أخرى: 29 ماي 1628 كان التوقيع على رسالتين واحدة إلى دوق دي غيز والأخرى إلى حاكم البستيون مبعوثتين من عنابة من طرف «مصطفى قبطان عام غليونات الجزائر»[1].

لكن الرسالة المؤرخة في 9 فيفري 1628 ممضاة من «إبراهيم رايس عرباجي قبطان عام قوادس الجزائر». وفي رسائل أخرى يمضي إبراهيم رايس عرجابي «قبطان الجزائر». إن هذه الرسائل التي نشرها بلانتي كما أشرنا أعلاه تطرح مشكل الترجمة من اللغة التركية (اللغة التي كتبت بها هذه الرسائل) إلى الفرنسية. فليست المرة الأولى التي نصادف فيها أخطاء الترجمة عند المترجمين الفرنسيين لذلك العهد. لكن الالتباس قد يعود أيضا إلى أن هناك قباطنة متعددين. فإبراهيم عرباجي باي المدعو عرباجي باشا كان في هذه الفترة هو قبطان الجزائر أي القائد العام للأسطول والمسئول الأول عن كل رياس البحر في الجزائر.

التدرج الهرمي للأميرالات

فيما يخص الترجمة الفرنسية من المعروف أن الفرنسيين في تلك الفترة وقد استمروا على ذلك في كل القرن السابع عشر كانوا يطلقون على القائد العام للأسطول عندهم عبارة «جنرال القوادس».وهذه العبارة قد تنطبق على الجزائر في القرن السادس عشر حين كانت سفن الأسطول الجزائرية متألفة من قوادس وغليوطات بالأساس. ولم يعد الأمر كذلك في سنوات 1620 حيث حلت السفن الشراعية المسماة «بوارج مستديرة» محل القوادس لكن الفرنسيين استمروا في نفس التسمية بحكم العادة ولأن أسطولهم الحربي نفسه ظل في

---

1. الرسائل المذكورة في هذه الفقرة نشرت في كتاب پلانتي السابق الذكر E. Plantet, *Correspondance*..., t. I, p. 28-39.

القرن السابع عشر يعتمد على القوادس. وهذا النوع من الإسقاط التاريخي أي الاستمرار في استعمال تسميات إدارية وتقنية عفا عليها الزمن هو من الأمور المشاهدة من طرف المؤرخين.

إن كون مصطفى رايس وصف بأنه قبطان غليونات الجزائر (وهي السفن الشراعية التي حلت محل القوادس في الجزائر) في الترجمة الفرنسية لرسالته جعل الباحث الفرنسي پيير غرنشان[1] يعتبر أنه كان هناك في الجزائر قبطان عام للسفن الشراعية المستديرة إلى جانب القائد العام للأسطول. لكن هذا الاستنتاج غير كاف فيما يبدو لنا.

فلنأخذ أمثلة أخرى:

- في 1631، طالب القنصل الفرنسي في الجزائر برد غنيمة اعتبرها غير شرعية. وعرض القضية أمام ديوان الجزائر، حيث، كما يقول، «تقدم بالاعتراض محمد باي، قبطان القوادس والقبطان عرباجي والقبطان علي بتشنين وهو أيضا قبطان القوادس»[2].

- في 1670، هاجم الهولنديون والإنكليز معا سفن الجزائر التي كان يقودها حسب رواية للحادث[3] مغفلة المؤلف ومنشورة في نفس سنة المعركة بالفرنسية «الأميرال حسن مرتد بسكاوي» (أي علج من بلاد الباسك) «والأميرال بالنيابة إبراهيم، تركي»، و«الأميرال بالنيابة الثاني إبراهيم، تركي».

إن هذه النصوص توحي بشيء من التشابه مع التطور التنظيمي للأسطول العثماني. لكن ينبغي الاستنتاج هنا مع شيء من التحفظ والحذر للتغيرات التي عرفها كل من الأسطولين على حدة وللفروق الكبيرة بينهما.

---

1. Pierre Grandchamp, *Une mission délicate*..., p. 31-32.

2. أنظر رسالة M. Blanchard في 20 نوفمبر 1631 المنشورة في H. de Grammont, « Relations... », *RA*, 1879, p. 378.

3. *Relation générale du combat et de la défaite de six corsaires d'Alger*..., P., 1670.

ومن المعروف أن الأسطول العثماني منذ عهد خير الدين برباروسة كان له إلى جانب القائد العام (كابودان باشا) ثلاثة نواب يحملون لقب أميرال. مثلا في 1539-1540 كان هؤلاء النواب هم صالح رايس وجيهان ودرغوث[1]. ومن المحتمل أن كل واحد منهم كان على رأس تشكيلة من الأسطول ويتعاون مع القائد العام في التسيير العام للعمليات. وفي القرن السابع عشر تحددت المسئوليات تدريجيا داخل قيادة الأسطول. وأنشئت رتب عدة أميرالات إلى جانب القائد العام. وهي تطابق ما يوجد في التنظيمات الأروبية باسم أميرال وفيس أميرال (أميرال بالنيابة) وكنتر أميرال (أميرال بالنيابة الثاني).

منصب سائر نحو الغروب

في الجزائر سواء كان للقبطان نائب واحد أو عدة نواب، فإن سلطاته تغيرت من قرن إلى آخر. ففي معظم القرن السادس عشر كان تعيين القبطان وحتى بعض كبار الرياس يتم تحت إشراف استنبول[2]. وفي إيالة الجزائر كان الباشا بيلرباي الجزائر له سلطات واسعة على مختلف القطاعات بما فيها البحرية. لكن في ما بين 1574 و1607 كانت الشخصية القوية التي تميز بها القبطان أرنووط مامي وكذلك خلفه مراد رايس تكسف سلطة الباشا. ومنذ هذه السنوات انتقل اتخاذ القرار النهائي في الأمور الهامة إلى الديوان الكبير. وهو عبارة عن اجتماع عام للضباط والرياس وكبار المسئولين. وكان للقبطان في هذه المجالس نفوذ قوي باعتباره رئيس القراصنة والممثل الأول لمؤسسة القرصنة التي كانت في هذه السنوات في أوج ازدهارها وترتبط بها فئات واسعة من الحضر.

---

1. Ch. Imbert, The Cost of Naval Warfare…, *AO*, IV, 1972, p. 203-216; Id., The Navy of Süleymen…, *AO*, t. VI, 1980, p. 211-282.

2. أنظر أرشيف الجزائر، الرصيد العثماني، د م رقم 2 ص 50، حكم إلى بيلرباي الجزائر في 1556 بتعيين محي الدين رايس قبطان سفن الجزائر، وص 202 حكم بترقية جعفر رايس في 1557؛ و د م رقم 4 ص 152 - 176. ترقيات بالي رايس وصفير رايس وبلال رايس المقررة بعد مراسلات بين الجزائر واستنبول في 1560، الخ.

إن هذا الديوان الكبير الذي قد يبلغ عدد أعضائه ألفين فيما يقال، لم يكن مهيئا للفصل في الشئون الجارية للدولة. ولهذا كان الديوان أو المجلس الضيق الذي لا يتجاوز أعضاؤه أربعين عضوا هو الذي حل محل الديوان الكبير في عهد حكم الأغوات. أما الديوان الكبير فلم يعد يجتمع إلا للقرار في أمور الحرب والسلم أو لحسم النزاعات داخل الكتل التي يتشكل منها الحكم أو لتعيين رئيس جديد للحكم التنفيذي.

وفي النصف الثاني للقرن السابع عشر بدأ وزن القرصنة يتضاءل داخل الحكم وفي المجتمع. وسار نفوذ واتساع مسئوليات القبطان في نفس الاتجاه. ومن الغريب أن التقليص من سلطات القبطان قد قرر بشكل رسمي في عهد الدايات الأوائل وهم أنفسهم كانوا من كبار الرياس في السابق. فقبل ذلك كان للقبطان مسئوليتان مترابطتان: مسئولية عسكرية هي قيادة الأسطول في البحر ومسئولية إدارية وقانونية هي السهر على السير الحسن للمنشآت البحرية في المواني الجزائرية وعلى استتباب الأمن واستقرار النظام وتطبيق القوانين والأحكام الإدارية المتعلقة بشئون القرصنة وما يتصل بها.

قايد المرسى

هاتان المهمتان تم فصلهما. فقيادة الأسطول بقيت من مسئوليات القبطان. أما الوظائف الإدارية والقانونية فقد انتقلت إلى قايد المرسى خلال فترة انتقالية لا يمكن تحديد تواريخها بالضبط الآن. ومما يزيد في صعوبة تحديد هذه التواريخ أنه في هذه الفترة التي عرفت كثيرا من الاضطرابات ومن عدم الاستقرار السياسي خاصة في أواخر القرن السابع عشر، كان كل داي تقريبا يغير ليس فقط حامل المنصب بل اختصاصات المنصب كذلك.

ومهما يكن فلمدة معينة عرف منصب قايد المرسى أيام ازدهار. ويبدو أن هذه المدة استمرت أحيانا أو استأنفت دورها حتى بعد ظهور منصب وكيل

الحرج. فخلال هذه السنوات، حسب مذكرة فرنسية مغفلة[1] « كان قايد المرسى هو المسئول الأول عن كل الرياس وهو الشخصية الأكثر نفوذا داخل الديوان»، وكان يقرر بنفسه حسم المنازعات الثانوية أو يعرضها على مجلس الرياس الذي يجتمع في مقر قيادة الأسطول. وهو الذي يعرض على الداي القرار الذي اتخذه المجلس للمصادقة عليه أو نقضه. وكما سنرى فيما بعد، فإن هذه المسئوليات ستنتقل إلى وكيل الحرج الذي سيكون فيما بعد ما يقابل ناظر أو وزير البحرية والشئون الخارجية في نفس الوقت. أما قايد المرسى فيحتفظ بمهماته الاعتيادية في مراقبة السفن عند الذهاب أو الوصول، والمحافظة على الأمن والنظام في الميناء وحراسة المنشآت البحرية.

الرياس وطاقم السفينة

في قرن القرصنة، نحن أبعد ما نكون عن عهد الأبطال، حسب تعبير دي غرامون [2] الذي لم يكن رياس العهد الجديد في نظره سوى «قراصنة، هم في نفس الوقت نوع من التجار ونوع من لصوص البحر، والذين يعتبرون مهنتهم كمؤسسة حرفية يجب ممارستها بكل الحذر الممكن، مع تفادي المعارك بكل الوسائل الممكنة».

ولنترك جانبا الأحكام القيمية الذي يصدرها هذا المؤرخ الذي هو قبل كل شيء ضابط أرستقراطي من المؤكد أنه كان في كل ما يتعلق بتقنيات الحرب له كفاءة معتبرة. يبقى أن نظرته كمؤرخ لا تخلو من الصواب فيما يخص التحولات التي طرأت على بحرية الجزائر في القرن السابع عشر. فقد اتجهت هذه نحو الغنيمة كربح تحققه مؤسسة ذات طابع مركنتيلي موجه نحو الكسب والربح مع أقل خسارة ممكنة وتكييف وسائلها حسب طبيعة الهدف

1. Jean Peter, *Les Barbaresques sous Louis XIV*, P., Economica. 1977, p. 200

2. H. de Grammont, *La course*..., p. 86.

المنشود. فليس من المصادفة أن بداية هذا القرن شهدت تدفق القراصنة الإنكليز والهولنديين على الموانئ المغاربية التي كانت ترحب بحرارة بتقنياتهم ومناهجهم وتتساهل كثيرا على تجاوزاتهم ومخالفتهم للقواعد المرعية، وهذا في كل المجالات لا في مجال القرصنة فقط. وهكذا فإن متطلبات القرصنة تختلف في جوهرها عما يستلزمه أسطول حربي وطبيعتها تستدعي نوعا من الرجال له خصائص تتلائم مع هذه المهام الجديدة.

إن هذه الخصائص وغيرها مما يميز عالم القراصنة سنتعرض لها في الفصول القادمة. والذي يهمنا هنا هو الرياس كأعضاء في الطاقم البحري الذي صعدوا سلمه في مختلف الدرجات.

وينبغي هنا الارتياب في الحكايات الرومنسية من نوع التي يرويها Boutin عن قارة خوجة قائلا أنه في « 1660 تقزز من حرفته كحمال في أرصفة ميناء الجزائر، فاستصلح قاربا مهملا وأبحر به. بعد أيام استولى على سفينة مرسيلية هي Notre Dame de la Garde وباع شحنتها بـ 400 ألف ليرة ترنوا»[1].

أولا من الصعب تصور إنسان متعلم إلى درجة أنه يدعى خوجة مضطر إلى العمل كحمال في مدينة وفترة كانت فيهما صفة الخوجة تفتح كثيرا من أبواب الشغل المربح. ثم إن الوصول إلى رتبة رايس لا يتم بين يوم وآخر مهما كان الشخص يتمتع بالجسارة والمهارة، الخ. إنها مسئولية تفترض كثيرا من التجربة الطويلة والكفاءة. وقبل أن يعرض ترشيح أي شخص لرتبة رايس أمام مجلس الرياس وأن يوافق عليه المسئول الأول في الدولة فعلى هذا الشخص أن يثبت مقدرته على تحمل هذه المسئولية بواسطة ما حققه من مآثر في نشاطاته

1. Abel Boutin, *Les traités de paix et de commerce de la France avec la Barbarie (1515-1830)*, P., Pedone, 1902, p. 107

البحرية التي هيئته لتولي هذا المنصب. إن كثيرا من ألقاب الرياس تشير إلى المهام التي مارسوها قبل أن يصبحوا من الرياس (آغة، خوجة، باش طبجي، باش جراح، قلفاط، الخ).

وبانعدام أي مدرسة للفنون البحرية في الجزائر، يمكن أن نتساءل كيف أمكن لرياس الجزائر أن يسجلوا انتصارات لا ارتياب فيها في القرن السابع عشر. ولن ندخل هنا في اعتبارات حول المهارة المهنية لرجال خرجوا من صفوف البحارة وكان مستواهم العلمي لا يتجاوز المعارف الأولية البسيطة. وإنما نكتفي ببعض الملاحظات:

- كما يلاحظه دي غرامون في المقال السالف الذكر، كان للجزائر عبر العصور تقاليد بحرية حافظت عليها في مختلف العهود وطورتها منذ عهد الإخوة بربروسة على الأقل.

- في القرن السابع عشر لم يكن التباين التقني بين رياس الجزائر وربابنة السفن الأوروبيين كبيرا لاسيما في النصف الأول من هذا القرن حيث كان جزء كبير من قراصنة الجزائر من العلوج الذين كانوا بحارة في مستويات مختلفة في بلادهم الأصلية. كذلك كان بعض الرياس القادمين من شرقي البحر المتوسط ينتمون إلى بلاد متعودة على النشاطات البحرية. وفي هذه الفترة كان بعض الربابنة الأوروبيين الكبار مثل رياس الجزائر لم يتخرجوا من مدارس بحرية. فالقرصان الفرنسي الشهير (Jean Bart 1650-1702) الذي منحه لويس الرابع عشر مرتبة النبالة وعينه على رأس تشكيلة من الأسطول برتبة تقابل رتبة نائب الأميرال الثاني في عصرنا، كان لا يعرف القراءة والكتابة.

التأطير

الرايس هو المسئول الأول في قيادة السفينة، وهو على رأس مجموعة من المسيرين وصفهم A. Devoulx[1] بالتفصيل انطلاقا من وثائق رسمية جزائرية تعود إلى القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. وسنعود للموضوع.

في القرن السابع عشر كان الوضع يختلف بسبب تعدد سفن القرصنة الصغرى والطابع الخاص الذي كان يميزها. نجد مثلا الحالات التي يصفها مشاهدون معاصرون لسفينة قرصنة (بركنتين) «كان عليها 19 بحارا. وسفينة تونسية أخرى عليها 15 شخصا فقط وسفينة جزائرية أخرى عليها 21 شخصا. إن بحارة الفلايك كان عددهم مقاربا وبحارة الفرقاطات كانوا أكثر بقليل»[2].

وفي 1621 من بين السفن الجزائرية التي هاجمتها البحرية الفرنسية في مياه پرفنس وروسيون كان هناك قارب عليه 32 شخصا منهم 4 علوج و4 عبيد نصارى، وبارجة ذات 12 مدفعا عليها 45 بحارة وأخرى ذات 8 مدافع و40 شخصا منهم 4 نصارى وسفينة كبرى من 20 مدفعا و115 رجلا منهم 6 نصارى[3]، الخ.

إن هذه السفن كانت تتردد على أماكن تعرفها جيدا (جزر وشواطئ المتوسط الغربية) وكان جهاز التسيير فيها محدودا. مثلا سفينة جزائرية جنحت في مياه إيغ مورت في 1669 كان عليها 90 جنديا وبحارا بقيادة رايس ونائبه وآغة الجنود. وكان النائب من أصل فرنسي «من مواليد Brest ، ويقول

1. A. Devoulx, « La Marine de la Régence d'Alger », *RA*, 1869, p. 384-420.

2. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens…*, p. 125.

3. Henri Ternaux-Compans, éd., *Archives de voyages*, P., 1840, t. II, p. 402-412.

إنه شقيق السيد لاروش الذي هو نائب السيد (قائد الأسطول الفرنسي) دي بوفور De Beaufort»[1].

على العموم كانت السفن الكبرى لها جهاز تسيير أكثر عددا وتنوعا واستحكاما. والوصف الذي يقدمه دان[2] ينطبق على الحالة في سنوات 1630. وهو يصنف جهاز التسيير في فئتين تبعا لعدد الأسهم التي يتلقونها من كل غنيمة.

فالفئة الأولى تشمل الرايس والآغة (قائد الجنود على السفينة) والمرشد pilote وقائد المدفعية ومسئول تنظيم القلوع والجراح والأوضباشية. ولكل واحد منهم ثلاثة أسهم لكن الرايس له عدد أكبر من الأسهم.

وفي الفئة الثانية (لكل واحد منها سهمان) نجد المدفعيين والحرفيين (نجارة، قلفطة، الخ) وكذلك الجنود والبحارة.

ويذكر تقرير فرنسي[3] مؤرخ في 1680 الوصف التفصيلي لجهاز التسيير في السفن التي لها بين 28 و36 مدفع وتحمل من البحارة والجنود ما قد يبلغ 400 شخصا: رايس ونائبان، وخوجة، وآغة ونائبه ووكيل الحرج، هؤلاء يشكلون طاقم الضباط. أما المسئول عن القلوع ورئيس الحرس وقائد المدفعية ونائبه والمرشدون والنوتية فيطلق عليهم اسم الضباط البحارة (officiers mariniers). ونواب الرايس يدعوهم التقرير سوتة رايس، وهو تحريف لعبارة ساعة رايس (رايس الساعة) وهو المقابل لما يسميه الفرنسيون رياس ربع الوقت أي الذين يتداولون على قيادة السفينة في ساعات معينة من اليوم تحت مراقبة رايس السفينة.

1. ANP, Marine, B7 205, Rapport d'Aigues- Mortes, 26 mars 1669.
2. Pierre Dan, *Histoire*..., éd. 1637, p. 267.
3. تقرير عن القوى البحرية لمدينة ودولة الجزائر، ANP, AE, 223 MI, vol. 12, F° 197

ودون الدخول في تفاصيل تقنية تتجاوز اختصاصنا، ينبغي تقديم هذه الملاحظات:

- هناك فارق كبير بين طاقم القوادس وطاقم السفن الشراعية. فعلى القوادس كان قائد الحرس له دور كبير نظرا للعدد الكبير من العبيد المجدفين. أما في السفن الشراعية التي تتردد على المحيط الأطلسي فإن المرشد له دور ثمين في تعيين الطريق الذي يجب سلوكه، كما يظهر ذلك من التجارب الأولى في ارتياد الجزائر الخالدات (Canaries) وإيسلندة. وفي الغالب كانت القوادس لا تحمل سوى مدفع واحد أو عدد قليل من المدافع بينما لم يفتأ يتزايد عدد المدافع على السفن الشراعية الكبرى.

- إن ما ذكر عن تأطير السفن في التفاصيل السابقة يتعلق بسفن عليها من 14 إلى 36 مدفعا. لكن مثلا في 1687 كانت إحدى البوارج الشراعية الجزائرية عليها 64 مدفعا وتحمل عددا من الجنود والبحارة قد يبلغ 700 شخص. إن ضخامة وتنوع القلوع على مثل هذه السفينة كانت تتطلب وجود جهاز اختصاصي متنوع وله تجربة وكفاءة. ومن البديهي أن هيئة القيادة في هذه السفينة ومجموع الطاقم العامل فيها لابد أن يتجاوزا كثيرا ما سبق ذكره سواء من حيث الكم أو من حيث النوعية.

الطاقم

- أثناء قرن القرصنة، كان تشكيل الطاقم يتحول تبعا لتطور الأسطول، فلنأخذ بعض الأمثلة :

- في 1580، كانت السفن في مجموعها (حوالي الستين) من قوادس وغليوطات وبريغنتين وغيرها من سفن التجديف الصغرى تستعمل عدة آلاف من المجدفين.

- في سنوات 1620، لم تبق إلا بضعة قوادس لكن كان هناك حوالي 100 سفينة شراعية كبرى ومتوسطة، وعدد أكبر من الصنادل والقوارب المختلفة. وكان عدة آلاف من البحارة والجنود تركب هذه السفن ولم يكن بينهم إلا قليل من الجدافين.

- في النصف الثاني من القرن السابع عشر، تناقص عدد السفن الشراعية لكن بقي ما بين نصف وثلث عدد السفن التي كانت في الفترة السابقة. أما القوادس فقد أصبح عددها في كثير من الأحيان لا يتجاوز ثلاثة قوادس.

وهذه أمثلة لإعطاء فكرة عن تكوين الطاقم في هذه السفن:

- كانت قوادس الجزائر تحمل ما بين 120 و150 جدافا. وبعض القوادس قد يبلغ 200 جداف وأكثر. وأغلب الجدافين كانوا من العبيد الذين يمزجون بجدافين أحرار مسلمين التحقوا بهذا العمل إلى حد ما عن طواعية. والمقصود بالجمع بين فئتين من الجدافين كان تفادي الفتن والثورات التي كان العبيد يحاولون تنظيمها. وكان في كل قادس ما بين 60 و100 جندي أو أكثر ومن 10 إلى 20 ضابطا وأعضاء التأطير.

أما تشكيل طاقم السفن الشراعية فكان يتغير حسب نوعية السفينة وحجمها، الخ. وهذه أرقام وردت في التقرير المغفل المنشور سنة 1670 الذي سبق ذكره[1]، وهي أرقام تقريبية لا تعد موثوقة لكنها تعطي فكرة عن تشكيل بحارة السفن الجزائرية الشراعية في ذلك الوقت:

- سفينة اسمها إناء الزهور، 40 مدفعا، 300 أهلي، 50 مسيحي.
- سفينة اسمها النمر الذهبي، 36 مدفعا، 300 أهلي، 47 مسيحي.
- سفينة اسمها النمر الزاحف، 36 مدفعا، 250 أهلي، 47 مسيحي.

1. تقرير عن الانتصار الانكليزي-الهولندي ضد الأسطول الجزائري وعنوانه يبدأ ...Relation,

- أما السفن الأخرى فقد كانت كل واحدة منها تحمل 250 مسلما و46 مسيحيا. أي في الجملة 1800 مسلم و318 عبد مسيحي.

- وفي 1655 كان غليون[1] يحمل 300 مسلم من الأهالي و15 علوجا و40 مسيحيا.

- والشهادات في المحاكمات أمام هيئة التفتيش الإسبانية تعطي بعض المعلومات عن طواقم السفن المتوسطة:

- كانت سفينة يقودها رايس أندلسي تحمل 43 مغاربيا و12 علوجا و23 مسيحيا[2].

- على ظهر سفينة يقودها علج من أصل فرنسي كان 55 «تركيا» و25 علجا وبعض الأسرى المسيحيين.

- سفينة أخرى كان عليها 200 مسلم منهم بضعة علوج ومعهم 50 عبدا مسيحيا. يلاحظ أيضا أن هناك تنوعا كبيرا في أصول بحارة السفن الصغرى التي هاجمها الأسطول الفرنسي[3]:

في 1621: فعلى قارب من 26 شخصا كان هناك علج من سان تروبيز و3 من مرسيليا وفرنسي آخر.

وعلى ظهر قارب آخر من 26 شخصا كان الرايس من أصل فرنسي من جزيرة ريي (L'île de Ré) ومعه علوج من سان مالو وسابل دولون الفرنسيين وهمبورغ الألمانية وكذلك أندلسيون وأهالي من الجزائر وتلمسان وتونس.

- وفي سفينة عليها 29 شخصا كان علج من لشبونة ومسيحي بروتستنتي و2 من اسبانيا. ومن المسلمين 4 أندلسيين والباقي جزائريون من مختلف المناطق.

1. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens*..., p. 471.

2. المصدر السابق، ص 216-214.

3. H. Ternaux- Compans, *Archives*..., p. 403-411.

في سفينة تحمل 53 شخصا كان الرايس و33 شخصا من مدينة الجزائر و7 من تونس وواحد من بنزرت وآخر من تنس وآخر من سلا و3 من تلمسان و6 «مورو» (أندلسيين؟).

الحياة على ظهر السفينة

كانت معاملة العبيد داخل السفينة وعموما الحياة على ظهر السفينة نادرا ما تأتي عنها أوصاف مباشرة. وهي أوصاف تتعدد مستوياتها وتلويناتها وتعبر جزئيا عن الواقع المشاهد وكذلك عن ذهنية المؤلف واتجاهاته. ولا يمكن هنا أن نتجاوز ما هو معتبر من قبيل الأوصاف المتفق عليها عموما.

- تسود حياة التقشف واقتصاد الوسائل المتوفرة إلى حد كبير. وذلك يعود بدون شك إلى الأصول الشعبية لإطار السفن وكانت السفينة تحمل ما هو ضروري للحياة اليومية لمدة شهرين كأقصى تقدير والعتاد الضروري للقتال. وهذا التقشف هو الذي كان يسمح بخفة السفن وسرعتها.

- كان الانضباط الصارم مفروضا على الجميع وكان المسئولون على السفينة من واجبهم أن يخبروا حكام الجزائر بكل ما يحدث في السفينة. وكانت عقوبات متدرجة في القسوة تسلط على المخالفين وحتى على رياس السفينة بعد رجوعهم. ولهذا كانت بعض السفن تلجأ إلى سلا وتونس وطرابلس الغرب، الخ، هروبا من العقوبات. في القرن الثامن عشر هناك حادث واحد معروف بأنه أدى إلى تحول سفينة إلى لصوصية البحر ورفعها العلم الأسود الذي هو علامة الانتماء إلى جماعة الخارجين عن القانون. وهو حادث فريد داخل البحرية الجزائرية. لكن حالات استحواذ الجدافين المسيحيين على السفن والفرار بها إلى البلاد المسيحية كانت حالات عديدة. وربما كان الحادث الذي يرويه التمغروتي في رحلته هو من أهمها حيث كانت سفينتان تركيتان مسافرتين إلى استنبول في 1589-1590 بكميات كبيرة من الذهب

والمعادن النفيسة والهدايا إلى السلطان العثماني. واستولى عليهما الجدافون المسيحيون ونقلوهما إلى الشواطئ الإيطالية وقد سبق ذكره في الجزء الأول.

إن استيلاء العبيد المسيحيين على سفن إسلامية ليس من الأمور النادرة في ذلك الزمن، رغم ما في العملية من صعوبات. لكن المدهش هو فرار بحارة مسلمين بسفينتهم ولجوءهم إلى البلاد المسيحية وتحولهم عن دينهم بصورة اختيارية كما سبق لنا أن ذكرناه في الجزء الأول أيضا. وهذا يعني أنهم كانوا يرفضون جذريا الحالة المسلطة عليهم. وسنذكر فيما بعد حالة علوج رجعوا إلى بلادهم وإلى المسيحية بكل طواعية أيضا. أي أن هناك تنوعا في الأوضاع البشرية وفي المواقف والاختيارات التي تلجأ إليها فئات من البشر.

2. الأسطول في قرن القرصنة

1. 1580 - 1649:

«مدينة الجزائر هي مدينة في 1580 ربما 35 قادسا و25 فرقاطة مع عدد معين من البريغنتين والقوارب. وفي 1618، ربما مائة من السفن الشراعية التي كان أصغرها يحمل 12 إلى 20 مدفعا. وفي 1623 (وهو رقم أكثر احتمالا، أعطاه السير توماس روي، ممثل المصالح الإنكليزية في قرن الذهب، 75 سفينة شراعية وعدة مئات من الزوارق»[1].

أما فيشر فيعتبر أن هذه الأرقام فيها مبالغة. وفي الطبعة الجديدة لسنة 1979 لكتاب بروديل الشهير (البحر المتوسط في عهد فليب الثاني) يشير بروديل إلى مزايا هذا المؤلف الإنكليزي الذي كان همه الدائم محاربة الأحكام المسبقة والتشويهات التي طبعت نوعا معينا من التاريخ الاستعماري المتمحور حول «الجزائر وكر لصوص البحر». وإجابة على ملاحظات فيشر، قدم

1. قرن الذهب هو خليج استنبول F. Braudel, *La Méditerranée...*, t. II, p. 207.

برودیل حججا جديدة تدل على أهمية أسطول الجزائر في هذه السنوات. وفي نفس الوقت ألح على أن كل الأرقام الواردة حول عدد سفن بحرية الجزائر هي مثل كثير من الأرقام من هذا النوع في ذلك العصر من النوع التقريبي الذي لا يمكن اعتباره كمعطيات ثابتة. فعلا هذه الأرقام على فرض أنها صحيحة لا تنطبق إلا على السنة المذكورة فيها دون غيرها من السنين. كذلك ليس هناك ما يثبت أنه ليس فيها مبالغة. لكن المقاييس التي استند إليها فيشر للاعتراض على هذه الأرقام، هي نفسها محل للاعتراض. فهو يعتقد مثلا، تبعا لما قاله Knigth أن قوة الجزائر البحرية تعتمد على القوادس. ومثل هذا القول ينطبق على القرن السادس عشر لكن منذ بداية القرن السابع عشر صارت السفن الشراعية من نوع الغليون وأشباهه هي الغالبة في أسطول الجزائر كما في أساطيل كثير من الدول. كذلك لتأكيد تقديرات تميل إلى تخفيض عدد سفن الجزائر، يستشهد فيشر بدان الذي رأى في الجزائر 28 سفينة ونايت الذي قدرها بأقل من 30. لكن دان[1] قبل أن يكتب بأنه رأى « مبحرة من الجزائر في 7 أوت 1634، 28 سفينة من أجمل السفن وأفضلها تجهيزا للقرصنة». فقد ذكر بأن أهل الجزائر « لهم نحو 122 سفينة منها 70 في مدينة الجزائر؛ سفن من نوع البولاكر polacres والقوارب الكبرى». ويضيف بأن هذه السفن لكل واحدة منها 25 إلى 50 مدفعا. أما نايت[2] الذي كان أسيرا في الجزائر من 1631 إلى 1638 فقد كتب في 1640: «في 1631 كانت لهم 90 سفينة من كل الأنواع لكن بعد ثلاث سنوات، لم يبق لهم أكثر من 30... واليوم لهم 80 سفينة بعضها يحمل 40 مدفعا».

---

1. P. Dan, *Histoire*..., P., 1637, p. 279

2. R. Knight, « A Relation of Seven Years..., in Th. Osborne, *A Collection of voyages*..., 1745, t. II, p. 485.

نرى من هذه الأمثلة أن التقلبات كانت كبيرة لكن الفكرة العامة التي قدمها بروديل تتطابق عموما مع المعطيات المستقاة من المصادر التي كانت على اختلافها تتفق في الصورة العامة التي تقدمها.

رأينا أن هاييدو يقدر في 1580 بأن للجزائر 35 قادسا و25 فرقاطة. وهو رقم أعلى من الرقم الذي وصل إليه المخبران الاسبانيان اللذان كان من مهامهما تقدير القوة البحرية الجزائرية في 1587 وكان تقريرهما[1] يعكس نظرة مخبرين «مهنيين». وقد جاء فيه: « يوجد في مدينة الجزائر أكثر من عشرين سفينة تجديفية مجهزة كلها للقرصنة، بغض النظر عن البريغنتين وعددها تقريبا مساو لعدد السفن الأخرى». ويذكر فيشر تقريرا لسفير البندقية في اسبانيا مؤرخ في جوان 1616 جاء فيه أن الجزائريين علموا بأن بعض الدول الغربية تتهيأ للهجوم عليهم فجمعوا 30 ألف مقاتل و84 سفينة كبرى للتصدي لهذا الهجوم.

وعن سنة 1616 نفسها يذكر سفير انكلترا في اسبانيا في رسالة بعثها إلى دوق بوكنهام[2] «أن قوة وجرأة القراصنة البرباريسك بلغت درجة لم يسبق لها مثيل فيما تحدثه من الحزن والانهيار النفسي داخل القصر الملكي الاسباني، إن أسطولهم يشمل 40 سفينة شراعية لها من 200 إلى 400 طونو وسفينتهم الأميرالية لها 500 طونو وهذا الأسطول موزع على تشكيلتين إحداهما من 18 سفينة في عرض مياه مالقة غير بعيد عن المدينة والأخرى في نواحي رأس سنتاماريا الواقع بين لشبونة واشبيلية» .

إن أندرنسون[3] يذكر أيضا هذه الرسالة ويشرح ملابساتها ويبين أن الجزائريين تبنوا منذ بداية القرن السابع عشر السفن الشراعية ذات القلوع

---

1. تقرير مؤرخ في 1587 أعده Bosso و Lanfreducci : *RA*, 1925, p. 540

2. P. Gosse, *Histoire de la piraterie*, trad. F. P. Teillac, P., Payot, 1933, p. 72

3. A. Anderson, *Origins of Commerce*, L., 1790, vol. II, p. 269

المربعة وتخلوا عن القوادس والغليوطات. ويضيف بأن الأسطول الذي يتحدث عنه السفير الإنكليزي في هذه الرسالة ليس مجموع أسطول الجزائر بل هو الأسطول المرابط في الشواطئ الاسبانية والبرتغالية.

ويبدو لنا من المفيد أن نذكر شهادات أخرى تمكن المقابلة بينهما من الاقتراب من صورة عامة تقريبية لعدد سفن الأسطول الجزائر في هذه الفترة:

- غراماي[1] يعطي عن سنة 1619 عدد 4 قوادس و72 سفينة شراعية.

- جاء في تقرير[2] مؤرخ في 1621: «إنهم يجهزون عددا من السفن قد يبلغ مائة سفينة مع 6000 مقاتل».

- في رسالة لنائب القنصل الفرنسي في الجزائر[3] Chaix أرسلها من الجزائر في 1621 يتحدث فيها عن 85 سفينة حسنة التسليح والتجهيز.

- وفي رسالة أخرى[4] له في 17 أفريل 1623 يقول إن 61 سفينة خرجت للقرصنة من الجزائر.

- وفي رسالة[5] من مبعوث السلطان العثماني إلى الجزائر، سليمان شاوش مؤرخة في 10 نوفمبر 1623 يقول إنه خرج من هذه المدينة في يوم 11 من هذا الشهر (القمري) 61 سفينة ذهبت للقرصنة.

- ومما جاء في مذكرة رسمية[6] قدمتها قيادة البحرية الفرنسية في ديسمبر 1631، أن 46 سفينة حربية من أقوى وأحسن السفن الجزائرية ترابط مع بعض

1. A.- H. Ben Mansour, *Alger*..., p. 178 sq

2. H. de Grammont, *La mission de Samson Napollon*

3. H. de Grammont, Relation..., *RA*, 1879, p. 97 sq

4. نفس المصدر

5. نفس المصدر

6. ANP, Marine, B 7 49

القوادس في مياه البحر المتوسط وأن ديوان الجزائر لم يعد يعترف بسيادة السلطان العثماني»

- يقول دارندا[1]: «رأيت في صيف 1641 أن 65 سفينة قرصنة و4 قوادس كانت كلها مجهزة للحرب وقد حملت كل واحدة منها عددا من الجنود النظاميين».

وإذا كانت أرقام دارندا صحيحة، فمعنى ذلك أن القدرة على إعادة تجهيز عدد كبير من السفن بعد كارثة كبرى كانت ما تزال سارية المفعول في الجزائر. فقد عرفت الجزائر في 1638 هزيمة ساحقة في ڤالونا حيث استولت البندقية على 16 سفينة جزائرية وتونسية وحررت 3600 من الأسرى المسيحيين.

هل يمكن الوصول إلى بعض النتائج التقديرية عن هذه الفترة؟

ما يمكن أن يقال عن فترة 1580-1640 أن أسطول الجزائر كأسطول يحصر جهوده في القرصنة ويشارك دائما في العمليات الكبرى التي ينظمها الأسطول العثماني، قد عرف أوج ازدهاره في هذه السنوات. أما عن عدد السفن فالتقديرات متفاوتة من 30 إلى 100 سفينة وأكثر. لكن العدد التقريبي المحتمل هو بين 60 و80 سفينة أو أكثر في بعض الأحيان.

صحيح أن أكثر هذه السفن كانت سفنا شراعية أخف من القوادس التي كانت تسود في الفترة السابقة. لكن إلى جانب استمرار عدد معين (صغير) من القوادس فإن النوع الجديد من السفن الشراعية لم يكن خاصية تمتاز بها الجزائر بل ظاهرة عامة مرتبطة باتجاه الأساطيل الأروبية إلى خوض غمار كل المحيطات.

وإذا حصرنا نظرنا في الاعتبار العددي للسفن، فإن أسطول الجزائر كان في هذه الفترة يحتل مكانة لها وزنها الكبير. فبين 1529 و1579 كان أسطول

1. E. D'Aranda , *Les captifs d'Alger*, P., J.- P. Rocher, 1997, p. 102.

الجزائر حسب الظروف يبلغ ما بين خمس وربع مجموع الأسطول العثماني. أما في الفترة المعينة هنا فقد صار أسطول الجزائر يشكل ما يعادل ثلث أو نصف الأسطول العثماني وحسب مختلف الشهود كان أسطول الجزائر في هذه الفترة هو أفضل تشكيلة في الأسطول العثماني. ولنعد هنا التذكير بشهادة التمجروتي في رحلته السابقة الذكر (ص 57): «الجزائر عامرة كثيرة الأسواق...كثيرة الجند حصينة.. ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم. فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو. فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد افريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا حتى أنهم يسمونها «أسطنبول الصغرى»».

فعلا في هذه السنوات كان الأسطول يتألف من بحارة أتوا من كل الآفاق وبالأخص من بلاد أروبا الشمالية (انكليز، هولنديون، الخ.) حيث كانت الملاحة تشهد تقدما هاما. لكن علينا أن لا نخطئ في التصور العام. فحتى في هذه الفترة كان أسطول الجزائر أبعد من أن يكون الأسطول الأول في العالم وكانت منزلته تصنف وراء الأساطيل الإنكليزية والهولندية والفرنسية والاسبانية وحتى وراء أسطول البندقية التي كانت قد بدأت تمر بمرحلة الغروب النهائي.

2. 1650 - 1699:

إن المعلومات المقدمة هنا هي مجرد خطوط كبرى لتعيين مسار الأسطول في النصف الثاني من القرن السابع عشر:

1659-1662: تذكر الزهرة النائرة[1] أن للجزائر 42 سفينة كبرى (تحل الطاقة من أسفل وربما يقصد بها بوارج الخط ذات طابق واحد) في 1660. أما

---

1. الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، من تأليف... بن رقية التلمساني الجنيري، مخطوط بالمكتبة الوطنية. نشر نصه سليم بابا عمر في م ت ح م، يوليو 1967 ص 32-1.

دابر[1] فيقول إن لها 22 أو 23 بارجة ذات الـ 30 إلى 40 مدفعا في 1659 ويذكر رسالة للأميرال الهولندي De Ruyter يقول فيها سنة 1662 كان للجزائر 15 فرقاطة جيدة و4 بصدد الإنشاء و3 مازالت جديدة تماما.

1666: في مذكرة[2] أرسلت إلى كولبير عن هذه السنة أن الجزائر تملك 30 بارجة حربية وبعض القوادس.

1674-1676: مما هو مسجل في كل سنة على التوالي في السجلات الرسمية[3] بالجزائر: 26 بارجة؛ 35 ثم 28.

1680-1681: حسب Dancour[4] كان للجزائر 22 بارجة حربية منها 10 جيدة جدا حسنة التسليح خفيفة في قلوعها وعليها من 40 إلى 50 مدفعا مع ما لا يقل عن 300 شخص في السفن الكبرى.

1686-1688: جاء في تقرير فرنسي[5] عن بحرية الجزائر في 1686 أن المدينة تملك بارجة أميرالية ذات طابقين فيهما 40 مدفعا و20 مدفعا رامية حجارة وبارجتين كبيرين من طابقين لكل منهما 45 مدفعا و12 بارجة ذات ذات طابقين في كل منها نحو 30 مدفعا و10 مدافع حجرية و10 بوارج ذات طابق واحد مجهزة من 14 إلى 20 مدفعا ونفس العدد من المدافع الحجرية.

المجموع: 26 بارجة، و5 بوارج قيد الإنجاز، منها 2 من 50 مدفعا و2 من ذوات 30 مدفعا وواحدة لها 20 مدفعا. وللجزائر أيضا 3 قوادس و7 صنادل و11 برغنتين و15 أو 16 سفن صغيرة.

وينبغي التذكير بالتباين الكبير بين سنة وأخرى.

---

1. Dapper, *Description*…, p. 179.
2. BNP, Mélanges Colbert , *5, Mémoire sur le royaume d'Alger*, 1666, f° 50R.
3. A. Devoulx, *La Marine*…, p. 391-392.
4. J.-P. Vittu, *La Barbarie*…, CT, 1977, p. 317.
5. ANP, 223 Mi 1, vol. 12, f° 237.

مثلا في أكتوبر 1687 جاء في تقرير انكليزي[1] قام بترجمته نفس المراسلين الذين صاغوا التقرير السابق أن للجزائر 32 سفينة منها بارجة لها 64 مدفعا و3 لكل منها على التوالي 48 و46 و40 مدفعا؛ و10 من 26 إلى 32 مدفعا؛ و3 من 18 مدفعا؛ و12 لها 10 مدافع و6 بركنتين و6 صنادل وطرطانات و3 قوادس وهناك 4 بوارج من 26 إلى 30 مدفعا بصدد الإنشاء.

ولنذكر بأن كلمة صندل أو قارب barque كانت تطلق على سفن تحمل أحيانا 30 مدفعا أي أن مدلول الكلمة يختلف تماما عن معناها اليوم،

وتقرير عن «حالة بوارج البحر» في 1688 ذكر أن للجزائر 19 بارجة من 36 إلى 64 مدفعا وأضاف: «هناك الآن سفن في البحر من أجل القرصنة إلى جانب هذه الـ 19 بارجة، 3 قوادس و5 صنادل و7 برغنتين، فالجملة هي 34 سفينة قرصنة». وفي تقرير فرنسي[2] مؤرخ في 1692 أن الجزائر كان لها في البحر من السفن ما قد بلغ أحيانا 45 بارجة حربية، و6 غليوطة و2 برغنتين. ولها الآن 28 بارجة حربية.

وانطلاقا من مختلف الإحصاءات يمكن أن نعد عدد مدافع سفن الجزائر[3]: 562 مدفعا في 1680 و680 في 1682. وقد يصل العدد إلى ألف مدفع في أقوى السنوات.

وللمقارنة[4] كانت البحرية الإنكليزية قد انتقلت من 173 بارجة حربية مجهزة بـ 6930 مدفعا في سنة 1689 إلى 323 بارجة تحمل 9912 مدفعا في سنة 1697. وبقوتها النارية وتقدمها التقني والتكوين المهني لضباطها وبحارتها، كان تفوق البحرية الأوروبية على بحرية الجزائر قد بلغ مستوى لا يقبل النقاش.

---

1. نفس المصدر، 248 م

2. نفس المصدر، 281 م

3. أنظر 1327- 1328 M. Fontenay, « *La place de la course…* » p.

4. أنظر دراسة Jean Meyer, « La guerre sur mer au XVII^e siècle » *in* L. Bély et al., *Guerre et paix dans l'Europe du XVII^e siècle*, t. I, et G. Parker, *La révolution militaire…*, p.128-130.

الفصل الحادي عشر

عالم الرياس

من المحتمل أن الوثائق المتوفرة حاليا قد تمدنا بعدد من أسماء الرياس أكبر مما في تعدادنا. وقد يكون كذلك من الضروري تحديد عناصر الهوية لبعض الرياس ومساراتهم بشكل أدق وأوضح. لكن الأمثلة الآتية ستبين صعوبات الاستنتاج والتعقيدات والالتباسات الخاصة بالمعلومات في هذا الموضوع.

إن تنوع الأصول والمواقف والمعتقدات والطباع والممارسات لدى هذه الفئات يتطلب تعدد المقاربات لكي نستطيع تبين الخصائص المشتركة والفروق. وبالأخص تعتبر المعرفة المتعلقة بالأشخاص حتى لو كانت مبعثرة بمثابة التكملة الضرورية لتحليل البنية العامة التي قمنا بها في غير هذا المكان. إنها تسمح بتصور المناخ العام انطلاقا من معطيات حققت بواسطة المقارنة بين المصادر الأولية.

وفي البدء تنطرح بعض مشاكل تحقيق هوية الأفراد

تمييز الأسماء

عند الحديث عن حادث شهير من حياة مراد رايس يذكر بن نصار[1]:«لكن الأشخاص الذين يحملون اسم مراد رايس كانوا عديدين، ثلاثة في قائمة 1581: واحد ألباني الأصل والآخر فرنسي والآخر يوناني. كيف يمكن التحقق

1. B. et L. H. Bennassar, *Les Chrétiens…*, p. 385.

من هوية من تذكره وثائقنا باسم مراد رايس والذي كان يجتاح الشواطئ الاسبانية في 1588 و1598 و1600».

فعلا في أوج القرصنة، كانت أسماء مراد ومامي وسليمان ترد كثيرا. وبعضهم كان يحمل كنية أو لقبا الخ، مما يسمح بتعيين أصله أو تحديد خاصية فردية يمتاز بها. توضيحات أخرى قد تعطى في شهادات وبيانات وعقود مسجلة في الرسوم الشرعية والقنصلية. مثلا بن عبد الله كانت تضاف لأسماء العلوج مما يميزهم عادة عن أبناء المسلمين. وإذا كان الوالد المسلم يحمل اسم عبد الله فغالبا تضاف كلمة تحدد أصله (بن عبد الله التركي مثلا). وبصورة عامة كان الأهالي من المغارب تضاف إلى أسمائهم في الوثائق الجزائرية نسبتهم إلى مدينة أو منطقة معينة. أما عن الآخرين فغالبا ما ينسبون إلى وطنهم العام. لكن إذا تعلق الأمر بشخصية مشهورة فإن الوثائق تكتفي بذكر الاسم المعروف باعتبار أنه ليس في حاجة إلى تقديم. من المقصود مثلا عندما يذكر بئر مراد رايس (وقد صار الآن اسم ضاحية من ضواحي مدينة الجزائر) أو زنزانة مراد رايس أو سفينة مراد رايس أو دار مراد رايس؟ إن التحديد الزمني يساعد أحيانا على رفع الالتباس. ولكن هناك مشاكل التوقيت المضبوط المرتبطة بطبيعة الوثائق. مثلا في قوائم الأحباس قد يكون التاريخ الموضوع بإزاء الأملاك المحبسة والأشخاص المحبسين ليس هو تاريخ التحبيس ولا تاريخ تسجيل الحبس للمرة الأولى بل تاريخ النسخة الجديدة من قوائم التحبيس، وهو تاريخ بعيد جدا في بعض الأحيان عن تاريخ التحبيس. ولنضف مشكلة تشويه الأسماء في المصادر الأروبية بحيث يصعب أحيانا التحقق منها. فبتشنين مثلا يكتب پيزنين أوپيزيكسينوا أو بيشونلين الخ وعربجي يكتب اربسة، امباجي وما أشبه ذلك وكلمة خوجة كتبت في عدة صيغ منها أوجيس؛ وأغا، أوجي؛ اوجية الخ.

كل هذا يجعل بعض التسميات لا يمكن توضيحها والتحقق من هوية الرايس وأصله، الخ.

وهناك أيضا مشاكل توزيع الرياس على فترات معينة (فترة 1580 - 1649 وفترة 1650-1699) انطلاقا من تاريخ محدد ذكروا فيه. فمن الواضح أن بعض الرياس كانوا في تداخل فترتين. غير أن هذه الحالات النادرة لا تمنع من استخلاص الاتجاهات العامة والخصائص السائدة في عالم الرياس في كل فترة.

الصفة التمثيلية للقوائم

من بين 420 من أسماء الرياس المجموعة، 249 تخص فترة 1580-1649. أما النصف الثاني من القرن السابع عشر فيخصه 171. ويمكن اعتبار أرقام الفترتين أرقاما متناسبة إلى حد ما مع أهمية كل فترة. فبينما كان عدد السفن من 60 إلى 100 سفينة في الفترة الأولى ومتوسطها السنوي بين 60 و80 سفينة كان متوسط الفترة الثانية بما فيها من مد وجزر يقدر حسب تقلبات السنين بين ثلث أو نصف عدد سفن الفترة السابقة.

وينبغي مراعاة خصائص كل فترة. فبينما كانت الأولى في عصرها الذهبي تجتذب المغامرين من كل الآفاق وقد عرفت تطورا تقنيا جعل ارتيادها للمحيط الأطلسي مأمونا سهل التجدد والانتشار وكان هذا المحيط مليئا بالسفن القادمة بالسلع الثمينة من آسيا وأمريكا. أما النصف الثاني من القرن السابع عشر فهو أقل اجتذابا للقراصنة بالجزائر وكانت سفنهم أكثر انتظاما في عددها ونوعيتها. مع ذلك يبقى عدد القرصان الذين جمعنا أسماءهم في هذه الفترة ضعيفا نسبيا ولا يمثل إلا ما هو ظاهر من العدد الحقيقي الذي ما يزال مجهولا. فالقائمة المعنية ليست سوى بداية في طريق الدراسة المتعمقة لهذا الموضوع.

وباعتبار هذه التحفظات يمكن تقديم بعض الملاحظات.

الأصول الاجتماعية

كانت الأصول الاجتماعية للرياس في قرن القرصنة أكثر تنوعا مما يقال عادة عنهم. فقد كان بعضهم أبناء أو إخوة باشوات أو دايات (بكير رايس ابن باشا مراد، بيرم رايس أخو الباشا يوسف، محمد رايس ابن الداي الحاج محمد تريك؛ أخ الحاج حسين مزومرتو، الخ..) وآخرون كانوا أبناء، إخوة، أو أحفاد أميرالات. مثل الرايس ابن أخ القبطان أرنووط مامي، والرايس أخو مراد رايس، وابن القبطان عربجي، وابني القبطان رجب «باشا» وأخ القبطان كاناري وابن الكابودان باشا العثماني بكير باشا، فقد كان هذا الابن من رياس الجزائر، الخ.

وبعض الرياس كانوا من المتعلمين الذين لهم مستوى ثقافي يجعلهم يحملون لقب خوجة (عثمان خوجة، قارة خوجة، مصطفى خوجة، أحمد خوجة، محمد خوجة، الخ.)

وبعض الرياس العلوج مثل سيمون دانسر كانوا رياس سفن في بلادهم وكانت لهم شهادات رسمية تخولهم ممارسة القرصنة ضد أعداء وطنهم، قبل أن يلتحقوا بالجزائر أو بميناء مغاربي آخر. كما كان هناك من مارسوا القرصنة غير الرسمية لحسابهم الخاص واعتبروا من لصوص البحر قبل أن يأتوا باختيارهم إلى الجزائر. تلك كانت حال بعض القراصنة الإنكليز والهولنديين ويقال أن علي بتشنين كان من هذا الصنف. وكثيرهم ربابنة وتقنيوسفن وبحارة أسروا وجيء بهم إلى الجزائر حيث دفعتهم التهديدات أو الإغراءات إلى اعتناق الإسلام والانضمام إلى قراصنة الجزائر. إن القضايا التي طرحت أمام محاكم التفتيش وعرضها الزوجان بن نصار في كتابهما وكذلك أ. غنزاليس-ريمون في كتابها كانت تخص عددا كبيرا من هذا الصنف.

إن بعض الرياس كانت لهم مهن ثقافية في بلادهم. فمنهم مثلا رجال الدين المسيحيون الذين قدموا لمحاكم التفتيش بعد اعتناقهم الإسلام وانضمامهم إلى أسطول الجزائر. والقرصان الإنكليزي Mainwaring وهو محام متخرج من الجامعة وبعد أن مارس القرصنة عدة سنوات في الموانئ المغاربية رجع إلى وطنه ومنح رتبة النبالة وأصبح عضوا في البرلمان الإنكليزي.

وأحيانا تشير الألقاب والكنى إلى الحرفة التي مارسها الرايس من قبل أو إلى اسم حرفة ورثه عن أبيه بحيث صار هو اللقب العائلي في أسرته (عربجي، قلفاط، بربير بمعنى حلاق، هي ألقاب تشير إلى الأصل الاجتماعي لثلاثة من قباطنة وكبار الرياس في الجزائر، والقزاز هو لقب أسرة أندلسية كان فيها الأب واثنان من أبنائه واثنان من أحفاده من الرياس كما أن من أعضائها بعض العلماء وكبار التجار.

وفي هذه المهنة العويصة، مهنة القرصنة كان السلم الاجتماعي مفتوحا للجميع. فهناك أمثلة كثيرة تشبه حالة الرايس علي كولا (Alicola) الذي كان راعيا في ڤالونا وأصبح من أغنى الرياس في الجزائر. ويعتبر جيرار ڤون كريكن[1] أن حوالي 500 هولندي اعتنقوا الإسلام باختيارهم لأنهم كانوا يرون في ذلك فرصة للإثراء لا يجدونها في بلادهم.. وهو يذكر من بين رياس الجزائر من أصل هولندي في 1625 واحدا كان صانع براميل وآخر كان نشالا وآخر كان يدير ماخورا.

ومن بين النجاحات الباهرة التي تخص الأهالي هناك مثل القرصان الشهير الذي تدعوه المصادر الأروبية «Le grand Mauro الأهلي الكبير» وهو مزابي كان عاملا في تجارة الكروش وأصبح من أهم قادة الأسطول وكان له

---

1. Gérard van Krieken, *Corsaires et marchands. Les Relations entre Alger et les Pays-Bas, 1604-1830*, P., éd. Bouchène, 2002, p.139.

نفوذ شخصي قوي في قمة الدولة. وكذلك العربي رايس الذي أتى من جبال جرجرة وأصبح من أشهر الرياس في سنوات 1630.

عالم مختلف الأجناس

كل البحر المتوسط وتقريبا كل أروبا وجزء من آسيا ولاسيما آسيا الصغرى وكذلك بلاد المشرق العربي، كلها كان منها رياس في أسطول الجزائر. يجب نفي المزاعم التي تدعي أن كل قراصنة الجزائر كانوا من العلوج. فالواقع أنه في مجموع قرن القرصنة، تشمل قوائمنا 216 من الرياس الذين ينحدرون من أسر مسلمة. و 153 كانوا من العلوج ورايس واحد من أصل يهودي و50 لم نستطع تحديد أصلهم، أي أن 58 % كانوا أصلا مسلمين و42 % من العلوج. وحتى في أوج القرصنة كان 117 رايسا مسلمي الأصل و104 من العلوج أي بنسبة 53 % من المسلمين أصلا و47 % من العلوج. أما عن فترة 1650-1696 فمن بين 171 رايسا، كان 140 معروفي الأصل منهم منهم 99 مسلمون أصلا و50 علوج أي بنسبة ثلثين من المسلمين بالأصل وثلث من العلوج.

من غير شك أن هذه الأرقام مؤقتة يجب استكمالها وربما تصحيحها. لكن السؤال يظل مطروحا حول هذا الزعم المتكرر الذي عبر القرون ما يزال يردد إلى اليوم. أليس وراء ذلك نوع من الروح الأروبية المتمركزة حول نفسها. ومثل هذه العقلية هي التي تجعل من حسن بربير بن عمر التركي علجا برتغاليا ومن الأميرال إبراهيم كلغلي كناريا ومن الحاج حسين مزومرتو الذي هو تركي من مواليد استنبول علجا إيطاليا.

وهذه العقلية مشتركة بين اتجاهات أروبية مختلفة. فالرهبان المكلفون بافتداء الأسرى المسيحيين كانوا يبالغون في عدد العلوج وفي الظروف التي تدفعهم إلى اعتناق الإسلام حيث يصورونها بشكل فاجع بقصد الاستثارة واستجداء المال «لإنقاذ هذه الأرواح المشردة».

وعند الآخرين كانت عناصر معادية لتسلط الكنيسة تحاول أن تظهر أن المسيحيين يجتذبهم في هذه البلاد روح التسامح الديني والتعايش بين الأجناس المختلفة في حين كانت أوروبا في هذه الفترة تعيش الحروب الطائفية بين الكاثوليك والبروتستانت وآثارها المدمرة. وعند الكثير منهم كانت روح الاستعلاء الأوروبية تدفعهم إلى الزعم بأن قوة وانجازات ومآثر الأسطول الجزائري تعود إلى دور هؤلاء العلوج. وكما أشرنا إلى ذلك سابقا، تزايدت هذه المزاعم وتفاقم دورها في العهد الاستعماري. وما تزال تلوث جو البحث التاريخي لاسيما في حقل القرصنة ودور العلوج فيها.

ولنعد إلى قوائمنا. إن الرياس المسلمي الأصل كانوا في أغلبهم من الأتراك. وقد تزايد عددهم ابتداء من 1620 إذ كانت القرصنة في أوج ازدهارها تدر أرباحا طائلة على أصحابها ولهذا كان من الطبيعي أن يحتل أبناء الفئات المهيمنة المكان الأول فيها. وقد يعود ذلك أيضا إلى الانحسار النسبي للأسطول العثماني فكانت الجزائر تجتذب العناصر النشطة من هذه الأوساط. أما دور الرياس من الأهالي والأندلسيين فقد بقي متواضعا وهم يشكلون تقريبا ثلث الرياس المسلمي الأصلي في الفترة الأولى والربع في الفترة الثانية. لكن نقص المعلومات تجعل هذه النسب محل تساؤل فمثلا من المعروف أن عدد الأهالي والأندلسيين كان يتزايد بانتظام في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر ليصبح فيما بعد له الأغلبية.

إن التمييز بين الرياس حسب أصولهم يطرح مشاكل أخرى سنبحثها فيما بعد. ومن الملاحظ غياب الزنوج بين رياس الجزائر وإن كان بعض الرياس يدعى «النقريو» أو «ابن النقرو» لكن قد يكون اللقب في هذه الحالة يشير فقط إلى اللون الأسود ومن المعروف أن لقب «ابن النقرو» وتكتب في الوثائق العثمانية «ابن النيقرو» الذي يحمله أحد الرياس هو أيضا لقب أسرة علمية كبيرة كان

منها المفاتي والقضاة الخ. في العهد العثماني وحتى بعد 1830. يلاحظ أيضا شبه انعدام رياس من أصل يهودي. الحالة الوحيدة التي صادفناها هي ما يذكره هاييدو عن القايد محمد وهو من أصل يهودي ومن كبار الرياس في 1580. لكن اليهود كان لهم دور كبير سواء كانوا من الأهالي أو من الأروبيين، كأرباب سفن وتجار ووسطاء عالميين لبيع غنائم القرصنة وللتفاوض في فداء الأسرى، الخ.

أما العلوج من أصل أروبي فيمكن تقسيمهم على فئتين: أهل البحر المتوسط والشماليين. وكثرتهم النسبية مرتبطة بتطور الوضع الدولي. ففي الفترة 1580-1649، من بين 104 رايس من أصل أروبي، 70 كانوا من البحر المتوسط و34 شماليين أي أن أكثر من الثلثين كانوا من البحر المتوسط. أما في الفترة الثانية فإن أغلبية العلوج كانوا شماليين.

علاقات متشابكة

إن الكتابات الصراعية التي دشنها الرهبان المكلفون بمهام افتداء الأسرى واستمرت بأشكال مختلفة على يد رجال الدعاية الاستعمارية قد ساهمت في نشر جو من الصدام تستعمل فيه صيغ إدانة من جانب واحد.

صحيح أن المواجهات بين المسلمين والمسيحيين في القرون الماضية تشكل جزءا من الواقع لا يمكن إنكاره. لكنها لم تكن إلا جانبا من أمور متعددة الجوانب. إن حروب إيطاليا وأفظع منها الحروب التي خربت ألمانيا في القرن السابع عشر هي حروب بين الدول المسيحية. من جهة أخرى، فإن قرن القرصنة، مثل القرن السادس عشر عرف تحالفات بين دول إسلامية ومسيحية ضد دول إسلامية ومسيحية أخرى والأحداث التي نتعرض لها الآن تبين أنه حتى في نطاق الحرب كانت علاقات بشرية أخوية تنسج خيوطها بين الجانبين. إن صلات العلوج بوطنهم الأصلي هي جانب من هذا الوضع المتميز.

إن العقود المسجلة في قنصلية فرنسا بتونس[1] تقدم لنا حالات معبرة عن هذه الصلات. وهي عموما محررة بهذه الطريقة: رسم محرر في 4 أوت 1594، مراد فورصو، أوضباشي وهو علج اسمه الأصلي أنطونيو اورستانوني، أصله من منطقة لاروكا بكورسيكا، يعطي تفويضا لأخيه غيلهيمو لتلقي 80 إيكي ذهبي أقرضها لجيا جياكومو كورسيكي، ليفتدي نفسه من حاجي بالي رايس (I ص 63).

ونقدم باختصار بعض العقود:

1589: سليمان- علج حاجي بالي، يفوض ابن عمه في لاسيوتا للسهر على شئونه الخاصة (I، ص 19)

1598: ماتزي لوتشيزي من سفالو يسلم دارا لكاترينا فونتي أخت جاكوب فونتي الذي هو الآن علج باسم رضوان بن عبد الله، وذلك لتسديد ديونه نحو جاكوب فونتي (I ، ص 92)

1599: رمضان علج أصله من كاپرايا أعطى تفويضا لنيكول كولومبانو من كاپريا لاقتضاء ديون له على الناس في پاليرما (I، ص 102).

1603: رسم إيصال للقايد مراد جينوڤيزي بمبلغ 149 إيكي ذهب لافتداء أسير كورسيكي من رضوان باي بالجزائر. (II، ص 28)

1604: جيا كومو صنتو، كورسيكي، يعترف بأن عليه مبلغ 130 إيكي ذهب اسباني يسددها لڤالنتينو ألفونسو، كورسيكي من سيسكو، غائب ويمثله أخوه مامي بربيرو العلج (II، ص 44)

---

1. أنظر Pierre Granchamp, *La France en Tunisie*, 10 volumes, 1920-1929 إن هذا الباحث الفرنسي نشر نصوصا أو ملخصات هذه العقود في عشرة أجزاء وسنكتفي بإعطاء رقم الجزء والصفحة بين قوسين داخل النص. ومن المؤسف أن العقود المماثلة في قنصلية الجزائر فيما بين 1582 و1686 التهمتها النيران أثناء قنبلة الأسطول الفرنسي لمدينة الجزائر في 1688. ولم يبق منها سوى سجل واحد يخص سنوات 1579 - 1582 وقد قدم عنه عرضا وجيزا: Raoul Bousquet, « Les Origines du consulat de la nation française à Alger », *in Mémoires de l'IHP*, t. IV, 1927, p. 5-15. وفيه تقريبا نفس العقود التي نجدها في تونس وهي غالبا تتعلق بافتداء الأسرى المسيحيين وتذكر أسماء كثير من العلوج.

1610: شكوى من مراد، كورسيكي علج ومن أخيه رجب علج ضد كورسيكي افتدياه وكان عليه أن يسلم مبلغ الافتداء في كورسيكا إلى أمهما كنبرا وأختهما أنطونيا (II، ص 165-166) وهما يعطيان تفويضا لعمهما لوشيانو، من ڤيكو بكورسيكا للسهر على مصالحهما (II، ص 166-167)

1610: مراد باي، علج اسمه الأصلي ألنصو، كورسيكي من باستيا يعطي تفويضا لشخصين من باستيا للاهتمام بشئونه.

1610، مراد باي، علج اسمه الأصلي فرنكو دي جيليرمو، يدفع عن افتداء شخص كورسيكي بمبلغ 250 إيكي ذهب (II، ص 175)

1643: القايد حسن قورصو، علج ، يهب لأخته في كورسيكا 150 إيكي متأتية من سلعة أعطاها لصهره، زوج الأخت المذكورة (V، ص 198). إنها علاقة ثابتة بين القايد حسن قورصو وصهره المذكور فإن بدايتها يذكرها كتاب بن نصار[1] هكذا: «في 15 جويلية 1610 تم الاتفاق في عقد محرر بالإيطالية جاء فيه: إن فرنسيسكو دي بولو من قرية كاب- كورس (الرأس الكورسيكي) يطلب من حسن، علج كورسيكي أن يزوجه أخته بروفانسيا ووافق العلج وتعاهدا بأن أقسما اليمين على الكتاب المقدس. وأعطى حسن لأخته كمهر 300 إيكي ذهبي اسباني صرفت في افتداء فرنسيسكو». يذكر الكتاب أيضا حالة تعهد بالزواج بين باتستا بيزانو الصقلي وآغاتا رومانيولا من باليرما، بنت العلج مامي رايس. إن هذا المرشح بأن يكون صهر مامي رايس هو أحد عبيده أعتقه في مقابل أن يتعهد بالزواج من ابنته.

وقد تكتسي العلاقات مع الوطن الأصلي طابعا عدوانيا. مثلا كان ملاح كالابري سافر إلى تونس للانضمام للقراصنة والثأر من أحد الإقطاعيين

1. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens…*, p. 417.

النبلاء الذي اعتدى على شرف ابنته[1]. وكما يقول سلفاتوري بونو، كانت غارات القراصنة على الشواطئ والجزر الإيطالية في هذه السنوات كثيرا ما يقودها علج أصله من هذه النواحي. ويضيف بأنها كانت تكتسي طابع الصراع الطبقي ضد الفئات المهيمنة في هذه المناطق. وبالنسبة للعلوج من كورسيكا كانت هجماتهم أيضا مصوبة على الجنويين المسيطرين على بلادهم. ومن المعلوم أن الأسرة المرادية التي حكمت تونس حتى سنة 1702 كان مؤسسها من كورسيكا هو مراد قورصو باي تونس من 1613 إلى 1631. ويذكر توفيق بشروش[2] أن رجب قورصو باي محلة تونس «كان في نفس الوقت يساهم في اقتصاد القرصنة إلى جانب مسئولياته الحكومية كقائد للوحدات العسكرية المكلفة بجمع الضرائب في القطر وكان كذلك له تجارة خارجية ووكيله في مرسيليا هو أخوه رافائيل فرنسيسكو».

وفي مذكرة بعثها إلى ملك فرنسا في بداية القرن السابع عشر نشرها Pierre Granchamp (II، ص 388 - 396)، يتحدث ربان فرنسي عن تواطؤ سكان مرسيليا ومنطقة بروفانس مع القراصنة المغاربة وبالأخص الكورسيكيين الذين لهم إخوتهم وأقاربهم علوج في تونس ولهم نفوذ واسع ومراكز في الحكم ويضيف «لولا مساندة هؤلاء الأشخاص.. (في مرسيليا) لما نجا مراد رايس، أكبر قراصنة الأتراك من 14 قادسا مسيحيا كانت كامنة له». فعلا في نقاش حاد جرى في استنبول بين مراد رايس والسفير الفرنسي الذي اتهمه بأنه هاجم سفنا مرسيلية فأجابه مراد رايس بأنه كان دائما متعاطفا مع المرسيليين ولن ينسى أبدا أنهم ساعدوه في التخلص من الفخ الذي نصبه له الأسطول التوسكاني. وسنعود للموضوع.

---

1. S. Bono, *Les corsaires en Méditerranée…* , p. 159-162.

2. Tewfik Bachrouch, *Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVII^e siècle*, T., Publ.. Univ. T., 1984.

إن مرسيليا كقاعدة تجارية كانت لها مصلحة في ربط علاقات وثيقة مع قراصنة الموانئ المغاربية الذين كانوا يجدون ترحابا ومعاملة حسنة في عدة موانئ أروبية منافسة لمرسيليا في تصريف سلع غنائم القرصنة. وجاء في المذكرة أعلاه أن هناك شخصا من فلاندرة اسمه de Haüss ، متزوج في مرسيليا وهو علج مقيم في الجزائر ويهاجم السفن المسيحية المختلفة وإن كان لا يتعرض للسفن المرسيلية. ويظهر أن الشخص الذي تشير إليه المذكرة هو القرصان المشهور سيمون دانسر الذي كانت زوجته وأولاده في مرسيليا وكان يحافظ على صلات ودية مع الفرنسيين تحسبا للمستقبل حيث لم يطل به الوقت حتى انتقل من القرصنة في الجزائر إلى القرصنة في مرسيليا كما سنرى ذلك فيما بعد.

إن المرسيليين كانوا كلما سادت حالة السلم بين الجزائر وفرنسا يستأنفون علاقاتهم الودية مع الجزائر. يذكر دارڤيو أنه كان في الجزائر في جانفي 1676 عندما شاهد الرايس حسين مزومورتو والرايس مامي سمسون وهو علج أصله من مرسيليا، عائدين من مرسيليا إلى الجزائر: «وكانا قد خفرا سفينتين تجاريتين مرسيليتين راجعتين من سوريا ببضائع ثمينة. وتخوفا من القراصنة الاسبان، اتفق أصحاب السفينتين مع الرايسين الجزائريين على خفارتهما. واستقبل شيوخ بلدية مرسيليا القرصانين الجزائريين أحسن استقبال وزودوهما بما يحتاجان في عودتهما إلى الجزائر وبالخمر والمربات وأنواع الكحول المقطرة وغيرها»[1].

وفي هذه العلاقات مع الجزائر كان للكورسيكيين في مرسيليا دور مهم. فقد كان لهم شركاء في الجزائر وعنابة سواء من المسيحيين المقيمين في هذه الموانئ أو من العلوج من أصل كورسيكي. وكانوا وسطاء في افتداء الأسرى من

1. Arvieux d', *Mémoires*..., vol. V, p. 159

ضفتي البحر المتوسط. مثلا بفضل مساعي التاجر الكورسيكي المرسيلي لانش تم افتداء الرايس الجزائري محمد قاسم بـ 220 إيكي ذهب في نوفمبر 1597. وكانت بعض عمليات الافتداء تتم أحيانا بعقود ثلاثية يقوم فيها المرسيليون بدور الوسطاء ويتم عن طريقها تفادي أسرى في الجزائر وتونس وبالرما وجنوة ومالطة. إن المعطيات التي ذكرناها أعلاه كانت تخص مرسيليا والكورسيكيين. وهذا راجع إلى طبيعة المصدر نظرا للدور الكبير للكورسيكيين في تونس ومرسيليا. لكن سبر مصادر أخرى قد يسمح بجمع معطيات مماثلة عن مناطق أخرى وعن جوانب مختلفة من الوضع المتعدد الأبعاد الذي هو وضع العلوج في تلك الأيام.

وبهذا الصدد نلخص هنا بعض الأحداث:

- صايم رايس واسمه الأصلي فرنسيسكو ڤرديرا من ميورقة، أسر في 1599 وكان عمره 18 سنة ومات في معركة ڤالونا ضد البنادقة في 1638، كان يتراسل مع عمته في اسبانيا. وفي إحدى رسائله طلب منها أن توجه له كمية من الشواشي. وعند تقديمه غيابيا لمحاكم التفتيش، ذكر الشهود أنه كان «يعطف على الأسرى الذين هم من ميورقة في الجزائر ومعاملته لهم طيبة ولطيفة»[1].

- في نوفمبر 1623، وصل الرايس الجزائري الشهير من أصل هولندي مراد رايس واسمه الأصلي Yan Jansz بسفينيتن إلى ميناء Veere في هولندا للتزود بالمؤونة وإصلاح سفنه[2].

- مغامر[3] يدعي أنه سليل سيبيسون سيكالا لكنه في الواقع علج بوشناقي الأصل استقر في الجزائر كقرصان ثم ذهب إلى أوروبا حيث احتفي به كشخصية كبرى واستقبل داخل الحاشية الملكية الفرنسية بعد أن اعتنق المسيحية..

1. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens*…., p. 159-160
2. G. Van Krieken, *Corsaires*…, p. 36-37
3. H. de Grammont, Relations…, *RA*, 1879, p. 430.

- في 1662 كان الأميرال الهولندي دي رويتر مع أسطوله في مياه الجزائر. وقد استقبل على ظهر سفينته اثنين من كبار الرياس في الجزائر هما مراد رايس وسليمان رايس البفون وكلاهما من أصل هولندي. وذكر هذا الأميرال الهولندي أنه «يعتبرهما من أصدقائه وإن كانا من العلوج»[1].

- من هذه الأمثلة يبدو أن الموقف من العلوج كان يختلف من مكان لآخر سواء في بلادهم الأصلية أو غيرها. والمعروف أن البندقية مثلا في بعض الفترات وفي حالة الحرب مع البلاد التي يعمل فيها العلوج كانت تنفذ حكم الإعدام في كل الرياس المسلمين الذين هم من أصل أروبي الذين تأسرهم. وذلك كما يقول البنادقة بقصد إضعاف المستوى التقني للبحرية الإسلامية.

التماسك والوعي الجماعي

إن القوة التي تمثلها جماعة الرياس ليست في حاجة إلى إثبات. وهي تعود إلى أهميتهم الاقتصادية والاجتماعية في القرن السابع عشر. وتعود أيضا إلى تماسك هذه المجموعة وتضامنها لأن الصعوبات والأخطار التي تواجهها المهنة وكذلك الامتيازات والمكاسب التي تدرها تجعل أصحابها مترابطين يشد بعضهم بعضا.

في بعض الأحيان كانت الخصومات التي تنجم عن مشاكل مرتبطة بالقرصنة قد تؤدي إلى تحول في قمة السلطة. وانطلاقا من هذه الحالات صاغ دي غرامون نظريته التي تجعل من الصراع بين الرياس والانكشارية مفتاح كل التطور السياسي للجزائر العثمانية. ورغم الانتقادات الصائبة التي وجهت لها، ما تزال هذه النظرية تسيطر على أذهان مؤلفين يكتفون بالتقميش والصيغ المكررة. وليس هنا محل مناقشة مفصلة للفكرة. فنكتفي بالتذكير بأن الفترة الوحيدة التي يمكن أن توجد لهذه النظرية حالات تنطبق عليها جزئيا

1. G. Van Krieken, *Corsaires*..., p. 139.

هي سنوات 1580-1699. إن سنوات سيطرة بتشنين أو السنوات التي انتقلت فيها السلطة إلى أوائل الدايات الذين كانوا من الرياس قد تبدو للوهلة الأولى قابلة لتطبيق نظرية دي غرامون عليها. لكن عندما نحلل بالتفصيل الظروف التي تمت فيها هذه التغييرات السياسية تظهر الأمور في صورة أخرى.

وسنرى في الفصول القادمة كيف كانت تتكون شبكات التضامن والتحالف بين القوى المختلفة وآثارها الاجتماعية والسياسية في الفترة المعنية. وخلف هذا التنوع هل يمكن تحسس وعي جماعي متوطد وأكثر عمقا من مجرد الشعور العام بالانتماء إلى نفس الحرفة؟

من جهة كان الرياس يشكلون جماعة قوية لها مصالح مشتركة هامة ولها نمط حياة متماثل يجعلها تتقاسم بعض أنواع السلوك والمعتقدات، الخ. مثلا، يصف المؤلفون الأروبيون حالات كثيرة يظهر فيها بشكل قوي سلوك «الأغنياء الجدد» لدى الرياس. فعند رجوعهم من غزواتهم بغنائم كبيرة ينظمون حفلات صاخبة فيها كثير من التبذير والفخفخة. كما يصفون أشكالا عديدة من أنواع السحر وغيره من مظاهر التعلق بالخرافات. إن هؤلاء المقاتلين الأشداء كانت شجاعتهم كبيرة لكن أمام خطر الموت الماثل في كل لحظة في هذه الغزوات البحرية المرعبة، كانوا يعبرون عن جزعهم ويتصدون له في نفس الوقت بالتعزيمات وغيرها من التخاريف.

وكان مما يزيد من تماسك الجماعة أنها تحظى بكثير من التقدير والاحترام وينظر لها أحيانا كحاملة لواء الجهاد. كذلك تساعد على هذا الترابط ضرورات الدفاع الجماعي أمام ما يحدث من مشاكل دبلوماسية وغيرها نتيجة للقرصنة. فقد كان الرياس يعتبرون أنفسهم أداة للدفاع عن مصالح البلاد وللقيام بمهمة تتطلب تقنيات متطورة وتقدم للمجتمع إثراء معتبرا يعود قبل كل شيء على الرياس أنفسهم. هذه العناصر تساهم في

ارتفاع المستوى الاجتماعي للرياس وفي تشكيل تصورهم الايجابي لمهنتهم ولجماعتهم،

من جهة أخرى، لا يوجد في علمنا عند الرياس ما نجده عند العلماء والإنكشارية. إن العلماء كتبوا كثيرا عن النخبة الاجتماعية والثقافية التي يعتبرون أنفسهم بطبيعة الحال أهم أعضائها، أما الإنكشارية، فإن مثلهم ومشاعرهم، تعبر عنها القصائد والأغاني التي نشرها جون دوني السالف الذكر.

أما الرياس فليس لهم تعبير مكتوب مباشر عن تصوراتهم ونظرتهم لنفسهم. أما نظرة المجتمع لهم فتجد تعبيرها العملي عموما في الاحتفاء بالإنجازات والمآثر الكبرى التي يحرزونها. فهي إذن تتعلق بالقباطنة وكبار الرياس الذين سنتحدث عنهم في الفصلين التاليين.

الفصل الثاني عشر

كبار الرياس

1. مراد رايس وعلي بتشنين

إن اللمحات المقدمة هنا ترمي إلى عرض موجز لسير بعض كبار الرياس على اختلاف أصولهم ومشاربهم ومساراتهم. وهي أحيانا لمحات قصيرة جدا إما لأن بعض مظاهر ووقائع حياة الشخص المعني بحثت في غير هذا المكان أو لأن العناصر البيوغرافية الموثوقة غير متوفرة في المصادر المعتمدة. ومن المجموع يبرز شخصان لهما وزن كبير: مراد رايس وعلي بتشنين.

إنهما يمثلان نوعين مختلفين من الرياس. وكان مجموع سنوات نشاطيهما يغطي تقريبا كل فترة أوج القرصنة. فقد خاضا غمار القرصنة مدة عشرات من السنين وتجاوز كل منهما عمره 80 سنة. ويقال إن مراد رايس عاش أكثر من قرن.

وانطلاقا من مصادر ليست دائما في نفس المستوى وهي أحيانا متناقضة سنحاول أن نرسم أهم ملامح هذين الشخصين الاستثنائيين، معتمدين على العناصر الأكثر وثوقا في تاريخهما دون تجاهل بعض الشهادات المعاصرة التي يصعب التأكد من صحتها.

مراد رايس

إن ما يروى عادة من أن مراد رايس كان مسيحيا أسر في حداثة عمره واقتيد إلى الجزائر حيث اعتنق الإسلام هو أمر فيه نظر. إن هاييدو[1] يقول إن مراد رايس هو ألباني (أرنووط) مثل مصطفى أرنووط وأرنووط مامي. وحول هذا الأخير يذكر أنه في طفولته كان من بين من يؤخذون عادة لتقديمهم كجزية للسلطان. والمعروف فعلا أن ألبانيا التي كان ما يزال تقريبا نصف سكانها مسيحيين في منتصف القرن السادس عشر، كانت مثل بقية البلاد المسيحية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية تؤدي الدوشرمة (وهي أخذ عدد من الأطفال المسيحيين وتربيتهم تربية إسلامية وتعليمهم بطرق تهيؤهم لأن يكونوا من الإنكشارية ومن موظفي الإدارة العثمانية. وقد يكون مراد رايس نفسه عرف هذا الوضع على فرض أنه من أصل مسيحي.

إن دي بريف الذي عاش أكثر من عشرين سنة في استنبول كسفير للملك الفرنسي ويعرف بتجربته الطويلة الفرق بين الأصل الإثني والديني يقول إن مراد رايس تركي. وهو ما يقوله بعض المؤرخين الأتراك بينما يقول آخرون إنه من أصل يوناني[2].

أهمية الشخص

إن هاييدو أسره مراد رايس. وهو يسميه مراد الكبير تمييزا له عن الرياس الذين اسمهم مراد. ويتحدث بدون ضغينة عن عظمة هذا القرصان ويذكر « الدلائل الكثيرة على مهارته وقيمته وجسارته»[3] ويضيف: «لقد جربنا ذلك شخصيا في سنة 1578 حين وقع لنا الحادث الحزين».

1. Diego de Haëdo, *Histoire*..., p. 182 sq

2. انظر Türk Ansiklopedie, art. Murad Reïs

3. Haëdo, *Histoire*..., p. 183 et 205-206.

كان مراد رايس يتحلى بروح المبادرة مما يدفعه أحيانا إلى التصرف كقرصان مستقل حتى داخل أسطول رسمي مكلف بمهمة معينة. مثلا في سنة 1565 أثناء حصار مالطة ترك التشكيلة التي كان يقودها قارة علي وراح لاصطياد الغنائم في مياه إيطاليا. وحين أراد قارة علي معاقبته ترك العمل في تشكيلته وقاد سفينة هي ملك لبعض الخواص وذهب للقرصنة. وبعد سبعة أيام عاد إلى الجزائر مع ثلاثة غليوطات استولى عليها وفيها 140 مسيحي. وخلال حملة بحرية بقيادة علج علي تقدم على قائده لمهاجمة السفينة الأميرالية لمالطة واستولى عليها. وكان علج علي شديد الغضب على هذا الموقف الذي فيه تحد لقيادته ولكنه امتنع عن معاقبته. وهذه التجاوزات وقلة الانضباط لم تمنع بقاءه محميا من طرف قارة علي ثم علج علي. وفي 1586 بلغ مراد رايس أوج المجد حين عاد من حملته على جزيرة لنزاروت في أرخبيل الكناري (الجزر الخضراء وكان العرب يسمونها الجزر الخالدات). وحسب هاييدو[1] الذي هو المصدر الأساسي فيما سبق ذكره عن مراد رايس فقد «أنزل 250 من الجنود بالبنادق اكتسحوا الجزيرة واستولوا على أكثر من 300 شخص منهم أم وزوجة وبنت والي الجزيرة مع غنائم كبرى». أما المؤرخ الكناري Louis Alberto Anaya فإنه اعتمادا على الوثائق الرسمية الاسبانية بالجزيرة يحدد العدد بنحو 200 شخص أسروا. ثم وقع افتداء عائلة الوالي وبقية الأسرى في عين المكان كما هي العادة في مثل هذه الغزوات إذ يرفع القراصنة علم التفاوض وقد افتدي هؤلاء الأسرى لقاء مبالغ ضخمة.

والمعروف أن العديد من المصادر الأروبية تقول إن هذه هي أول حملة برباريسك تذهب بعيدا في المحيط الأطلسي. والواقع أنه مثلا في سنة 1569، انطلق قلفاط رايس مع 10 قوادس من سلا وهاجم الجزيرة واستولى على

1. ذكره بن نصار B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens*..., p. 261

نحو 200 شخص[1]. وقد رأينا فيما سبق أن سفن الجزائر كانت تهاجم السفن الاسبانية والبرتغالية في المحيط الأطلسي وكذلك شواطئ البلدين الواقعة على هذا المحيط.

إن الإنجازات المتكررة التي حققها مراد رايس هي التي أدت إلى انتشار سمعته كما يلاحظ ذلك مختلف المؤلفين المعاصرين. يقول السفير الفرنسي دي بريف الذي استقبله مراد رايس «بكثير من اللياقة»: «إن مراد رايس هذا هو قرصان تركي مسن ومن أشهر رياس السلطان العثماني، إذ زاول القرصنة مدة 60 عاما بكثير من النجاح ويمكنه أن يفتخر بأنه لا توجد دولة مسيحية لم يستول على قوادس لها»[2]. ويصف السفير زيارته لمراد رايس بهذه العبارات: «وجدناه في مؤخرة السفينة، ليس مثل الربابنة الأتراك ذوي الملابس الفخمة تحت خيمة من الدمقس ومحاطين بغلمان متدثرين في الحرير والمنسوجات المذهبة والفراء الثمينة بل كان يحيط به قراصنة محنكون كلهم حليقو الرأس والوجه عدا الشوارب، مظاهرهم تتلاءم مع مهنتهم. أما هو فكان يرتدي ملابس بسيطة مثل أي فلاح.. وكان المجدفون في سفينته أقوياء حالتهم جيدة وجنوده شجعان أقوياء، ولهم عزم صحيح»[3]. وكان حسب دي بريف، قصير القامة، عمره حوالي 80 سنة، وجهه عليه حبوب كثيرة وهو «جريء وشجاع إلى أقصى ما يمكن».

ويذكر هاييدو[4] حادثا له دلالة:

في 1589 خرج مع 4 غليوطات بصحبة أرنووط مامي وعلي مامي وغيرهم ورأوا أربع قوادس من أسطول البابا « أراد مراد أن يهاجمها لكن أرنووط

---

1. المصدر السابق

2. De Brèves, *Voyages*..., t. V, p. 323.

3. نفس المصدر، ص 324

4. Haëdo, *Histoire*..., p. 211 sq

مامي كان له رأي معاكس معتبرا أن القوادس كانت أقوى من الغليوطات وأحسن تزودا بالجنود. وليس غريبا أن القرصانين كان لهما رأي مختلف لأن مراد كانت له جسارة مجازفة وهو دائما مستعد لمواجهة الصعوبات بينما كان أرنووط حصيفا وحذرا؛ ولهذا السبب ذهب مراد لوحده مع غليوطاته، مليئا بالغضب ومشمئزا من رفاقه».وفي طريقه استولى على سفينة مسلحة بـ 30 مدفعا. وأخبرته سفينة فرنسية أن هناك قادسا من مالطة له 23 مقعد تجديف اسمه لاسيرينا كان يكمن في المياه المغاربية فاتجه مراد رايس نحوه واستولى عليه بعد قتال عنيف، ثم استولى على بريغنتين من 14 مقعد تجديف آتية من ميورقة. ودخل ميناء الجزائر بالسفن التي غنمها وألويتها مرفوعة، فأرسل له الباشا «حصانا وموكبا من الإنكشارية لمرافقته إلى دار الإمارة في أبهة كبيرة».

يقال إن أرنووط مامي كان يغار من إنجازاته وشهرته وأن الباشوات كانوا يستغلون هذا التنافس. لكن الاثنين كانا من المجموعة الضيقة المحيطة بقارة علي ثم بعلج علي. وقد ساهما في حملات مشتركة في مدة لا تقل عن ثلاثين سنة، أي أنهم كانوا من نفس العصبية ونفس الأصل الألباني ونفس المسار الطويل المشترك، وكل هذا بما يخلقه من تضامن لا يمنع طبعا وجود التنافس والتناقض في المصالح.

وحوالي 1595 عين مراد رايس قائدا عاما للأسطول الجزائري بعد ذهاب أرنووط مامي إلى استنبول وكان الأخير يشغل المنصب على الأقل منذ 1574.

إن الحملات العديدة التي خاضها مراد رايس جعلت منه كبير الثروة. وكان «حسب شهادة Jean Perez وهو بحار من لاس پالماس، (كان مراد رايس) «يملك 4 قوادس في سلا، منها اثنان بصدد الإنشاء، وله أسطول أكثر عددا

وأهمية في الجزائر»[1]. ويتساءل بن نصار عند وصف هذه الثروة هل هو نفس مراد رايس الذي تقول الوثائق الاسبانية أنه كان يهاجم شواطئ اسبانيا في 1588 و1598 و1600.

ويتحدث پيير دان[2] عن «مهارته وسرعة مبادرته» فيذكر أنه «في سنة 1598 كان الأسطول التوسكاني يحاصره في مياه مرسيليا واستطاع أن يتخلص من هذا الحصار رغم أنه كان من الواضح تماما أنه لا يمكن النجاة من هذا الفخ، لكنه مع ذلك تخلص منه بسرعة وخفة- إذ لجأ إلى تفكيك غرف مقدمة قوادسه وابتعد عن منطقة الحصار قبل أن يتعرف المحاصرون على سفنه». إن دوق توسكانيا الكبير أمر بقطع رأس الجنرال الذي فوت هذه الفرصة النادرة.

القرصان والدبلوماسية

في 1582، استولى مراد رايس على سفينتين فرنسيتين محملتين ببالات حرير من ليون. وعلى إثر شكاوى السفير الفرنسي في استنبول، أرسل باشا جديد إلى الجزائر وتكلف بإرجاع الأسرى والغنائم الفرنسية. وحسب المراسلات الدبلوماسية الفرنسية[3] «أن السلطان أمر بالقبض على هذا المدعو مراد وهو قرصان كبير وإرساله إلى الباب العالي مقيدا بالحديد». لكن بعد أربع سنوات كان الدبلوماسيون الفرنسيون في استنبول مازالوا يبذلون المساعي لاسترجاع نفس السلع المذكورة وأخرى أضيفت لها في هذه المدة حيث استولى قرصان الجزائر على ثلاث سفن فرنسية أخرى ونهبوا بعض السفن الأخرى. إن تعدياتهم حسب مراسلة أخرى للدبلوماسي الفرنسي «تتضاعف من يوم لآخر بدون أي احترام من هؤلاء القرصان لروابط الصداقة وللأوامر المعطاة لهم»[4].

1. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens*…, p. 385
2. P. Dan, *Histoire*…, P., 1649, p. 23
3. E. Charrière, *Négociations*…, t. IV, p. 123 et p. 459 sq
4. نفس المصدر

والحقيقة أن القرصان الفرنسيين كانوا هم كذلك يهاجمون السفن الجزائرية. أما الإنكليز فبعد المساعي التي بذلوها عند السلطان، رد عليهم علج علي القائد العام للأسطول العثماني بأن السفن الإنكليزية هي أيضا تعتدي على السفن العثمانية وهدد السفير الإنكليزي إذا لم يتوقف عن هذه الشكايات.

إن علج علي لم يكن فقط الحامي المنتفع لقرصان الجزائر كما تصوره المراسلات الدبلوماسية الفرنسية المذكورة بل كان رئيس «الحزب البحري» داخل الحكم العثماني، وهو حزب منبثق من التجربة المغاربية وبقي دائما مشتركا ومترابطا مع الإيالات المغاربية. وفي هذه السنوات كان الدبلوماسيون الفرنسيون ينسبون لعلج علي مشروع تكوين مغرب كبير موحد من الأطلسي إلى الحدود المصرية. وكان الفرنسيون يحاربون طبعا هذا المشروع في استنبول ويجدون السند والتشجيع عند أعضاء «الحزب البري» داخل الحكومة العثمانية.

فترة صراعات

إن غود فري فيشر خصص في كتابه السالف الذكر ملحقا عن «مراد رايس 1603-1606». وفيه يرسم لوحة جميلة عن هذا الرايس وعن هذه السنوات التي عرفت تفاقم النزاعات بين الفرنسيين والإيالات المغاربية. ومن الجهتين كانت المطاعن والتظلمات تتزايد. وكانت الدبلوماسية الفرنسية تعتقد خطأ أنه يمكنها فرض وجهة نظرها بواسطة تدخل الحكومة العثمانية.

كانت الشكاوى الفرنسية تتعلق بتدمير الباستيون وبقاء أسرى فرنسيين في الجزائر وتونس والاستمرار في مهاجمة السفن الفرنسية. ونجح السفير الفرنسي في إقناع السلطان العثماني بإرسال مندوب عثماني رسمي مكلف بمرافقة السفير الفرنسي في رحلته إلى تونس والجزائر للحصول على ترضية للمطالب الفرنسية. وعين سالنياك سفيرا في استنبول خلفا لدي بريف

والتقى مع مراد رايس عند الصدر الأعظم. وأجاب مراد رايس الذي كان يفهم الفرنسية على مطالب السفير نقطة بنقطة. فتدمير الباستيون قرره ديوان الحكم في الجزائر لأن الفرنسيين استعملوا هذه القاعدة التجارية لشراء كميات كبيرة من القمح مخالفين للمعاهدة التجارية وفي وقت كانت فيه الجزائر في حاجة كبيرة لهذه الحبوب نظرا للمجاعة السائدة في المدينة. أما الأسرى الفرنسيون في الجزائر فإن تحريرهم مرتبط بتحرير الأسرى الجزائريين في مرسيليا. وأضاف مراد رايس بأنه شخصيا كان دائما متعاطفا مع الفرنسيين لاسيما أهل مرسيليا الذين هم أصدقاء حقيقيون ساعدوه في النجاة من حصار الأسطول التوسكاني.

كان هذا النزاع يبدو ثانويا في نظر استنبول في الظروف الدولية القائمة. فقد سطر مشروع سري مهم باشتراك بين العثمانيين والفرنسيين لتزويد ثوار الأندلس المسلمين بالأسلحة والإطارات الكفؤة بما يكفي لانطلاق ثورة عامة ضد الاسبان. لكن الاسبان كانوا على علم بهذا المشروع ونجحوا في خنقه في المهد.

من جهة أخرى كان العثمانيون يواجهون صعوبات كبيرة (ثورات داخلية، حروب مدمرة في أروبا وفارس، صراع بين الكتل داخل الحكم، دسائس ورشوة في استنبول تساعد على نمو المناورات التي تحيكها الدول الغربية، الخ).

إن الوضع كان مختلفا في الجزائر وتونس حيث كانت أوامر استنبول تستقبل بكثير من التحفظ. وكانت الحكومة العثمانية تدرك هذه الظروف ولهذا كلفت مراد رايس بالسفر إلى الإيالات المغاربية لتسهيل مهمة مندوب السلطان والسفير الفرنسي. وعند الوصول إلى تونس، عقد مراد رايس على ظهر سفينته اجتماعا بين السفير دي بريف وقائد الإنكشارية في تونس. وأوضح هذا الأخير أنه سيطبق ما يقرره مراد رايس. لكن في تونس كان الغليان

والغضب في أوساط أهل القرار. ذلك أن الأضرار التي كانت تصيب تونس من جراء عمليات قرصان مالطة كانت تنسب للفرنسيين لأن فرسان مالطة وهم أهم القراصنة كانوا من أصل فرنسي في معظمهم. ولهذا لم يطلق سراح سوى بعض الأسرى الفرنسيين في تونس.

وفي الجزائر كان الجو أكثر توترا من تونس. واستعمل مراد رايس كل وزنه لمساندة دي بريف. ونجح في فرض نوع من النظام والهدوء على جمهور متهيج من الإنكشارية وفي إقناع الديوان الكبير بإطلاق سراح بضع عشرات من الأسرى الفرنسيين. لكن النزاع ظل قائما بسبب رفض الفرنسيين إطلاق سراح الأسرى الجزائريين الذين كانوا يستخدمونهم في التجديف في قوادسهم.

التحق مراد رايس بمنصبه كسنجقباي لشبه جزيرة مورة في صيف 1607. وفي طريقه نهب الشواطئ الإيطالية وحصل على بعض الغنائم من الفرنسيين. يقول سالينياك[1] «إن المكانة والسمعة اللتين يتمتع بهما هذا الرجل هنا (في استنبول) تسمحان له لو أراد أن يكون القائد العام للأسطول العثماني ولكنه يريد أن يموت قرصانا كما عاش».

معتبر كأنه ولي الله

وقد استقبله السلطان وألبسه قفطان الشرف كخلعة سنية، وعينه في 1608 على رأس الأسطول العثماني في الحملة المقررة لهذه السنة. واستمر سالينياك يشتكي من مراد رايس عند الصدر الأعظم وعند الكابودان باشا «الذين يعدون ولا يفعلون شيئا». ويضيف السفير الفرنسي عن مراد رايس أنه «يتمتع بنوع من السمعة هنا بحيث أنهم جميعا يعتقدون بأنهم لا يستطيعون القيام بأية عملية مثمرة في البحر بدونه»[2].

---

1. P. Biron, *Ambassade en Turquie de Jean de Gontant Biron, Baron de Salignac*, P., 1889, 2 vol ., t. II , p. 172.

2. نفس المصدر، ص 209 - 210.

وفي مراسلة لاحقة قال السفير بأن السلطان نفسه يعتقد اعتقادا جازما بأن مراد رايس «ليس فقط أفضل قائد بحري في العالم بل إنهم ينظرون إليه كولي يقدس»[1].

وفي رسالة مؤرخة في 13 نوفمبر 1609، أضاف في حاشية في آخر الرسالة هذه الكلمات: «سأصف لكم كيف جاء مراد رايس يقضي آخر أيامه في قبرص»[2]. وكان سالينياك قد تحدث في رسالة سابقة عن معركة بين العثمانيين وأسطول مالطة وقعت فيها كثير من القوادس ومن فرسان مالطة في أيدي العثمانيين. وقد جرح مراد رايس في هذه المعركة ونقل إلى قبرص للعلاج حيث توفي ودفن بناء على توصية منه في رودس حيث ما يزال ضريحه قائما. وهذه المعركة هي التي يسميها العثمانيون معركة قارة جهنم (الجحيم الأسود) وهو لقب أطلق على غليون مالطي كبير له 90 مدفعا. وقد وصف هامر[3] دور مراد رايس في هذه المعركة: «إن القبطان التركي الذي واجه طيلة يوم بأكمله نيران قارة جهنم ولم يستطع إطفاءها إلا بالتضحية بنفسه، هو الذي كان قرصانا جزائريا في السابق وعينه السلطان أحمد سنجقباي المورة، ومن العشرة سفن مالطية، ست سفن أخذت و500 مقاتل مسيحي أسروا من بينهم 25 من فرسان مالطة؛ و160 مدفعا و2000 بندقية استولى عليها المنتصرون».

إن هامر في هذا الوصف ينقل الخطوط الكبرى لما ورد عن المعركة في كتاب حاجي خليفة[4] الذي ينهي روايته لهذا الحادث الكبير بهذه الكلمات: مراد رايس كان غازيا وكان من أتقى وأصفى المؤمنين.

1. نفس المصدر ص 211.
2. نفس المصدر، ص 220.

3. Hammer- Purgstall, *Histoire de l'empire ottoman*, trad. fr. M. Dochez, P., 1844, t. II, p. 344.

4. حاجي خليفة، تحفة الكبار في أسفار البحار، القسطنطينية، المطبعة الأميرية، 1729، وترجمت أقسام منه إلى الإنكليزية بعنوان *The History of The Maritime Wars*, by James Michel, L., 1831.

لقد كان العثمانيون في زمانه ينظرون إليه بنوع من الإجلال ذي الطابع الديني التقديسي وذلك من غير شك لأنه كان متقشفا بسيطا في حياته وكان مولعا «بالجهاد ضد الكفار». إن احتقاره للترف وللذات الحكم كان شيئا استثنائيا بالمقارنة مع نمط حياة قصور استنبول والجزائر.

وعلى العكس من هذا المثال الخاص، يبرز علي بتشنين اللامبالي بالقواعد والتقاليد الدينية والذي يصفه بعضهم بالإلحاد. إنه كان مولعا بالإثراء وبالسلطة وكان حاد الذكاء، له كفاءة سياسية وقيادية نادرة وهو لا يقل عظمة بطريقته الخاصة.

علي بتشنين

في الوثائق العثمانية بالجزائر، يطلق اسم بتشنين (ويكتب أحيانا بتشين) على عدة أشخاص من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، وفيما يخص الفترة 1580-1645، لا يوجد شخص واحد باسم علي بتشنين بل اثنان أو ربما ثلاثة. لقد لاحظ ذلك پول ماسون. وكان دوڤو رغم بعض الالتباس في استنتاجاته قد نشر وترجم إلى الفرنسية عدة رسوم شرعية جزائرية تثبت هذا التمييز بين أشخاص مختلفين. لكن لم يكن لهما صدى واستمرت بعض الكتابات إلى الآن تخلط بين الأشخاص والفترات. ولهذا ينبغي الإلحاح على عناصر التوضيح التي أشرنا إليها بإيجاز في الجزء الأول.

القايد

إن أول شخص حمل اسم علي بتشنين بن عبد الله في الوثائق الرسمية الجزائرية كان من عتقاء خوجة بيري. وهو كورسيكي الأصل ويذكره هاييدو[1] كواحد من كبار القياد الأغنياء في إيالة الجزائر في 1581. وكان قايد عنابة

---

1. Haëdo, *Topographie*..., p. 70-71

في سنوات 1580 و1590. وفي نوفمبر 1583 اشترى[1] من باشا الجزائر حسن فنزيانو مجموع سوق البادستان الذي تم بناؤه في تلك الآونة. إن هذه السوق الكبرى المخصصة لبيع العبيد ومنتجات الترف كانت تشمل 36 حانوتا لكل منها مخزن وعلوي. وهذا يبين أهمية هذه السوق التي اشتراها القايد علي بتشنين بمبلغ 27 ألف دينار خمسيني.

وعندما كان قايد عنابة ارتبط بصداقة وثيقة مع لانش وكانت له معه علاقة تجارية وقد اشترى منه سلعا بقيمة 3000 إيكي بين 1590 و1593.

وفي رسم مقيد[2] في أوائل رجب 1007 / نهاية جانفي بداية فيفري 1599 ويخص تركة القايد علي بتشنين المتوفى قبل هذا التاريخ جاء فيه أنه أوصى بثلث ثروته لخمسة من عبيده الذين أعتقهم. وقد ورث الباقي أخته وأسرة خوجة بيري باعتبارها أسرة من أعتقه ولها الحق شرعيا في وراثة العبيد المعتقين.

التاجر

أما الشخص الثاني باسم علي بتشنين بن عبد الله فيظهر في وثائقنا بعد وفاة الأول. إنه يذكر لأول مرة في رسم يعود إلى السنة الهجرية 1008 وهو يوصف بأنه تاجر من عتقاء الحاج مصطفى بن قارة علي وأنه زوج نفيسة بنت التاجر الأندلسي الحاج منصور بن عمر. والرسم المذكور يتعلق بتركة الأخير الذي خلف ثروة لها قيمتها في ذلك الوقت.

وفي رسم تحبيس مؤرخ في 1622، وردت إشارات تبين أهمية هذا التاجر فهو موصوف بأنه المعظم المعتبر الخ وهي أوصاف تطلق عادة على الشخصيات ذات الأهمية. ومن العقارات التي حبسها علي بتشنين في هذا الرسم على زوجته نفسية وبنته فاطمة وعقب ابنته داره الكبرى الموصوفة بالشهيرة والمجاورة لدار

1. أرشيف الجزائر، الرصيد العثماني، علبة 23، رسم مؤرخ 10 ذي القعدة 991هـ/نوفمبر 1583.
2. أرشيف الجزائر، الرصيد العثماني، علبة 45.

الإمارة وكذلك فندق و17 حانوتا. إن فندق بتشنين هو من معالم المدينة الذي يشار إليه عند تعيين بعض المحلات فتوصف بأنها قريبة من فندق بتشنين، الخ. وهذا يظهر أهميته. وأهم من ذلك أن الرسم يشير إلى الجامع الذي كان بتشنين ينوي بناءه والذي يعين في الرسم من جملة المنتفعين بالحبس في حالة اندثار العقب.

القرصان

هل هذه الشخصية الهامة هي نفس شخصية القرصان الذي يحمل نفس الاسم؟ سؤال يصعب الجواب عليه. من جهة كان دوڤو على صواب حين لاحظ أن قائد عام الأسطول لا يقال عنه التاجر فلان. لكن بناء جامع كبير يحمل اسمه حتى اليوم مع تحبيس عقارات لها قيمة كبرى لهذا الجامع هي من نوع المبادرات التي تكاد تكون احتكارا لكبار رجال الدولة من باشوات وقباطنة وآغوات، الخ. إن العناصر المتوفرة غير كافية للقطع في هذه المسألة فلنتركها لأبحاث أخرى تحاول التعمق فيها. ذلك أن الشهادات الأروبية، على كثرتها، لا تفيد في رفع الالتباس. إنها تتناقض حول أصل علي بتشنين القرصان. فمن قائل إنه قدم إلى الجزائر بمحض اختياره بسفينة كان يمارس بها لصوصية البحر في الأدرياتيك، حسبما ذكره دي غرامون. أما ألكسندر دي غروت[1] فيعتبر أنه ربما كان من ميناء فلاسيينغ بهولندا. ويذهب فيشر[2] اعتمادا على بعض مصادر ذلك الوقت إلى أنه «من أب تركي وأم من الأهالي»[3]. وقد كان فعلا يحمل لقب شلبي وهو لقب لا يستعمل في الجزائر آنذاك إلا من طرف الأتراك ويطلق على رجال الثقافة وأبناء الأمراء، الخ.

---

1. H. de Grammont, Relations…, *RA*, 1879, p. 413.

2. Alexander H. de Groot, « Ottoman North Africa and the Dutch Republic in the Seventeenth and Eighteenth Centuries», *ROMM*, 1985, p. 131 sq

3. G. Fisher, *La Légende*…, p. 138.

ونجد نفس التناقضات حول مصاهراته. يقول نايت[1] إنه كان ختن مراد قورصو بينما يروي دارندا[2] قصة ابن لبتشنين من يونانية علجة مقيمة في عنابة وأراد بتشنين أن يجعل منها زوجة ثانية ولكن زوجته الأولى هددته بحل الزواج وأخذ ما جلبته معها وهو يزيد عن 100 الف دوقة ذهبية. فترك هذه الزوجة الثانية وأخذ ابنه منها حيث ربته الزوجة الأولى. ويضيف دارندا أن هذا الابن توفي في ثورة 1661 وأن الزوجة الأولى المذكورة كانت من أغنى الناس ومن وسط كبار الحكام.

إن رواية نايت يؤكدها رسم[3] شرعي يلقي الضوء كذلك على النفوذ الذي يذكر دارندا بأنه كان لهذه المرأة. إنه مؤرخ في سبتمبر 1678 ويتعلق ببيع دار خلفتها آمنة بنت مراد قورصو من غير وارث وكانت ورثتها من القبطان شلبي. إن هذا الرسم هو إذن دليل رسمي على أن القبطان شلبي بتشنين كان ختن الرايس مراد قورصو. ويقول دي غرامون في المقال أعلاه إن بتشنين كان صهر «ملك كوكو» دون أن يذكر المصدر الذي استقى منه معلوماته. لكن المصادر المعاصرة وهي شهادات مباشرة[4] تتحدث فقط عن التجاء بتشنين إلى بلاد القبائل أو عند ابن القاضي في كوكو دون إشارة إلى علاقة مصاهرة بينهما بل تذكر الطابع السياسي لهذا التحالف بين بتشنين وابن القاضي. فمما يعزى إلى بتشنين أنه كان يريد توطيد استقلال إيالة الجزائر عن استنبول والاعتماد على الأهالي في هذه المهمة.

---

1. F. Knight, *A Relation*..., p. 9-12.

2. E. d'Aranda, *Les Captifs*..., p. 242-243.

3. أرشيف الجزائر، الرصيد العثماني، علبة 23

4. أنظر جريدة *Gazette*, 15 juill. 1645 التي تكتفي بالقول بأن «شلبي المدعو علي بتشنين حاكم قاعدة الجزائر قد اضطر إلى الانسحاب إلى 40 فرسخا من هنا». والفرسخ lieue عند الفرنسيين في ذلك العهد هو حوالي 4كلم. أما L. Hérault في شهادته التي نشرها P. Boyer في مجلة *ROMM* سنة 1979، ص 29 - 74 فيتحدث عن لجوء بتشنين عند «ملك كوكو» دون ذكر المصاهرة.

ويقول دي غرامون[1] كذلك وتبعه سلفاتوري بونو وغيره بأنه من 1621 إلى 1645 كان بتشنين هو «القائد الأعلى لطائفة الرياس ولم يترك للحكام الرسميين طوال هذه المدة سوى ظل الحكم. وكان يدعى أميرال الجزائر الأكبر».

فلننظر ماذا تقول المصادر المعاصرة. حسب يوميات غراماي[2] كان بتشنين في 1619 أحد القراصنة في الجزائر وله معتقل للأسرى فيه 63 أسيرا. أما القنصل الفرنسي Chaix[3] فهو يذكره من بين القرصان الأغنياء في الجزائر في 1620 وأنه كان مع بعض أرباب السفن يعارض عقد معاهدة سلم مع الفرنسيين وكان من أعضاء هذه الجماعة المعارضة الرئيسيين قاسم آغة الإنكشارية وسليمان باي قبطان الجزائر «فقير لكنه مسن ومحترم» وإبراهيم عربجي ومحمد كرغلي وكورت شلبي. إن كون علي بتشنين هو من أعضاء هذه المجموعة يدل على مكانته وأهميته لكنه يأتي بعد القباطنة المذكورين. وحسب مراسلة للقنصل الفرنسي Blanchard[4] مؤرخة في 20 نوفمبر 1631، يقول هذا القنصل إنه ذهب إلى ديوان الجزائر للمطالبة باسترجاع السفن الفرنسية «وتقدم إلى الديوان بالمعارضة لمطالب القنصل محمد باي قبطان القوادس والقبطان عربجي والقبطان علي بتشنين الذي هو أيضا قبطان قوادس». وكما رأينا سابقا فإن لقب باي يحمله قبطان الجزائر أي الأميرال الأول. وإلى جانب القائد العام للأسطول أو الأميرال الأول، كان هنا مساعدان (أي في لغة عصرنا اليوم ما يدعى بالفرنسية vice –amiral أو الأميرال الثاني

1. H. de Grammont, *La course*…, p. 13

2. A.-H. Ben Mansour, *Alger*..., *op.cit.*

3. Lettre de Chaix du 20 juill. 1620, *RA*, 1879, p. 95 sq

4. نفس المصدر، ص 318.

و contre-amiral أو أميرال ثالث). إن أول مرة يذكر فيها بتشنين بوصفه «جنرال القوادس» في المصادر الفرنسية أي كقائد عام للأسطول الجزائري تعود إلى 6 ديسمبر 1637. وقد بقي في هذا المنصب إلى حين وفاته في جويلية 1645.

التطور السياسي

لتوضيح مدة وسعة سلطاته، ينبغي أولا تلخيص تطور الوضع السياسي في الجزائر.

في وسط عقد 1620، حدثت «ثورة سياسية» نزعت من الباشا سلطته في ميادين الإدارة المالية والشئون الخارجية. وصارت القرارات الأساسية التي لها طابع السيادة تتخذ من طرف مجلس عام للضباط والرياس وكبار المسئولين. إن هذا المجلس الذي يدعى «الديوان العام» أو «الديوان الكبير» كانت تسوده عدة تحزبات وقوى ضغط مصلحية. وفي هذه الحالة المتشوشة كانت أوضاع السلطة تتأرجح حسب الصراع بين الكتل.

مثلا في المفاوضات التي أدت إلى إبرام المعاهدة الفرنسية-الجزائرية في 1628، كانت الشخصية التي تحتل أولى الصفوف هو حمودة الدفتر دار وكان منصبه الرسمي هو دفتر دار (أول كتاب الديوان آنذاك وصار هذا المنصب يدعى مقاطعجي فيما بعد بينما أصبح الدفتر دار هو ثاني الكتاب لا أولهم). وكان حمودة خوجة يشغل هذا المنصب على الأقل منذ شهر مارس 1624 كما يثبته رسم شرعي[1] يعود إلى أواخر جمادى الأولى 1034 هـ وهو مذكور في المراسلات والتقارير الفرنسية من الجزائر بأنه المسئول الأول عن مالية الديوان.

---

1. أرشيف الجزائر، الرصيد العثماني علبة 10. وهو عقد بيع حانوتين بمخزنيهما وعلوييهما ملك حمودة خوجة بن مامي مسئول دفتر الإنكشارية.

إن المفاوض الفرنسي لعقد هذه الاتفاقيات الجزائرية-الفرنسية، سنسون نابولون يصفه بأنه هو «الحاكم المطلق» ويشرح سلطته هكذا: «إن سيدي حمودة هو الذي يسلم للإنكشارية أجرتهم وهو الذي يحكم الجزائر مع شخص آخر اسمه حسن برتقيز وهوزعيم أكبر كتلة سياسية في هذه المدينة. وهما بالإضافة إلى السلطات التي بأيديهما يتحكمان في أعضاء المجلس الذين يدينون لهم بالتبعية الكاملة»[1].

إن حمودة خوجة الدفتر دار سيحتفظ بمنصبه وثروته إلى سنة 1645. ولكنه لم يبق يحتل نفس السلطة التي كانت له في الماضي. وفي عهد تحكمه في الديوان بالطريقة التي يشرحها سنسون نابولون كان الباشا والآغة قائد الإنكشارية والقبطان قائد الأسطول، كان لكل منهم اختصاصاته ومسئولياته وكذلك اتساع نفوذه الذي يعتمد على مدى التأثير على أعضاء الديوان العام. هذا التأثير الذي هو العمدة والضمانة في التمتع بسلطة حقيقية. لكن الباشوات كانت مدة حكمهم لا تتجاوز ثلاث سنوات في الغالب. وكان منصب الآغة قائد الإنكشارية هو أيضا لا يدوم إلا مدة قصيرة. أما القبطان قائد الأسطول، ففيما عدا اختصاصاته في ميدانه الخاص كان نفوذه على أعضاء الديوان العام يخضع لعوامل ظرفية متعددة.

إن مراسلات القناصل والوكلاء التجاريين الفرنسيين بالجزائر تلقي الضوء على هذه الظروف المتموجة وإن كانت بعض مواقفهم تمليها مصالحهم الشخصية التي تدفعهم أحيانا إلى وصف الأوضاع حسب هواهم لا حسب الحالة الموضوعية، أي أنها ككل الشهادات يجب فحصها بإمعان قبل الأخذ بها أو رفضها.

---

1. رسالة بعثها نابولون إلى مسئولي مرسيليا في 15 أكتوبر 1628 ونشرت في *RA*, 1879, p. 225-226

في رسالة مؤرخة في 27 نوفمبر 1637 يشرح القنصل الفرنسي[1] أن من بين حكام الجزائر هناك أنصار للصلح مع الفرنسيين. لكن حمزة آغة وسيكالا وبتشنين ينصبون بعض العراقيل لأنهم يملكون كثيرا من العبيد الفرنسيين. أما الباشا فإنه «شخص لا يملك أية فضيلة ولا أية سلطة بينهم ولهذا فهو لا يعتمد عليه في شيء». وفي رسالة أخرى[2] في نفس السنة، يوصي القنصل الفرنسي بضرورة الاعتماد على حمزة آغة «لأنه كما تعلمون له سلطة كبيرة في الديوان». ونفس الرسالة تهاجم الوكيل التجاري الفرنسي في الجزائر لأن ما يدفعه حسب القنصل إلى الدعوة إلى الاعتماد على بتشنين هو أن هذا الأخير وعده بأن يدفع له ألف قرش اسباني[3].

الثروة والقوة

إن صعود بتشنين داخل الحكم لا يعود إلى عوامل سياسية فقط. إن هذا الرايس الكبير الذي لم يفتأ يستولي على غنائم ذات قيمة كبيرة تزيد في ثروته كان أيضا كما يقول مورغان[4] «أكبر تاجر عبيد أنتجته برباريا (الأقطار المغاربية) في تاريخها». فقد كان يستعمل بفعالية كبيرة ثروته وتحالفاته لتوسيع سلطاته كقائد عام للأسطول.

ففي سنوات 1630 حسب شهادة الأسير الإنكليزي فرنسيس نايت[5] كان بتشنين «شخصية كبرى، له إلى جانب عقاراته وغيرها من الثروات حوالي 800 عبد مسيحي». وفي إحدى الغزوات المثمرة، أخذ لنفسه من الغنيمة 60

---

1. المصدر السابق ومراسلات *Correspondance de Sourdis*, t.. II, p. 398 sq
2. نفس المصدر
3. نفس المصدر
4. Joseph Morgan, *A Complete History of the Piratical States of Barbary*, L., 1750, p. 654.
5. F. Knight, *A Relation…*, p. 9-10

ألف قرش اسباني. وأمام محاكم التفتيش الاسبانية «كان اسمه يرد كثيرا في الشهادات المقدمة بين 1630 و1647»[1]. كما جاء في كتاب بن نصار. ويلاحظ كذلك أن اسم بتشنين يرد بكثرة في عقود افتداء الأسرى المسجلة في القنصلية الفرنسية بتونس[2] بين 1632 و1645. والشهادات المذكورة أمام محاكم التفتيش تخص أسرى مسيحيين اعتنقوا الإسلام في معتقلات علي بتشنين وصاروا رياسا مثل مراد ومصطفى وحسن وصايم، الخ. إن هؤلاء الرياس التابعين لآل بتشنين هم أكثر من مجرد رفاق أو زبائن لمعتقهم وقائدهم. إنهم مثل أبنائه تربطهم به صلات الولاء المعروفة بين السيد وعتقائه. وكان بتشنين يزوجهم من نساء هن أيضا من مواليه وهن في الغالب من الأسيرات اللواتي أعتقهن بعد إسلامهن.

إن هذا القبطان الكفء كان يحسن اختيار رجال البحر الذين يدخلهم في زمرته. وكتاجر عبيد كانت حاسته الدقيقة البارعة ومهارته في اصطياد الأسرى من أوساط اجتماعية عالية لهم قدرة على دفع فدية غالية، كانت هذه الصفات تشبه ما يوصف به اليوم كبار المضاربين في البورصات العالمية. وكانت ثروته باختلاف الظروف الزمنية طبعا، يمكن مقارنتها نسبيا بثروة «أبطال» البزنس في عصرنا. إن دي غرامون[3] يلخص هذه الثروة بهذه العبارات: «كان له داران في منتهى الفخامة إحداهما في أعلى المدينة والأخرى قرب البحر. وقد بنى على نفقته الخاصة مسجدا جامعا كان مجاورا لمعتقلات عبيده وكان فيها ما يزيد على 500 عبد دون اعتبار من كانوا يجدفون في قوادسه ومن كانوا يقومون بالفلاحة في مزارعه».

---

1. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens*…, p. 386.

2. P. Granchamp, *La France en Tunisie*…, t.V (1631-1650) p. 30, 100, 124, 126, 154, 224 et 227.

3. H. de Grammont, Les Relations…, *RA*, 1879, p. 413.

إن هذه الفقرة التي كثيرا ما استشهد بها المؤلفون في عصرنا تجسد على طريقتها خصال وعيوب دي غرامون كمؤرخ. فهو يحسن الوصف ويكثر من التعميم لكن لتثبيت موقف ما يخلط بين المعطيات الصحيحة وأخرى جزئية أو محرفة شيئا ما أو مبالغ فيها. أما «الدار قرب البحر» فهي مأخوذة من الوثائق التي نشرها دوڤو كما رأينا وهي دار كان يملكها التاجر علي بتشنين. فهل يمكن اعتبار التاجر والقبطان شخصا واحدا دون بحث متعمق؟ وأما الدار في أعلى المدينة فقد نقل دي غرامون ما قاله دارندا الذي يوضح أن هذه الدار قد شرع في بنائها. وفي نص آخر[1] يزايد دي غرامون في وصفه: «كانت ثرواته طائلة. ورغم الخسائر الكبرى التي تكبدها في ڤالونة حيث فقد 8 قوادس وأكثر من ألفي عبد، فقد كان يملك شخصيا 3000 عبد موزعين على ممتلكاته الواسعة دون اعتبار 400 أو 500 عبد احتفظ بهم في مدينة الجزائر». في ڤالونة كان أسطول الجزائر هو الذي تكبد خسائر كبيرة ولم يكن بتشنين يملكه شخصيا كذلك كان عدد العبيد ملك بتشنين لا يقدر بالآلاف كما يقول دي غرامون. مع ذلك فاللوحة العامة التي يقدمها هذا المؤلف صحيحة في مجملها وإن كانت فيها أخطاء في الجزئيات. ويمكن أن نقول نفس الشيء عن شهادات بعض المؤلفين المعاصرين لبتشنين مثل نايت ودارندا وهيرووفور، الخ. فهم ينقلون أحيانا بعض الإشاعات الرائجة دون التحقق منها وإن كانت الصورة العامة التي يرسمونها عن بتشنين وعصره فيها كثير من التماسك والمصداقية.

إن القبطان بتشنين كان يعيش حياة كبار الأمراء. 20 امرأة و40 غلاما كانوا يخدمون في قصره. ولتسوية بعض التضاريس في الأراضي المحيطة بمنزله الريفي وجنانه، أرسل 400 من عبيده ليعملوا في هذه التسوية. وكان آخرون من هؤلاء العبيد يقطعون الأشجار في الغابات القريبة وينقلون الأخشاب لبناء السفن التي كان عبيده يجدفون فيها أيضا.

---

1. H. de Grammont, *La Course*..., p. 13-14

كان واحد من هؤلاء العبيد اسمه Gregorio Trujol نجارا في حرفته الأصلية وكان يشرف على صنع قادس جديد. «واعتنق الإسلام يوم انتهائه من صنع قادس له 25 مقعدا. وعينه بتشنين رايسا لهذا القادس»[1].

كان بتشنين شكوكيا ولا مباليا من الناحية الدينية. لكنه كان يستخدم كل وسائل الضغط لإجبار الأسرى الذين لهم كفاءات تهمه على اعتناق الإسلام وشغل مهام تتلاءم مع كفاءتهم. أما غيرهم فقد يستعمل السوط ضدهم لمنعهم من الدخول في الإسلام. أما هو فقد كان كما يقول دارندا[2]«ليس له إله ولا دين غير مصلحته» لكنه « كان صادق الوعد لا ينكث أبدا كلمته». وكان له في معتقلاته الخاصة بالعبيد عدة حانات. وكانت هذه الحانات، كما يقول دارندا[3] «باستمرار مثل حفلات فلاندرة تحدث فيها ألف شناعة بسبب كثرة الإدمان على الخمر».

طبيعة سلطته

إن هذا الرجل «المهذب والنبيه إلى أقصى الحدود»[4] كان يستخدم ذكاءه الحاد سواء في توسيع ثروته أو في توطيد سلطته. وحسب شهادات فرنسية متعددة[5]، كان يحكم الجزائر في السنتين الأخيرتين من عمره. وهذا أمر

1. Bennassar, Les Chrétiens…, p. 388
2. D'Aranda, Les Captifs…, p. 158
3. نفس المصدر، ص 42
4. نفس المصدر، ص 183.
5. انظر جريدة Gazette, 1645 في ص 618 التي تصفه بأنه حاكم قاعدة الجزائر؛ وموثق القنصلية الفرنسية بالجزائر الذي يذكر في نوفمبر 1645 أنه «رئيس وحاكم الجزائر» ورسالته منشورة في *RA*, 1891 ص 97 - 108 و L. Hérault المذكور سابقا الذي يصفه في ص 40 بأنه حاكم الجزائر و François Faure في *Le Véritable récit* الذي يقول بأن بتشنين يتصرف كما يشاء مطلقا في الجزائر وكانت شهادته كذلك في 1645 مثل شهادة E. d'Egreville في كتابه المنشور في نفس السنة بعنوان *La Vive foi*…, والذي يقول أيضا في ص 41 ما قاله الآخرون حول بتشنين.

تؤكده رسالة بعثها بتشنين إلى لويس هيرو في ديسمبر 1644 وكانت تحمل هذا الإمضاء: «علي بتشنين حاكم وقبطان عام البحر والبر في الجزائر». وإن كان في ترجمة هذه الرسالة إلى الفرنسية بعض التشويهات المعتادة في الترجمات الفرنسية بذلك العصر. لكن الأمر الذي يمكن اعتماده هنا، هو أن شهودا متعددين ومستقلين بعضهم عن بعض يتحدثون جميعا بأن بتشنين كان يحكم الجزائر كما يذكرون في نفس الوقت أن الباشا كان في منصبه والآغة كان على رأس الجيش،الخ. يبدو إذن أنه داخل هذا الثلاثي في قمة السلطة كان بتشنين يحظى بسلطة أكبر من غيره من المسئولين وهي كما رأينا فيما سبق سلطة تصعد وتهبط درجاتها حسب تقلبات الأوضاع وتغيير ميزان القوى بين التكتلات المتنافسة على الحكم.

الرجل وعصره

إن هذا السياسي المحنك والأريب ورجل الأعمال الاستثنائي كان أيضا قرصانا فذا. قد استمر في قيادة عمليات القرصنة إلى أواخر حياته. وكان لا يخاطر بسفنه ورجاله في حملات غير مضمونة بل يسعى إلى كسب الغنائم دون خوض المعارك إلا للضرورة القصوى. إنه بكلمة، كان متكيفا تماما مع الاتجاهات الجديدة لسياسة الجزائر البحرية وقد ساهم كثيرا في تطويرها وهي اتجاهات محورها الغنيمة لا الحرب السياسية.

وكانت له خاصية نادرة بدون شك في عصره وقد جلبت انتباه المؤلفين من معاصريه. وهي لا دينيته التي يصفها دارندا في صفحات متعددة من كتابه المذكور ويذكر كيف كان يجيب ضاحكا رجال الدين المسيحيين بأنه لا يخاف عواقب يوم القيامة وأن الجنة التي يطلبها هي الجنة في هذه الأرض أما الأخرى فيتركها لهم. وهذا الموقف الذي كان بتشنين يظهره علنا أدهش كذلك الراهب الفرنسي الذي أرسل إلى الجزائر لافتداء الأسرى وعرف بتشنين

عن قرب وخصص له صفحات من كتابه. وحول موقفه من الدين كتب هيرو فقرة طويلة نقتطف منها هذه السطور: «لم يكن يؤمن بأية شريعة، لا شريعة النصارى ولا شريعة المسلمين ولا اليهود، ويقول أحيانا إن الله في عليائه، وهو هنا في الأرض... ولم يكن أبدا يصلي أو يدعو الله ولا يذهب أبدا إلى المسجد ولا يصوم رمضان الذي يحافظ كل الأتراك والأهالي على القيام به ومراعاته بكل تدين وبكل صرامة... ولم يكن أبدا يؤمن بمرابطيهم وعلمائهم بل يسخر منهم ويستمر في قضاء شئونه يوم الجمعة بينما كانت كل المدينة تذهب إلى المساجد. باختصار إنه كان يعيش مثل الملحد.».[1]

إن بتشنين كان شخصية أثارت إعجاب كثير من الأروبيين الذي تعاملوا معه وهم يجمعون على ذكر خصاله التي يوجزها الأب لويس هيرو هكذا: «كان عقلا كبيرا موهوبا بكثير من الحصافة، كريما جدا وشجاعا إلى أقصى ما يمكن، وسياسيا إلى درجة عالية فوق ما يمكن أن يبلغه هؤلاء البرابرة»[2].

وكانت عيوبه أيضا عيوبا مشتركة بين هؤلاء الناس المولعين بالسلطة والثروة في عصره (الجشع وخرق كل المثل والمبادئ من أجل الوصول للحكم والاحتفاظ به، الخ) لكنه كان يمتاز عنهم برفض الديماغوجية والنفاق والرياء في الدين وبتسامحه الكبير إزاء معتقدات وآراء غيره ولو كانت مخالفة له. إن إعلانه عن عدم اكتراثه بالدين الذي أدهش دارندا وغيره من المعاصرين وبالأخص رجال الدين الفرنسيين، هو علامة على قوة شخصيته وعلى تفتحه الذهني بشكل استثنائي في ذلك العصر.

---

1. Louis Hérault, *Les Victoires de la Charité*..., p. 33

2. نفس المصدر

الفصل الثالث عشر

كبار الرياس:
2. عناصر بيوغرافية

نظرا للندرة والثغرات الوثائقية، اقتصرنا على اختيار عناصر محدودة من سير كبار الرياس. ومقصدنا أن نبين فقط التنوع الكبير الذي كانت تصطبغ به نخبة البحرية الجزائرية في «قرن القرصنة».

مامي أرنووط

غالبا ما يكتب في الوثائق أرنووط مامي كما سبق لنا ذلك. إن العناصر المعروفة من حياة هذا القبطان مقتبسة من كتاب هاييدو[1] بالأخص. وكانت كثير من فصول حياته مرتبطة بحلقات من دور مراد رايس الأرناووطي مثله وقد كبرا معا وتدرجا في مناصب الأسطول الجزائري برعاية وحماية قارة علي وكانا من مواليه وأهل بيته وأصبحا من رياس البحر في الجزائر منذ بداية عقد 1560. وكانا يشتركان في كثير من الغزوات والحملات البحرية وكذلك في عمليات الأسطول العثماني الكبرى. وحسب هاييدو كان مامي أرنووط قائد الأسطول الجزائري في 1573 ونحاه عرب أحمد باشا وعين بدله مراد رايس ثم أرجعه السلطان إلى منصبه في 1574. والشيء الأكيد أنه في 1574 صدر أمر من السلطان العثماني بتعيين مامي أرنووط قبطانا لأسطول الجزائر[2].

---

1. Haëdo, *Histoire*..., p. 205 sq

2. أ. ج.،ر.ع.، د. م رقم 24، ص 82، مارس 1574

إن مبعوث الملك الفرنسي شارل التاسع، M. de Ménillon[1] يؤكد جزئيا على الأقل رواية هاييدو. فهو يخبر الملك الفرنسي في رسالته بأن باشا الجزائر عرب أحمد أراد أن يفك أسر الفرنسيين بالجزائر لكن القراصنة وعلى رأسهم مامي أرنووط ثاروا ضده وعارضوا قراره عن الأسرى الفرنسيين وأجبروه على إرجاع مامي أرنووط إلى منصبه كقائد عام للأسطول. وكان وفد أرسل إلى اسطنبول قد نجح في الحصول على عزل عرب أحمد باشا واستبداله برمضان باشا. ومما جاء في رواية هاييدو أن مامي أرنووط تقلد حكم الجزائر. وهذا ما ينفيه دي غرامون[2] الذي يعتبر أن مامي مارس الحكم بالوكالة فقط عندما رفض الجزائريون استقبال الباشا الجديد رمضان.

وليس صحيحا ما يذكره هاييدو من أن مامي أرنووط تولى الحكم من شهر ماي 1583 إلى جويلية 1586. فالوثائق العثمانية التي يذكر سميح إلتر[3] فقرات منها تبين بصورة قاطعة أن باشا الجزائر في 1583 هو حسن ڤنزيانو الذي خلفه في 1585 محمد باشا. وكما يلاحظه إلتر كان اسم مامي هو كنوع من التصغير لاسم محمد عند الأتراك. فمامي المذكور في قائمة بايلربايات الجزائر[4] بأنه كان باشا في 1585/993 هو نفس محمد باشا صاقزلي.

إن دي غرامون كان مصيبا. فلم يتول مامي أرنووط الحكم على فرض وقوع ذلك إلا بالوكالة بصورة مؤقتة في انتظار وصول الباشا الجديد.

وهناك نقطة ثانية تتعلق بتاريخ مغادرة مامي أرنووط للجزائر بصورة نهائية. فهاييدو يذكر سنة 1592. لكن مراسلة التاجر الفرنسي الكبير لانش[5]

---

1. E. Charrière, *Négociations*…, t. III, p. 533, l. du 10 mars 1574

2. H. de Grammont, *Histoire*…, p. 205.

3. A. S. Ilter, *Şimali Africada*…, I, p. 177-178

4. م و ب، مخطوط تركي رقم 514. وقائمة الباشوات في الجزائر مدرجة في آخر صفحات المخطوط.

5. P. Girard, *Les Lenche*…, p. 98-99 et P. Masson, *Les Compagnies*…, p. 102

الذي كان مديرا بالباستيون تتحدث عن حجز سفينة فرنسية في عرض البحر من طرف مامي رايس لأنها قامت بعملية تهريب في سنة 1595 في منطقة عنابة.

إن مامي رايس هو من الأسماء التي يحملها بعض الرياس. لكن لا يمكن حجز سفينة بهذا الشكل إلا من طرف قائد الأسطول. والمعروف أنه عند سفر مامي أرنووط فإن مراد رايس هو الذي خلفه في قيادة الأسطول. مهما يكن الأمر فهذه قضية مفتوحة للبحث. أما المؤكد فهو أنه في أوائل 1596 كان مراد رايس هو قائد الأسطول. ففي رسالة [1] إلى دوق تسكانيا الكبير بتاريخ 16 فيفري 1596 كان الإمضاء هو: «مراد باي القبطان العام برا وبحرا لمملكة الجزائر».

لقد قضى مامي أرنووط أكثر من عشرين سنة على رأس أسطول الجزائر. وهذه المدة الطويلة في المنصب تعود إلى الخصال التي ينسبها له هاييدو «حصيف وحذر».

جعفر جنويز

رغم المدة الطويلة التي قضاها في أسطول الجزائر لم يترك آثارا كثيرة. قد يكون هو جعفر رايس الذي بعث السلطان العثماني بشأنه أمرا[2] إلى الباشا حسن بن خير الدين يأمره بترقيته كرايس من درجة أعلى في سنة 1557. ويذكره هاييدو[3] كرايس يقود قادسا في 1578 وفي 1581. ويعتبره دان[4] من أكبر وأشهر القرصان. كان المساعد الرئيسي لمراد رايس حينما كان قائدا

1. F. Braudel, *La Méditerranée…*, t .II, p. 201.

2. أ. ج؛ ر. ع، د. م، رقم 2، أمر رقم 2069، ص 231، بتاريخ 21 جمادى الأولى 964.

3. Haëdo, De la captivité…, *RA*, 1895, p. 249 et Topographie…, p. 100

4. P. Dan, *Les Corsaires…*, p. 373.

عاما للأسطول الجزائري. وعند التقاء دي بريف[1] مع مراد رايس كان جعفر جنويز إلى جانب مراد رايس في 1606. إن الإنجاز الذي أعطاه شهرة كبيرة عند العثمانيين هو صراعه مع سفينة اسبانية قوية استولى عليها وكانت تحمل ابن نائب الملك الاسباني في صقلية وهو من أقارب ملك اسبانيا ومعه حوالي 500 جندي اسباني، حسب المؤرخ العثماني نعيمة[2]. وقدم جعفر رايس جنويز بغنيمته إلى استنبول حيث استقبل بحفاوة كبرى. وكان هذا الإنجاز قبيل معركة قارة جهنم بقليل. ويبدو أن جعفر جنويز استقر بعد ذلك في استنبول وبقي نشاطه البحري مقصورا على القسم الشرقي من البحر المتوسط.

مصطفى أرنووط

هو ثالث شخصية من الجماعة الألبانية مع مامي أرنووط ومراد رايس. ويصفه هاييدو[3] بأنه «قرصان جزائري شهير، ورجل ذو بأس ونفوذ وهو متزوج مع إحدى أقارب القبطان أرنووط مامي». ويحكي هاييدو[4] قصة تبين جوانب من حياة هؤلاء الرجال الذين تقرب بينهم مغامرات البحر وتظهر كيف كانوا يتعاملون فيما بينهم في ظروف الأسر في ضفتي البحر المتوسط.

وقع مصطفى أرنووط في الأسر بعد معركة مع قوادس ناپولي واعتقل في حصن كاستل نوڤو. وفي 1591 نجح في الفرار من الحصن مع 13 من رياس الجزائر وبنزرت الذين أسروا في أزمنة مختلفة. وكان من بينهم رايسان معتبران مثل مصطفى أرنووط كأشخاص خطرين ومهمين يجب التحفظ

1. De Brèves, *Voyage*…, p. 323 sq

2. انظر الترجمة الإنكليزية لكتاب نعيمة Naïma, *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659*, L., 1832, vol. I, p. 390 sq

3. Haëdo, *Histoire*…, p. 218 sq

4. نفس المصدر

عليهما داخل الحصن. وبمناسبة عيد الفطر لسنة 1591، طلب هؤلاء الرياس الثلاثة من قائد الحصن أن يسمح لهم بالاحتفال بالعيد مع زملائهم الأسرى المسلمين. وكان هؤلاء الأسرى مستخدمين في ورشات المعتقل في أشغال مختلفة فأخذوا خفية مبارد وفؤوسا وحبالا وسلموها للأسرى الثلاثة المعتقلين في الحصن. وقام هؤلاء ببرد الشبكة الحديدية لنوافذ الحصن وعلقوا بها الحبال ونزلوا ثم فتحوا مع بقية زملائهم فجوة في سور المعتقل الذي كان يفصلهم عن البحر واستولوا على فرقاطة كانت راسية في الميناء وغير مستعملة، كان نائب الملك الاسباني في نابولي يركبها عادة في جولاته في البحر. وبعد مدة من الإبحار وصلوا جزيرة لوستيكا حيث استولوا على سبعة من صيادي البحر ثم استمروا في طريقهم إلى بنزرت حيث وصلوها سالمين. ويضيف هايدو أن إدارة نابولي بحثت بكل وسائل الاستكشاف عن التواطؤ الذي ساعدهم في هذا الفرار لكنها لم تصل إلى نتيجة. فعلا كان في الغالب نوع من التواطؤ والمشاركة للمساعدة على عمليات الفرار التي كان بعضها ينجح في ضفتي المتوسط على السواء.

إن هذا العالم من رجال البحر والمغامرات وما لديهم من الجرأة وما يربطونه من صلات متعددة تتجاوز الأديان والأوطان والأجناس كانت تنمو بينهم علاقات تساعد على تبادل الخدمات بروح لا تخلو من الأخوة الإنسانية.

دانسر والقرصنة - لصوصية

في العقد الأول من القرن السابع عشر، التحق بالجزائر والموانئ المغاربية قرصان إنكليز وهولنديون بدوافع متعددة. وكان فوج منهم يعتبر من القرصان-اللصوص على الأقل بمعنى أن بلادهم الأصلية لم تكن تنظر إليهم كقرصان بل كلصوص بحر خارجين عن القانون.

إن مغامرة سيمون سيمونسن، المدعو دانسر (الراقص) تلخص بشكل ما خصائص هذا الفوج. في 1606 حصل سيمون دانسر[1] من ولاية زيلندة على ترخيص رسمي بالقرصنة ضد الاسبان. وضد هذا العدو المشترك وجد في الجزائر مساعدة وتعاونا. ومع أنه احتفظ بديانته المسيحية فقد استقر بسفينته ورجاله في الجزائر وصار من أهم قراصنتها. ويصف القنصل الإنكليزي بالجزائر في مراسلة[2] له بتاريخ جانفي 1609 وصول سفينة دانسر الضخمة إلى الجزائر مع رجاله من الأتراك والإنكليز والهولنديين ويذكر أنه على رأس الأسطول الجزائري قد كان أنجز في السابق الاستيلاء على 30 سفينة.

وفي نفس السنة ذهب دانسر إلى مرسيليا حيث كانت تقيم زوجته وأصبح في خدمة هذه المدينة مقابل مبالغ ضخمة قدمت له.

هكذا في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات استطاع هذا القرصان-اللصوصي-المرتزق أن يخدم ثلاث دول ذات ديانات مختلفة دون أن يغير شيئا من معتقده الديني.

ومثل دانسر كان بعض القراصنة الإنكليز والهولنديين يعملون في الموانئ المغاربية دون تغيير دينهم. وقد بدأوا يعملون كقراصنة في ميناء المعمورة على الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى. وكانت قرصنتهم الخاصة موجهة ضد اسبانيا عدو بلادهم. وطردهم الاسبان من هذه القاعدة في 1614 فالتحقوا بسلا والجزائر وبنزرت وتونس وطرابلس الغرب. وكان ينظر إليهم حتى من طرف بلادهم الأصلية كلصوص البحر. لكن في الواقع كانت المواقف الرسمية لهذه البلاد تختلف حسب الظروف. فشخص مثل Mainwaring كان من

---

1. G. Van Krieken, *Corsaires*..., p. 17

2. G. Fisher , *La Légende*..., p. 243 et F. Braudel, *La Méditerranée*..., t. II, p. 207.

لصوص البحر في المعمورة ثم انتقل كقرصان إلى الموانئ المغاربية قبل إن يعود إلى إنكلترا حيث احتفل به وحصل على رتبة النبالة وأصبح عضوا في البرلمان[1] كما أسلفنا ذلك. أما زميله جوزيف پالاس فكان يبعث الغنائم التي يحرزها ضد الاسبان إلى پلايموث حيث كانت له شعبية كبيرة في هذا الميناء الإنكليزي، موطنه الأصلي وكان مواطنوه معجبين به إلى حد مقارنته ببطل القرصنة الإنكليزي Blake . وهذا الأخير، وإن كان في الواقع من لصوص البحر كذلك كان من بين شركائه الذين لهم أسهم في عملياته، ملكة إنكلترا نفسها إليزابث الأولى. صحيح أن هذه المساهمة كانت مطبوعة بالسرية المطلقة (إفشاء هذا السر جزاؤه الإعدام). لكن عندما عاد بلاك من عمليته الباهرة بالپيرو حيث نصب كمينا لقافلة الذهب والفضة الاسبانية واستولى عليها كلها ورجع سنة 1580 إلى إنكلترا بغنائم هائلة، جاءت الملكة إليزابث لاستقباله على ظهر سفينته والاحتفال بتعيينه في طبقة الفرسان النبلاء[2].

ولم يكن هؤلاء المغامرون يحظون دائما بنفس الترحاب، فالإنكليزي جورج كورك، الذي كان من رياس البحر في الجزائر، أسر من طرف مواطنيه وحكم عليه بالإعدام وخنق في پلايموث في 1622. وفي مرسيليا في 1609 كان القرصان الإنكليزي الأصل الذي كان مع سيمون دانسر في الجزائر، قطع رأسه في مرسيليا بينما كان حكام مرسيليا قد اتفقوا مع زميله دانسر على أن يقدموا له 22 ألف ليرة ترنوا سنويا لقاء خدمته كقبطان لأسطولهم في مرسيليا.

إن هذه الأمثلة تبين مرونة المبادئ وتقلبها طبقا لمصالح الساعة وكذلك غموض وترجرج الحدود بين ما هو شرعي وما هو لا شرعي في هذا العالم المتعدد الجوانب، عالم القرصنة ولصوصية البحر.

1. Ph. Gosse, *Histoire…*, p. 147 et G. Fisher, *op. cit.*

2. J. Godechot, *Histoire de l'Atlantique*, Paris, Bordas , 1947, p. 88-89.

سليمان رايس

إن ذهاب مراد رايس وجعفر جنويز كان يتزامن مع الاتجاهات الجديدة للقرصنة في الجزائر. فقد أصبح أفقها هو المحيط الأطلسي ومسيروها كذلك جاؤوا من هذه الأنحاء.

إن الدور الرئيسي في هذه الوجهة الجديدة كان بمبادرة الهولنديين. وإذا كان مقام سيمون دانسر في الجزائر قصيرا فإن كثيرا من مواطنيه اختاروا البقاء طويلا في وطنهم الجديد.

إن من أوائل الهولنديين الذين كان لهم دور حاسم وطويل المدى هو سليمان رايس، واسمه الأصلي De Venboer. وقد تولى قيادة تشكيلات بحرية جزائرية ثم مجموع الأسطول من 1606 إلى 1620. وحسب A. H. de Groot[1] الذي يعتمد على الوثائق الهولندية والعثمانية عموما، ترك سليمان الجزائر والتحق بالأسطول العثماني في استنبول في سنة 1620. وهي السنة التي قيل في مصادر أخرى أنه توفي فيها.

ومثل مامي أرنووط ومراد رايس كان سليمان رايس يحمل صفة باي، وهذا امتياز قلما حظي به قباطنة الجزائر. كذلك كان مثلهما ومثل بتشنين قد بقي مدة طويلة على رأس أسطول الجزائر . وكان له الحظ والموهبة معا في أن قيادته للأسطول تصادفت مع أخصب سنوات العهد الذهبي للقرصنة في الجزائر. ففي كل سنة كانت الغزوات البحرية في الأطلسي أو في المتوسط تقدم نصيبها الكبير من الغنائم والأسرى. وسنعطي تفاصيلها في الفصول الخاصة بتطور مستوى الغنائم. لكن نذكر هنا بعض الأمثلة ذات الدلالة:

- في 1613 بعد اجتياح جزيرة سانت ماري والاستيلاء على غنائم كثيرة

1. A. H. de Groot, Ottoman North Africa..., *ROMM*, 1985, p.131.

و120 أسرى سار أسطول الجزائر بقيادة سليمان رايس إلى جزر الكناري وأسروا 700 شخص وأخذوا غنائم لها قيمة كبيرة[1]. ونفس المراسل يذكر غنائم القراصنة الجزائريين من 1613 إلى 1621. وهي 936 سفينة وقاربا في 8 سنوات. إن هذه الأرقام كتقديرات تقريبية تعطي صورة عامة عن إنجازات القرصنة في هذه السنوات.

- في 1617 كانت تشكيلة من 17 سفينة يقودها سليمان رايس فاجأت سبع سفن هولندية محملة بالجنود الاسبان. وبعد معركة عنيفة قتل فيها 200 جندي اسباني وأسر 456 جندي جلبوا إلى الجزائر حيث بيعوا في البادستان حسب شهادة أحد هؤلاء الجنود الذي كان أسيرا في الجزائر[2].

- في 1618 كانت تشكيلة جزائرية من 36 سفينة يقودها سليمان رايس ومصطفى رايس ومعها 3000 جندي جزائري، غزت جزيرة لانزاروت في الكناري وأسرت 900 شخص[3].

إن الإسهام الكبير الذي قدمه سليمان رايس يتمثل في التقدم التقني الذي سمح بالتمكن من الملاحة في المحيط الأطلسي وفي تجنيد القراصنة من أصل هولندي واختيار أكفأ الرياس من بينهم وسيتزايد عددهم في هذه السنوات. فحسب تقارير للقنصل الهولندي[4] في الجزائر في 1626، كان في هذه السنة في الجزائر 55 رايس من أصل هولندي. ومن بين هؤلاء الرياس الذين جندهم سليمان رايس وكان لهم دور كبير، نذكر بالأخص مراد رايس واسمه الأصلي Yan Yansz.

1. Correspondance de M. de Peyresc en 1623, *RA*, 1879, p. 134 sq
2. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens*…, p. 29 sq
3. نفس المصدر، ص 217
4. A. H de Groot, *op.cit.*, p. 132 et G. van Krieken, *op.cit.*, p. 139

مراد رايس (Yan Yansz)

يان يانسز، هو من هارلم بهولندا وكان قرصانا رسميا في بلاده في الحرب ضد الاسبان. وقد أسر من طرف سليمان رايس أو حسب رواية أخرى أقنعه هذا الأخير بالالتحاق الاختياري بأسطوله وأصبح مراد يانسز نائبا للقبطان سليمان باي والمساعد الفعال الذي يعتمد عليه في أصعب المهام منذ 1618. ثم انتقل مراد رايس إلى سلا مع الاحتفاظ بعلاقات وطيدة مع الجزائر أين كان يملك عدة سفن وبعض الممتلكات الهامة. وعلى العموم كانت الحملات المهمة تنظم بالتعاون بين الميناءين وأحيانا مع بنزرت وطرابلس الغرب. وهكذا ففي 1622 نظمت غزوة على جزر الكاناري كان يقودها يانسز وقلفات رايس وتضم قراصنة من سلا والجزائر. وفي هذه الفترة كان التنقل بين الموانى المغاربية يجعل بعض الرياس ينتمون لعدة مواني في وقت واحد.

وهذه كانت حال مراد رايس الذي كان مبدئيا على رأس أسطول سلا المتكون من رياس من أصل أندلسي بالأخص وفي 1623 استقبل في أحد الموانى الهولندية باعتباره من قراصنة الجزائر. وكان الاستقبال السيئ الذي لقيه في هولندة بعض أفراد أسطوله من أسباب النزاع الذي نشب بين الجزائر وهولندة[1].

وبعد سنوات استقر من جديد في مدينة الجزائر. وعندما كان قائد الأسطول في سلا كان في الواقع هو الحاكم الرئيسي لهذه المدينة المنظمة في شكل حكم جماعي شبه مستقل وإن كان تابعا بشكل أو بآخر لملك المغرب الأقصى[2]. وفي هذه السنوات كان قراصنة سلا والجزائر يغزون مرارا الجزر الشمالية البعيدة مثل جزيرة نيوفولند قرب كندا أو يكمنون في هذه المياه لاصطياد

1. G. van Krieken, *op. cit*, p. 36-37.
2. Roger Coindreau, *Les Corsaires de Salé*, P. 1948

السفن العائدة من المناطق الشمالية محملة بالمورة. وأهم الغزوات المشهورة التي قادها مراد يانسز هي التي هاجمت جزيرة إيسلنده في 1627. وكانت متكونة من ثلاث سفن جزائرية بقيادة مراد هامنغ (أو فلامنغ) وسفينة من سلا يقودها مراد رايس يانسز. وفي 15 جوان 1627 وصلوا إلى غراندافيك وهي محطة تجارية في أقاصي الجزيرة حيث أسروا عددا من الأشخاص ثم توغلوا في الجزيرة وأخذوا بعض الغنائم والأسرى كما استولوا على سفينة في المياه المجاورة ومرت ثمانية أيام في التنقل في الشواطئ الشرقية للجزيرة حيث أسروا 110 أشخاص وبعض المواشي والبضائع الثمينة. وفي جنوب الجزيرة استولوا على سفينة وبضعة أشخاص ثم عادوا إلى الجزائر بحوالي 300 أو 400 أسير[1] منهم عدد أسروه في طريق عودتهم. إن المسألة ما تزال مفتوحة فيما إذا كان قائد الحملة هو مراد يانسز أو قرصان آخر ألماني الأصل اسمه مراد رايس. وبعض المصادر تخلط بين من اسمهم مراد رايس في نفس الفترة. مثلا بين كور مراد رايس ومراد يانسز حول الحملة ضد پالتيمور في 1631. كذلك بين مراد يانسز ومراد فلامنكو الذي هو من مدينة أنڤيرس Anvers[2] والذي أسره المالطيون بعد انتقاله إلى طرابلس الغرب في سنوات 1630 وكان قد التحق بزميله الذي كان مثله من رياس البحر في الجزائر والذي استقر في طرابلس الغرب واستولى على الحكم وأصبح داي هذه الإيالة، وهو الرايس محمد صاقزلي. أما مراد فلامنكو فيصف دان[3] نبأ وقوعه في الأسر قائلا: «كنت في الجزائر حين رأيت مائة امرأة جاءت لتسلي زوجته». ويعتبر روجي

---

1. دارندا الذي التقى ببعض هؤلاء الأسرى يقدر عددهم بـ 800 شخص. لكن دراسة « Jean Leclerc, Les corsaires algériens en Islande en 1627 », Bruxelles, 1926, p. 252-264. التي تقدم الأرقام أعلاه مستقاة من الوثائق الرسمية لذلك العهد. وقد اعتمد عليها برنارد لويس دون إن يشير إلى الباحث في مقاله المنشور في *ROMM* في 1985 ص 139 - 144.

2. Jean Denucé, *L'Afrique*..., p. 11.

3. P. Dan, *op.cit.*, p. 254.

كواندرو[1] أن مراد رايس الذي يتحدث عنه دان هو يانسز الذي التحق بطرابلس الغرب وأسر ثم افتدي وعاد إلى الجزائر ثم تنقل من جديد سنة 1640 إلى سلا ومن هناك عاد نهائيا إلى هولندة في 1641.

مراد قورصو

مراد قورصوورد اسمه في 1620 بأنه هووصهره «يديك علي» من بين الرياس الذين استولوا على سفن مسيحية في هذه السنة[2].

وفي أول فيفري 1624، أدلى بشهادة أمام القنصلية الفرنسية في تونس حول نزاع تجاري بين أحد رياس البحر من الجزائر والحاج مراد جينوڤيزي من رياس تونس[3]. وفي تصريح سجل في نفس القنصلية في 24 فيفري 1627، يعلن مراد فرنسيزي الرايس بالجزائر أنه وبحارته قد قبضوا من حاكم طبرقة مبلغ 4467 قرش اسباني وهو ثمن سفينة اشتراها من مراد قورصو الرايس بالجزائر[4]. وفي 1628 اشترى مراد قورصو رايس بالجزائر منزلا ريفيا وجنانه بمنطقة الساحل المحاذية لمدينة الجزائر من أحد التجار المزابيين بمبلغ 7000 دينار خمسيني.

ويذكره Joao Mascarenhas[5] من بين أغنى القراصنة في الجزائر. ويصوره كرجل جشع وطاغية يملك دارا مهمة وغنية. ويتحدث فرنسيس نايت عن مراد علج من «أصل كورسيكي له مكانة سامية في الجزائر وهو نائب القائد

1. R. Coindreau, *op.cit.*, p. 67 sq
2. H. de Grammont, Documents…, *RA*, 1885, p. 448.
3. P. Granchamp, *La France en Tunisie*…, vol. IV, p. 99
4. نفس المصدر ونفس الجزء ص 231.
5. Joao Mascarenhas, *Esclave à Alger*…, trad. fr. P. Tessier, P., éd. Chandergne, 1993, p. 59.

العام للأسطول وصهر القائد العام الجنرال علي»[1]. ويضيف نايت بأن صهر علي بتشنين هذا قد توفي في معركة ڤالونة في 1638 وكان سنه 104 سنة وكانت رغبته أن يموت في القتال ضد النصارى.

وقد ورثته ابنته آمنة. ومن بين الأملاك التي حبستها والمسجلة في 1663 جنانان وطابق أرضي من دار وفرن. كما ورثت من زوجها القبطان شلبي (بتشنين) دارا لها قيمة كبرى. وتلاحظ زميلتنا عائشة غطاس[2] أن أحباس آمنة بنت مراد قورصو هي من أهم أحباس النساء بمدينة الجزائر. مع ذلك فهي شيء قليل بمقارنة ما كان يملكه بتشنين ومراد قورصو.

حسن قلفاط

يقال إنه من أصل يوناني وقد أحرز على غنائم كثيرة في سنوات 1620 واشتهر بشجاعته النادرة التي يردها بعض معاصريه الأروبيين إلى مواهبه «السحرية». إن مثل هذه المعتقدات الخرافية شائعة في العالم كله. وكان مفعول «السحر» على معاصري حسن قلفاط يعود بدون شك إلى الرعب الذي كانت تحدثه هذه الأسطورة لدى أعدائه. أما الوصف الذي يقدمه عنه ماسكاريناس فهو أكثر واقعية. يقول عنه : «إنه أشجع الأتراك في الجزائر ومشهور بهذه الشجاعة... لقد انتزع راية من مؤخرة سفينته ووثب على سفينتنا».[3] واستولى عليها هو ورفاقه. وهكذا أصبح ماسكاريناس أسيرا في الجزائر في أكتوبر 1621.

وفي جويلية 1624 كان قلفاط يقود تشكيلة من سبعة سفن جزائرية، واستولى على عدة سفن بندقية محملة بسلع ثمينة واستمر في جولته حوالي كالابرية

1. F. Knight, *A Relation of Several years Slaverie under the Turks of Algiers suffered by an English captive Merchant*, L., 1640, p. 9-21

2. عائشة غطاس «إسهام المرأة في الأوقاف»، م ت م، ماي 1997 ص 131-93.

3. J. Mascarenhas, *op. cit.*, p. 32 sq

وصقلية وسردانيا. وذات يوم هاجم في جوار حصن مسلح بالمدفعية سفينة لديها 22 مدفعا ومعها سفينة أخرى (طرطانة) واستولى عليها. واستولى على عدة سفن في مياه صقيلية. وفي 12 أكتوبر 1624 في مياه الجزائر وجد نفسه محاطا بـ 15 قادسا مسيحيا (3 من قوادس البابا، و8 من ناپولي و4 من توسكانا). وواجهها قلفاط بنيرانه وخاض المعركة ضدها وهكذا ضحى بنفسه ليسمح للسفن الأخرى من تشكيلته بالنجاة من هذا الخطر. واستمر في القتال إلى إن تكاثرت القوى من حوله فألقى بكل ما هو ثمين في البحر وأشعل النار في سفينته. وتقول الرواية[1] التي نقلنا عنها هذه المعلومات إنه من بين 300 مقاتل في غاليونه أسر 180 جنديا ومنهم الرايس حسن قلفاط بينما يقول آخرون أنه قتل في المعركة. وتضيف الكراسة التي كتبت احتفاء بهذا الانتصار المسيحي أن حسن قلفاط كان «من أشهر وأشد قرصان الجزائر، شجاع وسريع الوثوب في هجماته».

ظهر حسن قلفاط في مصادرنا عن قرصان الجزائر في 1620 واختفى نهائيا في 1624. أربع سنوات من حياة رايس. يبدو أن «السحر» لا ينفع كثيرا في هذه الأخطار.

سيكالا

يحكي دارندا[2] أنه عند وصوله للجزائر شاهد الرايس سيكالا وهو ابن أميرال عثماني من أصل جنوي. وكان قد التجأ إلى الجزائر في 1636، لأنه حسب دارندا تسبب إهماله في استيلاء المالطيين على سفينة كانت تحمل إتاوة مصر السنوية المقدمة للباب العالي. ويضيف إن سيكالا عاد إلى استنبول بعد تولي سلطان جديد أصدر أمرا بالعفو عنه.

---

1. *Discours véritable de la grande et notable victoire obtenue par les galères chrétiennes contre cinq vaisseaux et un galion conduits par un renégat grec Asan Calaffet en laquelle furent délivrés plusieurs esclaves chrétiens*, P., 1626, p. 6 sq

2. H. de Grammont, Relations…, *RA*, 1879, p. 430 sq

وسيكالا ورد ذكره في وثائق فرنسية عن الجزائر في 1637 وكان من بين كبار القرصان. وكان يقود مع حمزة آغا وعلي بتشنين الكتلة التي كانت تعارض إبرام الصلح مع الفرنسيين. ويعتقد دي غرامون[1] أنه لم يكن سوى مغامر بوشناقي يدعي أنه ابن الأميرال سيبيون سيكالا وإحدى بنات السلطان أحمد. وبعد سنوات قضاها في الجزائر، ذهب إلى أروبا واعتنق المسيحية، وقدم إلى القصر الملكي الفرنسي في 1670. من الواضح أن له مواهب كبيرة جعلته يصير أحد قادة الأسطول الجزائري بعد عام واحد من قدومه إلى الجزائر ثم أحد أعضاء الحاشية الملكية في فرنسا.

بكير رايس

إن قصته غريبة مثل قصة سيكالا. ورغم الصفات التي يتمع بها الشهود[2] فإن بعض التفاصيل ما زالت في حاجة إلى التحقيق. بكير رايس هو «ابن بكير العلج اليوناي الذي كان كابودان باشا السلطان العثماني. . وكان سريع البديهة، صاحب حيل وأسرار، فصيحا له دسائس وهو جريء وغدار، وفي سن العشرين أصبح حاكم تونس لكنه بعد سنة واحدة، ضج الشعب منه وطرده». فذهب إلى الجزائر مع قادسين له وأصبح من كبار القرصان. «وكانت قوادسه من أحسن القوادس في العالم». و«شرهه في الأكل شيء لا يصدق فكان في فطوره صباحا يشرب عدة پنتات (الپنت أكثر بقليل من نصف اللتر) من الكحول ويقضي أيامه ولياليه في تنظيم سهرات الشرب... وكان له أربعون أو خمسون من الغلمان لشناعته» وكان يتعاطى السحر وله صلات مباشرة مع الشيطان كما تضيف هذه الرواية التي تنهي حكايتها بأنه كما عاش في العواصف مات

---

1. نفس المصدر

2. المبعوث الملكي الفرنسي إلى البرتغال، الذي أسر وأصبح من عبيد بكير رايس في 1651 وشاهد آخر هو سكرتير ملك فرنسا وحاجب الملكة آن النمسوية الأصل وكان أيضا أسيرا في الجزائر في 1651. انظر « Un corsaire algérien au XVIIe siècles » par X, *RA* , 1892, p. 11-17.

في عاصفة في 1652. «وهكذا كما استخدم الخشب والحديد والماء لتعذيب وقتل كثير من المسيحيين، سلط الله عليه الخشب والحديد والماء لقتله». إن هذا الأسلوب السخيف الذي نقلناه عمدا لإعطاء صورة عن التشنيع الذي كانت تستعمله دعاية الرهبان المكلفين بافتداء الأسرى هو ما جاء بالنص في الشهادات التي جمعت بقصد تطويب (اعتبار السلطة البابوية أحد الأموات في رتبة السعداء أو الأبرار وهي مقدمة لرتبة القداسة) ڤنسان دي بول Vincent de Paul ثم تقديسه فيما بعد. ومن المعروف اليوم أن بعض هذه الشهادات التي أصبح ڤنسان دي پول من القديسين عند المسيحيين بفضلها كانت مزورة وأنه هو نفسه اختلق حوادث عن سيرته كاذبة تماما فلم يكن أسيرا بتونس بل كان سجينا في مرسيليا بسبب جرائر ارتكبها[1]. إن هذا الأسلوب الذي كثيرا ما كانت تستعمله الدعاية الرهبانية في القرن السابع عشر أصبح الآن سخيفا مضحكا في نظر أي قارئ أروبي مهما كان تدينه واحترامه للكنيسة. لكن يبدو أن ما يشبهه من أنواع الشتم والتشنيع وبث الكراهية والتعصب في قلوب الناس لم يندثر تماما في بعض الأجواء الأخرى.

الأهلي الكبير (أو المغاربي الكبير)

صورة أخرى تعطيها الكتابات الأروبية ومن بينها شهادات رجال الدين المسيحيين أنفسهم عمن تسميه Le Grand Maure . إنهم جميعا يلحون في الثناء على الفضائل والخصال المعنوية لهذا الرايس الكبير المنبثق من أفقر الأوساط الشعبية.

---

1. انظر عن ادعاء ڤنسان دي پول أنه كان أسيرا في تونس دراسة :

P. Granchamp, « La prétendue captivité de St Vincent de Paul en Tunisie », *in La France en Tunisie*…, vol. VII, p. XXXII- LI et du même auteur, « Comment se crée une légende. L'exemple de St Vincent de Paul », *Les Cahiers Rationalistes*, n° 399, et M. Emerit, « Une manœuvre anti-janséniste : le canonisation de Vincent de Paul » *in Actes du 99 e Congrès National des Sociétés Savantes*, P., 1976.

إنه من أصل ميزابي وصل في حداثة شبابه إلى مدينة الجزائر للعمل عند طباخي الكروش وقرر أن يذهب للعمل كنوتي مبتدئ عند أحد القراصنة. لكن بمهارته وشجاعته أصبح من أجود البحارة وانتهى بأن عين على رأس سفينة صغيرة ثم أصبح رايس سفينة لها 30 مدفعا ثم على رأس قادس وصار من أكبر وأشهر قادة الأسطول.

وفي 1635 اقتحم بجنوده غليونا من أكبر سفن ناپولي واستولى عليه وكان هذا الغليون له 76 مدفعا وعليه عدد كبير من الجنود وقع منهم في الأسر 130 جنديا. وكانت هذه السفينة الكبرى محملة بالقمح و10 آلاف زوج من الجوارب و20 صندوقا من خيوط الذهب و10 صناديق من السندس المزخرف و10 آلاف قذيفة مدفع[1].

وقد خصص له دارندا[2] وصفا ننقل منه هذه الفقرة: «إن هذا المورو الكبير (أي الأهلي أو المغاربي) كان يثير الرعب لدى كل السفن المسيحية التي تتردد على البحر المتوسط وكان مقدسا عند الأتراك (أي المسلمين لأن المؤلفات الاسبانية تطلق كلمة تركي بمعنى مسلم) كأنه الإله مارس. وأعتقد أن السلطان العثماني لو عينه كقائد عام لأسطوله كما فعل السلطان سليمان بتعيينه القرصان الكبير برباروسة في القرن الماضي، لتجاوزت انتصارات هذا المورو الكبير كل الجنرالات العثمانيين. إنه أسد في المعارك وخروف بعد الانتصار يعامل أعداءه المهزومين بكثير من اللين واللطف».

وفي قضايا الافتداء كان المبعوثون يتوجهون إليه لماله من نفوذ معنوي وكلمة مسموعة عند مختلف فئات السكان. ويذكر الأب المسيحي دي غريفيل[3] أن

1. انظر الجريدة الفرنسية *La Gazette* لسنة 1635 ص 233.

2. D'Aranda, *op.cit.*, p. 137

3. Le Père E. d'Egreville, *op.cit.*, p. 31

الشخصيات التي لها اعتبارها هم الباشا وقائد الأسطول والآغة و«المورو الكبير». وكان هذا الأهلي الكبير الذي يدعونه دائما هكذا دون ذكر اسمه له امتياز الحصول على سعر خاص لعبيده على منوال الباشا وبعض كبار المسئولين. ويحكي الأب لويس هيرو[1] أنه «استنجد بسيدي المور الكبير» في مفاوضاته بالجزائر. ووعده هذا بالمساعدة وشكره على ما قام به من أجل فك أسر الرايس محمد نغريلو الذي كان أسيرا في فرنسا مستعملا في التجديف بالقوادس والمجئ به إلى الجزائر. وكان هذا الرايس من المقربين إلى «الأهلي الكبير»

حسن بربير (أو بربار)

في السلم الرمزي يأتي حسن بربير في رأس قائمة الرياس من أصول إسلامية. فحتى قبل وفاته كان يوصف بأنه «القبطان المجاهد الشهير». ففي عقد بيع[2] حانوتين ومخزن في 1659 وصف هكذا « القبطان المجاهد الشهير حسن بربار بن عمر التركي». وفي رسم تحبيس وكذلك في رسم مخلفات بعد وفاته كان دائما يوصف بهذه الأوصاف. وكل هذه الوثائق الأصلية الجزائرية تثبت أنه تركي الأصل وتنفي ما جاء في مصادر أوروبية مختلفة من أنه علج من أصل برتغالي أو يوناني.

وقد بقي من رياس البحر في الجزائر مدة طويلة. ففي مارس 1626 ذكر في رسم مسجل بالقنصلية الفرنسية بتونس[3] يبين أن 17 من العبيد الذين تم افتداؤهم مدينون للأميرال التونسي بمبلغ 1700 قرش إشبيلي دفعها عنهم لحسن بربير القرصان بالجزائر من أجل فديتهم.

1. Le Père Louis Hérault, *op.cit*, p. 73.

2. ا. ج، ر. ع، علبة 45.

3. P. Grandchamp, *op.cit*, vol. IV, p. 112-113

وفي مفاوضات تبادل الأسرى التي أدت إلى فك أسر دارندا ورفاقه في 1642، أخذ اثنان من رفاقه «إلى منزل التركي بربار حسن، صهر مصطفى انكليز الذي كان أسيرا في بروج Bruges مع أربعة آخرين وذلك لإطلاق هؤلاء الأسرى الأربعة مقابل فك أسرنا نحن الثلاثة»[1].

وفي أحد السجلات الرسمية الجزائرية التي توجد منها صور ميكروفلم في إكس ان بروفانس[2] ذكر في قائمة غنائم بتاريخ 1066هـ/1655-1656م.عدة سفن استولى عليها رياس الجزائر ومنهم حسن بربار.

في 1659 كان حسن بربير هو القائد العام لأسطول الجزائر كما تدل عليه الوثائق التي أسلفنا تقديمها. وفي تقرير فرنسي[3] عن قوة الجزائر البحرية مؤرخ في أفريل 1662 وصف لسفن الجزائر ومنها سفينة الأميرال «بربانسن» (تحريف لبربار حسن) وهي تدعى «إناء الزهور» ولها 36 مدفعا.

وبينما كانت سفينته وسفينة نائبه على رأس الأسطول راسية في ميناء حلق الوادي بتونس فاجأهما الأسطول الفرنسي بإطلاق النيران عليهما في 1665. وقتل حسن بربير في هذه المعركة غير المتساوية وكان متقدما في العمر إذ تقول المصادر الفرنسية التي نقل عنها دي غارامون إنه مات عن 105 سنة!

الحاج محمد بن محمود تريك (أوالتريكي)

ولد بمدينة الجزائر أواخر القرن السادس عشر وبقي، حسب دانكور[4] مدة خمسين سنة على رأس الأسطول الجزائري قبل أن يصير أول داي للجزائر في

---

1. D'Aranda, *op.cit.*, p. 46.

2. انظر AOM, Aix- en Provence, 15 Mi 53, n° 227

3. ANP, 223 Mi 1, vol.12, F° 140.

4. السير دانكور هو مفوض البحرية الفرنسية ومبعوث إلى الجزائر في 1680 - 1681 انظر عن يومياته P. Vittu, « La relation de voyage du Sr Dancour » *CT*, 1997, p. 225 sq

النظام الجديد الذي أنشأه في 1671. ولا نعلم شيئا كثيرا عن حياته الطويلة بين رياس البحر في الجزائر. ودانكور يزعم، وهو يحتاج إلى دليل أن أباه علج هولندي.

وخلال العشر سنوات التي قضاها على رأس السلطة كان ختنه بابا حسن هو الحاكم الفعلي للبلاد في كثير من الأحيان. وحسب دانكور كان هذا الأخير «له ذهن متوقد وسياسة حصيفة». لكن دي غرامون يعتبره «من أسوإ الناس الذين عرفتهم الجزائر، مرتاب، شديد القسوة، طموح وشرس» وخلافا لما كتبه دي غرامون عن بابا حسن لم يكن من رياس البحر بل هو شاوش وكل الوثائق تذكر اسمه هكذا حسن شاوش. وتبعا لما قالته المصادر المعاصرة عن محمد تريك فإن دي غرامون[1] ينظر له بصورة إيجابية. وفعلا كان هذا الداي رصينا ومتقشفا على عكس ابنه محمد رايس الذي كان دون المتوسط كرايس ورجل لهو وقد أسرته قوادس مالطة. وجرت مفاوضات افتدائه في تونس حيث افتدي في 1674 بمبلغ 12000 قرش اسباني كما هو مسجل في رسوم القنصلية الفرنسية بتونس[2]. وكالعادة في الفرق بين الوثائق الرسمية وشهادات المؤلفين المعاصرين ارتفع المبلغ إلى 20000 عند دارڤيو[3] مع أنه كان على إطلاع ومعلوماته وثيقة على العموم وكان شخصيا موجودا بالجزائر عند رجوع محمد رايس من الأسر. وهذه القروش تحولت إلى إيكي في الكتابات التي صدرت بعد ذلك. وفي وثائق الجزائر يكتب اسم تريك أحيانا التريكي. وقد نصت إحداها على أن الحاج محمد بن محمود تريك، داي الجزائر قد حبس[4] بعض العقارات على أبناء ابنه محمد رايس في رجب 1090/أوت 1679. وقد

1. H. de Grammont, op. cit., *RA*, 1884, p. 384.

2. P. Ganchamp, *La France…*, vol. VII, p. 239.

3. D'Arvieux, *op.cit.*, p. 152

4. ا. ج، ر. ع. رسوم المحاكم الشرعية علبة 42.

اعتزل الداي الحكم بمحض إرادته وعين خلفا له ختنه بابا حسن ورحل إلى طرابلس الغرب في 1681.

الحاج حسين مزومورتو

يقول عنه دارڤيو[1] الذي عرفه جيدا بالجزائر إنه «من مواليد استنبول وكان أكثر تهذيبا واعتدالا وأمانة من كل الأشخاص الذين يمارسون مهنته». وقد سمي مزومورتو (نصف ميت) بسبب سحنته الشبحية فيما يقال. كان شجاعا وذكيا وربما كان لتربيته في حاضرة كبرى مثل استنبول تأثير على تكوينه الثقافي وحسه المرهف خلافا لما هو معتاد بين أوساط القراصنة. لقد كان يزاول القرصنة ويخوض الحرب كقائد عسكري كفء وفي نفس الوقت كرجل سياسي متمكن من مهنته.

وقد كان من بين رياس البحر في الجزائر على الأقل منذ سنوات 1660 فجريدة La Gazette تذكر غنائمه الكبرى في 1669 و1670 و1671. وشارك في 1670 في معركة كبرى بين سفن جزائرية والأسطولين الانكليزي والهولندي المشتركين في محاولة حصار سفن الجزائر في مضيق جبل طارق في 1670. ورغم التفوق الهائل للأسطولين الأروبيين، استطاع الرياس الجزائريون أن يجنحوا بالسفن على شواطئ المغرب الأقصى ولم يكسب «الإنكليز والهولنديون سوى أسر بعض البحارة الجرحى وتحرير جزء من الأسرى المسيحيين»[2].

مع ذلك نشرت كتب «احتفاء بالانتصار الباهر» الذي أحرزته الأساطيل المسيحية ضد أسطول الجزائر. «الجزائر هذه المقصلة الدموية... قد انتزع تاجها»[3].. ما أغرب طرق تسطير الذاكرة الجماعية!

1. D'Arvieux, *op.cit*, p. 127.

2. G. Van Krieken, *op.cit.*, p. 67.

3. نص جاء في إحدى النشرات الهولندية التي صدرت بهذه المناسبة، ذكرها المصدر السابق.

وأحرز ميزمورتو على غنائم هامة بين 1674 و1676 وهي سنوات استعادت فيها بحرية الجزائر شيئا من الازدهار السابق. وعين على رأس الأسطول في 1682 وكان في سنة 1683 في قلب عملية تشير إلى نوع ذهنيته وإلى مدى نفوذه. كانت مدينة الجزائر مهددة بالمدفعية القوية التي صوبها الأسطول الفرنسي على المدينة وكان قائد هذا الأسطول وهو ديكان Duquesne يطالب بإطلاق سراح كل الأسرى الفرنسيين وبتقديم مبالغ هائلة كتعويض حرب. وفتح الداي بابا حسن مفاوضات مع الفرنسيين وبعث لقائدهم ديكان رهائن كان على رأسهم القبطان ميزومورتو. وبينما تعثرت المفاوضات وتباطأ الداي في حسمها، عرض ميزمورتو على القائد الفرنسي أن يسمح له بالعودة إلى المدينة قائلا له: «سأحسم في ساعة واحدة ما لم يستطع بابا حسن أن يحسمه في 15 يوما». وكما يقول دي غرامون[1] لم يطل الوقت لمعرفة المعنى الحقيقي لهذه العبارة الساخرة. فحالما عاد إلى المدينة جند أنصاره واستولى على الحكم ونظم الرد العسكري على الأسطول الفرنسي ورفع العلم الأحمر وفتح نار كل بطاريات الجزائر على الأسطول الفرنسي الذي قام برد الفعل دون أن يحدث خسائر كبيرة.

إن هذا الداي كانت له خصال قيادية استثنائية تظهر من خلال مراسلاته الرسمية. ففي رسالة بعثها إلى قائد الأسطول الفرنسي من الجزائر في أوت 1687 يحتج فيها على استيلاء الفرنسيين على سفينة جزائرية وقت السلم استعمل هذه العبارات: «ليست قضية ذات شأن أن تستولي وقت السلم على سفينة هي ملك لدولة مثل دولتنا. إن خسارة سفينة لا تلجئ دولة إلى الاستجداء. غير أن هذا عمل غير لائق بسيد شهير مثلك. لأنه عمل يقوم به اللصوص. لكنا نقول لكم كصديق كبير إن هذه الأعمال اللصوصية كنا نحن

1. H. De Grammont, *Histoire*…, p. 209.

في السابق متهمين بها والآن بحمد الله انتقلت منا إليكم. فاعملوا ما يطيب لكم، سوى ما يمكن أن تندموا عليه فيما بعد»[1].

ولم يكن يخلو من العيوب. فقد أظهر كثيرا من القسوة في قمع الثورات التي دبرها أعداؤه وساعد عليها بالأخص تدهور ظروف معيشة السكان. فقد كانت الطبقات الشعبية تعاني المجاعات والأوبئة لكن الداي كان مستمرا في جمع الثروات الطائلة. صحيح أنه خصص بعض ثروته لبناء مسجد كبير حبس عليه كثيرا من أملاكه.

من جهة أخرى أنهك الجيش في معارك داخلية وفي فتح تونس ومحاولات تحرير وهران وكثرت الخسائر وسط الانكشارية الذين كانوا أيضا يتحملون القبضة الحديدية لهذا الداي الذي عاملهم بصرامة لم يتعودوا عليها لأنه أراد أن يضع حدا لتصرفات العسكر داخل الحكم وتجاوزاتهم في المجتمع.

وبعد العودة من وهران ثار الأوجاق واضطر ميزومورتو أن يسافر إلى تونس ثم إلى استنبول. وفي 1692 عين قائدا عاما للأسطول العثماني. وكان في هذه المهمة كما يصفه دي غرامون: «أحد كبار رجال البحرية العثمانيين في العهود الأخيرة؛ ففي 1695 هزم البنادقة في أماخيو؛ وفي 1697 تميز في المعركة البحرية في أندروس وكانت ساقه قد اخترقتها رصاصة لكنه ظل يقود المعركة حتى نهايتها وعاقب بشدة كل الرياس الذين ظهر منهم بعض الضعف»[2].

ابراهيم كلغلي والكناري

من خلال العناصر المقدمة هنا تتضح تماما مشاكل تحديد هوية الرياس بالاعتماد على معطيات موجزة متنافرة أحيانا وفيها تحريف وتشويه للأسماء في المصادر الأروبية.

1. E. Plantet, *op.cit.*, t I, p. 146

2. H. de Grammont, *Histoire*..., p. 214, n. 1

إن عدم الوضوح وكتابة الأسماء المختلفة بأشكال متقاربة أو متشابهة مما يؤدي إلى الخلط بين شخصيات مختلفة. وهذا ما حدث فيما يخص الخلط بين القبطان كلغلي (يكتب في المصادر الأروبية كولوري، كولاري، كوناري، الخ) والقبطان كاناري.

وهذه بترتيب كرونولوجي بعض المعطيات الأولية: أوت 1670: من بين السفن التي أحرقتها العمارة المشتركة الانكليزية- الهولندية في مضيق جبل طارق توجد السفينة المدعوة «النمر الذهبي وكان يقودها نائب القائد العام للأسطول (الڤيس- أميرال) برايم رايس (إبراهيم رايس) التركي[1]».

1671-1673: في رسمين من رسوم المحاكم الشرعية[2]، تسجيل لشراء دار من طرف الرايس الحاج إبراهيم بن علال، المدعو ابن الرقي.

1675-1676: ذهب توماس هيس[3]«للاستراحة والتنزه في مزرعة إبراهيم كولاري أميرال القوادس...أحد كبار الأثرياء في الجزائر... وهو أبوه تركي وأمه سوداء... ولهذا يدعى قارة إبراهيم... ويوصف أيضا بإبراهيم الكحول لأنه في شبابه كان يشرب الخمر كثيرا ويخالط المومسات.. وقد شربنا الخمر عنده. وهو كثيرا ما يتعاطاها... إن الأميرال من كاناري.. وقد دعوت إبراهيم كولوري واستمتع كثيرا بما قدمت له».

1680: في مراسلة من ليڤورن إلى جريدة 1680 ،La Gazette، ص 325: إن كاناري الجزائر قد أسر مع ستة من البحارة. ثم كذب الخبر فيما بعد ونشرت الجريدة أن كاناري قد عاد إلى الجزائر.

1. *Relation générale du combat et de la défaite de six corsaires d'Alger*..., P., 1670, p. 3

2. أ. ج، ر. ع، علبة 1، رسم بتاريخ أو آخر صفر 1082/ بداية جويلية 1671 ورسم بتاريخ أواسط رمضان 1083/ أوائل جانفي 1673. وهناك رسم شرعي آخر من سنة 1677 يخص القبطان ابن الرقي.

3. Th. Hees, *op.cit.*, p. 103 sq

1680: جاء في تقرير فرنسي[1] عن القوى البحرية بالجزائر: 19 بارجة يقودها رياس منهم 4 أصلهم هولندي و2 أصلهم فرنسي وعلج من كاناري وعلج يوناني وعلج غير محدد الأصل.

1683-1684: وصل إلى طرابلس إبراهيم رايس « وهو تركي له ذكاء حاد وكان أميرال الجزائر ونفاه أخيرا ميزومورتو»[2].

6 اكتوبر 1686: جاء في مذكرة بلانفيل[3] أنه منذ أن استولى كاناري على 13 سفينة هولندية، قرر الهولونديون أن سفنهم لا تخرج في المستقبل إلا في قوافل.

جريدة لاغازيت 1688 (ص 178): في خبر بتاريخ 17 مارس من ليڤورنة أن من بين سفن القراصنة الجزائريين التي عادت إلى الجزائر، كانت سفينة الكاناري قد لحقتها أضرار كبيرة. وفي 31 مارس أخبرت الجريدة أن الكاناري الصغير عاد إلى الجزائر وقد جلب معه سفينة جنوية غنمها.

مارس 1688: مات الأميرال كاناري. وقد وجد عنده قيمة نصف مليون قرش اسباني نقودا وسلعا.

الجزائر في 11 أفريل 1690: الأميرال مصطفى رايس المعروف باسم الكاناري الصغير[4].

لإلقاء الضوء على هذه المعطيات الأولية نقدم المعلومات الآتية:

- في النص المذكور لتوماس هيس تحدث عن وصول الأميرال كاناري إلى الجزائر ومعه بعض الغنائم. ومن الواضح أنه يقصد شخصا آخر غير الأميرال إبراهيم كولاري الذي يقول عنه إنه أميرال القوادس.

---

1. ANP, 223 Mi 1, vol. 122, f° 197.

2. C. R. Pennel, *Piracy and Diplomacy in Seventeenth North Africa, The Journal of Thomas Baker, English Council in Tripoli, 1677-1685*, L., 1989, p. 171

3. ANP, AE, B1 115

4. ANP, AE, B1 116

- في رسم شرعي بالجزائر مؤرخ بسنة 1677/1088 ذكر فيه اسم القبطان الحاج إبراهيم كلغلي. ويبدو أنه هو نفسه الأميرال التركي الذي اسمه إبراهيم والذي نفاه ميزمورتو في 1683 كما جاء في يوميات القنصل الانكليزي بطرابلس التي سبق ذكرها. ونفس هذا القنصل[1] تحدث عن مجيء أميرال الجزائر علي كاناري إلى طرابلس الغرب في 1679.

- من جهة أخرى ورد في عدة رسوم شرعية بالجزائر ذكر القبطان علي رايس بن عبد الله الذي عقد عدة صفقات تجارية في سنوات 1680. ولما كانت التواريخ متطابقة فمن المرجح أن القبطان علي رايس بن عبد الله هو الأميرال كاناري المذكور في المصادر الأروبية وأنه علج أصله من جزر الكاناري. أما القبطان مصطفى رايس فهو بدون شك قريب علي رايس بن عبد الله.

هذه لمحات عن الرياس قد نستوفيها بذكر جوانب أخرى من حياة الرياس في الفصول القادمة.

1. C. R. Plennel, *op.cit.*, p. 85

الفصل الرابع عشر

الغنائم في مراحلها المختلفة

1. سنوات الصعود

الفترة الممتدة بين 1580 ومنتصف القرن السابع عشر تعتبر هي فترة صعود القرصنة. وهذا الصعود يبرز في ميادين مختلفة. فقد بلغ الأسطول أوج قوته في هذه السنوات وتطور وأصبح يفرض نفسه في المحيط الأطلسي كما تزايدت ثروة الرياس وصار هؤلاء أكثر تنوعا في أصولهم وكفاءاتهم، الخ. وعن هذه السنوات تكثر الشهادات المعاصرة التي تتحدث عن رخاء الجزائر وازدهارها.

الظروف الوثائقية

يلاحظ مع ذلك أن المعطيات المتوفرة عن الغنائم ليست في مستوى هذه السمعة العالية. إن الفقر الوثائقي لا ينفي بالضرورة ما ذكرناه في الفقرة أعلاه لأن الوثائق لها ظروفها الخاصة. وهي في هذه السنوات إما قصص وشهادات كتبها معاصرون يحكون فيها ما عاشوه وما شاهدوه في الجزائر أو وثائق رسمية أو مراسلات صحفية.

كانت المؤلفات المعاصرة تهتم عموما بالوقائع المهمة. والغنائم التي يتحدثون عنها هي التي كانت لها أصداء كبيرة. غير أن قرصنة الجزائر كانت فيها غنائم كبرى وفيها كذلك أعداد كبيرة من العمليات الصغرى ذات النتائج المتواضعة أو المتوسطة.

- إن المصادر المعنية بالقرصنة الجزائرية تشمل تقريبا كل الأرشيفات المتوسطية وكذلك أرشيفات البلاد الأوروبية الواقعة في المحيط الأطلسي. لكن ما قمنا به من بحوث لم يتجاوز المصادر العربية والفرنسية والانكليزية إلا نادرا.

وفي الرصيد العثماني بأرشيفات الجزائر توجد معلومات غنية عن ثروة الرياس لكن قليل منها يخص الغنائم التي ضاعت سجلاتها المتعلقة بهذه الفترة بعد استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر.

وحول المصادر الانكليزية نحيل القارئ إلى التحليل النقدي الذي قام به غودفراي فيشر في كتابه الذي سبق ذكره.

أما المصادر الفرنسية فأهمها عن هذه السنوات هي التقارير القنصلية والمراسلات الصحفية المنشورة في جريدة لاغازيت دي فرانس La Gazette de France التي نلخصها بكلمة La Gazette وهي جريدة بدأت تصدر في 1631 وغطت باقي القرن السابع عشر والقرن الذي يليه وقد تتبعنا ما نشر فيها في هذه المدة عن الجزائر. إن هذه الجريدة وغيرها من الصحف الفرنسية لذلك الوقت قد وضع تربي دي لوف[1] تحليلا معمقا لمحتواها وأظهر ما فيها من نقص وعيوب. وهو يعطي مثالا لذلك بإحصائه للمعطيات المنشورة في هذه الصحافة عن عمليات قراصنة الأقطار المغاربية ضد الدول المسيحية ويصنفها في ثلاث فترات ويقدم عن كل فترة نسبة عملياتها إلى مجموع الفترات الثلاث وهي كالتالي:

1631-1659: 26 %

1660-1689: 56 %

1690-1715: 18 %

1. Guy Turbet- Delof, *La presse périodique française et l'Afrique barbaresque au XVII^{e} siècle (1611-1715)*, Genève, Droz, 1973, p. 23 sq

ويبين المؤلف أن وفرة المعطيات لا تتطابق مع التزايد الفعلي للعمليات بل تترجم قوة الردود المسيحية وتزايد اهتمام الصحافة بعمليات القرصنة المغاربية. إن أكثر من نصف العمليات يخص سنوات 1660-1689 وهي بالضبط السنوات التي قام فيها لويس الرابع عشر بشن هجمات قوية على الأقطار المغاربية.

وهناك عوامل أخرى تؤثر في تزايد المعلومات أو تناقصها. فسنوات 1620-1649 تكاد تطابق حرب الثلاثين سنة (1618-1648) وهي الحرب العامة الهائلة التي كانت وقائعها تجري في البر والبحر وشملت كل الدول الأروبية الكبرى. وفي هذا الصراع الضخم، كانت قرصنة الجزائر تبدو كظاهرة ثانوية لا تجلب اهتمام الصحف والتقارير القنصلية التي كانت تتحدث عنها فقط إذا كانت عملياتها تمس مباشرة الدولة المعنية أو أنها تسدد ضربات قوية لأعداء هذه الدولة.

وينبغي أن نضيف أن صحافة ذلك العصر لم يكن لها مراسلون صحفيون بل كانت تنشر المعلومات التي يرسلها القناصل أو يأتي بها التجار وغيرهم من المسافرين، فعدم انتظام الأخبار وندرتها وضعف مصداقيتها، كل ذلك كان مرتبطا بانعدام الاتصال المباشر المستمر. ويبدو أن هناك مشكلة التمكن المهني. فكفاءة الصحافيين والقناصل ومخبريهم لم تكن عالية المستوى. إن الصحافة ستعرف تحسنا في تجربتها وفي فحص الأخبار والتأكد من صحتها وبيروقراطية النظام الملكي القديم ستسير في طريق التحديث في القرن التالي.

ومهما يكن، تبقى مشاكل التوثيق مطروحة. فقد كتب كثيرا عن قرصنة الجزائر بصفة عامة لكن لا توجد دراسات متخصصة عن هذه القرصنة في القرن السابع عشر ومستقاة من مصادر أولية موثوقة. ومثل هذه الدراسات

لا يمكن أن يتحملها جهد شخص واحد بل تستدعي عملا جماعيا ومضاعفة الدراسات والجهود الشخصية لاستقراء أهم المصادر الوثائقية التي لم تستغل حتى الآن (وبالأخص الوثائق العثمانية في استنبول والوثائق الاسبانية والإيطالية).

وتبعا لهذه الثغرات، فإن التسلسل الزمني للوقائع قد رتبناه ليكون سنويا قدر الإمكان لكن الفترات التي فيها ثغرات كبيرة نظمت بطرق تتلاءم مع المعلومات الجزئية المتوفرة. وقد صنفت في ثلاث فترات متميزة:

1606-1580

1629-1607

1644-1630

1580 - 1606: أسطورة مراد رايس

إن إنجازات ومآثر مراد رايس هي التي صنعت أسطورته وأعطت طابعا استثنائيا لهذه السنوات الصاعدة التي يصفها بروديل كما رأينا سابقا بأنها منحت الجزائر ثروات هائلة.

وكما أسلفنا كذلك فإن الذي أدهش المعاصرين وبالأخص هاييدو من عمليات مراد رايس هي الجرأة الخارقة التي كان يظهرها في مهاجمة السفن الحربية التي كثيرا ما كانت لها قوة مسلحة تفوق قوته. وقد رأينا أنه كان يضاعف العمليات ضد القوادس الحربية فبين 1580 و1582 استولى على قادسين من أسطول البابا أحدهما هو القادس الأميرالي كما استولى على قادس وثلاث غليوطات اسبانية. واجتاح مدينة اسبانية على الساحل قرب أليكانت وأسر فيها 500 شخص كما ساهم في الاستيلاء على أربع قوادس لمالطة واستولى على سفينتين فرنسيتين يقول هاييدو إن قيمة السلع فيهما تفوق مليون قطعة فضية اسبانية من قطع 4 و8 ريالات.

ومهما يكن فإن الوقائع الكبرى الواردة في حوليات المؤلفين الأوروبيين لم تكن سوى الجزء الظاهر من هذه العمليات المتعددة. وكلما قام باحث بفحص وثائق إرشيف جديدة يتسع نطاق المعلومات. وهكذا فإن إرشيفات البندقية التي درسها تنتي[1] تكشف أن 25 سفينة للبندقية أخذت في شهر واحد من طرف القرصان البرباريسك في منطقة كاتارو. وحسب سلفاتوري بونو[2] كانت هجمات هؤلاء القرصان في هذه الفترة قد أدت إلى إخلاء عدة مناطق في سردانيا من السكان. كذلك كانت جزر الباليار وكل الشاطئ الشرقي لاسبانيا وشواطئ كورسيكا مستهدفة باستمرار.

ڤنزيانو وأرنووط

إن أسطورة مراد رايس لا ينبغي أن تنسينا الدور الكبير الذي قام به القبطان مامي أرنووط والباشا حسن ڤنزيانو (في الوثائق العثمانية يدعى حسن البندقي وفي المصادر الإيطالية يطلق عليه أحيانا حسن آغة وليس هناك اشتباه مع سلفه قرصان تاجورة حسن آغة الذي صار فيما بعد باشا طرابلس الغرب وتوفي سنة 1555).

حين عين من جديد بيلرباي الجزائر في 1582 استمر حسن ڤنزيانو في السلطة بهذه الايالة مع بعض الانقطاع من حين لآخر إلى سنة 1588. وكان يقود بنفسه أكبر تشكيلة في الأسطول (من عشرين إلى ثلاثين قادسا) بينما كان كل من مامي أرنووط ومراد رايس على تشكيلة من 10 قوادس تقريبا. وكان ڤنزيانو ومامي ورفاقهما يتوزعون في المناطق الشرقية للبحر المتوسط بينما كان مراد رايس يغزو المناطق الغربية وبالأخص الشواطئ الاسبانية حيث كانت مساعدة السكان الأندلسيين الذي بقوا في سرهم متعلقين بدينهم

---

1. Alberto Tenenti, *Piracy and the Decline of Venice 1580-1615*, Univ. Of California Pr., 1976, p. 25

2. S. Bono, *I Corsari*…, p. 168-169.

ووطنهم تساهم كثيرا في نجاح الغزوات التي شنها على شيلش وموريرة وألتية وپولوپ وكاداكيس وكالوزا وكابومارتن، الخ[1].. وعلى إثر هذه الهجمات أعدم الاسبان 34 موريسكوس بينما استطاع 2000 منهم اللجوء إلى الجزائر بواسطة سفن حسن ڤنزيانو.

وتوالت الهجمات أيضا على الشواطئ الإيطالية. فاجتاح الغزاة ثلاث قرى قرب كاغلياري ثم قريتين في داخل الأراضي، وصار القراصنة يحتلون بعض الجزر الصغيرة التي يكمنون فيها لتصيد السفن المارة.

وفي 1586 بينما كان مراد رايس يقوم بغزوته على جزر الكاناري التي ذكرناها سابقا، كان حسن باشا البندقي والقبطان مامي أرنووط يهاجمان المياه الإيطالية. ومن بين سفن البندقية التي استولى عليها الأسطول الجزائري في 1586 و1588 كانت هناك سفن ضخمة من نوع الغليون والناف وأخرى متوسطة أو كبيرة أحيانا (شيطيات ومرسيليان الخ) وكان ثمن هذه السفن من غير حمولتها قد يبلغ 10 آلاف إيكي. وأحد الغليونات الذي غنم كان يحمل شحنة كاملة من الحرير وكانت شيطية أخرى تحمل سلعا لها قيمة كبيرة. وإحدى السفن افتداها صاحبها بـ 90 ألف إيكي وفرقاطة قادمة من اسبانيا كانت تحمل 4000 إيكي نقدا. ومن جهته استولى مراد رايس في هذه السنوات ومن جديد على قادسين وبريغنتين من أسطول البابا وقادس لمالطة. وكانت غنائمه ضد الفرنسيين والانكليز موضوع شكاوى في استنبول كما تقدم ذلك[2].

---

1. حول التفاصيل أنظر:

Sebastià Garcia Martinez, *Bandolerismo, pirateria y control de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II*, Valencia, 1997, p. 69-71 et Ellen Friedman, *Spanish…*, *op. cit.*, p. 6-13.

2. في مراسلاتهم مع الملك الفرنسي هنري الرابع في 1603 ومع الملك الفرنسي لويس الثالث عشر في 1618، شرح العثمانيون أن انعدام الطاعة المتزايد عند قراصنة الإيالات المغاربية يعود إلى «الخميرة الجديدة» التي أدخلها لديهم العلوج من أصل فرنسي وانكليزي وهولندي. انظر في الموضوع G. Fisher, *La Légende*…, p. 243.

وفي السنوات الأخيرة من عقد 1580 تعددت الهجمات على ميورقة وسواحل بلنشية واللاتيوم وصقلية. ونزلت قوات كبيرة في پورتوفيشيو بكورسيكا وأدت هذه الهجمات إلى أسر آلاف الأشخاص. وأحيانا كان المدافعون المحليون ينجحون في رد المهاجمين ويكبدونهم خسائر ثقيلة. كما أن الخسائر في عرض البحر كانت كثيرة وأحيانا هامة.

إن عقد 1590 يشبه العقد السابق. وتركزت الهجومات على غربي البحر المتوسط مع بعض الغارات في المحيط الأطلسي.

إن أهم العناصر المقدمة في السطور التالية مستقاة من مؤلفات بن نصار وتنتي وفريدمان التي تقدم ذكرها:

1590–1592: الاستيلاء على شيطية جنوية محملة بالخمر وعلى سفينة برتغالية وناف قطلانية (طن) وقاراموصل بندقية (قمح) والناف البندقية سانتاماريا.

1593–1597: في قائمة بأسماء السفن التي أخذها البرباريسك ونشرها ألبرتو تنتي[1] وعدد ما تحمله من سلع والتواريخ التي أخذت فيها وغير ذلك من المعلومات، ورد من بين السفن المأخوذة ذكر 4 غليونات و5 ناڤات وسفينة من نوع المرسيليان وشيطية. أما السلع المختلفة التي كانت تحملها فمنها عقاقير وسكر وكاغط وزيت وحرير وأبسطة وخمر وقماش ومرايا وعنب مجفف، الخ؛ كذلك أخذت عدة صنادل وقوارب لكن دون تعداد ولا تعيين محدد.

أما مراد رايس فقد استولى من جهته في 1594 على القادس الأميرالي لدوق فلورنسة وعلى قادس آخر اسمه القديس يوحنا. وفي 1595 استولى على ثلاث سفن صقلية. وفي 1599، أخذت سفينتان كبيرتان جدا من نوع الناف في المياه البرتغالية وجلبتا إلى الجزائر.

1. A. Tenenti, *Naufrages*..., p. 90- 196.

وفي 1601، استولى الجزائريون على غليون بندقي (سانتا كاتالينا) قادم من قادش وعلى ناف بندقية محملة بأكياس من الصوف. وأخذت سفينتان بندقيتان من نوع الناف في 1604. وفي صيف 1605 سجل البنادقة ضياع 15 سفينة تجارية استولى عليها «البرباريسك» (منها 5 مرسيليانة و2 برتوني وسفينة دائرية، الخ)[1].

وكانت الهجمات على الشواطئ الاسبانية والإيطالية تتكرر في كل سنة. وفي كل سنة أيضا كانت سفن الجزائر تتكبد بعض الخسائر وكانت السفن التجارية الجزائرية التي تقوم بنقل السلع بين المواني المغاربية في ملاحة ساحلية لا تبتعد كثيرا عن الشواطئ، كانت هي فريسة للقراصنة الأوروبيين.

1607-1627 نقطة التحول الأطلسية

تضخم القرصنة: بدون شك أنه منذ بداية القرن السابع عشر كان الرياس القادمون من البلاد الشمالية قد التحقوا بالجزائر. لكن في عقد 1610 بدأ دورهم يأخذ طابعا حاسما. فقد تغيرت النظرة في الجزائر للمحيط الأطلسي الذي لم يعد «بحر الظلمات» كما كان منذ آلاف السنين. إن السفن العالية الجوانب والمتعددة السطوح حلت محل سفن التجديف التي صارت تقوم بدور هامشي. وهذه السفن الجديدة سمحت بالملاحة في كل فصول السنة ووسعت ساحة القرصنة إلى درجة كبيرة.

وفي اللوحة الجغرافية التي رسمها كتاب بن نصار[2] عن الغنائم المغاربية، من بين 365 منطقة تم فيها الاستيلاء على هذه الغنائم وحددت بدقة كانت

1. A. Tenenti, *Piracy…, op.cit.*, p. 26
2. B. et L. Bennassar, *Les Chrétiens…*, p. 209.

منطقة جبل طارق تمثل (28،84 % من المجموع) ويليها المناطق الوسطى من الأطلسي (18،68 %). أما مناطق الأطلسي الشمالية فتمثل 6,31 %.

وتأتي على رأس البلاد المستهدفة جزر الكاناري وماديرة وآصورس حيث كان الرياس يترصدون للسفن المنعزلة من «قافلة الهنود». وكانت هذه مقصودة بالأخص لأنها تحمل الذهب والفضة والمواد الثمينة عند عودتها من أمريكا. وفي قائمة جردها الرسميون الاسبان[1] عن مواطنيهم الذين وقعوا في الأسر بيد قراصنة الجزائر، بين 1610 و1680 يرد ذكر جماعات أخذوا من هذه القافلة البحرية في 51 سنة من جملة 70 سنة. وبالأخص بين 1653 و1677 حيث كانت على الأقل إحدى سفن هذه القافلة تؤخذ في كل سنة.

إن الثروات المنهوبة في أمريكا وآسيا وافريقيا التي كانت تحملها السفن الأروبية في المحيط الأطلسي وبالأخص «قافلة الهنود» الاسبانية المحملة بالذهب والفضة المنهوبين في أمريكا، هذه العملية الكبرى من النهب الذي تمارسه أروبا في أقطار العالم كان قراصنة الجزائر يأخذون منها نصيبا سنحاول تقديره في فصول آتية.

عودة إلى دانسر

على قصر المدة وغموض الدور الذي يعزى له، يبقى أن دانسر يجسد الخصائص الجديدة للقرصنة في الجزائر كمؤسسة متعددة الأجناس مفتوحة لكل المهنيين في العالم يقال إنه في هذه السنوات القليلة (1607-1609) علم بحارة الجزائر كيف تصنع وكيف تقاد السفن العالية الجوانب والمتعددة السطوح وهي السفن من النوع الشمالي الذي له شكل مستدير. ويعزى له كذلك أنه استولى على ثلاثين (أو أربعين) سفينة أثناء إقامته في الجزائر[2].

---

1. E. Friedman, *op.cit.*, p. 14-16.

2. H. de Grammont, Relations…, *RA*, 1879, p. 9

وأمام محاكم التفتيش الاسبانية، روى بحار صقلي كان أسره دانسر[1] في 1608 أنه حين وقع في الأسر رأى دانسر قد استولى في نفس الوقت على سفينتين فرنسيتين وأسر عددا كبيرا من الأشخاص.

وتبين شهادات مختلفة أن دانسر وهو في خدمة الجزائر كانت له صلات مستمرة مع بلده الأصلي ومع مرسيليا أين كانت تقيم زوجته وحين اتفق مع المرسيليين على تولي قيادة قرصنتهم ذهب من الجزائر بمدفعين كبيرين كانت الجزائر قد أعارتهما له وكانت مسألة المدفعين سبب القطيعة بين الجزائر وفرنسا. وأدى هذا النزاع إلى تعرض السواحل الفرنسية لهجمات الأسطول الجزائري مدة عشرين عاما.

وبعد ذهاب دانسر من الجزائر بمدة قليلة أشارت التقارير الاسبانية إلى أن أحد رياس البحر الانكليز الذي أسره التوسكانيون قد فر على غليون ومعه 90 شخصا قرروا جميعا اللحاق بالجزائر[2] حيث رحب بهم وأصبح الربان الانكليزي الفار من رياس الجزائر، إذن يكفي في هذه الظروف الجديدة أن يقدم ربان إنكليزي إلى الجزائر ليصبح على الفور من رياس الجزائر. هذا الحادث يبرز الجو العام الذي كان يسود القراصنة في الجزائر. وكان قائدهم العام القبطان سليمان باي هو نفسه قرصانا في هولندة قبل أن يلتحق بالجزائر. وتحت قيادته التي استمرت من 1610 إلى 1620 ستعرف القرصنة في الجزائر أوج قوتها. كما أن العقد التالي كان أيضا من أخصب الفترات.

1. B. et L. Bennassar, *op.cit.*, p. 204.

2. Ch. De La Véronne, « Sources documentaires sur l'Algérie en Espagne », *in Actes du 5e Symposium du CIEPO*, éd. Temimi T.- Zaghouan, 1984, p. 329.

قوة صاعدة

فلننطلق من المعطيات التي سجلها غراماي[1]: من 1608 إلى 1618، في تسع سنوات (تنقص تماما سنة 1612 وكذلك سنة 1615) جلبت إلى الجزائر 251 سفينة من الغنائم و7035 أسيرا.

ويمكن أن نقارن هذه المعطيات بأخرى وردت في تعداد عام[2] بعثه في 1623 مراسل فرنسي إلى السيد دي پيرسيك de Peyresc مستشار الملك في برلمان إكس. وهو يذكر استيلاء قراصنة الجزائر بين 1613 و1621 على 936 سفينة. هذه تفاصيلها: 447 سفينة من هولندة؛ 193 من فرنسا؛ 56 من البلاد الألمانية؛ 120 من اسبانية؛ 60 من انكلترا وأكثر من 60 من مناطق بروفانس ولنغدوك الفرنسية.

إن غراماي يستند إلى وثائق جزائرية رسمية. أما هذا التعداد الذي يقول صاحبه إنه نسخة من وثائق القنصلية الفرنسية بالجزائر. والمعروف أن الزعم بالاستناد إلى وثائق أصلية لا يكفي في حد ذاته للتدليل على صحة هذا الزعم.

ويبدو أن المصدرين ليس لهما نفس القيمة. فإلى جانب الخصال المعنوية والذهنية المعترف بها لغراماي فإن ما يعطيه من تفاصيل يومية عن كل سفينة وغنائمها وأسراها الخ. يضفي على معلوماته كثيرا من المصداقية. أما المصدر الثاني فلا يتمتع بنفس المصداقية، ويظهر ذلك من مثال واحد. يذكر المراسل أنه استقى مباشرة من تعداد رسمي عام لسكان الجزائر في 1621 جاء فيه أن «عدد عائلات الأتراك 30.000 وعائلات الأهالي 97.000 وعائلات اليهود

---

1. A.- H. Ben Mansour, *op.cit.*, p. 178.

2. نشر دي ڤرامون في H. de Grammont, Relations..., *RA*, 1879, p. 137-138

10.000». إن هذه الأرقام الخيالية تظهر كم كان هذا المراسل غير واقعي ويخترع أرقاما غير معقولة.

وهناك وثائق رسمية محلية تقدم معطيات جزئية:

– في السجل العقاري لمدينة سان تروبيز قيدت الغنائم التي أخذها «الأتراك والأهالي» بين 1607 و1625، والجملة 17 سفينة[1]. ولسنا بحاجة إلى التذكير أن هذه سجلات قيد رسمية لا يمكن التشكك في صحتها.

– وقد سجل السيد M. de Séguinier المكلف بالتحقق من الأوضاع في شواطئ بروڤانس في سنوات 1633–1635، سجل في تقريره[2] المعطيات الآتية:

– في كاسيس يقول السكان إن البرباريسك أخذوا لهم في عشرين سنة حوالي 40 صندلا و3 أو 4 سفن أخرى.

– في لاسيوتا، أخذوا لهم أخيرا في سنة واحدة 24 صندلا ونحو 150 بحارا.

– في أوليول، يقول ربان إنه نهب ثلاث مرات وأخذ أسيرا إلى الجزائر مرتين وأن سلعه التي بيعت بالجزائر قيمتها حوالي 50 ألف ليرة ترنوا.

– في مرتيغ منذ أربعة أشهر أخذ قراصنة الجزائر وتونس 80 بحارا. كما يبدو من استعمال نحو، تقريبا، الخ. فإن هذه الأرقام تقريبية وقد تكون فيها مبالغة مقصودة كما هو حال كثير من الشكايات بقصد التعويض.

– جاء في مذكرة إنكليزية[3] في سنة 1628 إن قرصان الجزائر أخذوا 466 سفينة إنكليزية بين 1609 و1616. ويعتبر فيشر الذي يذكر هذه الأرقام لنقدها

---

1. Jean-Louis Miège, « Aspects de la course marocaine au XVIIe siècle », *in La guerre de course..., op.cit.*, p. 53.

2. *Correspondance de M. de Sourdis*, P., 1839, t.. 1, p. XXXI à XXX VIII

3. G. Fisher , *La Légende..., op.cit.*, p. 245 sq

مستندا إلى وثائق إنكليزية أخرى، أن صاحب هذا التقرير قد بالغ في الأرقام عمدا ليظهر بالعكس كيف صارت الملاحة الإنكليزية تتمتع بالأمن منذ إبرام معاهدة الصلح مع الجزائر. كما يعتبر فيشر أن عدد 150 سفينة إنكليزية أخذها الجزائريون منذ 1616 وطالب الأميرال الانكليزي منسل بإرجاعها في 1620، هو عدد مبالغ فيه وأن رد الجزائريين بأنهم لم يأخذوا إلا بعض سفن السردين، هو أقرب إلى الواقع.

– اعتمادا على وثائق هولوندية، يلاحظ G. Van Krieken[1] أنه أثناء إقامة دي كيسر في الجزائر (1616 إلى 1627) أخذ «القرصان (بالجزائر) في الجملة 216 سفينة هولندية منها 82 أخذت في سنة 1620» . ومن هذا المجموع، 25 سفينة أخذت ظلما في وقت السلم (1622–1627) وأعيدت إلى أصحابها. ويضيف المؤلف أنه في 1622 في أثناء المفاوضات من أجل السلم، لم تؤخذ سوى سفينة هولندية واحدة وأن أكثر السفن التي أخذت في وقت السلم كانت في الواقع قد حجزت لأنها كانت تقوم بعمليات تهريب أو لأنها رفعت علم دول معادية للجزائر، الخ. وفي هذه الحالات كانت الجزائر تقبل ردها عموما مقابل بعض المبالغ المالية.

– في وثيقة عثمانية نشرها خليل الساحلي[2] وردت قائمة بالغنائم التي أخذها قراصنة الجزائر وتونس ضد البندقية بين 1612 و1638. وفي هذه القائمة التي يبدو أن المسئولين في إيالات تونس والجزائر هم الذين بعثوها إلى استنبول، ذكر مكان وتاريخ الاستيلاء على كل غنيمة واسم ونوعية السفينة المستولى عليها وكذلك القيمة الإجمالية لغنائم كل سنة. وفي الجملة

---

1. G. Van Krieken, *op.cit.*, p. 24 sq

2. خليل الساحلي، « الصراع بين قراصنة تونس والجزائر والبندقية في القرن السابع عشر»، م ت م، تونس، عدد 4، جويلية 1975، ص 105 - 112.

كان مجموع السفن المأخوذة 37 سفينة معظمها من السفن الضخمة (قوادس وغليونات) وأحيانا متوسطة (طرطان، الخ) قيمتها 5 ملايين قرش بالإضافة إلى قيمة السلع والأسرى الخ من الغنائم المأخوذة في البحر.

سنوات الغنائم القصوى

في هذا العرض تركيز على السنوات التي بلغت فيها الغنائم حدا أقصى. وأحيانا تبدو بعض الأرقام المقدمة من مؤلفين معاصرين أو حتى من وثائق رسمية، فيها شيء من المبالغة. لكنها مع ذلك بالمقارنة مع غيرها تسمح بالوصول إلى تقديرات عامة تقريبية تعطي فكرة عن أهمية الغنائم في هذه الفترة. وهذا كتعويض أيضا عن الثغرات الكثيرة في معلوماتنا وغياب الوقائع الصغرى التي كانت بتواليها وكثرتها تؤلف على صغرها مجموعة من الغنائم لا بأس بها.

1611 - 1613: تتحدث التقارير القنصلية الفرنسية[1] عن أخذ سفن فرنسية (بارجتين، سفينة ڤولاكر، 3 صنادل وطرطانة) من طرف قرصان الجزائر. وفي البر أخذوا أكثر من 2000 شخص في جزيرة سانتاماريا وجزيرة سانتوپورتو وفي غاليسيا وصقلية.

من جهة أخرى استولى الجزائريون على سفينتين كبيرتين من سفن البندقية بالاشتراك مع قراصنة تونس وكانت قيمتها 700 ألف قرش. وبالمقارنة مع قائمة غراماي عن هاته السنوات (36 سفينة في الجملة و694 أسيرا) تبدو الأخيرة ضعيفة جدا لكن غراماي يوضح أن معطياته عن سنة 1613 تخص إيطاليا فقط وهو لا يعطي أية معلومات عن غنائم 1612.

1. ANP, 369 *Mi 1*, art. 1338 et 1339 et H. de Grammont, op. cit., *RA*, 1879, p. 138.

1616 - 1615: تجاوزت قيمة الغنائم الجزائرية في هاتين السنتين 3 ملايين ليرة ترنوا في كل سنة حسب دي غرامون [1] الذي يعتمد على الشكايات والتقارير المقدمة في هذا الموضوع دون أن يذكر التفاصيل.

1618 - 1617: يضاف إلى 456 جنديا اسبانيا أسروا في سفن هولندية كانت تنقلهم وذكرناها سابقا، مئات من الأشخاص الذي أخذوا في قرى غاليسيا وبالأخص في أرخبيل ماديرا (من 700 إلى 1200 شخص أسروا في هذا الأرخبيل حسب تقديرات مختلفة) وفي جزر الكناري (900 أسير).

من جهة أخرى استولى الجزائريون على سفينتين اسبانيتين تحملان 26 صندوقا من النقود الفضية وعلى سفينة أخرى كانت تحمل أجرة حامية Valez. لكن عند الرجوع من جزر كناري وقعت السفن الجزائرية في كمين نصبته لها عمارة ضخمة مشتركة اسبانية وهولندية.

فأغرقت أو أخذت 12 سفينة ولجأت سفن أخرى إلى شاطئ المغرب الأقصى واستطاعت 17 سفينة من جملة 36 الرجوع إلى الجزائر[2]. لكن قراصنة الجزائر أخذوا 33 سفينة تجارية[3] هولندية في 1617 و12 سفينة أخرى في 1618.

1621 - 1619: يعطي غراماي[4] تفاصيل الغنائم المجلوبة للجزائر من 9 ماي إلى 26 أكتوبر 1619: الجملة 25 سفينة و 578 أسيرا منهم 535 اسبانيا. وكما يلاحظه الدكتور الأستاذ عبد الهادي بن منصور فإن عدد الأسرى في الواقع كان أعلى من الرقم الذي يقدمه غراماي. فالغنائم التي قدمت إلى الجزائر

---

1. H. de Grammont, *Histoire*..., p. 122.
2. أنظر بن نصار وكريكن

B et L. Bennassar, *op. cit.*, p. 217-218 et G. Van Krieken, *op. cit*, p. 26.

3. G. Van Krieken, *op.cit.*, p. 25-26.
4. A.- H Ben Mansour, *op. cit.*, p. 178 sq

في شهري جويلية وأوت غير معدودة لغياب غراماي عن مدينة الجزائر. كذلك هناك أسرى تابعون لدول أخرى لم يدخلهم المؤلف في قوائمه. مع ذلك فإن مذكرات غراماي اليومية لها أهمية أساسية لعدة أسباب. فالغنائم مسجلة بدقة يوما بيوم والتفاصيل التي تصحبها تعطي فكرة عن الحياة اليومية لمهنة القرصنة. ومن غنائم 1619 يذكر كريكن 12 سفينة تجارية هولندية[1].

كانت 1620 سنة استثنائية. فمن بين 125 سفينة أخذها الجزائريون في هذه السنة كان عدد السفن الهولندية فيها هو 76 سفينة[2]. وتذكر التقارير الفرنسية[3] أن قراصنة الجزائر استولوا في مدة شهرين من هذه السنة على 20 سفينة منها 10 سفن فرنسية بلغت قيمتها 205.000 إيكي. وفي ستة أشهر أخذت 21 سفينة فرنسية وجيء بها إلى الجزائر كما أن سفنا فرنسية أخرى استولى عليها قراصنة الجزائر وجهت إلى تطوان. وفي ماي 1621 قدر مجموع الغنائم الفرنسية الأصل بـ 800 ألف إيكي وكان عدد الأسرى الفرنسيين حوالي 500. أما ما ذكرته التقارير الاسبانية للسفير الانكليزي روي أن الجزائريين أخذوا 40 سفينة إنكليزية فإن تحليل فيشر[4] للظروف الآنية لرحلة هذا السفير إلى استنبول تظهر ما في هذه التقارير من مطاعن وتبين أن غرض الاسبان كان دفع الانكليز إلى مهاجمة السفن الجزائرية.

إن 1621 كانت أيضا سنة تكبدت فيها السفن الجزائرية خسائر كبيرة من جراء الهجمات الفرنسية والإنكليزية. من جهة أخرى يذكر Mascarenhas [5] أنه قبل استيلاء الجزائريين على سفينته كانوا قد استولوا على 19 سفينة

1. G. Van Krieken, *op.cit.*, p. 26

2. نفس المصدر، ص 28.

3. تقارير القنصل الفرنسي ANP, 369 Mi 1, art. 1340. corresp. du consul Chaix. في الجزائر وهي عبارة عن تسجيلات يومية فيها تفاصيل كثيرة عن كل سفينة وطاقمها والميناء التي تنتمي له ونوع السلع فيها وقيمتها، الخ.

4. G. Fisher, *op.cit.*, p. 266 sq

5. J. Mascarenhas, *op.cit.*, p. 41-42

إنكليزية. ومن بين الغنائم التي جلبها القراصنة إلى الجزائر في هذه السنة سفينة اسبانية من اشبيلية وسفينة أخرى من سان مالو[1].

1622 - 1623: الغنائم الكبرى في هاتين السنتين هي بالأخص بندقية. 5 بوارج وسفن عظمى قدرت قيمتها قيمتها بـ 1.700.000 قرش حسب الوثيقة العثمانية السابقة الذكر. كذلك تم الاستيلاء على سفن إنكليزية وفرنسية واسبانية وألمانية وإيطالية. وفي البر شنت غارات على قرى غاليسيا. وفي إيطاليا في ميناء أغريجنت استولى القراصنة على سفينة قادمة من نابولي وعلى بحارة وحمالين كانوا في الميناء.

1624 - 1625: في 1624 اجتاحت سفن الجزائر وتونس ميناء پيراستو وهي قاعدة بحرية للبندقية في الأدرياتيك. وبينما تقدر الوثيقة العثمانية السالفة عدد الأشخاص الذين أسروا بـ 300 وقيمة الغنائم والأضرار التي أصيبت بها المدينة بحوالي نصف مليون قرش فإن التقارير البندقية[2] تعطي تفاصيل عن العملية وملابساتها. ومن المفيد المقارنة بين تقارير الجهتين. يقول البنادقة إن 6 غليوطات جزائرية بقيادة مامي و7 غليوطات تونسية بقيادة أسطى مراد قد اكتسحت مدينة پيراستو وأخذت منها 450 شخصا في 22 جوان 1624. وقدرت الغنائم التي أخذوها بأكثر من 100 ألف إيكي. وفي 26 أو 27 جوان نهبوا 3 سفن من راكوس وسفينتين من پيراستو في ميناء دورانزوا ثم هاجموا جزر پاكسوس وانتياكوس وأسروا فيها كثيرا من الأشخاص. وفي جزيرة تيابي أنزلوا 2000 مقاتل خربوا الجزيرة. وعلى إثر هذه العمليات أرسلت البندقية مبعوثا هو سلڤاغو إلى الجزائر وتونس للتفاوض على عقد معاهدة صلح.

---

1. B. et L. Bennassar, *op.cit.*, p. 210-221.

2. انظر عنها - P. Granchamp, « Une mission délicate en Barbarie au XVIIe siècle», Jean-Baptiste Salvago, drogman vénitien à Alger et à Tunis (1625) », *RT*, VIII, 1937, p. 229-322 et p. 471-501.

كما استولت سفن الجزائر وتونس على قادسين من برشلونة محملين بقطع نقدية موجهة إلى السوق الفصلي الكبير المنعقد في صقلية. ويذكر ماسكاريناس[1] الذي كان جدافا في إحدى السفن الجزائرية وهو شاهد عيان للحادث أنه كان في القادسين من الذهب والفضة ما يبلغ قيمة 860 ألف كروزادو (الكروزادو قطعة ذهبية برتغالية عالية القيمة). ونهب الجزائريون مدينة سپرلونجا التابعة للبابا وأخذوا منها 1500 أسير.

وعلى المحيط الأطلسي أخذوا سفينة برتغالية عظمى وعدة سفن صيد و53 بحارة. وفي 1625 توغلوا في شمال المحيط إلى جزيرة Terre Neuve (نيوفولند) واستولوا على 132 من البحارة وعلى سفنهم المحملة بسمك المورة. وفي طريق العودة أخذوا 9 سفن أخرى[2].

ومن 1626 إلى نهاية العقد استمرت الهجمات على البنادقة. واستولت سفن الجزائر وتونس على 18 سفينة بندقية كبرى محملة بسلع لها قيمة عالية قدرت بحوالي 1600 ألف قرش. ومن السفن الأخرى التي أخذها الجزائريون سفن من ليڤورنة ومن البرتغال وسفن صيد المورة العائدة من شمالي الأطلسي.

إن الغارة على إيسلندة التي سبق ذكرها بقيت في التاريخ كإنجاز كبير ليس تبعا لقيمة الغنائم وعدد الأسرى بل لأن رياس الجزائر لم يغامروا أبدا إلى أماكن بعيدة في المحيط مثل إيسلندة.

1630 - 1644: لوحة متباينة

ابتداء من 1630، بالإضافة إلى الحرب الدائمة ضد اسبانيا، دخلت الجزائر من جديد في نزاع مع الانكليز والهولنديين.

---

1. J. Mascarenhas, *op.cit.*, p. 153 sq

2. B. et L. Bennassar, *op.cit.*, p. 169-170.

الجزائر والفرنسيون

أما الفرنسيون فإنهم خلافا لما تضمنته اتفاقيات 1628 استولوا على سفينة جزائرية وأرسلوا بحارتها يجدفون في قوادسهم. وبعد مطالبات متعددة بدأت الجزائر تستعمل سياسة الرد المتدرج. فكانت تحجز السفن الفرنسية وتحتفظ ببحارتها في مدينة الجزائر لكن تتركهم أحرارا داخل المدينة. وأحيانا كانت بعض السفن الفرنسية المستولى عليها تعتبر «غنيمة شرعية». وهذا حال ثلاث سفن مرسيلية أطلقت النيران على السفن الجزائرية في 1630 فقامت هذه بالاستيلاء عليها كما لقيت بعض السفن الأخرى مصيرا مشابها بذرائع متعددة.

في الجملة من 1628 إلى 1631 تم الاستيلاء على 20 سفينة فرنسية قدرت قيمتها بـ 380 ألف إيكي[1]. ومن هذا المجموع نجح القنصل الفرنسي في استرجاع 105 أشخاص وبعض السفن. وفي 1633 قبض على القنصل لأنه ساهم في فرار عبيد مسيحيين. وبمبالغة كبيرة تدعي مراسلاته[2] أن 2300 فرنسي كانوا في الأسر في الجزائر. وتذكر جريدة La Gazette عن هذه السنة أن 4 صنادل و3 سفن كبرى مرسيلية أخذت إلى الجزائر وأن قيمتها تبلغ نحو مليونين من الليرات ترنوا. أما الأب دان[3] فيذكر أنه بين 1628 و1633 أخذ قرصان الجزائر 80 سفينة فرنسية قيمتها 4.752.000 ليرة ترنوا وأسروا 1331 فرنسي منهم 342 تركوا أحرارا في المدينة لكن تحت التحفظ.

كذلك كانت الغنائم مهمة في 1634 والسنوات التالية. ودفع فشل المفاوضات بالفرنسيين إلى تشكيل أسطول لمهاجمة السفن الجزائرية ابتداء من 1636 لكن القطيعة الفعلية لم تبدأ إلا في 1638.

---

1. ANP, 369 Mi 1, art. 1347

2. نفس المصدر، جويلية 1633

3. P. Dan, *Les corsaires…*, éd. 1649, p. 320-321.

في جانفي 1638 هدم بتشنين الباستيون وأخذ كل الفرنسين العاملين فيه كأسرى إلى الجزائر وعددهم 317 شخصا. وفي 1639 استولى على سفينة مرسيلية وتبعتها سفن أخرى كانت قيمة إحداها 56 ألف قرش وقيمة بارجة من سان مالو بحمولتها من القطع النقدية والسبائك الفضية وغيرها وقدرت بنصف مليون قرش[1]. كما أن صندلا من مارتيغ مشحونا بالزيت والحرير أخذ وقدرت قيمته بسبعة أو ثمانية آلاف إيكي. وفي 1641 تم الاستيلاء على سفينة من منطقة بريطانيا الفرنسية كانت ذاهبة إلى كندا كما أخذت سفينة من مدينة أولون وكان من بين من أسروا فيها النبيل الفرنسي René Chastelet des Bois الذي كتب قصة أسره وحياته في الجزائر[2].

الاسبان والإيطاليون

كانت السواحل الإيبيرية والإيطالية تتعرض لهجمات مستمرة. وتذكر لاغازيت في مراسلة من نابولي، في 3 مارس 1632 أن 130 سفينة من الجزائر وبنزرت تذرع المياه الإيطالية والاسبانية. إن الرقم فيه مبالغة محتملة لكنه يظهر أهمية الوسائل المجندة. وحسب مراسلة أخرى لنفس الجريدة من جنوة في 15 جويلية 1633، كانت 50 سفينة مغاربية مستديرة الشكل قد اجتازت مضيق جبل طارق للهجوم على الساحل الأطلسي لاسبانيا.

إن هذه التشكيلات البحرية الكبرى كانت تتوزع على عدة جهات لكنها تركز ضرباتها القوية في جهة معينة. وحسب جريدة لاغازيت في 1631 كانت كورسيكا هي التي تعرضت لأضرار جسيمة. وفي نفس الوقت كان القراصنة الصقليون والنابوليون قد استولوا في الشواطئ الإيطالية على مسيحيين باعوهم للسفن المغاربية حسب مراسلات لنفس الجريدة في السنة المذكورة.

---

1. حسب مراسلة من الجزائر بتاريخ 4 فيفري 1640 انظر *RA*, 1879, p. 441

2. René Chastelet des Bois, L'Odyssée..., *RA*, 1866, p. 91 sq

وفي السنة التالية هاجم الجزائريون سواحل نابولي، وفي داخل الأراضي، هزموا عصابات من قطاع الطرق والمتمردين على سلطات نابولي وكان عددهم يتكاثر وقوتهم تتزايد في هذه السنوات. وهاجمت 50 سفينة جزائرية في 1632 سواحل البرتغال حيث أحدثت تخريبات كثيرة.

وفي 1633، كانت أيضا 50 سفينة في المياه الاسبانية منعت التنقل البحري في المنطقة وأغارت على عدة مناطق كما استولت على عدة سفن في الموانئ الاسبانية وأسرت 100 بحار وسفينتهم في مياه جزر آسورس. واستولى الجزائريون على 3 قوادس لنابولي منها اثنان كانا يحملان جنودا إسبانيين وعلى القادس الأميرالي لفلورنسا وعلى سفينتين تجاريتين (حرير وغيره) قدرت قيمتهما بحوالي 200 ألف إيكي.

وابتداء من سنة 1634 يلاحظ اشتداد الحملة الصحفية في جريدة لاغازيت بعد اندلاع الحرب التي خاضها الفرنسيون والهولنديون على اسبانيا. وصارت الجريدة تنتقي الأخبار المضادة للاسبان وقد تبالغ فيها أحيانا وتظهر كيف كان الهولنديون يستولون على سفن «القافلة الهندية» المحملة بالذهب والفضة. وتذهب الجريدة إلى حد تفسير غرق ما لا يقل عن 15 قادسا اسبانيا في عاصفة شديدة أن سبب غرقها أنها أبحرت دون أن يباركها البابا! كما نشرت الجريدة أخبارا عن انتشار الوباء بين الجنود والبحارة الاسبان وكيف كانت كاتالونيا ثائرة ضد الاسبان تريد الاحتفاظ باستقلالها الذاتي وامتيازاتها وفي مملكة نابولي التابعة لاسبانيا كانت الثورة تنتشر كما أن القراصنة البرباريسك أسروا أكثر من ألفي شخص في سواحل نابولي واستولوا على أربع بوارج كبرى تابعة لها.

أما أخبار الجريدة عن نشاط القراصنة الجزائريين في 1636 فهي تذكر أنهم أخذوا 700 شخص في كالابريه في جنوب إيطاليا وأنهم مازالوا يجتاحون

الأراضي الإيطالية ويحدثون فيها أضرارا بالغة. وعن 1637 تقول لاغازيت أن الجزائريين أحرقوا مدينة سريالي واستولوا على 400 شخص فيها وأنهم اجتاحوا سردانيا وأخذوا فيها 500 شخص. وفي 1638 استولوا على قيمة 8 ملايين (ليرة؟) من السفن الاسبانية في المحيط الأطلسي.

ومع ما فيها من التحيز والمبالغة أحيانا، فإن أخبار الجريدة تستند عموما إلى وقائع فعلية تثبتها مصادر أخرى. فمن بين ما ذكره فرنسيس نايت التاجر الانكليزي الأسير بالجزائر في كتابه السالف الذكر وصول غنائم غنية و365 أسيرا أخذوا في خليج جنوة و315 آخرين أتي بهم من كالپ باسبانبا و238 من توسكانا وليڤورنة و115 من كالابريه. وفي نفس السنة 1638 تذكر مراسلات من الجزائر إلى سوردي[1] نائب القائد العام للأسطول الفرنسي في البحر المتوسط أن قرصان الجزائر استولوا على أكثر من ألف شخص في غارتين على إيطاليا واسبانيا في الصيف الماضي و«أنهم أخذوا أو أغرقوا عشرة سفن من القافلة الهندية غنية بكل ما هو ثمين في الأرض... بحيث أنه يا سيدي، لا يمكن تعداد كل الخيرات التي جلبت إلى هذه المدينة (الجزائر) منذ ثلاثة شهور».

وفي 1639 استولى علي بتشنين على ألف شخص في كالابرية، كما أسر سفينة اسبانية وصندلا محملا بـ 60 سبيكة فضة و16 من البحارة الذين نجوا من الموت في المعركة للاستيلاء على الصندل.

وفي 1640 تم نهب تالون وغوالشوس في الأندلس وأسر عدة أشخاص. كما استولى رياس الجزائر على بارجتين اسبانيتين وسفينة متوسطة لاسبانيا أيضا في جزر البليار.

---

1. المراسلة غير مؤرخة *Correspondance de Sourdis*, op.cit., t. II, p. 411 ولكن الملابسات التي ذكرت فيها تشير إلى أنها من سنة 1638.

وفي 1643 نهبوا Gasparina و Montauro و Staletti. وفي 1644 تقول مراسلة من ناپولي بتاريخ 9 جويلية 1644 منشورة في جريدة لاغازيت أن عدد الأشخاص الذين أسروا في أراضي ناپولي قد بلغ 4000 شخص.

وفعلا بسبب قربها وتبعيتها للاسبان الذين كانوا في حرب دائمة مع الإيالات المغاربية كانت الجزر والسواحل الإيطالية هي المعرضة بصورة رئيسية للهجمات المغاربية. مثلا من بين 1550 من العلوج الذين تم التعرف على أصلهم بواسطة التحقيقات التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش الأوروبية ودرسها برتولومي ولوسي بن نصار[1] 61,50 % كانوا من البلاد التي هي في حرب دائمة مع الجزائر بالأخص: 459 اسبان و402 إيطاليين و93 برتغاليين.

الإنكليز:

في 1631 توغلت تشكيلة من السفن الجزائرية في المياه البريطانية. وحسب مراسلة قنصلية إنكليزية ذكرها Philippe Gosse في كتابه السالف الذكر استولت هذه السفن على 49 سفينة شراعية بريطانية. أما فيشر[2] فينتقد هذه الأرقام ويقول بأن الغارة على بلتيمور أدت إلى أسر 109 أشخاص فقط في 1631. وبعد هذه الغارة لم يتجاوز عدد الأسرى الانكليز في مدينة الجزائر 380 أسيرا. ويستشهد بوثيقة إنكليزية جاء فيها أن عدد السفن التي أخذها الجزائريون منذ 1629 سنة القطيعة الدبلوماسية إلى 1636 هي 53 سفينة.

ولن نناقش هذه الأرقام هنا. فمن الممكن أن الغارة على المياه الإيرلندية في 1631 قد أدت إلى الاستيلاء على بعض مراكب الصيد البحري الصغيرة والصنادل التي تقوم بالملاحة الساحلية وفي هذه الحالة يكتفي القراصنة بأخذ البحارة والسلع وإغراق هذه المراكب ذات القيمة المحدودة. مثلا تذكر لاغازيت في مراسلة لها من امستردام بتاريخ 22 أوت 1635 أن قراصنة مدينة دنكرك

1. B. et L. Bennassar, *op. cit.*, p. 150.

2. G. Fisher, *op. cit.*, p. 433

التي كانت آنذاك «جمهورية قرصنة» مستقلة عن الدولة الفرنسية ومعادية لها غالبا، قد استولوا على 130 من قوارب الصيد البحري في المياه الانكليزية وكان في كل قارب في المتوسط صيادان اثنان.

ومما تذكره جريدة لاغازيت في مراسلة لها من مدريد (22 جانفي 1633) أن الجزائريين استولوا على سفينة إنكليزية قدرت قيمتها بـ 200 إلف إيكي قرب جبل طارق وأتبعوها بسفينة إنكليزية أخرى في نفس المياه في شهر اكتوبر 1633. ونزل الجزائريون من جديد في منطقة بلايموث في 1634 وتوالت هجماتهم في هذه المنطقة حيث استولوا على مئات من الأسرى وعلى غنائم لها قيمة مرتفعة. ويبدو أن أهم غنائمهم كانت في عرض البحر فيذكر فرانسيس نايت مثلا في كتابه السالف الذكر أنهم استولوا في هذه السنة على السفينة الانكليزية واسمها The Adventure of London وعليها 21 مدفعا و45 شخصا وهي محملة ببضائع ثمينة لحساب تجار جنويين.

أما مراسل De Sourdis[1] فيؤكد أن الجزائريين استولوا على عشرين سفينة إنكليزية في تاريخ لم يحدده ولكن كما ذكرنا سابقا تشير ملابسات الرسالة المبعوثة من الجزائر أنها في حوالي أواخر 1637 وبدايات 1638.

وفي 1640 أسر المؤلف الذي أشرنا إليه مرارا وهو دارندا مع رفاقه الذين كانت تحملهم سفينة بريطانية وكان عليها من السلع ما قيمته 32 ألف إيكي. وفي نفس السنة استولى الجزائريون على سفينة إنكليزية كانت تحمل سبائك الفضة وريالات اسبانية وكميات من القرمز قيمتها مليون ليرة ترنوا على ما ذكرته جريدة لاغازيت في السنة المذكورة.

وفي 1641 أسر Sprat مع 120 مسافرا في المياه البريطانية. وهو يذكر[2] في يومياته أنه أثناء إقامته بالجزائر (1642-1644) رأى دخول خمس سفن إنكليزية استولى عليها القراصنة وأتوا بها إلى ميناء الجزائر.

1. *Correspondance de Sourdis*, *op. cit.*, t II, p. 411 sq

2. Playfair, Episodes…, *op. cit.*, *RA*, 1878, p. 309-311.

غنائم متنوعة

في 1630 أخذ الجزائريون 23 سفينة هولندية[1]. والمعلومات المتفرقة التالية مأخوذة إما من لاغازيت في السنة المعنية أو من مذكرات ويوميات نايت ودارندا، الخ).

1635: الاستيلاء على سفنية هولندية تحمل نبيلا بندقيا وأمتعته و4000 قرش و150 جنديا وكثيرا من الذخيرة.

1636: أخذ سفينة برتغالية تجارية عظمى من نوع كاراك محملة ببضائع غالية قادمة من الهند.

1637-1638: أخذ سفينة برتغالية ذاهبة إلى البرازيل و5 سفن قادمة من الموانئ الألمانية.

1639: أخذ سفينة من همبورغ تحمل الجنود الاسبان إلى نابولي. حملة واسعة قامت بها سفن الجزائر في مياه الأدرياتيك.

1640: فرقاطة من دنكارك قوية التسليح جلبت إلى الجزائر وكذلك سفينة هولندية.

1641: أخذ سفينة حربية هولندية جاءت لنجدة البرتغاليين في حربهم الاستقلالية ضد اسبانيا وكذلك سفينة من دنكرك.

1642: أخذ سفينة هولندية (سكر وريالات اسبانية ومواد صباغة، الخ) في مياه الآسورس.

الخسائر

في كل سنة كانت سفن الجزائر تتكبد بعض الخسائر في الرجال والعتاد. وأهمها 5 سفن أغرقها الفرنسيون في 1636 و3 سفن في 1637 منها سفينة

1. انظر G. Van Krieken الذي لا يعطي تفاصيل عن السنوات التالية من عقد 1630.

تحمل 300 من الحجاج. وكانت أفدح الخسائر في 1638 في ڤالونة (8 غليوطات جزائرية و8 تونسية) استولى عليها البنادقة. وحسب لاغازيت في مراسلة من ناپولي في 10 جويلية 1638 استطاع كل الرجال الفرار تاركين 12 قادسا و2 بريغنتين والأسرى المسيحيين وعددهم 3634 حررهم البنادقة.

ويذكر المؤرخ العثماني نعيمة[1] أن البحارة المغاربيين لجأوا إلى البر ونقلوا إلى سالونيك ومنها سافروا إلى بلادهم. أما مراسلة أخرى في لاغازيت (البندقية 30 أوت 1638) فتذكر أن «4 قوادس مغاربية أغرقت و12 أخذت إلى جزيرة كورفو حيث قطع رأس هؤلاء القراصنة كما هي العادة». ولنذكر هنا شهادة نايت بأن مراد ڤورصو صهر بتشنين قتل في ڤالونة في 1638. وفيها تأكيد جزئي لما جاء في مراسلة البندقية إلى لاغازيت.

1. ذكره خليل الساحلي في مقاله السابق الذكر، م ت م جويلية 1975، ص 106.

الفصل الخامس عشر

الغنائم في مراحلها المختلفة

2. حركات المد والجزر (1645 - 1699)

عقد من البقرات العجاف

من 1645 إلى 1655، كانت المعطيات عن الغنائم الجزائرية نادرة في جريدة لاغازيت وفي المراسلات القنصلية الفرنسية.

1645: 7 سفن جزائرية في المياه البريطانية: أسروا 240 شخصا وأخذوا غنائم غنية. هجوم على السواحل الإيطالية ونهب بعض القرى.

1646: 20 قادسا من الجزائر وتونس أحدثت أضرارا جسيمة في كل الجزر التابعة للبندقية.

1647-1648: إنزال قوات في السواحل الإيطالية والبريطانية وأخذ أسرى وأمتعة.

1649: في الطريق إلى جزيرة كريت، قامت السفن المغاربية بغارات على الجزر وعلى الأراضي الإيطالية.

1650: 80 شخصا أخذوا في أراضي ناپولي وعدد كبير أسروا في كورسيكا كما تم الاستيلاء على ثلاث سفن وعليها 150 شخصا. غارات في منطقة پلايموث.

1651: استولى قرصان جزائري على سفينة فرنسية كانت تحمل مبعوثا ملكيا فرنسيا إلى البرتغال. هجوم على مناطق روما ومناطق إيطالية أخرى وأسر عدد كبير من الأشخاص.

1652: إنزال 7000 مقاتل في كالابريه. وفي البحر الاستيلاء على سفينة إنكليزية وعلى سفينة هولندية محملة بالسلع إلى البندقية وعلى مركبين يحملان المئونة إلى مملكة ناپولي. وأسر كثير من سكان المناطق التابعة لروما.

1653: أخذ سفينة تحمل أمتعة كاردينال وأسر 70 من رجاله. إنزال قوات قرب سانت تروپيز كادت تستولي على الأسقف الذي نجا لكن من بين الأسرى ثلاثة من رجال الدين تابعين له.

1654: أخذ الجزائريون بارجتين من دنكرك فيهما سلعة لقادش وسفينة ثمينة السلع قادمة من الهند ومركبا يحمل 80 ألف قرش من قادش إلى جنوة. وحسب مراسلة لجريدة لاغازيت (من توران 20 جوان 1654) كان في إحدى السفن التي أخذت الأمير موريس أخو الحاكم الپالاتيني.

وحول البارجة سانت كاترين التي أتى بها القراصنة للجزائر من حملتهم في شرقي المتوسط، يقول القنصل الفرنسي في مراسلته في نفس السنة (1654) أنه يأمل في الحصول على فك أسر الضباط والبحارة الذين كانوا عليها. إن مراسلته[1] تبرز جوانب من العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. من جهة لم تكن هذه العلاقات مقطوعة ومن الجانبين كان ما يؤخذ من الأشخاص والأموال يعاد لأصحابه. من جهة أخرى كان الفرنسيون ينحازون أكثر فأكثر للبنادقة ويساهمون بشكل أو بآخر في الهجوم على السفن الجزائرية التي كانت من جانبها تستولي أحيانا على السفن الفرنسية، في الواقع كان كل جانب يبحث عن كسب الوقت وتركيز قواه ضد عدو الساعة الأساسي. وكما رأينا، كانت المعطيات عن الغنائم نادرة. وعلى العموم لم تكن حالة البلاد بخير.

---

1. H. de Grammont, Relations…, *RA*, 1884, p. 211 sq et ANP, 369 *Mi 1*, art. 1348.

هزائم في الخارج، اضطرابات في الداخل

في حرب كريت، تكبدت سفن الجزائر كثيرا من الخسائر في 1645 و1646 وبالأخص في 1647 في الهزيمة البحرية العثمانية في نيغروپونت واستمرت الخسائر في السنوات التالية وبلغت الذروة في 1652 (12 سفينة «برباريسك» معظمها من الجزائر أغرقت أو أخذت). صحيح أن العثمانيين كانوا يقدمون للجزائر مبالغ مالية هامة تعويضا عن هذه الخسائر ولكن فقدان رياس أكفاء كان يضعف أسطول الجزائر. كذلك كانت هذه المشاركة في الحرب تقلل من نشاطات القرصنة وكان رياس الجزائر تطاردهم كثير من الأساطيل الأروبية المشاركة في الحرب ضد العثمانيين. وهذه الوضعية تختلف عن السابق حيث كانت الجزائر تستغل التناقضات والنزاعات بين الدول الأروبية.

أما الحالة في داخل البلاد فكانت أسوأ. إن الثورة الواسعة التي أضرمتها قبائل شرقي الجزائر وأدت إلى مقتل آلاف من الانكشارية كانت في طريق الاضمحلال. لكن تلتها مجاعة كبرى وبالأخص انتشر الطاعون الذي بعد سنوات من الكوارث المتكررة بلغ أقصى مداه في 1654. إن جريدة لاغازيت لهذه السنوات وكذلك المراسلات القنصلية الفرنسية تؤكد أن ثلثي السكان أهلكهم الوباء. وفي تقارير أكثر اعتدالا قدر عدد الهالكين بنحو الثلث. ومهما يكن فإن المؤرخين وكتاب الحوليات المغاربية يعتبرونها بأنها إحدى الكوارث الكبرى الثلاث التي أصابت الجزائر في العهد العثماني حيث تجمعت الثورات والمجاعة والوباء لحصد جماهير السكان. إن الوباء أصاب أيضا كل الأسطول العثماني مع أسطول الجزائر وانتشر بين الأساطيل والمواني في البحر المتوسط بما فيها بعض المواني الأروبية.

إن الظروف كانت مجتمعة لإحداث أزمة داخل الحكم. فأجرة الانكشارية لم تعد مضمونة بانتظام. وكالعادة يعتبر الحكم مسئولا عن الكوارث وعلى رأسه الباشا-بيلرباي. وهكذا جرد الباشا من كل المسئوليات فيما عدا التمثيل

الرسمي للسلطان داخل الدولة وبالتالي التمثيل الرسمي للدولة في المناسبات العامة والعلاقات الخارجية.

إن نوعا من «الجمهورية العسكرية» المنبثقة مباشرة من جماعة الانكشارية قد أقيم في 1658-1659. وقد استمر هذا النظام إلى سنة 1671 في شبه فوضى مستمرة تتخللها انقلابات عسكرية دامية لم يكن قادتها يتحلون بمقدرة سياسية إلا نادرا.

صعود متدرج

استأنفت القرصنة نشاطها تدريجيا وعرفت أحيانا بعض النجاحات الملحوظة.

1655-1656: في صيف 1655 حسب لاغازيت كانت 32 سفينة جزائرية في عرض الأطلسي تتصيد السفن في جهات مختلفة. وفي تقرير محرر في مدريد في 24 ماي 1656 لوحظ أن القراصنة البرباريسك «قد انتفخوا بما أحرزوه من انتصارات أخيرا وهم حاليا يجولون في مياه جبل طارق بحرية مليئة بالصلف والغطرسة»[1]. وتقول جريدة هولندية[2] في أنه في 1656 دخلت إلى الجزائر في ستة أشهر 17 سفينة مأسورة منها 6 سفن هولندية.

ومن بين الغنائم التي ذكرتها لاغازيت في نفس السنة، هناك مركب اسباني محمل بالبضائع للبندقية، وسفينة كانت سلعها تفوق قيمتها 100 ألف إيكي و3 سفن اسبانية أخرى. ومن السفن الهامة التي أسرت، القادس المسمى سانت آغات والذي كان يصحب الماركيز دون جوان النمسا وقد أسر فيه بعض النبلاء واثنان من أبناء كونت واثنان من ضباط البحر وغيرهم من الضباط والركاب الذين كانت مبالغ فديتهم عالية جدا.

---

1. G. Fisher, *op. cit.*, p. 22

2. خبر صحفي نقله G. Van Krieken, *op. cit.*, p. 50

1658-1657: كانت الجزائر تتلقى من الدولة العثمانية النصيب الأكبر من مبلغ 200 ألف سلطاني الذي كانت تقدمه للإيالات المغاربية كتعويض. في هذه السنة كذلك كانت خسائر الأسطول الجزائري كبيرة. ولم ترد معلومات كثيرة عن الغنائم. إنما ذكرت لاغازيت الاستيلاء على سفينة مالطية برايسها وبحارتها وركابها ومنهم سبعة من فرسان مالطة. وقد دفعت 30 ألف ليرة فرنسية لفدية ثلاثة من رجال الدين كانوا على ظهر هذه السفينة. كذلك استولى الجزائريون على سفينة محملة بالنقود الفضية والذخيرة الحربية وعليها 390 مسيحيا، وأخذوا مركبين جنويين كبيرين في مياه كورسيكا وسردانيا وأغاروا على سواحل الجزيرتين أين أحدثوا أضرارا كبيرة.

1661-1660: جاء في الزهرة النائرة السالفة الذكر (ص 20) أنه في 1660 أخذ الجزائريون للإنكليز 62 سفينة في ستة شهور. وقد يكون الرقم مبالغة لكن تحديد التاريخ هكذا ليس من قبيل المصادفة. فهو تاريخ يتطابق مع دفعة قوية للقرصنة. إن لاغازيت تذكر في سبتمبر 1660 وصول عدة سفن مستولى عليها إلى الجزائر منها 4 فرقاطات عليها 400 أسير وتذكر أيضا الاستيلاء على ستة مراكب جنوية في الأسابيع الأخيرة للتاريخ السالف الذكر وكذلك أخذ سفينة تجارية كانت تحمل بضائع غالية وكثيرا من الناس. ويقول الأب هيرو في كتابه المتقدم أنه أثناء إقامته في الجزائر في 1660 رأى وصول 2 أو 3 من كبريات السفن الفرنسية والهولندية الغنية «فرح بها السكان كثيرا».

وفي 1661 أسر كثير من الأشخاص في منطقة كاستلنوفو في مدينة زانتي وفي الأدرياتيك. وأخذت سفينة محملة بالقمح للجيش الاسباني.

كذلك مما جاء في لاغازيت أنه من أكتوبر 1660 إلى أفريل 1661 «أخذ الجزائريون قيمة مليونين (من الليرات الفرنسية) وما لا يقل عن 500 أسير مسيحي». وفي مراسلة لها من مرسيليا مؤرخة في 27 ديسمبر 1661 تذكر أن

30 بارجة جزائرية قد استولت على 12 سفينة إنكليزية و9 سفن هولندية محملة بالسلع لليڤورنة و12 مركبا فرنسيا وإيطاليا وأخذوا أيضا سفينة ذاهبة من مرسيليا إلى سردانيا.

إن المعطيات التي تقدمها لاغازيت تبدو دقيقة ووفيرة. والواقع أنها جزئية كما يظهره هذا المثالان:

- بين 1656 و1661 تذكر لاغازيت الاستيلاء على 15 سفينة هولندية. لكن في هذه المدة سجلت الوثائق الهولندية الرسمية أن القراصنة الجزائريين استولوا على 35 سفينة هولندية[1].

- في تعداد السفن الفرنسية التي ذكرت لاغازيت أن الجزائريين أخذوها لا يتجاوز العدد 20 سفينة أخذت بين 1652 و1664. لكن القائمة الرسمية[2] للسفن المفقودة بسبب «البرباريسك» (أي الجزائريين في الغالبية العظمى من الأحوال) هي 77 مركبا و30 بارجة قيمتها 8.3 ملايين ليرة ترنوا.

1662 - 1663: الغنائم التي ذكرتها لاغازيت: 11 سفينة هولندية وإنكليزية؛ 6 سفن اسبانية منها 3 أخذت في المحيط وإحداها كانت عائدة من الهند بسلع لها قيمة كبرى؛ 5 سفن بندقية؛ 4 سفن جنوية؛ 3 سفن فرنسية؛ 3 سفن من نابولي؛ سفينة من مالطة؛ 4 سفن من بلاد مختلفة غير معينة وسفن أخرى كثيرة بلا تحديد لعددها؛ المجموع 33 سفينة وعدد غير محدد من السفن.

وفي البر كانت الغارات كثيرة على الأراضي الاسبانية والإيطالية.

1664: في جانفي استولى الجزائريون على سفينتين من كاتاروا. وفي مارس

---

1. G. Van Krieken, *op. cit.*, p. 55

2. M. Fontenay, « De la place de la course dans l'économie portuaire : l'exemple de Malte et des ports barbaresques », *AESC*, 1988, p. 1329-1347.

أخذوا بارجتين عليهما 80 شخصا منهم 4 فرسان من مالطة و3 سفن إنكليزية وشيطية قادمة من الإسكندرية.

وفي مراسلة من جنوة (12 أفريل 1664) تخبر الجريدة أن الجزائريين أخذوا 18 بارجة إنكليزية وهولندية و3 سفن من جنوة في أقل من شهرين. وفي مراسلة أخرى من لندن (30 أفريل 1664) تذكر الاستيلاء على 17 سفينة إنكليزية ردا على استيلاء الانكليز على بحارة جزائريين. في النهاية قدم الأسطول الانكليزي إلى الجزائر ورد 71 بحارا جزائريا وحصل على استرجاع 18 سفينة إنكليزية و300 بحار إنكليزي كانوا مازالوا في ميناء الجزائر[1].

ملاحظة: لم تشر لاغازيت إلى أخذ سفن اسبانية من طرف الجزائريين في 1664. والواقع أن هناك على الأقل سفينة مهمة أخذت هي المرغاريتا. ومن 116 ركابا جلبوا إلى الجزائر كان هناك رجال الدين وربابنة وضباط. وقد دفع عنهم لفديتهم، ومعهم آخرون وكان مجموع المفتدين 196 أسيرا دفع عنهم مبلغ 1.025.962 ريال وكما تقول فريدمان «إنه أعلى مبلغ دفع منذ 1575 لعدد من الأسرى قليل نسبيا، بسبب المنزلة العالية لبعض الشخصيات المفتداة»[2]. إن فدية شخص واحد منهم كلفت 240 ألف ريال اسباني. وهكذا فإن مارغاريتا، هذه السفينة من القافلة الهندية، قد أعطت من الأموال أكثر مما تدره عشرات من مراكب صيد الأسماك وصنادل الملاحة السياحية.

ولنذكر بأن 1664 هي سنة الهزيمة الفرنسية في جيجل. 1400 جندي فرنسي بين أسير وقتيل (معظمهم وقعوا في الأسر).

1665: عدة صنادل ومراكب أخذت في المياه الاسبانية، وأخذت سفينة بندقية بسلع مختلفة؛ وسفينة اسبانية قادمة من أمريكا وأخرى قيمة شحنتها

---

1. E. Friedman, *op. cit.*, p. 115 sq

2. نفس المصدر

تزيد عن مليوني ليرة حسب لاغازيت. هذه بعض الغنائم المذكورة عن هذه السنة.

وتكبدت الجزائر خسائر كبرى: 3 سفن أحرقت في حلق الوادي منها سفينة القبطان حسن بربير الذي قتل في المعركة؛ في شرشال أحرقت سفينتان واستولى الفرنسيون على 3 سفن عليها 113 مدفعا.

1666: أخذت سفينة ثمينة الحمولة من القافلة الهندية العائدة من أمريكا وبارجتان و4 صنادل جنوية كانت تحمل القمح إلى اسبانيا؛ أسر 70 شخصا في سواحل ناپولي وسفينة ذاهبة من البندقية كان للتجار الجنويين بها سلع بقيمة 40 ألف إيكي وعدد من المراكب والقوارب وكذلك كثير من الأشخاص. هذه جملة ما ورد في لاغازيت عن هذه السنة.

وفي هذه السنة تم عقد الصلح بين الجزائر وفرنسا لكن سفينتين فرنسيتين ذهبتا إلى برشلونة لبيع عدد من المسافرين الجزائريين الذين سافروا على متنهما من الأسكندرية. وردا على هذا العمل هاجم الجزائريون عددا من السفن الفرنسية. وأرسل الوزير الأول الفرنسي كولبير 100 ألف إيكي لافتداء الأسرى الفرنسيين بالجزائر.

1667-1669: الغنائم التي ذكرتها لاغازيت: سفينة اسبانية من قافلة الهند العائدة إلى قادش؛ سفينتان اسبانيتان في إحداهما 8900 پوزو (قطعة ذهبية وتطلق أحيانا كذلك على قرش 8 ريالات الاسباني ومنه كلمة بوجو الجزائرية) يحملها رجل دين لافتداء الأسرى في تطوان؛ سفينة هولندية بسلع لها قيمة كبيرة؛ سفينتان بحمولات غنية؛ سفينة من ناپولي عليها 24 شخصا؛ كذلك غارات وغنائم هامة في كورسيكا وكالابريه ومنطقة الپوي Les Pouilles وفي تراني أسر جميع رهبان الدير.

مطالبات

طالب الفرنسيون برد 3 سفن عليها 56 شخصا. لكن الجزائريين رفضوا لأن الفرنسيين أسروا جزائريين وجعلوهم مجدفين.

وطالب الإنكليز باسترجاع 3 سفن تجارية وصندل. وكانت محملة بذخائر حربية ومؤونة للاسبان.

وجاء في المراسلات القنصلية الفرنسية بالجزائر[1]:

- يشجب القنصل سكان پروڤانس الفرنسيين الذين «يتركون القبعة من أجل العمامة». ويقول أن 2000 فعلوا ذلك في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب.

- أرسل المسئولون مبالغ جديدة (49 ألف إيكي) لافتداء الأسرى الفرنسيين في الجزائر ويستغرب كولبير كيف قيل له أنهم أحصوا 900 أسير فرنسي فقط بينما المعروف أن عددهم في الجزائر مقدر بنحو 1500.

- حادث في طولون تسبب فيه رايس جزائري من العلوج الإنكليز.

- 1670 : قطع العلاقات من جديد مع الإنكليز. وراح الرياس الجزائريون يترصدون السفن الإنكليزية العائدة من شمال أمريكا. وقد أخذوا عددا كبيرا من هذه السفن التي كانت تصطاد سمك المورة في Terre Neuve (نيوفولند). وتشير لاغازيت إلى 5 من هذه السفن المستولى عليها في أفريل وماي 1670. كما أخذ الجزائريون بارجة هولندية رغم أنها كانت تحرسها تشكيلة من السفن الحربية. وقرر الانكليز والهولنديون إرسال عمارة مشتركة تكمن في جبل طارق لمفاجأة السفن الجزائرية العائدة من الأطلسي. وفي هذا الهجوم ضد 6 سفن جزائرية قرر رياسها أن يجنحوا بها على ساحل المغرب الأقصى

1. ANP, AE, B1 115, fos 99 à 105, Corresp. de 1667 à 1669

كما تقدم ذلك. ومن جهة أخرى استولى الانكليز على سفينة جزائرية حسبما ذكرته لاغازيت.

إن السنة التالية هي سنة الكوارث المتوالية لأسطول الجزائر والاضطرابات المتزايدة داخل الجزائر. وأدى اندلاع الهياجات الشعبية في المدينة إلى تغيير جوهري في نظام الحكم.

الرياس في الحكم

في ماي 1671 دمر الأسطول الانكليزي 11 أو 12 سفينة من أسطول الجزائر في بجاية ثم هاجم ميناء الجزائر وأحرق 3 سفن وأخذ أو أغرق سفنا أخرى.

وعلى إثر هذه الكوارث، ثار الانكشارية في مدينة الجزائر وقتل علي آغة زعيم الطغمة العسكرية الحاكمة. وتمزقت الزمر العسكرية المتقاتلة وتجاوزتها الثورة الشعبية في المدينة. وحسب شاهد عيان إنكليزي[1] كان الباشا الذي لم يعد له أي دور غير الدور الرمزي منذ «ثورة الأغوات» في 1658-1659 قد توجه إلى الجماهير الثائرة وخاطبها واستطاع أن يسكن روعها ويقنعها بصواب موقفه وبتسليمه السلطة لإقرار الوضع، لكن أحد الأشخاص الجريئين في داخل الجمهور تقدم وصاح «فلنذهب للمجيء بمحمد رايس التريكي» (وكان في السابق قائد الأسطول وتنحى منذ سنوات). وهذه الصيحة كررها رياس البحر وفي أقل من نصف ساعة تقرر الذهاب إلى الرايس الكبير السن وإعطائه السلطة. وعند مجيء هذا القبطان الشيخ رفض السلطة بعناد. لكن الجمهور ناداه «يا أبانا أتتركنا نتعذب لتواضعك». وفي النهاية رضي لكنه اشترط عليهم أن تفوض له السلطة المطلقة دون أن يشرف عليه الديوان الذي يجب أن تكون قراراته في المستقبل تخضع لقرارات الرايس المعين في السلطة. ورضي الجمهور بذلك

1. G. P., *The Present State of Algiers*, L., 1671, p. 80-84.

دراسات عن الجزائر في العهد العثماني

وعين نائبا له ختنه بابا حسن «وهو رجل عالم بالقوانين المحمدية». هكذا عين الحاج محمد تريك دايا طول الحياة مفتتحا نظام الحكم الفردي للدايات. ويضيف ابن المفتي في تقييداته المتقدم ذكرها وكذلك جريدة Le Mercure Galant في عدد جويلية 1684 معلومات لا تتناقض بالضرورة مع الشهادة السابقة. وهي أن طاباق رايس عين كاهية للداي ولكنه كان عاجزا بسبب تدهور صحته فاستبدل بغيره. ويجب أن نلاحظ أنه في النظام الجديد كما هو الحال في السابق، لم تكن الوظائف الرسمية والمسئوليات الحقيقية تتطابق دائما. إن الحاج محمد تريك الذي مارس السلطة إلى سنة 1681 قد كان له كاهية يضع خاتمه إلى جانب خاتم الداي في الوثائق الرسمية لكن السلطة الحقيقية كانت بيد بابا حسن ختن الداي ورجل ثقته وهو في نفس الوقت شخصية قوية. إن بابا حسن كان في السابق من الشواش ويعرف جيدا أجهزة الحكم وكانت له قبضة حديدية وأظهر كثيرا من العنف والشراسة في مواجهة المحاولات الانقلابية والثورات الشعبية التي توالت بعد ذلك. وفي 1681 تخلى تريك عن الحكم لصالح بابا حسن الذي قضى عليه في 1683 الحاج حسين مزومورتو الرايس ثم القبطان ثم داي الجزائر ثم باشا إلى 1689 حيث أجبر على ترك السلطة والسفر إلى استنبول كما تقدم. وجاء بعده الحاج شعبان خوجة وهو خلافا لما كتبه دي غرامون لم يكن من رياس البحر بل من قادة الجيش أي أن فترة حكم الرياس كما يسميها دي غرامون لم يتول فيها الحكم أربعة رياس على التوالي بل كان اثنان فقط من الرياس هما تريك ومزومورتو.

ولمثل هذه الظروف استند دي غرامون في نظريته القائلة بالتنافس الدائم على الحكم بين رياس البحر والانكشارية واضطر للتدليل على نظريته إلى تجاهل معطيات كثيرة وتشويه معطيات أخرى. إن هذه المسألة في حاجة إلى بحث متعمق شامل ينطلق من الملابسات الملموسة ومن التحليل المضبوط

لمكونات وعناصر كل كتلة من الكتل المتنافسة على الحكم في كل فترة معينة. وللتذكير نكرر هنا أن تريك ومزومورتو وشعبان خوجة وصلوا إلى الحكم على إثر حركات شارك فيها الجنود ورجال البحر. ولنضف بأن مزومورتو الذي هو فعلا من أكبر قادة الأسطول في الجزائر منذ علج علي كما يقول دي غرامون بحق، قد طرد من الحكم لأن الرياس وأرباب السفن كانوا ساخطين على مشروع الصلح مع فرنسا.

أما خلفه شعبان خوجة، وهو من أكبر قادة الجيش البري فقد قضى جزءا كبيرا من حياته في قيادة الانكشارية وكانوا هم الذين ثاروا عليه لأنه أنهكهم وأدى إلى مقتل الكثير منهم في الحروب المتكررة التي خاضها ضد حكام تونس وفاس ولأنه كان ينسب له أن عنده النية للاستمرار في الحرب من أجل تحقيق وحدة كل الأقطار المغاربية تحت سلطته.

إن يوميات توماس هيس[1] المبعوث الهولندي إلى الجزائر تلقي بعض الضوء على آليات الحكم وظروف سير القرصنة في هذه السنوات. جاء هذا المبعوث للتفاوض في فدية الأسرى الهولنديين وعقد معاهدة صلح. لكن المشكلة تعقدت لأن الجزائر كانت في سلم مع الفرنسيين والإنكليز وكانت مصالح الرياس وأرباب السفن تتضرر كثيرا في حالة السلم مع هولندة التي لها أساطيل تجارية تجول في كل البحار فهي حقل واسع لعمليات القرصنة الجزائرية. وللوصول إلى نتائج مثمرة كان على المبعوث أن يقدم مبالغ كبيرة للداي والباشا وبابا حسن قائد الجيش الذي كان قد عاد من تلمسان بعد أن سحق ثورتها بقسوة رهيبة. وكان عليه أيضا أن يشتري وساطة التجار اليهود المقربين من الداي وحاشيته.

وفي مقابلته لبابا حسن أجاب هذا أنه مسئول فقط عن الشئون الداخلية وأن مسائل القرصنة والعلاقات الخارجية هي من اختصاص الداي وحده. كما

1. Journal d'un voyage à Alger (1675-1676), *RA*, 1957.

كان عليه أن يقدم مبالغ كبرى لصهر الداي وهو تاجر أندلسي من أصحاب السفن وله نفوذ كبير عليهم وكان الأندلسيون في هذه السنوات كما يظهر ذلك جيدا من تصفح الرصيد العثماني في أرشيف الجزائر، كانوا من أهم وأغنى أرباب السفن في الجزائر. وكان الفرنسيون يحاولون التأثير عليهم لرفض كل صلح مع الهولنديين.

في النهاية استطاع هيس في زيارة أخرى للجزائر في 1679 أن يحصل على الموافقة على معاهدة صلح في مقابل دفع مبالغ مالية كبيرة وتسليم عتاد حربي من جملته 8 مدافع كبيرة و8000 قنطار من البارود و60.000 قذيفة مدفعية وقيمة 100.000 إيكي من أدوات الملاحة (أسلاك حديدية غليظة، وأثقال لرسو السفن وقلوع وأخشاب وسواري وحبال، الخ.)[1].

ازدهار مؤقت

إن الداي الحاج محمد تريك الذي يتفق الجميع على اعتداله وتبصره السياسي، بذل جهوده لتحقيق هدفين هامين:

- إعادة العلاقات السلمية مع الإنكليز. وقد استمرت حالة السلم من 1671 إلى 1677 حين أخذ الانكليز مبادرة النزاع.

- توطيد السلم مع الفرنسيين، وقد استمرت حالة السلم إلى سنة 1683.

إن هذه النتائج كانت ضرورية بعد الكوارث التي أصابت الأسطول الجزائري في العقد السابق وبالأخص في 1670-1671 كانت سفن الجزائر تواجه هجمات كل الأساطيل الأروبية في البحر المتوسط إلى جانب الضربات التي سددها لها الانكليز والهولنديون في الأطلسي كما تقدم وكانت الخسائر تتتابع في حلق الوادي وشرشال في 1665 إلى لاكاني في 1668، الخ[2].

1. J. P. Vittu, « Relation de voyage… », *CT*, 1977, p. 296 sq

2. M. Belhamissi, *La Marine d'Alger*, t .2, p. 166-167

مع ذلك، بدأت نهضة جديدة للأسطول ترتسم منذ تولي تريك الحكم واستمرت طوال حكمه وحكم مزومرتو بصورة عامة تقريبا.

وحول هذا النهوض المؤقت تنطرح عدة أسئلة. فكما قلنا ليس عدد السفن وحده مؤشرا كافيا في هذا الموضوع، وقد يحدث أن تحظى بعض السنوات بمنظورية كبيرة إن جاز التعبير أي أن نتائجها كانت أبرز وأوضح للعيان أو تحظى بوثائق تخصها عثر عليها الباحثون ودرسوها.

ونبدأ بتقديم المعطيات (وهي مجموعة سنويا أو لعدة سنوات كي تسمح بالمقارنة بين مختلف المعلومات):

1672: في مراسلة من البندقية (29 نوفمبر 1672) تتحدث لاغازيت عن تركز تشكيلات بحرية برباريسك استولت على عدة سفن كبرى محملة بسلع بالغة القيمة ومن جملتها سفينتان بندقيتان. وتضيف الجريدة أن سفن الجزائر استولت على سفينتين جنويتين وعدة مراكب فرنسية. أما تقارير القنصل الفرنسي[1] في الجزائر فهي تفصل غنائم هذه السنة وتشرح ظروفها:

8 جانفي 1672: رايس جزائري هو علج أصله جنوي التقى بأخيه الذي كان يقود مركبا فرنسيا ثم قام جنوده بنهب المركب الفرنسي.

ديسمبر: «سوء نية القراصنة الجزائريين»: إنهم استولوا على سفينة من مارتيغ وأخرى من لاسين (أعادوها). وحول سوء النية التي يذكرها القنصل فالحقيقة أن المركب الفرنسي الذي كان يقوده ربان جنوي كان ينقل جنودا اسبانيا أي أعداء للجزائر وقائد المركب هو نفسه ينتسب إلى بلد معاد للجزائر (جنوة). مع ذلك سمح له أخوه الرايس الجزائري بالاستمرار في طريقه حرا هو وجنوده الاسبان.

---

1. ANP, 36 *Mi 1*, art. 1349, Corresp. Le Vacher, 1672

دراسات عن الجزائر في العهد العثماني

وفي سنة 1672 كما في السنوات التي سبقتها، كان الأسطول الفرنسي يساعد البنادقة في حربهم ضد العثمانيين ويقدم مختلف الخدمات للدول التي هي في حرب مع الجزائر. وهذا من الأسباب التي تعرض السفن الفرنسية أحيانا إلى تصرفات معادية من طرف الجزائريين.

وبطبيعة الحال لا يمنع هذا وجود «سوء النية» عند قراصنة الجزائر وعند غيرهم من القراصنة.

وفي بحث مبني على ملفات التأمينات البحرية يصل جان ديليمو[1] إلى أن مجموع خسائر السفن الفرنسية لسنة 1672 نتيجة لهجمات قامت بها سفن «برباريسك» يبلغ 102.475 ليرة ترنوا. ونرى هنا الالتباس الذي يحدثه استعمال كلمة «برباريسك» دون توضيح. فالواقع هنا أن كلمة برباريسك لا تنطبق على الجزائر وتونس لأنهما كانتا في حالة سلم مع فرنسا لكن تخص سلا وطرابلس الغرب إذ كانتا في نزاع مع فرنسا.

1673: استجابة لدعوة العثمانيين، قامت 18 سفينة جزائرية بمطاردة القراصنة المسيحيين الذين يتعرضون للسفن العثمانية في المشرق. وقد استولى الجزائريون في هذه المياه على سفينة اسبانية ذاهبة إلى مالطة كما أسروا كثيرا من الجنود الاسبان وهم في طريقهم إلى ناپولي. ومن جهة أخرى أخذت سفن الجزائر عدة غنائم في البحر وعلى السواحل الاسبانية والبرتغالية والكورسيكية والإيطالية وحجزوا سفينة فرنسية من مارتيغ تنقل جنودا اسبانيين. فأسروا الجنود الاسبان وتركوا الفرنسيين وسفينتهم أحرارا، كما استولوا على 3 سفن من الدانمارك وهومبورغ وسفينتين هولنديتين كانت إحداهما تحمل 1500 برميل من الكحول المقطر ومن خمر بوردو.

---

1. *Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel*, 1973, t. 2, p.135-163

عناصر مقارنة

1674-1677: سجلت الوثائق الجزائرية الرسمية، التي درسها ديفو[1] تفاصيل الغنائم التي أنزلت في ميناء الجزائر وبيعت في البادستان عن سنوات 1674-1677 وهي مجملة هنا كما يلي:

السنة	عدد السفن	القيمة بالقرش الاسباني	متوسط قيمة كل سفينة
1674	38	79.207,44	2084
1675	83	278211,50	3352
1676	58	83010	1431
1677	12	8127	677

فالجملة في أربع سنوات هي 191 سفينة قيمتها 448556 قرشا. ومتوسط قيمة كل سفينة كان يتباين سنويا من 677 إلى 3352 قرشا.

هل كانت هذه التسجيلات كاملة؟ مهما يكن فإنها لا تسجل كل الغنائم في الواقع:

- ففي مراسلة بتاريخ 16 فيفري 1676 يذكر القنصل الفرنسي أن حوالي 1500 أسير مسيحي جيء بهم إلى الجزائر. وفي 16 مارس 1675 جاء رهبان إخوة الرحمة[2] إلى الجزائر ومعهم 136000 قرش اسباني لفدية حوالي 600 أسير اسباني رجعوا بهم بعد بضعة أيام. وبهذا التقدير تكون فدية 1500 شخص أسروا في 1675 بمقدار مبلغ 340000 قرش.

---

1. انظر المعطيات مفصلة في: A. Devoulx, Le Registre des prises maritimes, *RA* 1871, p. 78-79. والملاحظ أن ديفو التبس عليه الأمر ولم يميز بين ريال هذه السنوات (وهو القرش الاسباني ذي 8 ريالات فضية) وبين الريال دراهم صغار وهو عملة حسابية مستعملة في القرن الثامن عشر.

2. D'Arvieux, *op. cit.*, t. V, p . 194 sq

إن يوميات توماس هيس تفصل الغنائم التي وصلت إلى الجزائر في نوفمبر وديسمبر 1675 بالأخص وهي 11 سفينة عليها 327 أسيرا وهو يوضح أن الرقم الذي قدمه لا يشمل كل الغنائم. ومن بين السفن التي يذكرها في يومياته سفينة برتغالية كانت قادمة من البرازيل وعليها 236 صندوق سكر و400 صندوق تبغ، وكاكاو، وأنياب فيلة،الخ. وهو كذلك يفصل غنائم 6 سفن أخذت في جانفي 1676 (وهي من نوع كارافيل وشيطيات الخ) وعليها 84 شخصا ومجموعة من السلع تبلغ قيمتها تقريبا الرقم المذكور عن كل السنة المعنية في قائمة ديفو.

– ومن الغنائم التي ذكرها القنصل الفرنسي[1] في 1677: سفينة جنوية وسفينة إنكليزية غالية القيمة و10 سفن إنكليزية أخذت قبل إعلان القطيعة لأنها كانت تنقل جنودا اسبانيين. وقد اعتبر هؤلاء الجنود غنيمة قانونية. أما الباقي فبعد إعلان القطيعة بقي كذلك في الجزائر ولم يعد إلى بلاد الإنكليز. وفي نفس الوقت أخذت عدة سفن اسبانية وبرتغالية في مياه هذه البلاد.

وحسب مصادر هولندية[2] كان في الجزائر أسرى هولنديون أخذوا بين ماي 1674 وماي 1677 بلغ عددهم 590 أسيرا في ماي 1677 أخذوا مع سفنهم التي بلغ عددها 70 سفينة.

وكما نرى تباين هذه المصادر وهي عموما يكمل بعضها بعضا وتسمح أحيانا بتقديم صورة عامة عن مجموع الغنائم ولكنها تشير في نفس الوقت إلى أن هناك دائما ثغرات لا يمكن سدها. ومن الملاحظ أن التباين في عدد الغنائم وقيمتها كبير جدا من سنة إلى أخرى وأن القيمة الرسمية المسجلة في الوثائق هي دائما أقل بكثير من القيمة التي يذكرها مختلف المؤلفين المعاصرين الذين تتفاوت كثيرا مصداقيتهم.

---

1. ANP, AE, B1 115, f° 203 sq et f° 241 sq
2. G. Van Krieken, *op. cit.*, p. 70

1678-1682: هذه أرقام من مصادر مختلفة:

- يذكر السيد النبيل دنكور[1] الذي كان بالجزائر في 1681 أن الجزائريين أخذوا في ثلاث أو أربع سنوات أكثر من 150 سفينة وأسروا أكثر من 8000 إنكليزي.

- في رسالة للقنصل الفرنسي[2] بتاريخ 20 نوفمبر 1681 يقدر عدد الأسرى الإنكليز بالجزائر بين 5000 و6000 ويضيف «إنهم أخذوا لهم بعض السفن».

يذكر داي الجزائر[3] في مراسلاته مع وزير البحرية الفرنسي أنه في عهد بابا حسن أحرق الإنكليز 11 سفينة جزائرية ولكن الجزائريين أخذوا لهم بعد ذلك 400 سفينة كبرى و5200 أسير إنكليزي.

- أما روبير كول وهو فيما بعد قنصل إنكلترا بالجزائر وكان بالجزائر في 1682-1683 ويذكر أنه بين 1677 و1682 أسر الجزائريون 3000 بحارة إنكليز واستولوا على 157 سفينة إنكليزية ويقدر هذه الغنائم بـ 300 ألف جنيه ذهبي أسترليني (أي حوالي 1،5 مليون قرش اسباني)

كيف نقارن بين هذه الأرقام؟ عادة يبالغ المنافسون في تضخيم خسائر أعدائهم وكذلك يبالغ أرباب السفن في تقدير خسائرهم بقصد التعويضات، الخ. وفي هذه الأرقام قد يكون القنصل الإنكليزي أقرب إلى الواقع. أما الأرقام الهولندية فهي تسجيلات رسمية لخسائر الهولنديين.

وللمقارنة أيضا نحاول مقابلة بعض الأرقام والوقائع.

- تقول المصادر الهولندية[4] إن الجزائريين استولوا على 50 سفينة إنكليزية على الأقل في 1678. وعن نفس السنة تعدد جريدة لاغازيت حالة

---

1. انظر J. P. Vittu, « Relation… », *op. cit.*, p. 296 sq

2. انظر ANP, *AE*, B1 115, f° 317-318

3. E. Plantet, *op. cit.*, t.I, p. 356

4. G. Van Krieken, *op. cit.*, p. 70

بحالة وكل واحدة في وقت معين، الغنائم التي أخذها الجزائريون للإنكليز. الجملة 42 سفينة كان بعضها يحمل سلعا ثمينة في الطريق بين أمريكا وأروبا. وللتذكير نشير إلى أن هذه الجريدة الفرنسية كانت توجد غالبا بعض الثغارات في أخبارها عن الغنائم الجزائرية.

- عقد الصلح بين الجزائر وهولندة في 9 نوفمبر 1679 لكن لم يبدأ تطبيقه إلا في ماي 1680 حين وصول المعدات الهولندية التي نصت عليها الاتفاقية. وفي المدة بين التاريخين (نحو ستة أشهر) استولى الجزائريون على 23 سفينة هولندية وعلى 240 بحارا وأتي بالجميع إلى الجزائر[1].

- خلال هذه السنوات أخذت عدة سفن اسبانية وبرتغالية وبندقية وجنوية ومع الغنائم التي أخذت في أراضي هذه البلدان بلغ عدد الأسرى عدة مئات حسبما ذكرته لاغازيت.

- ابتداء من 1680 بدأت العلاقات تتدهور بين الجزائر وفرنسا لأن الفرنسيين لم يفتأوا يرفضون رد الأسرى الجزائريين الذين يستعملونهم كمجدفين في قوادسهم. نتيجة لذلك شدد الجزائريون هجماتهم على السفن الفرنسية. وفي أواخر 1681 تذكر مراسلة قنصلية فرنسية[2] أن 29 سفينة فرنسية تبلغ قيمتها 750.000 إيكي قد استولى عليها الجزائريون وأتوا بها إلى الجزائر. ومن أهم هذه الغنائم البارجة الحربية التي كان يقودها النبيل الفرنسي الفارس De Beaujeu وأخذت بقائدها وضباطها وجنودها الذي بيعوا في البادستان بثمن غال. وتقول المراسلة إن دي بوچو بيع بمبلغ 12200 قرش اسباني.

1683: قام الفرنسيون بقنبلة مدينة الجزائر ودمروا ثلاث بوارج و200 دار. أما المعطيات عن الغنائم فهي نادرة مما يشير إلى ندرة الغنائم في

1. نفس المصدر ص 72-71

2. ANP, 369 Mi 1, L. du 7 déc. 1681.

الواقع: مركب من سان ريمو (زيت وبضائع مختلفة)؛ بعض السفن الصغيرة على السواحل الإيطالية وبعض الغنائم الهامة منها سفن للبندقية ولمالطة. وفي هذه السنة قدم الهولنديون بمبلغ 52000 إيكي لافتداء أسراهم.

1684: 24 سفينة و400 بحار أخذوا كذلك سفينتان مهمتان للبرتغاليين بلغت قيمة إحداهما 20000 قرش.

1685-1686: 60 سفينة بعضها من أكبر البوارج استولى عليها الجزائريون بين جويلية 1685 ونوفمبر 1686 حسب التعداد المفصل الذي أرسله القنصل الفرنسي في الجزائر[1]. ومن بين غنائم 1685، 4 مراكب جنوية و8 سفن اسبانية وبارجة مالطية الخ. وفي 1686 يعدد 32 سفينة فلامان (flamands) عليها 350 بحارا و9 سفن اسبانية و4 سفن جنوية و3 سفن برتغالية، الخ. أما ڤان كريكن فلا يذكر إلا 24 سفن هولندية أخذتها الجزائر. وقد يعود الفارق إلى كون كلمة فلامان المستعملة آنذاك تشمل مناطق فلامانية أوسع من دولة الولايات المنخفضة (هولندة الآن).

1687: 13 سفينة تذكرها لاغازيت عن هذه السنة وتضيف أن الجزائريين أخذوا عدة سفن وعدة أسرى دون أن تعطي عنها تفاصيل بالأرقام. ويذكر ڤان كريكن عن هذه السنة الاستيلاء على 3 سفن تجارية هولندية وعلى سفينتين من صيادي الأسماك أخذها الجزائريون قرب السواحل الهولندية. أما القنصل الفرنسي فيعدد الغنائم من السفن التي جيء بها إلى الجزائر بين أفريل وأكتوبر 1687. وجملتها 23 سفينة عليها 469 مسيحي أسرى أكثرهم من الاسبان والهولنديين. ولا يعدد السفن الفرنسية التي أخذها الجزائريون لكن يبدو أنها كانت هامة إذ أنه في أفريل 1688 كان في الجزائر 375 أسير فرنسي منهم 85 أسروا في بداية 1688.

1. ANP, 223 Mi 1, vol. 12, f° 238, corresp. De Piolle, 1687.

1688-1689: ضرب الأسطول الفرنسي مدينة الجزائر بالمدفعية وأحدث أضرارا جسيمة بين السكان. وردا على تقتيل السكان، أعدم القنصل ومعه بعض الفرنسيين. وفي 1688 أخذت 19 سفينة فرنسية في المحيط الأطلسي ومن جملة الغنائم في البحر المتوسط سفينة فرنسية (كحول) ومركب صقلي (جبن) ومركب جنوي (نقود، فواكه و30 شخصا) ومركبان ببحارتهما وعدة سفن في المياه الإيطالية قرب روما.

وفي 1689 أخذ 280 جندي اسباني كانوا على ظهر سفن هولدنية وإنكليزية ومن جملة الغنائم قادس بندقي، ومركب صقلي وصندل مالطي وبعض السفن التي لم تذكر الجريدة تفاصيل عنها. وبعد عقد معاهدة الصلح مع فرنسا كتب القنصل الفرنسي[1] رسالة في جويلية 1690 يقول فيها إن الأسرى الفرنسيين بمدينة الجزائر يقدر عددهم بين 700 و800.

نهاية قرن متدنية

المعلومات المقدمة هنا مستقاة من جريدة لاغازيت ومن مراسلات القنصلية الفرنسية بالجزائر إلا في حالة ذكر مصدر آخر:

1690: أخذت عدة سفن تجارية هولندية، وبارجة جنوية «محملة بكل خيرات الدنيا» ومركب جنوي آخر وبارجة و12 سفينة صغيرة.

1691: 10 سفن برتغالية وجنوية وهولندية ودانماركية أخذت وعدد آخر من السفن الصغرى.

1692: الاستيلاء على 12 سفينة هولندية ذكرها كريكن وعلى بوارج برتغالية وجنوية عديدة لها قيمة كبيرة. ومن البرتغاليين الذين أسروا أحد كبار النبلاء. جاء الفرنسيون لفدية 1435 أسير فرنسي بينما مات حوالي 300 أسرى فرنسيين بالوباء.

1. ANP, 369 Mi 1, art. 1354

وأنفق الاسبان 300000 قرش لفدية 753 أسيرا. وقد مات كثير من الاسبان من بين حوالي 3500 أسير ماتوا بالوباء في مدينة الجزائر. وقد اندلع حريق هائل في ميناء الجزائر واحترقت فيه 16 أو 17 سفينة من سفن القرصنة. واتهم القبايل في المدينة بشن هذا الحريق عمدا وقتل منهم حوالي 400.

1693: بعض الغنائم التي ذكرها القنصل الفرنسي: بارجتان بندقيتان، سفينة من أصل مجهول؛ كاراڤيل برتغالية و3 سفن إنكليزية بلا جواز منها اثنتان كانت حمولتهما من الذهب والمواد الثمينة. وأرسلت إلى الجزائر أكثر من 100 ألف قرش لافتداء الأسرى.

1694: من بين غنائم هذه السنة، فرقاطة هولندية (32 بحارا) تحمل (صرة القافلة الهندية) وبارجة قطلانية ومركب من ساڤونة وسفينة بندقية لها 34 مدفعا وسفينة مالطية. كذلك 4 سفن إنكليزية بلا جواز وكانت أغلبية رياس الجزائر تؤيد إعلان الحرب ضد الإنكليز حسب القنصل الفرنسي الذي أعطى 6000 قرش للداي لدفعه في هذا الاتجاه. لكن الانكليز وصلوا بهدايا كبيرة منها 75 برميل بارود وألف قذيفة و500 صندوق قنابل يدوية وعدد كبير من البنادق والمسدسات. وبالأخص كما يلاحظه فيشر ببراعة كان الداي الحاج شعبان خوجة قد افتتح عهدا جديدا لا يعطي الأولوية للقرصنة بل للحروب البرية إذ كان يطمح إلى توحيد كل الأقطار المغربية تحت رايته كما تقدم. من جهة أخرى كانت السفن الهولندية والاسبانية والبندقية، الخ، تسير قوافل بحرية تحرسها بوارج حربية قوية.

1695: الاستيلاء على سفينة هولندية عليها 63 شخصا و24 مدفعا. وفي هذه السنة عاد الداي شعبان بعد الاستيلاء على مدينة تونس ومعه مما نهب بالمدينة 120 حملا من الذهب والفضة وضعت في الخزينة. وعرض الهولنديون على الجزائر 100 ألف قرش و16 مدفعا وألف برميل بارود مقابل السلم.

1697: غنائم هامة منها سفينة هولندية تحمل 10000 قنطار من الحديد والخشب وسفينة برتغالية عليها 4000 قنطار سكر وسفينتان من جنوة وكاراڤيل برتغالية، الخ.

1698: 6 سفن منها سفينة هولندية وأخرى برتغالية بسلع عالية القيمة.

1699: 3 سفن هولندية، سفينة من جنوة وأخرى برتغالية وعدة سفن أخذت في المحيط الأطلسي وفي البحر المتوسط. لكن القرصنة بدأت تسير نحو الهامشية وخلفها في الجزائر تصدير الحبوب. 100 ألف قنطار من القمح صدرت كل سنة من مواني الجزائر في أواخر القرن. وقد بدأت هذه الظاهرة في 1693 واتسعت فيما بعد خاصة في 1698 و1699. إن تصدير الحبوب فتح عهد قرن القمح الذي حل محل قرن القرصنة وقد صاحب التصدير اتفاقيات سلم مقابل دفع مبالغ سنوية لها أهميتها. إنها كما يقول فيشر بداية عهد جديد.

الفصل السادس عشر

نظـــرة عــامـة على القــرن

إن الفصول التي خصصناها لهذا القسم الثاني أبعد ما تكون عن بحث كل المشاكل التي يطرحها هذا القرن الطويل من القرصنة. ونحن هنا لا نحاول استخلاص عناصر ختامية وإنما فقط التعرض لبعض المسائل النى لم ندرسها بكفاية أو التي تركت جانبا.

العهد الذهبي

عهد ذهبي؟ إنه عنوان يتعارض مع الاتجاه العام لهذه الدراسة وهي أن الجزائر العثمانية اجتازت قرون الحداثة الأروبية، لا بمحاولة السير إلى الأمام مثل الأروبيين بل بالركود والتخلف أكثر فأكثر عن مسيرة التقدم التي سارت فيها دول غربي أروبا في الميادين الأساسية.

في الواقع أن عبارة العهد الذهبي قلما تستعمل لوصف عهد ازدهار القرصنة الجزائرية، لكنها تترجم جيدا الروح التي تتحلى بها بعض الكتابات التي يسودها الحنين إلى الماضي والتي تتصور أنها وجدت عظمة الجزائر الماضية في تاريخها البحري.

وعلى العموم كان الشعر الملحون هو الذي تغنى في عبارات ذات طابع ملحمي بالبطولات الأسطورية المنسوبة لهذه الفترة. إن تجميل الماضي يظهر كأنه ضرورة نفسانية في أزمنة التأكيد على الهوية وفي أوقات الإحباط التي تتلو

الكوارث الوطنية.

وفي حالة من أقصى حالات الألم واليأس والفجيعة بعد استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر في 1830، كتب الشيخ عبد القادر، وهو شاعر من مدينة الجزائر قصيدة طويلة تصور المشاعر في مثل هذه الوضعية. وهذا مقطع من القصيدة كما نشرها الباحث الفرنسي J. Desparmet[1]

حسراه وين ذيك المرسة وغنايم القهاوي وملف

اقطر مات بهم رصى بسناجق الحرير ترفرف

قرصان داخلة للمرسى قداش من أسير مكتف

وفي مدخله إلى الدراسة عن هذه القصيدة يؤكد ديبارمي حسب الكتاب الذين رووا له القصة والقصيدة أنه «منذ قرن كانت هذه القصيدة تتناقل في الأسواق من قرية إلى قرية وتنشد في كل مكان كان السخط يزأر فيه» وأنها «ساهمت في التحضير لكثير من الانتفاضات الشعبية في ولاية الجزائر منذ حركة بن زعموم في 1830 إلى انتفاضة مارغريت في 1901».

إن موضوع العهد الذهبي أثاره من جديد بناة الحركة الوطنية ضد دعاية الاستعماريين الذين كانوا يصورون ماضي الجزائر في العصور الوسطى وفي العهد العثماني بأنه زمن «القرون المظلمة» وعصر «وكر لصوص البحر والخارجين عن كل قانون». وأمام هذا الخطاب المشنع والمواقف الازدرائية وفي وجه سيطرة تبدو ساحقة في كل الميادين، نشر الكتاب الوطنيون لواء العهد الذهبي كسلاح دفاعي وكوسيلة لبعث الأمل في النفوس والتذكير بأن التاريخ فيه مد وجزر وأن الضعفاء اليوم كانوا أقوياء في الماضي وسيعودون أقوياء في المستقبل.

1. Jean Desparmet, « L'entrée des Français à Alger par le cheikh Abdelkader », *RA*, 1930, p. 225-256.

إنها إذن عملية بعث للأمجاد كما يقول المؤرخ الكبير پيير ڤيلار في حديثه عن القرن الذهبي الاسباني: «إن القرن الذهبي كان يستعمل كانبعاث لأمجاد الماضي. إن الإهانات التي جاء بها القرن التاسع عشر لم تجد لها تعويضا عند المثقفين الاسبان إلا في ذكرى هذا الماضي العظيم»[1].

إن هذا الأدب التمجيدي كان في 1956 هو الأساس الذي انطلق منه شاعر مصر الكبير أحمد حجازي في ملحمته العظيمة «أوراس» التي يقول فيها:

يازمنا راح

كانت فيه سفن المغرب أميرة

ترتاح

على كل جزيرة

وتجلب الذهب للسلطان

يازمانا راح

ها أنذا أبكيك

ولكني أشهد ميلادك في الأوراس

في ذلك الوقت لم يكن أحمد عبد المعطي حجازي يعرف الفرنسية ولم يطلع على هذه الأبيات التي قالها أراغون[2] تمجيدا للمقاومة الفرنسية ضد الغزو الألماني حينما كان المقاومون الفرنسيون يخوضون معركة بطولية ضد المحتلين في جبال ڤركور:

...رولان[3] ينفخ في الصور

إنه زمن الأبطال ينبعث في ڤركور

1. Pierre Vilar, *Histoire de l'Espagne*, Paris, PUF, 1980, p. 38

2. Aragon, *La diane française*..., P., Seghers, 1946, p. 76.

3. رولان هو بطل أسطوري في عهد شارلمان تغنى ببطولته أوائل الشعراء الفرنسيين في العصور الوسطى.

ڤركور-أوراس: إن اتفاق الصور الشعرية مبعثه تطابق الظروف التي توحي بصيغ أدبية متقاربة في إشادتها «بانبعاث المجد».

واليوم تكثر الانتقادات الموجهة لأراغون لأنه كتب أثناء المقاومة الفرنسية قصائد لها طابع «النفخ في الأبواق» أي طابع وطني ضيق يتناقض مع المبادئ الأممية والكونية التي كان ينادي بها هذا الشاعر التقدمي العظيم. لكن التاريخ يدرس أحوال الجماعات البشرية في ظروفها الملموسة. فهل من الممكن أن لا نتأثر لمشاعر شعب يقاوم طغيان الاحتلال الأجنبي؟

إننا هنا في العهد الذهبي للذاكرة. لكن أين هو من التاريخ؟

يطلق المؤرخون الأوروبيون اسم القرن الذهبي على قرن فتح أمريكا وتفوق اسبانيا في أروبا، بالمعنى المباشر للكلمة قرن الذهب والفضة المتدفقين من أمريكا على اسبانيا، تلك المبالغ الضخمة التي سمحت لها بخوض عمليات التوسع الكبرى في العالم. إنه أيضا قرن الإمبراطورية الواسعة لاسبانيا في زمن شارلكنت وفليب الثاني. وهو يغطي القرن السادس عشر وقليلا من القرن التالي. وهو أيضا قرن الفنون والآداب في اسبانيا، قرن سرڤنتيس وڤيلازكيس.

ويطلق اسم العهد الذهبي أيضا على الدولة العثمانية في القرن السادس عشر عموما وبالأخص في عهد سليمان القانوني (1520-1566). كانت الإمبراطورية العثمانية في أوج اتساعها وقوتها السياسية والعسكرية وكانت أراضيها تمتد في أروبا وآسيا وافريقيا وعاصمتها استنبول (6 إلى 700 ألف سكان) تضاهي أعظم حواضر التاريخ البشري (روما، بغداد، قرطبة،بكين، الخ). وكان أسطولها بقيادة خير الدين وخلفائه أقوى أسطول في البحر المتوسط. وكان اقتصادها مزدهرا وثقافتها عرفت أزهى أيامها. فالمعماري معمار سنان (1489-1588) كان أكبر معماري عثماني في التاريخ. وفي الشعر

كان سلطان الشعراء باقي (1526-1600) وبالأخص فضولي (1494-1555) يرتفعان بالأدب التركي إلى أعلى المستويات التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية في عهدها الكلاسيكي الزاهر. وبلغ فن الرسم أوجه بالتحف الرائعة التي رسمها حيدر رايس نيقاري (نحو 1492-1572). إن الازدهار في ميدان العلوم والتقنيات على ما فيه من نسبية بالمقارنة مع أروبا كان أيضا له دور في صياغة هذا العهد الذهبي وإن كان التقدم العلمي والتقني بقي محدودا في أوساط ضيقة ولم ينتشر بين فئات واسعة مثل أروبا. إن إيالة الجزائر وإن كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية كانت تتبع طريقها الخاص. إن حالات المد والجزر فيها لم تكن على منوال ما يجري في الدولة العثمانية المركزية. فبينما في السنوات 1580 كانت استنبول تواجه أزمة حادة كانت الجزائر تمر بفترة رخاء حقيقية في الحدود التي سنحاول رسمها.

شهادات متقاربة

في محاولة تقدير الظروف التي بلغت فيها القرصنة الجزائرية أوجها سنبدأ بتقديم بعض الشهادات المعاصرة. وهي تتفق جميعا على وصف حالة الرخاء والازدهار التي كانت الجزائر تعيش فيها. إنها شهادات عيان تؤكدها تقارير وغيرها من الوثائق الرسمية التي تذهب كلها باتجاه الوصف المتقدم الذي أعطاه بروديل عن هذه السنوات التي عرفت فيها الجزائر رفاهية حقيقية.

وحول السنوات الأولى لهذه الفترة، كنا قدمنا شهادة هاييدو عن مدة إقامته بالجزائر (1578-1581) والفقرات المخصصة لهذا الرخاء. كذلك قدمنا ما كتبه مبعوث سلطان المغرب الأقصى إلى استنبول في 1589-1591، علي التمغروتي الذي يصف بكثير من الانبهار قوة ورخاء مدينة الجزائر التي كان أسطولها عامرا بالسفن والرياس الذين جعلوا من الجزائر استنبول ثانية بما لهم من شجاعة وبراعة.

ويتحدث التاجر الإنكليزي وليم دافيس[1] عن الجزائر «المدينة القوية الرائعة» التي أقام فيها في سنوات 1590 ويصف وفرة النقود وإثراء التجار في هذه المدينة. كذلك غراماي[2] يصف ازدهار الجزائر في 1619 وغنى وخصب أراضيها ويضيف بأن في ضواحي المدينة ونواحيها 14698 جنانا بمنازلها الريفية لراحة الحضر ونزهتهم وأنه في كل جنان كان يوجد أسير أو اثنان من المسيحيين للعمل فيها. إن غراماي يقول مثل غيره عن الرقم الذي قدمه عن عدد الجنانات بأنه استقاه من «ملف حسابات الباشا». وهو قول من النوع الشائع في كتابات ذلك العهد ومع ما فيه من مبالغة ظاهرة، فهو لا ينقص من المصداقية التي يحظى بها هذا المؤلف عن جدارة.

إن هذه الجنانات في المناطق المحيطة بالمدينة يقدر مختلف المؤلفين المعاصرين عددها بين 10 آلاف و18 ألف جنان. والعدد الحقيقي مجهول ولكن جمالها أثار إعجابهم جميعا. ولعل أشدهم انبهارا هو مسكارينياس[3]: «عند تجاوز منطقة المدافن.. يدخل المرء في جنانات النزهة، هذه المنازل الريفية المحاطة ببحاير الخضر وبساتين الفواكه، وهي أجمل ما رأيت في حياتي وأكثرها خضرة وأوفرها فاكهة وعيونا وسواقي. وعلى عمق فرسخين حوالي المدينة من كل الجهات المحيطة بها، يوجد أكثر من عشرة آلاف جنان. وكل جنان له داره المبنية بالحجر، ويعمل فيها النصارى الذين يحفرون وينقون لأن الأهالي، في كل صيف، يتركون المدينة ويأتون للسكنى في الجنانات بزوجاتهم وأطفالهم».

1. W. Davies, « A True Relation of travels and most miserable captivity of William Davies » ; in T. Osborne, *A Collection*…, vol. 1, p.477
2. A.-H. Ben Mansour, *Alger*…, p. 65 et p. 137 sq
3. J. Mascarenhas, *Esclave*…, p. 89-81.

«إني قد رأيت جزءا كبيرا من العالم[1].. لم أر إلى هذا اليوم بلدا أندى أجنة ولا أوفر فاكهة ولا أكثر تزودا بالمأكولات الرخيصة السعر ولا أغنى بالعيون وأطيب جوا وأثرى بالنقود من هذا البلد...».

إن دان ونايت ودارندا يعطون عموما نفس الصورة عن رفاهية الجزائر التي استمرت إلى منتصف القرن السابع عشر.

وهي نفس الصورة التي تقدمها رسالة بعثها أحد كبار علماء الجزائر[2] إلى الحكومة في استنبول في حوالي 1647. إن صاحب الرسالة، محمد بن رأس العين كان نائب مفتي الجزائر الأكبر، العلامة سعيد قدورة. وهو يصور كذلك رخاء الجزائر وجناناتها الندية وبهاء دورها وقصورها وقوة غزاتها في تعابير تقترب من وصف الرحالة البرتغالي المتقدم غير أن الصورة الرائعة التي يقدمها هي صورة الجزائر في الماضي القريب الذي يقول عنه أنه اندثر. واليوم كما يقول «والآن ضعفت الرعية فعظمت البلية وحلت الرزية وضاق المعاش لما كثرت الأوباش...» ويعزو هذه الحالة المزرية إلى نتائج ثورة ابن الصخري التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة. إن هذه الثورة التي شملت مناطق الشرق الجزائري تلتها فيما بعد ثورة تلمسان. وهذه الثورات الجماهيرية الواسعة هي مؤشر على أن الرخاء الذي ساد مدينة الجزائر ونواحيها لم يعم القطر بأجمعه ولا استمر طويلا. وبالأخص لم يصطحب هذا الازدهار بتطور الآداب والفنون والعلوم والتقنيات. إن المنازل الجميلة في المدينة والجنانات البديعة في نواحيها قد استفادت بدون شك من مواهب بعض الحرفيين وحياة الترف قد عرفت بعض الرونق. وكانت الملاحة البحرية والفن العسكري وهما

1. ذكر المؤلف البلاد التي عبرها (البرازيل،موزنبيق، الهند، فارس، الجزيرة العربية، جزر البحر المتوسط، إيطاليا، فرنسا، اسبانيا، البرتغال، الخ.)
2. انظر مقدمة المهدي بوعبدلي لكتاب الثغر الجماني...، ص 59.

ضروريان لنجاح القرصنة، يحاولان السير وراء التقدم الواثب في أوروبا لكن كانا يسيران وراءه ببطء وتخلف متزايدين.

باختصار إن الرجال الذين صنعوا العهد الذهبي الاسباني والعثماني بما أبدعوه لم يكن لهم نظيرهم في الجزائر.

وبمراعاة الظروف المختلفة والعناصر النسبية التي توحي بها الفقرات المتقدمة، سنحاول أن نلقي نظرة على بعض جوانب هذه الرفاهية التي أثارت إعجاب كثير من الشهود في فترة أوج القرصنة.

الرخاء والديناميكية الداخلية

إن الجنانات الشهيرة بدأت تنتشر حول الجزائر منذ أواسط القرن السادس عشر. لكن الشهود المباشرين الذين يقدمون أرقاما عنها تتراوح بين 10 و18 ألف جنان هم كلهم من فترة 1580 إلى منتصف القرن السابع عشر.

فالصلة مع أوج القرصنة تبدو واضحة ونتائج ازدهار القرصنة وجوانب تأثيرها على الوضع العام متعددة.

إن وجود آلاف المنازل الريفية للاستجمام والنزهة في النواحي المحيطة مباشرة بالمدينة والتي كانت بمثابة محلات إقامة ثانوية للحضر، هذا يعني أن آلاف الأسر من سكان المدينة كانت تعيش في حالة من اليسر وتستطيع أن تكتسب هذا النوع من الترف الريفي الغالي الثمن. وإذا انطلقنا من التقديرات السكانية لمدينة الجزائر في عهد أوج القرصنة، فإن عدد الأسر بالمدينة يمكن تقديره بين 15 و16 ألف أسرة. إذن إذا قبلنا الحد الأدنى من الأرقام المذكورة عن عدد الجنانات كانت أغلبية الأسر الحضرية تملك منزلا ريفيا بجنانه وما فيه من أراضي البقول والفواكه والحبوب التي يقوم بخدمتها عمال زراعيون أو عبيد.

من هم هؤلاء الملاك الموسرون؟ كما ذكرناه في الجزء السابق (ص 165 وما بعدها) انطلاقا من تحليل رسوم المخلفات وعقود البيع وغيرها من الوثائق الشرعية والرسمية بالجزائر العثمانية كانت الثروات تنتقل بين الفئات المهيمنة والموسرة من فترة إلى أخرى.

ففي النصف الثاني من القرن السادس عشر كان كبار المتنفذين الأتراك والمشارقة هم ملاك القصور والدور الكبيرة والجنانات الكبرى والأحواش الشاسعة المخصصة لزراعة الحبوب حول مدينة الجزائر. وفي العقود التالية، مع أن باشوات الجزائر كانوا عموما من الأتراك ومن شرقي المتوسط أو من العلوج ومع أن قمة السلطة في الجزائر هي أهم مصدر للإثراء السريع، فإن هذه المجموعة تجاوزتها في ميدان الثروة الفئات الصاعدة الجديدة من الأندلسين والعلوج. وكمؤشر لانتقال الثروة بين الفئات العليا يمكن أن نذكر مثلا أنه بين أعلى الثروات على الإطلاق وفي مقدمتها قائمة من 42 رسم مخلفات تخص أعلى الثروات في هذه الفترة، نجد أن 16 منها تخص العلوج و15 تخص الأندلسيين. غير أنه من الواجب أن نضيف أن الباشوات لم يكونوا في هذه القائمة لأن مدة إقامتهم بالجزائر كباشوات لا تتجاوز ثلاث سنوات إلا نادرا ولم يكونوا يستقرون في البلاد بل يجمعون ما أمكنهم من النقود والجواهر والمواد الثمينة التي ينقلونها معهم بسهولة عند مغادرتهم البلاد. كما يجب التذكير بما في وثائقنا من ثغرات لا تسمح بالتعميم المطلق، بالإضافة إلى أن أبناء الأتراك المولودين في الجزائر كانوا لا يعتبرون من الأتراك بل من فئة الكلغلية التي تنصهر في مجموع الأهالي في الأجيال التالية.

وهناك عنصر آخر يعطي نوعا من التلوين المتعدد للوحة العامة. وهو وجود الأتراك بصورة غالبة في قوائم الملكيات المتوسطة المحبسة. فطوال القرن السابع عشر كانوا يحتلون المكان الأول قبل فئة الأندلسيين بقليل، بعد ذلك تقل نسبتهم تدريجيا وتصعد نسبة الأهالي بين ملاك العقارات.

ومهما يكن الأمر فإن انتقال الثروة من فئة إلى أخرى كان أمرا حقيقيا. وهو ما تؤكده المصادر الغربية. فحول إثراء الأندلسيين مثلا. يقول فرنسيس نايت في سنوات 1630، إن الأتراك ليس لهم من السلطة سوى المظهر لأن ملكية الأراضي والسفن كانت بيد الأندلسيين والأهالي. وذلك نفس ما يلاحظه مؤلفون أوروبيون معاصرون. بينما هناك من هؤلاء الشهود المباشرين من كان يشدد على أهمية دور العلوج وثروتهم.

فئة متبخرة

إن الرمز القوي الساطع لثروة العلوج هو من غير شك القبطان شلبي علي بتشنين الذي كان يملك مئات من العبيد الذين يعملون في جناناته ومزارعه وفنادقه ومنشآته البحرية لصنع السفن وقصوره ودوره،الخ.

ومن هذه الزاوية، فإن الأرقام التي يقدمها الشهود المباشرون سواء كانت فيها مبالغة أم لا، حول ثروة القبطان إبراهيم كلغلي (هو القبطان ابراهيم بن الرقي كما رأينا سابقا) التي بلغت 500 ألف قرش من النقود والمواد الثمينة، وثروة القبطان علي رايس بن عبد الله (الكاناري) التي كان قسم منها يتكون من النقود فقط قد بلغ 180 ألف قرش. إن هذه الأرقام هي في الحقيقة أقرب إلى الواقع من الأرقام الرسمية عن ثروات القباطنة الجزائريين كما نجدها في رسوم المخلفات وغيرها والتي كما رأينا ذلك في الجزء الأول لا تتجاوز عادة 20 ألف قرش اسباني.

ويجب أن لا نحصر دور العلوج، كما يفعل الكثيرون، في تحسين تقنيات القرصنة والتسليح. لقد تكيفوا مع المجتمع إلى درجة أن أصولهم تختفي تماما في الجيل الثاني أو الثالث كما تبين ذلك كل الوثائق الجزائرية. إنها ظاهرة انصهار تام وذوبان مطلق أكثر منها ظاهرة تفاعل متبادل. إنهم اندمجوا في المجتمع وتقاليده ومعتقداته وقيمه وأنماط معيشته وتقنياته في

العمل الزراعي والحرفي دون أن يتركوا أي أثر بارز يميزهم. إنها مسألة هامة وجديرة بدراسات أوسع وأعمق. فيما يبدو، إذا كان لهم إسهام خاص فقد تطعم جيدا إلى حد أنه لا يمكن تمييزه عن إنجازات باقي فئات المجتمع، كما تظهره الأمثلة الآتية:

إن بناء الجامع الحنفي الكبير المسمى الجامع الجديد في سنوات 1660 هو من تصور وتحقيق معلم معماري من العلوج أشرف على البناء حتى نهايته. ولكن التصور والأسلوب والطابع العام للجامع الجديد هو طابع عثماني بحت. ولا يوجد في علمنا أي طراز معماري أو غيره في مدينة الجزائر يمكن أن يعتبر طرازا خاصا أتى به العلوج.

لكن يجب التوضيح بأن مدينة الجزائر عرفت عمليات قصف بالمدفعية متوالية من طرف مختلف الأساطيل الأروبية وكذلك انفجارات البارود وهزات أرضية. قد تكون هذه العوامل وغيرها قد أدت إلى زوال كثير من مظاهر الفن المعماري التي تعود إلى القرن السابع عشر. فمن الظاهر أن مدينة الجزائر في بدايات أوج القرصنة كانت إيطالية كما يقول بروديل بشيء من التشديد المبالغ فيه على جانب من جوانب الحياة في المدينة، ثم صارت بعد ذلك تحت هيمنة العلوج القادمين من البلاد الشمالية. لكن ذلك كان عبارة عن زبد عابر لم ينغرس في الأرض وقد يكون من الواجب تعميق وتدقيق البحث للعثور على آثار ظاهرة أو خفية لهذه الموجة التي كانت صاخبة في وقتها.

كمثال آخر إذا تفرسنا التأثير اللغوي، نجد حوالي ألف كلمة من أصل يوناني-لاتيني في اللغة العربية الفصحى في عصرها الذهبي بالعصور الوسطى وهي كلمات دخلت اللغة العربية بتأثير الحضارة اليونانية والرومانية والبيزنطية. كذلك نجد في اللغة الدارجة بمدينة الجزائر ما يقرب من ألف كلمة من أصل تركي أو فارسي. أما الكلمات الأروبية الأصل التي تأصلت في العربية الدارجة بالجزائر فعددها قليل وأكثرها مأخوذ إما من التركية

العثمانية أو من الأندلسيين. ويندر أن نعثر على كلمات تعود إلى تأثير العلوج المباشر[1].

إن هذا التأثير الثقافي المحدود للعلوج رغم كثرة عددهم في قرن القرصنة ورغم الدور الكبير الذي قاموا به في قيادة الأسطول وفي قمة السلطة، يثير بعض الأسئلة:

- ما هي طبيعة البوتقة التي صهرت وأذابت العلوج تماما؟

- لماذا لم يكن لهؤلاء الهولنديين والإنكليز والإيطاليين والفرنسيين القادمين من بلاد كان ينيرها إشعاع كوبرنك وكبلر وغاليلي وديكارت ونيوتن، الخ، لم يكن في بنيتهم الذهنية شيء من هذه الروح العلمية الجديدة؟. فإلى جانب الحاجز الذي تمثله البنية الذهنية الراكدة والمسيطرة على المجتمع الذي تلقاهم، هل كان لأصلهم الاجتماعي إذ أن هؤلاء البحارة يندر أن يوجد بينهم من تخرج من الجامعات الأروبية، نصيب بين العوامل التي تشرح هذا العقم وهذا الجدب الملحوظين؟

- أليس هناك نوع من عدم الأخذ بعين الاعتبار للديناميكية الداخلية للمجتمع في ذلك العصر؟ فالواقع أن الجزائر كانت آنذاك تعيش أساسيا من إنتاجها الزراعي والحرفي. وفي جمهور المنتجين للخيرات المادية، لم يكن العبيد والأسرى المسيحيون سوى أقلية ما فتئت تتناقص في النصف الثاني من القرن السابع

---

1. انظر دراسة بندلي الجوزي عن المفردات اللاتينية في اللغة العربية في مجموعة دراسات بعنوان دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، نشرها جلال السيد وناجي علوش، بيروت، دار الطليعة، 1977. ودراسة محمد بن شنب بالفرنسية M. Ben Cheneb, *Mots turcs et persans conservés dans le parler algérien*, A., 1922، والملاحظ أن بندلي الجوزي ومحمد بن شنب لم يجمعا كل الكلمات التي دخلت اللغة العربية وهما توقفا في حدود حوالي 700 كلمة يونانية-إيطالية وكذلك تركية-فارسية وبقليل من البحث يصل أي شخص إلى جمع عشرات أخرى على الأقل ولهذا قدرت الجملة شخصيا بحوالي الألف. وحول التأثير العثماني عموما، انظر:
R. Mantran, « Quelques apports ottomans dans les capitales des Oujaks de l'Ouest », *RHM*, mai 1993, p. 133-139.

عشر. أما العلوج، فقد كانوا نسبيا كثيرين بين القرصان وبين قادة وموظفي الجيش والإدارة وكان بينهم عدد من المعلمين الحرفيين والصناع في بعض المهن المرتبطة بالبحرية لكنهم مع ذلك كانوا أقلية صغيرة بين مجموع الحرفيين.

تقييم الغنائم

في غياب أرقام مرضية عن مجموع المعطيات تبقى محاولة تقييم نتاج الغنائم من قبيل الفرضيات التخمينية. لكن من الأفضل تقديم افتراضات مبنية على نقد متفحص للمعلومات المتوفرة بدل الانعدام التام لأي تعميم عقلاني، هذا الانعدام الذي يفتح الباب للتأكيدات المجانية.

إن الأساس الذي انبنت عليه تقديراتنا هو المعلومات التي قدمناها في الفصلين السابقين. وسنتابع هنا نفس التقسيم الزمني لقرن القرصنة إلى فترتين مختلفتين:

1644-1580

1699-1645

أوج القرصنة وملابساته

بدءا ينبغي التذكير بالأطوار الثلاثة لفترة ازدهار القرصنة:

1606-1580

1629-1607

1644-1630

وكل واحد من هذه الأطوار كان له ظروف خاصة أثرت في سير القرصنة ومستوى غنائمها.

1606-1580: إن الطور الأول الذي سادت فيه شخصية مراد رايس هو الطور الذي كان انسحاب العملاقين العثماني والاسباني من الميدان لم يحل

محله بعد عملاق جديد هو بلدان الشمال الأروبي. وهذا الفراغ النسبي كان من العوامل المساعدة على صعود القرصنة الجزائرية. أما ما قدمناه عن ندرة المعطيات فيعود على الأقل جزئيا إلى المشاكل التي سبق الحديث عنها والتي تخص الظروف الوثائقية نفسها.

ومع اعتبار كل هذه العناصر، تقدم بروديل[1] الذي كانت كل الأرشيفات الأروبية في حوض البحر المتوسط أساسا وثائقيا لأبحاثه، ببعض التقديرات التي اعتبرها هو نفسه مجرد افتراضات تعطي فكرة عامة عن الموضوع. إنه يعتبر أن القرصنة الإسلامية في مجموعها والقرصنة المسيحية في مجموعها كانتا تتعادلان في هذه الفترة ويضيف بأن قرصنة الجزائر تمثل نصف القرصنة الإسلامية أي ربع مجموع القرصنة في البحر المتوسط. من المؤكد أن هذا نصيب ضخم لكنه في حاجة إلى إثبات يعتمد على إحصائيات أوسع. وكما رأينا سابقا، من مآثر مراد رايس الكبرى أنه كان أول رايس مغاربي مع حسن قلفاط يجرؤ على مواجهة المحيط الأطلسي والمغامرة فيه حتى جزر الكناري في 1586.

وللمقارنة نذكر أنه في 1577، قام القرصان الانكليزي فرانسيس دراك باجتياز مضيق ماجيلان بخمسة سفن إنكليزية. واجتاح سواحل الپيرو والشيلي وكمن للقافلة البحرية الاسبانية المحملة بذهب وفضة أمريكا الجنوبية واستولى على جميع ما كانت تحمله غليونات اسبانيا ثم صعد شمالا في المحيط الهادي إلى كاليفونيا وعاد عن طريق الشرق الأقصى والمحيط الهندي ورأس الرجاء الصالح في جنوب افريقيا واجتاز المحيط الأطلسي إلى أن بلغ پلايموث في 1580 بعد أن قام بدورة كاملة حول العالم. لقد جلب للملكة إليزابيث الأولى أرباحا ضاعفت 47 مرة مساهمتها المالية[2]. وفي 1587 استولى على القاعدة البحرية

---

1. F. Braudel, *La Méditerranée…*, t. II, p. 209.

2. حول مجموع الأرقام المقدمة هنا، انظر P. Vilar, *Or et monnaie dans l'histoire*, P., Flammarion, 1974, p. 175-176 ; M. Postan et Ch. Hill, *Histoire économique et sociale de la Grande-Bretagne*, P., Seuil, 1977, t.. I, p. 214 sq

الاسبانية قادش وغنم فيها كل الذهب القادم من أمريكا. وخلفه القرصان Raleigh الذي هاجم قادش من جديد في 1596 واستولى فيها على قيمة 20 مليون دوقة. إن غنائم هؤلاء القراصنة الإنكليز سمحت للملكة إيليزابيث أن تسك نقودا ذهبية بقيمة 4،5 ملايين من الجنيهات الاسترلينية. وبالنظر إلى هذه الأرقام تبدو قرصنة الجزائر في وضع متواضع.

1607-1629: لا شك أن هذا الطور الذي دفع به إلى الأمام التوجه نحو المحيط الأطلسي قد شكل ذروة الفترة في مجموعها. وإذا انطلقنا من السنوات التي توفرت عنها معطيات كثيرة وموثوقة نسبيا (سنوات 1611 إلى 1625) فليس من الغلو اعتبار أن العدد السنوي للغنائم كان من بين 70 و100 سفينة أو أكثر (مثلا 125 سفينة أخذت في 1620). وعدد الأسرى المجلوبين في كل سنة يمكن تقديره بنحو الألف[1]. أما القيمة الإجمالية لمجموع الغنائم السنوي فهي حوالي نصف مليون قرش.

ولا يمكن انطلاقا من هذه السنوات الخصبة استخلاص متوسط سنوي لمجموع الطور الذي نحن بصدده. ومثل دان تذكر المراسلات القنصلية أن بعض السنوات كانت لا تنتج شيئا يذكر. ولمقارنة هذه النتائج بالقرصنة الأروبية في نفس الفترة نقدم بعض الأمثلة.

- في 1609 خسرت البندقية[2] ما قدر بقيمة 8 ملايين من الدوقات الذهبية بفعل القرصنة الاسبانية وحدها.

- في 1627 أخذ قرصان دنكارك غنائم من الهولنديين بقيمة 10 ملايين فلوران وأخذوا لهم في 1629 غنائم بقيمة 12 مليون فلوران.

- في 1628 استولى الهولنديون قرب لاهافان عاصمة كوبا على الغليونات

---

1. انظر حول الغنائم وعدد الأسرى A.- H.Ben Mansour, *Alger*..., p. 149 sq

2. M. Fontenay et A. Tenenti, *op.cit.*, p. 127

الاسبانية الحاملة للفضة الأمريكية. ومجموع[1] السفن الاسبانية التي استولى عليها الهولنديون بين 1629 و1637 بلغ عددها 1499 سفينة. من جهتهم أخذ الاسبان للهولنديين 1880 سفينة بين 1629 و1638.

– إن فيشر[2] لا يبالغ حين يذكر أنه في هذه السنوات كان مجموع الخسائر التي كبدتها الإيالات المغاربية الثلاث للتجارة الانكليزية قد لا يبلغ الخسائر التي كبدتها مدينة دنكارك وحدها للتجارة الانكليزية. هذا دون الحديث عن القرصنة الانكليزية التي كانت في هذه السنوات أكثر نموا مما كانت في عهد اليزابث الأولى.

– ومن غير الدخول في التفاصيل، يمكن القول بكل يقين أنه في سنوات أوج القرصنة الجزائرية كانت هذه متخلفة كثيرا عن البلاد التي ألمحنا إليها في هذه الفقرات.

– 1630 – 1644 : عن هذه السنوات تبين الأرقام المتوفرة هبوطا كبيرا في نشاط القرصنة الجزائرية وغنائمها. لكن يجب أن نلاحظ هذا التناقض: الثروة الهائلة التي كانت لبتشنين وأسطوله الخاص وعبيده بالمئات وجناناته وأحراشه. إنها أيضا السنوات التي تظهر فيها ثروات الرياس وأرباب السفن في أعلى قممها كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

نسبية الأرقام

إن الفصل الخاص بغنائم النصف الثاني من القرن السابع عشر يبين بوضوح أن هذه الفترة بما تخللها من مد وجزر هي فترة تتجه نحو الهبوط الذي يبلغ مستواه الأدنى في أواخر القرن. هل يمكن تقديم متوسط سنوي افتراضي لكن بكثير من المعقولية؟

---

1. Ch. Buchet, J. Meyer et J.- P. Pouseau, *La course maritime*, P., 2004

2. G. Fisher, *op. cit.*, p. 39

هذا ما حاول ميشيل فنتناي[1] أن يقوم به مع ملاحظة ما في هذه المحاولة من مجازفة غير يقينية. وقد اعتمد في حساباته على قائمة رسمية سجلتها الغرفة التجارية في مرسيليا للخسائر الفرنسية الناجمة عن هجمات «البرباريسك» بين 1562 و1664. وهو يصل إلى رقم 350 ألف قرش كقيمة متوسطة سنوية لغنائم القرصنة الجزائرية في هذه السنوات. ويبدو الرقم عاليا إلى حد ما لكن كما رأينا في الفصل السابق كانت السنوات 1660-1663 مثلا من أعلى السنوات في هذه الفترة. ومن الممكن أيضا أننا من جهتنا استنقصنا نسبيا قيمة الغنائم في هذه السنوات. إن المسالة هي إذن مطروحة للتعمق في البحث. ولسنا في حاجة إلى التذكير مرة أخرى أن متوسط بضع سنوات لا ينطبق على فترة بأكملها وأن الرقم المقدم هنا هو مجرد افتراض يحتاج إلى إثباته بمعطيات أوسع وأكثر اتصالا مباشرا بواقع الغنائم.

من جهة أخرى يقدم فنتناي أرقاما أكثر وثوقا وهي مستقاة من سجل الغنائم في مالطة عن سنوات 1660 يصل منها إلى متوسط سنوي للغنائم المالطية يبلغ 160 ألف قرش. أي أن مالطة تأتي في الصف الثاني بعد الجزائر لكن قبل تونس وطرابلس الغرب.

ولمقارنة الجزائر بالقرصنة الأوروبية في هذه الفترة نقدم هذه الأرقام[2]:

- من 1652 إلى 1667 أخذ الإنكليز للهولنديين 2500 سفينة.
- بين 1667 و1689 أخذ الفرنسيون لأعدائهم في حرب القرصنة 4000 سفينة.

لقد ذكرنا سابقا أنه على العموم يمكن اعتبار القوة البحرية الجزائرية في هذه الفترة تعادل نحو العشر من قوة البحرية الإنكليزية. وفي حرب القرصنة

1. Michel Fontenay, *La place…*, p. 133 sq

2. انظر المصادر الأوروبية التي ذكرناها في هذا الفصل عن القرصنة الأوروبية

الدولية كانت غنائم الجزائر متناسبة عموما مع قوتها البحرية الضاربة. وفي كل الأحوال كانت قرصنة الجزائر وغنائمها تأتي بعيدا وراء الإنكليز والهولنديين والفرنسيين والاسبان.

الغازي والمجاهد

في وثائق الرصيد العثماني بأرشيفات الجزائر ترتسم هرمية رمزية بين الرياس عموما والقباطنة بالأخص. وقد رأينا أن عددا قليلا فقط من القباطنة كان يحمل رتبة ولقب الباي. واثنان من هؤلاء البايات-القباطنة كانا يحملان لقب «الباشا» ربما كنوع من الكنية أكثر مما هو ادعاء بحمل رتبة الباشا. وهما إبراهيم عربجي باشا ورجب باشا المتقدمان. وفي الرسوم الشرعية وغيرها من الوثائق الرسمية، كانت صفة شهير تعطى لبعض الرياس والقباطنة. لكن النادر جدا وبالتالي الثمين جدا هو لقب المجاهد. هذا اللقب الذي كان يحمله خير الدين برباروسة وكذلك ابنه حسن باشا سيعطى فيما بعد للقبطان الرايس حميدو.

أما في «قرن القرصنة»، فحسب علمنا لم يحمل هذا اللقب سوى أربعة قباطنة ورايسان. وهما الرايس المجاهد والقبطان رجب باشا بن إبراهيم التركي وحفيده الرايس المجاهد يوسف والرايس المجاهد الشهير سعيد الشويهد الأنصارى الأندلسي، والقبطان المجاهد حسن برباربن عمر التركي والقبطان المجاهد إبراهيم بن الرقي والقبطان المجاهد خليل بن والي رايس.

قد لا تكون هذه القائمة كاملة. لكن من المؤكد أن الذين حملوا صفة المجاهد لم يكونوا سوى أفراد قلائل من بين عشرات القباطنة ومئات الرياس في هذا القرن الذي سميناه قرن القرصنة. إن هذه الندرة لا تخلو من معنى. والملاحظ أن هناك صفة مشتركة لكل من حملوا لقب المجاهد وهو أنه ليس بينهم أي واحد من العلوج.

خاصية أخرى يمكن التذكير بها. إن كلمة غازي وكلمة مجاهد في إطلاقهما على رجال البحر كانتا كلمتين مترادفتين، فابن خلدون مثلا يستعملهما بنفس المعنى. وفي العهد العثماني عرفت الكلمتان نوعا من التطور الذي ميز بينهما: فكلمة غازي في اللغة التركية العثمانية تستعمل لوصف كبار القادة العثمانيين سواء كانوا من أصول إسلامية أو من العلوج ولم تعد مقترنة بالمعنى الديني الذي تحمله كلمة مجاهد بل صارت تعني الفاتح أو القائد المظفر الخ.

أما ندرة استعمال كلمة مجاهد لوصف رياس الجزائر فهي توحي بأنه يجب التمتع ببعض الخصال والصفات للوصول إلى هذا التشريف. ويمكن أن نستخلص من ذلك أن كتاب الرسوم الشرعية والوثائق الرسمية من عدول وقضاة وخواجة، الخ. كانوا لا يعتبرون القرصنة نوعا من الجهاد وكانوا لا يميلون إلى منح هذا اللقب لكثير من المغامرين في البحر.

هذا على الرغم من أن إيالة الجزائر، حتى في رسائلها الرسمية إلى الحكام الأوروبيين كانت تسمي نفسها جزائر المغازي أو دار الجهاد. وكملاحظة أخيرة كانت هذه الرسوم الشرعية والوثائق الرسمية لا تعطي لقب المجاهد إلا لعدد قليل من باشوات ودايات الجزائر قد لا يتجاوز العشرة من بين أكثر من 70 باشا أو داي تولوا الحكم في القرون العثمانية الثلاثة. وفيما عدا نسيان أو إهمال من جانبنا لم نصادف أي علج ممن حكموا الجزائر موصوف بكلمة مجاهد.

إن هذه الملاحظات تؤكد في رأينا الطابع الغالب لقرصنة الجزائر وهو البحث عن الربح وقد رأينا أنها كانت كسموپوليتية مفتوحة لكل الأجناس، لكل التقنيين الجيدين والمغامرين الجريئين. وهكذا ابتعدت قرصنة الجزائر عن الروح التي كانت تحركها في البداية وأعطت بتطورها طراز خاصا وطابعا معينا لمدينة الجزائر في العصور الحديثة.

خاصية أخرى يمكن التذكير بها. إن كلمة غازي وكلمة مجاهد في إطلاقهما على رجال البحر كانتا كلمتين مترادفتين، فابن خلدون مثلا يستعملهما بنفس المعنى. وفي العهد العثماني عرفت الكلمتان نوعا من التطور الذي ميز بينهما: فكلمة غازي في اللغة التركية العثمانية تستعمل لوصف كبار القادة العثمانيين سواء كانوا من أصول إسلامية أو من العلوج ولم تعد مقترنة بالمعنى الديني الذي تحمله كلمة مجاهد بل صارت تعني الفاتح أو القائد المظفر الخ.

أما ندرة استعمال كلمة مجاهد لوصف رياس الجزائر فهي توحي بأنه يجب التمتع ببعض الخصال والصفات للوصول إلى هذا التشريف. ويمكن أن نستخلص من ذلك أن كتاب الرسوم الشرعية والوثائق الرسمية من عدول وقضاة وخواجة، الخ. كانوا لا يعتبرون القرصنة نوعا من الجهاد وكانوا لا يميلون إلى منح هذا اللقب لكثير من المغامرين في البحر.

هذا على الرغم من أن إيالة الجزائر، حتى في رسائلها الرسمية إلى الحكام الأروبيين كانت تسمي نفسها جزائر المغازي أو دار الجهاد. وكملاحظة أخيرة كانت هذه الرسوم الشرعية والوثائق الرسمية لا تعطي لقب المجاهد إلا لعدد قليل من باشوات ودايات الجزائر قد لا يتجاوز العشرة من بين أكثر من 70 باشا أو داي تولوا الحكم في القرون العثمانية الثلاثة. وفيما عدا نسيان أو إهمال من جانبنا لم نصادف أي علج ممن حكموا الجزائر موصوف بكلمة مجاهد.

إن هذه الملاحظات تؤكد في رأينا الطابع الغالب لقرصنة الجزائر وهو البحث عن الربح وقد رأينا أنها كانت كسموبوليتية مفتوحة لكل الأجناس، لكل التقنيين الجيدين والمغامرين الجريئين. وهكذا ابتعدت قرصنة الجزائر عن الروح التي كانت تحركها في البداية وأعطت بتطورها طراز خاصا وطابعا معينا لمدينة الجزائر في العصور الحديثة.

القسم الثالث

القرصنة في هبوط

1700 - 1830

إن الفترة الطويلة التي سنبحثها في هذا القسم لها بعض الخصائص:

العيانية

إنها ظاهرة للعيان لوفرة المصادر وجودة المعطيات فهي أوضح وأوثق وأدق من الفترة السابقة وهذا ما يجعل قسما هاما من هذه الفترة يتمتع بوضوح الرؤية بصورة لا مثيل لها في الماضي. ومن هذه الزاوية يمكن التمييز بين ما قبل وما بعد 1765. فابتداء من 1765 يوجد ملف رسمي جزائري هو سجل الغنائم البحرية الذي يفصل سنة بسنة عدد الغنائم وقيمتها ويعطي اسم الرايس الذي حصل عليها واسم السفينة التي كان يقودها وأسماء ملاكها، الخ. وليس من الغريب إذا كانت الدراسات المنشورة أم لا، الأوثق معلومات والأعمق تحليلا هي التي تتعلق بهذه السنوات.

الانتظام

إن الظروف الدولية الجديدة جعلت من البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وهما ميدان نشاط القرصنة الجزائرية، عالما تسيطر عليه الدول الأروبية. إن العلاقات الدولية والقوانين والمعايير التي تنظمها أملتها هذه الدول المسيطرة.

وفي هذه الأوضاع لم تعد الجزائر قوة بحرية معتبرة. إن ما يسمح لها بمواصلة القرصنة هو التنافس بين مختلف الدول الأروبية. وقد صارت حالة

السلم مع الفرنسيين والانكليز شبه دائمة طوال القرن الثامن عشر. وفي الجزء الأكبر من هذا القرن كانت قرصنة الجزائر مصوبة ضد الدول المعادية منذ بداية العهد العثماني وهي بالأخص اسبانيا والبرتغال ومالطة وضد بعض البلدان الصغرى الإيطالية والشمالية.

وصارت الجزائر بصورة أكثر انتظاما من السابق تمارس القرصنة مع احترام القواعد الدولية لذلك العصر. ومما سهل هذا الانتظام استقرار نظام الحكم منذ 1711 إلى 1805 والبنى الإدارية لدولة الجزائر التي صارت أكثر تركزا وتخصصا وصارت الحكومة المركزية تتحكم فيها بكثير من الفعالية.

الهبوط

إن هبوط القرصنة يتضح منذ العقد الأول للقرن الثامن عشر مع الانخفاض الهائل للغنائم وعدد الأسرى الذي لم يعد يتجاوز ما بين ألفين وثلاثة آلاف إلا في حالات استثنائية. وسار الأسطول في نفس الاتجاه لأن قرصنة الجزائر لم تعد تجتذب الرياس الجريئين والأكفاء سواء من البلاد الشمالية أو غيرها.

آفاق جديدة

في الداخل اتجه اهتمام التجار الذين كانوا في الماضي يستثمرون أموالهم في شراء أسهم من ملكية سفن القرصنة، نحو آفاق جديدة مربحة أكثر: وهي التجارة الخارجية المتمحورة حول تصدير المواد الزراعية واستيراد منتجات الترف وغيرها من البضائع الجديدة التي صارت شائعة. ووجد قادة الحكم في هذا القطاع الجديد منبعا هاما يدر مداخيل عمومية وخاصة.

وفي هذه الظروف أصبحت القرصنة أداة دبلوماسية تسمح للجزائر بأن تبيع غاليا للدول الأوروبية شروط السلم واطمئنان الملاحة البحرية. إن «الإتاوات» والهدايا وغيرها من الرسوم المرتبطة بالاتفاقيات التجارية كانت تقدم تعويضا كبيرا عن القرصنة كما تبينه الفصول التالية.

الفصل السابع عشر

تحول الاتجاه

كما بينه فيشر فيما تقدم، كان تحول الاتجاه قد بدأه في سنوات 1690 الداي الحاج شعبان خوجة الذي تحول عن الآفاق البحرية إلى آفاق برية إذ كان طموحه هو تعبئة كل القوى لتحقيق اتحاد مغاربي تحت لوائه.

وهذه السياسة استمر فيها خلفه الداي آتشي مصطفى الذي واجه أولا القوى المشتركة لتونس وطرابلس الغرب وهزمها في أكتوبر 1700 ثم اصطدم بجيش الملك مولاي اسماعيل في أفريل 1701. وكان انتصاره الساحق على الجيوش المغاربية الثلاثة والغنائم وغيرها من تعويضات الحرب التي فرضها على الحكام المنهزمين كل ذلك كان غير كاف لحل بعض المشاكل الجوهرية. ذلك أن هذه الانتصارات كانت نتيجة لتعبئة استثنائية للقوى. فقد زاد في عدد الجنود المأجورين إلى مستوى لا تستطيع ميزانية الدولة تحمله مدة طويلة. وأنفق مبالغ هائلة كذلك لتجنيد آلاف من الفرسان من داخل القطر والإنفاق عليهم.

وكان عليه أن يكتسب عتادا حربيا حديثا. صحيح أن بعض الدول الأروبية كانت تهدي له بعض العتاد مقابل عقد اتفاقيات السلم والتجارة (تسليم مجاني للمدافع والبنادق والقذائف، الخ.) لكن هذا كان غير كاف واضطر إلى شراء كميات كبرى من العتاد الحربي من البلاد الأروبية بثمن غال ولم تكن القرصنة في فترة ركودها قادرة على الحصول على الأموال الكافية.

بداية قرن عويصة

صحيح أنه بفضل هذا العتاد الحربي الجديد استطاع الجيش الجزائري أن يحرر وهران ومرسى الكبير من يد الاسبان في 1708. لكن النفقات الباهظة التي تطلبتها العمليات الحربية المتوالية أثقلت كاهل البلاد. وفوق ذلك توالت عدة سنوات في العقد الأول من القرن الثامن عشر كانت فيها غنائم القرصنة قد تدهورت إلى درجة لم تعرفها من قبل. إن مراسلات القنصلية الفرنسية[1] في الجزائر عن القرصنة أصبحت من العبارات المكررة :

1701: قرصنة غير مثمرة فيما وراء جبل طارق

1702: عودة غير مثمرة للرياس

1703: خروج غير مثمر للرياس. نفاد منبع القرصنة وانتشار المجاعة

1704: إفلاس مالي لدولة الجزائر وفشل عمليات القرصنة الأخيرة.

فعلا زاد الجفاف في تفاقم الأوضاع الناجمة عن خسائر الحرب ونفاد القرصنة. إن الجفاف كان عاما شاملا لكل الأقطار المغربية في السنوات الأولى من القرن الجديد. ولم يعد الحكم في الجزائر قادرا على ضمان أجور الانكشارية فلجأ الداي إلى إرهاق السكان بالرسوم الاستثنائية وغيرها من المساهمات والخدمات الإجبارية. ودفعه تفاقم العجز المالي إلى غزو تونس من جديد في 1705 ومحاولة تجميع الأموال عن طريق نهب المدينة. وبعد حصار طويل اضطر إلى العودة دون نتيجة. وكان من العواقب العادية لمثل هذا الفشل أن ثار الانكشارية وقضوا على حكمه.

ويمكن أن نلاحظ ظاهرتين تشيران إلى هذا التحول الجديد:

- إن تقوية الجيش البري وتجديد عتاده الحربي ارتبطا بتعدد الاتفاقيات السلمية والتجارية مع الدول الأوروبية بحثا عن الأموال اللازمة لهذا التجديد.

---

1. ANP, AE, B1 118 f° 177 sq

وهكذا كان توسيع حقل السلام هو في نفس الوقت عملية تضييق لميادين القرصنة وحد من عملياتها.

- في حين كانت المجاعة تسود مدينة الجزائر، تم تصدير 1275 حمل قمح من الشرق القسنطيني إلى فرنسا في سنة 1700 وهي سنة كان الجراد فيها قد أحدث أضرارا كبيرة في المحصولات الزراعية. وفي 1701 وهي سنة جفاف عام صدرت 4450 حمل قمح. إن الشركة المرسيلية استمرت في شراء الحبوب في هذه المناطق في 1702 وهي سنة عم فيها القحط كل الأقطار المغربية.

إن هذه الوقائع هي مطالع سياسة جديدة قد تكون متعمدة جزئيا أو أن الظروف فرضتها وبالأخص تغير ميزان القوى على الصعيد العالمي. وقد دامت هذه السياسة مدة أكثر من قرن بفضل استقرار نظام الحكم وكذلك لأنها كانت تزود السلطة بمبالغ مالية فيها تعويض كبير لما فقدته القرصنة من أرباح.

التطور السياسي والقرصنة

إن تركيز السلطة واستقرارها اللذين انطلقا منذ قيام نظام الدايات في 1671 عرف دفعة جديدة في 1710. فحين انتخب علي شاوش دايا رفض الباشا الذي أرسله الباب العالي وحصل من السلطان العثماني على الجمع بين صفتي الداي والباشا وكان هذا نقطة تحول حاسمة. فكل الدايات الذين يختارهم الديوان تعترف بهم استنبول كباشوات-بيلربايات الجزائر. وهذا التحول لا يترجم فقط عن توطيد الاستقلال في الحكم وهو أمر كان قائما منذ مدة طويلة بل قد فتح الباب لتركيز السلطة بأيدي الداي وتنظيم الجهاز الحكومي على أسس جديدة.

بصورة خاصة لم تعد المسائل المتعلقة بالقرصنة من اختصاص الديوان العام. فقد تكون مجلس للرياس وأصبح من اختصاصه بحث المشاكل التي تثيرها القرصنة وإن كان القرار الذي يتخذه هذا المجلس يعرض دائما على الداي الذي يبت فيه بصورة نهائية.

وفي عهد عبدي آغة (1723-1733) تقرر إنشاء حرس خاص يقوم بمراقبة وتفتيش كل من يأتي لدار الإمارة وينزع السلاح عن كل زائر حصل على مقابلة خاصة مع الداي. وقد اتخذ هذا الداي قرارا آخر زاد في تثبيت استقرار الحكم. فقبيل وفاته، عين بنفسه خلفه وهو صهره. واتبعت هذه السابقة بشكل منتظم في القرن الثامن عشر. وهذا ضمن التوالي على الحكم بصورة سلمية وتوطد الاستقرار السياسي.

إن الوظائف الوزارية التي أنشأها الدايات السابقون أصبحت محددة بشكل أدق منذ أوائل القرن الثامن عشر: الخزنجي هو الوزير الأول والمشرف على المالية؛ آغة المحلة هو الوزير الثاني المكلف بالشئون العسكرية وقائد الجيش البري؛ خوجة الخيل مكلف بالواردات من داخل البلاد وتزويد الدولة بالمؤونة وإدارة أملاك البايلك؛ وكيل الحرج، مكلف بالبحرية والشئون الخارجية؛ بيت المالجي، مكلف بالمواريث المخزنية وما اتصل بالمواريث عموما.

وإلى جانب هذه الوزارات كانت كتابة الدولة تشرف على كل السجلات الرسمية وكانت إدارات عامة أخرى متخصصة لكل منها مهماتها المحددة.

إن تركيز السلطة بأيدي مجموعة ضيقة يعينها الداي وهي مرتبطة به شخصيا بروابط الجهوية والقرابة والتبعية الشخصية، الخ.، قد سمحت باتباع سياسة عامة تحدد دور القرصنة ولم تعد القرصنة هي التي تحدد السياسة العامة كما كان الحال في القرن الماضي.

القرصنة والدبلوماسية

إن القول بأن القرصنة أصبحت في القرن الثامن عشر مجرد أداة دبلوماسية هو أمر يحتاج إلى بعض التوضيح.

فعلا كانت التجاوزات الفردية بمبادرة بعض القراصنة لم تزل تماما وإنما أصبحت نادرة وتعاقب بقسوة وأحيانا بالإعدام.

إن حكاية «الجزائر وكر لصوص البحر» مازالت تردد حتى اليوم ليس فقط في أوساط العناصر الاستعمارية الحاقدة بل كذلك بين بعض المؤرخين الأوروبيين الذين لهم نوايا مختلفة من جملتها تصعيد حملة الكراهية ضد العرب والمسلمين وتحركها مصادر خائفة على مستقبلها ومصالحها الضيقة من صعود موجات التحرر في العالم.

ولهذا يجب التذكير بالصورة التي كانت تقدم عن قرصنة الجزائر في الأوساط الرسمية الأوروبية في القرن الثامن عشر.

في رسالة[1] بعثها شيخ ومسئولو بلدية مرسيليا إلى وزير البحرية الفرنسي في 1792 يصفون الجزائريين هكذا: «عندما يكونون في حرب مع دولة معينة، يقومون ضدها بأعمال القرصنة كما فعلت كل الدول البحرية الأخرى حتى الآن لكنهم لا يهاجمون أبدا سفن كل البلدان».

وأشار القنصل الفرنسي[2] في تقرير له في 1793 أن وكيل الحرج قد عزل لأنه أعطى الأمر للرياس بمهاجمة 6 سفن هولندية بعد قطع العلاقات الدبلوماسية مع هولندة دون احترام الأجل المقرر في مثل هذه الحالة. وقد أعيدت السفن الهولندية لأربابها رغم حالة الحرب بين البلدين.

---

1. ANP, AE, B1 145, f^os 257-277

2. ANP, 369 Mi 4, art. 1376

ويذكر پيتر إيرل[1] عدة حالات كان فيها الانكليز والفرنسيون أقل احتراما للمواثيق من الدول المغاربية.

إن دانيال پنزاك[2] يلخص الأوضاع تلخيصا جيدا: «إن القرصان (الجزائريين) لا يهاجمون سوى سفن الدول التي هم معها في حالة حرب. ومن المعروف أن الذريعة المقدمة عموما هي عدم احترام بنود الاتفاقيات، وقد يكون السبب المقدم حقيقيا أو مفترضا. كما قد توجد حالات فيها غموض ويلعب فيها سوء النية دوره من هذا الجانب أو ذاك».

المنطق التجاري ومنطق القرصنة

والحق أن هذه الشهادات المتنوعة عن احترام الجزائر لتعهداتها في سياستها المتبعة في ميدان القرصنة لايمكن الاعتماد عليها حرفيا كدليل قاطع على انتظام وانضباط هذه السياسة في كل الظروف. فرغم ما صارت الجزائر تتحلى به في القرن الثامن عشر من سلوك فيه تقيد بالقواعد الدبلوماسية، فإن طبيعة الدولة كدولة قرصنة لم تنته تماما فمصالح القرصنة ما زالت تشكل جزءا من سياستها العامة. وهناك منطق القرصنة كما هناك منطق تجاري سارت عليه الدول الأروبية ويصفه بروديل[3] وصفا قويا في فقرات نقتطف منها هذه السطور:

«إن ما تفتأ السياسة والحياة الهولندية تدافع عنه... هو مجموعة من المصالح التجارية. وهذه المصالح تتحكم في كل شيء وتغطي كل شيء».

---

1. انظر: Peter Earl, Corsairs…, p. 43 sq ; Fisher, *Légende*…, p. 210 et p. 270 ; De Grammont, *Histoire*…, p. 50 sq . G. van Krieken , *op. cit.*, p. 98. إن هؤلاء المؤلفين يجمعون على أن الجزائر لم تكن أكثر ولا أقل من غيرها في التحايل على المواثيق واستعمالها حسب مصالحها.

2. Daniel Panzac, *op. cit.*, p. 95.

3. F. Braudel, *Civilisation*…, *op. cit.*, t.3, Le Temps du Monde, p. 172.

ويفصل بروديل كيف كان التجار الهولنديون يستثمرون أموالهم في قرصنة دنكارك التي كانت أحيانا تهاجم السفن الهولندية نفسها ويعطي أمثلة عديدة كان فيها التجار الهولنديون يبيعون الأسلحة لأعداء وطنهم.

ولسنا بحاجة إلى تعداد الأمثلة التي تبين كيف كان المنطق التجاري يتحكم في سياسة هذه الدول الحديثة. يكفي التذكير «بحرب الأفيون» التي شنتها إنكلترا ضد الصين لإجبارها على فتح أسواقها لتجارة الأفيون الإنكليزية باسم حرية التجارة العالمية.

وقد ذكرنا مرارا أن القرصنة رافقت إيالة الجزائر منذ البداية وطبعت حكمها ومؤسساتها وسياستها الخارجية. ومع أن القرصنة لم تعد هي المحرك الرئيسي في القرن الثامن عشر، فمازالت تؤثر على السياسة الخارجية التي كانت في سعيها وراء المردود المالي تشمل ثلاثة محاور: «الإتاوات» والرسوم التجارية وغيرها من الإيرادات المالية والتزويد بالعتاد مقابل السلم والإمتيازات التجارية؛ التجارة الخارجية المتركزة على تنمية الصادرات من المنتجات الزراعية؛ فدية الأسرى الذين كان جزء كبير منهم، كما سنرى ذلك بعد قليل، يتكون من فرار الجنود الاسبان من قواعدهم في وهران ومرسى الكبير ومن أسرى الحرب.

أثمان السلم: كانت الجزائر لتعويض نقص الإيرادات الناتج عن إيقاف القرصنة ضد بلد معين تشترط على البلاد الأوروبية الراغبة في الصلح أن تدفع مبالغ هامة عند إبرام اتفاقية الصلح وعند تجديدها ومبالغ أخرى كهدايا سنوية أو كل سنتين. وهذا الإبتزاز المالي كما يسميه پنزاك كان يأخذ بالاعتبار مواقف ووضعية الدول المعنية وحساباتها حول ما يمكن أن تجنيه من أرباح من هذه الاتفاقيات. وكانت هذه المدفوعات تدعى «إتاوة» أو «جزية» في التعابير الأوروبية المعاصرة. والحقيقة أن الجزائر لم تكن في مركز القوة الذي

يسمح لها أن تتلقى «إتاوة» أو «جزية» من دولة أخرى. فلم تكن هذه المدفوعات تحمل مظاهر الخضوع أو التبعية بل كانت فقط وسيلة لتجنب الضرر الذي تحدثه القرصنة.

نتائج مؤقتة

إن إقامة حساب ختامي كامل لهذه المساهمات يتطلب توسعا وتعمقا في البحث. ونحن نكتفي هنا بتقديم بعض العناصر الرئيسية:

ولنبدأ بالقيمة مقدرة بالقروش الاسبانية لما كانت تدفعه بعض الدول من مبالغ مالية أو ما تزود به الجزائر من العتاد عند إبرام معاهدة صلح.

والأرقام المقدمة هي غالبا مستقاة من وثائق البلاد المسيحية المعنية بالمعاهدة أو من تقارير القناصل الأجانب في الجزائر.

- حسب القنصل الأمريكي في الجزائر[1]. كلفت معاهدة الصلح المعقودة في 1786 اسبانيا 3,2 مليون قرش اسباني. ودفعت اسبانيا من جديد 200 ألف قرش اسباني في 1803.

أما الأميريكان، فللحصول على الصلح، دفعوا 721 ألف دولار حسب مراسلة قنصلهم[2].

- وبعد قطيعة 1793، اشترى الهولنديون[3] السلم في 1794 بتقديم قيمة 557000 فلوران (أي حوالي 229000 قرش اسباني). ودفعوا من جديد 170000 قرش اسباني طالب الداي بها في 1799.

1. ANP, 253, Mi 2, vol. 6

2. نفس المصدر 253 Mi 4 , vol.9

3. G. Van Krieken, *op. cit.*, p. 123-124

- ودفع الفرنسيون[1] من جهتهم مكافأة لداي الجزائر قدرها مليون فرنك لدوره في إعادة السلم بين البلدين بعد إعلان الحرب على فرنسا وهو موقف أملاه التضامن مع الدولة العثمانية بعد غزو فرنسا لمصر. والواقع أن حالة الحرب بين الجزائر وفرنسا بقيت اسمية أكثر منها فعلية باتفاق الطرفين ضمنيا.

- كلف السلم البندقية 40000 سلطاني كهدايا لكبار المسئولين ونحو 100000 قرش اسباني عند التوقيع على المعاهدة في 1763 وعند تجديدها في 1768-1769 وحوالي 20000 قرش اسباني هدايا سنوية. لكن حسب البنادقة[2]، بفضل هذه الاتفاقيات، كسبوا من تسليم جوازات بندقية لسفن تنتمي إلى بلاد هي في حرب مع الجزائر والإيالات المغاربية وتتستر في ملاحتها البحرية بهذه الجوازات، كسبوا في مدة عشرين سنة ما قيمته أكثرمن 300000 دوقة.

- كانت كل معاهدة صلح تكلف حوالي 75000 قرش اسباني، الدانمرك والسويد وهمبورغ، الخ. وفي نهاية القرن كان كل من البروسيين والبرتغاليين والهولنديين والناپوليين والجنويين يسعون إلى عقد معاهدات الصلح مع الجزائر وتبعهم التوسكانيون والسردانيون، الخ. وقد اشترطت الجزائر على البرتغال مليوني قرش اسباني. وعلق القنصل الفرنسي على هذه الحالة في مراسلاته قائلا لم يحدث أبدا أن تدفقت الأموال الأروبية على الجزائر بهذا الشكل الذي تدفقت به الآن.

- الشيء الأكيد أن مجموع هذه الإيرادات تزايد كثيرا في العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر وفي العقود الثلاثة التالية. لقد كانت تقدر سنويا بنحو

1. G. Esquer, *Collection…*, p. 105 sq

2. A. Sacerdoti, «Venise et les Régences d'Alger, Tunis et Tripoli», *RA*, 1957, p. 294 sq.

30 ألف قرش اسباني في السابق. وأصبحت حوالي 96 ألف قرش اسباني في 1802 وارتفعت إلى 212 ألف قرش اسباني في 1807. إن الحروب بين الدول الأروبية والحاجة إلى القمح وتكثيف التجارة البحرية واغتناء أروبا، كل هذه العوامل تضافرت في هذا النمو. فمثلا بالنسبة للبنادقة والهولنديين كان دفع 20 ألف قرش اسباني سنويا مبلغا طفيفا، لكنه يعتبر مبلغا مهما بالنسبة لإيالة الجزائر في تخلفها وفقرها.

إن اسبانيا هي التي حطمت الأرقام القياسية وأغرقت الجزائر بقروشها في السنوات التي رافقت معاهدة الصلح والانسحاب من وهران والمرسى الكبير وعقد الاتفاقيات التجارية والسنوات التي تلتها. لقد حولت نزاعا دام قرونا وكلفها كثيرا إلى حضور تجاري فتح لها مناطق الحبوب في الجزائر في وقت كانت فيه الدول الأروبية تخوض حرب الحبوب في نطاق الحرب الأروبية الشاملة. وأمام صعود المنافسات، قبل الفرنسيون أن يرفعوا قيمة الرسوم التي كانوا يدفعونها والهدايا المقدمة لحكام الجزائر إلى مستوى 50 ألف قرش اسباني سنويا. ومن 1807 إلى 1811 انتزع الإنكليز منهم امتيازاتهم التجارية الخاصة بالشرق الجزائري في مقابل دفع 60 ألف قرش سنويا.

من هذه العناصر يمكن أن نستخلص أن هذه التقديمات المالية لم تكن إتاوة أو جزية بل هي وسيلة لتوطيد الحضور التجاري في الجزائر كتمهيد يهيئ الظروف للهيمنة السياسية.

تنمية المبادلات

إن المساهمة التي تمثلها تنمية المبادلات التجارية هي العنصر الأولي في تحول الاتجاه. ذلك أن ما تقدمه من كسب مالي مباشر أثرى الحكام وملأ الخزينة العامة. وكان تأثيره حاسما على انخفاض دور القرصنة لأن المبادلات التجارية تتطلب سيادة الظروف السلمية. كما أن المبالغ المالية والهدايا المقدمة

للحكام بمناسبة معاهدات الصلح والتجارة كانت في أساسها مرتبطة بتنمية المبادلات التجارية.

ظاهرة من قرون عديدة

إن تصدير الحبوب الذي اتسع كثيرا في القرن الثامن عشر ليس ظاهرة جديدة. ففي التاريخ القديم كانت مناطق الجزائر تزود روما بكثير من الحبوب. وبعد الفتح العربي تكونت سوق مشتركة واسعة للعالم العربي-الإسلامي وكانت التجارة فيه تمتد إلى الهند والصين.

وعندما استيقظت أوربا للمبادلات مع المغرب ابتداء من القرن الثاني عشر كانت الأقطار المغربية تزودها بالحبوب وبالأخص منذ القرن الرابع عشر حيث كان القطلانيون مثلا في بجاية يشترون «القمح في مقابل الخشب والقنب والقطران وهي مواد لازمة لصناعة السفن...»[1]..

وفي القرن الخامس عشر كان الكاتالان (القطلانيون) والجنويون يشترون آلاف القناطير من القمح في موانئ هنين ووهران ومستغانم وتنس وشرشال والجزائر ودلس وبجاية وعنابة. وفي بداية القرن السادس عشر كان الاسبان وغيرهم من أوربي حوض البحر المتوسط يحملون الحبوب من المواني المتقدمة. لكن الصراعات الكبرى مع الاسبان وضعت حدا كبيرا لهذه المبادلات.

وجاء شريك جديد حل محل هؤلاء وهو فرنسا التي كانت حليفة للدولة العثمانية منذ 1536 إلى نهاية القرن السادس عشر والتي أسست لها مركزا تجاريا في الشرق الجزائري بالقرب من عنابة في 1552 وهو الذي يدعى الباستيون.

واستمر تصدير الحبوب في القرن السابع عشر وإن كان يعلو ويهبط لكن دائما بقي في مستوى منخفض عموما. مثلا كان إغلاق الباستيون في 1604-

---

1. P. Vilar, *La Catalogne*..., t. I, p. 413.

1605 وفي 1637-1638 في سنوات قحط بالجزائر دليلا على أهمية الحبوب التي كان هذا المركز التجاري الفرنسي يشتريها في المناطق الشرقية وإن كانت أهمية نسبية إذ أن الوثبة الكبرى للتصديرات لم تبدأ إلا في العقد الأخير من القرن السابع عشر.

منطلق جديد

إن نمو تصدير الحبوب في القرن الثامن عشر لم يكن خطا صاعدا على الدوام بل كان يتبع تقلبات العرض والطلب. فالعرض قد ينكمش في حالة الجفاف أو الحرب أو الاضطرابات الداخلية. والطلب في أروبا كان أيضا فيه صعود وهبوط.

إن الانطلاق الكبير لتصدير الحبوب بدأ في 1693. فمن 2 نوفمبر 1693 إلى 15 جويلية 1695 شحن التجار الفرنسيون 86 سفينة بالقمح من الباستيون[1]. ومقدار ذلك تقريبا 100 ألف قنطار أي 50 ألف قنطار سنويا.

كذلك سجلت تصديرات قوية في 1698-1700 و1708-1711. وحسب تقرير فرنسي[2] تجاوز شراء الحبوب من برباريا (المقصود هنا شرق الجزائر وتونس) 100 ألف حمل (والحمل حوالي 120 كغ) سنويا في 1698 و1699. كما أن «قائمة الحبوب التي اشترتها شركة إفريقيا المستقرة بمرسيليا من مناطق تجارتها بسواحل بربارِيا»[3] في 1709 و1710 تقدر هذه الكميات بنحو 300 ألف ميزورة أي حوالي 125 ألف حمل في كل سنة. إن هذه الأرقام التي انتقدها بعض المؤلفين قد يكون فيها فعلا شيء من المبالغة لكنها لا تبتعد كثيرا عن الواقع. فمما جاء في تقرير رسمي[4] مقدم لوزير البحرية الفرنسي في 6

1. P. Masson, *Histoire*…, p. 252-253

2. Mémoire concernant le commerce de Barbarie, 1730, ANP, 223 Mi 1, vol. 13, f° 82

3. ANP, Marine, G7 1659, pièce n° 351

4. Id., G 7 1648

أوت 1710 أنه في مدة 14 أو 15 شهرا جلبت الشركة من هذه المناطق نحو 120 ألف حمل من الحبوب. وكانت تقارير أخرى موجهة إلى الوزير في 1708 تخبره بأن داي الجزائر سمح لها أن تستخرج من ستورة 6000 حمل قمح ومن تركوت 10 آلاف حمل بالإضافة إلى ما تأخذه من عنابة ومن الباستيون.

وقد أحصى المؤرخ الفرنسي شارل كاريير[1] عدد السفن المحملة بالقمح إلى مرسيليا من نفس المناطق. فكانت 90 سفينة في 1710 وبالجملة 429 سفينة من 1710 إلى 1720 أي بمتوسط 39 سفينة سنويا. وكانت سفن فرنسية أخرى تحمل الحبوب من المناطق القسنطينية والتونسية إلى موانئ تولون ولاسيوتا وكاسيس ومارتيغ ولاسين وفرنتيتيون وللجيش الفرنسي في اسبانيا. وفيما يخص الفترة المعنية إلى سنة 1720 يمكن تقدير كميات الحبوب المصدرة من المناطق القسنطينية بحوالي 20 ألف قنطار كمتوسط سنوي بإدخال السنوات الاستثنائية المذكورة والسنوات التي لم تصدر فيها أية حبوب وهي 1702-1704. وبإدخال البقشيش والرسوم والنفقات المحلية كان قنطار القمح يكلف أقل من 2 قرش اسباني. أي أن الإيراد السنوي لهذه التصديرات يقدر بمبلغ ما بين 35 و40 ألف قرش اسباني. وكان المرجان والجلود والصوف والشمع، الخ.، لها دخل سنوي قريب من المبلغ المتقدم أو يزيد عليه قليلا.

إن عقد 1720 عرف هبوطا كبيرا هو أهم هبوط في تصدير الحبوب في كل القرن الثامن عشر. فمن 1720 إلى 1730 كان عدد السفن التي حملت الحبوب من مناطق الشرق الجزائري يبلغ 96 سفينة أي أنه لا يزيد كثيرا عما صدرته المنطقة في سنة واحدة وهي سنة 1710. والواقع أن 1720-1725 كانت سنوات خصاصة في مجموع الأقطار المغربية وقليل من السفن حملت حبوب تصدير في هذه السنوات. وبدأت الصادرات من جديد في 1726 وكانت حوالي

1. Charles Carrière, *Négociants marseillais*…, t II, p. 1055 sq

10 آلاف حمل سنويا من 1726 إلى 1729 من نفس المناطق القسنطينية. ثم ارتفع مستوى التصديرات نحو الموانئ الفرنسية من 1731 إلى 1736. وكانت الموانئ الجزائرية الأخرى (دلس، الجزائر، شرشال، تنس، وهران، الخ.) تشارك في هذه التصديرات. وحسب مراسلة قنصلية فرنسية[1] من الجزائر في 25 أفريل 1738 أن الإنكليز حملوا 38 سفينة قمحا وشعيرا و2000 قنطار صوف من وهران.

ويذكر شو[2] أن ما استورده الانكليز من القمح من وهران بين 1708 و1732 كان يبلغ نحو 7 أو 8 آلاف تونو (والتونو البحري 2،83 م3) سنويا.

وتقول مراسلة قنصلية فرنسية[3] أخرى بتاريخ 18 جويلية 1729 من الجزائر أنه «رغم الدسائس الانكليزية فإن الفرنسيين استطاعوا أن يشحنوا ثلاثين سفينة قمحا من وهران». وبدعوى أن الاتفاقية التجارية مع الجزائر تمنحهم احتكار الاستيراد من الشرق الجزائري، فقد حجز الفرنسيون سفينة هولندية كانت تحمل قمحا عبأته في عنابة وكان باي قسنطينة هو الذي باع للهولنديين هذا القمح. وكانت ليفورن أيضا قد تلقت القمح من الموانئ الجزائرية في 1730 بقيمة 117.760 ليرة ترنوا وفي 1735 بقيمة 62.555 ليرة ترنوا. أي هي على التوالي قيمة كميات من القمح تبلغ 14 ألف قنطار و7.500 قنطار[4].

وقلت التصديرات كثيرا بين 1737 و1740

1. ANP, AE, B1 121, f^os^- 343-346

2. Shaw, *Voyages…*, t. I, p. 388

3. ANP, AE, B1 121, Fos 417-418

4. Jean-Pierre Philippini, « Livourne et l'Afrique du Nord au XVIII^e siècle », *RHM*, janv. 1977, p. 125-149.

الشركة الملكية لإفريقيا

في 1741 تأسست الشركة الملكية لإفريقيا بوسائل هامة وبنوع من الانتظام والاستمرارية في سيرها. وكانت هذه الشركة الفرنسية طوال مدة وجودها من 1741 إلى 1793 لها دور مهيمن في تصدير المنتجات الزراعية من الموانئ القسنطينية. ولم يكن لها حق الاحتكار في الواقع. لكنها كانت تعتمد على معرفة طويلة للمنطقة وتجربة وممارسة واطلاع على التقاليد المحلية وصلات شخصية بالشيوخ وغيرهم من المتنفذين المحليين. وكانت قواعد تسييرها، والنقود التي تستعملها وأساليبها التجارية وصلاتها بالوسطاء المحليين تعطيها ميزات تجعلها في تفوق على منافسيها.

ومن 1741 إلى 1764 كانت الشركة تحمل كل سنة حوالي 24 ألف قنطار قمح من هذه المواني. أما قيمة مجموع مشترياتها من المنتجات الزراعية في هذه السنوات فهي تقدر بمبلغ نصف مليون ليرة ترنوا كمتوسط سنوي. وكانت سنة واحدة (هي 1743) تجاوزت مليون ليرة و1753 تقترب من هذا المبلغ. وكان تصدير الحبوب ضعيفا جدا أو منعدما في سنوات الجدب 1755-1756 و1763-1764. كما كان ضعيفا من 1765 إلى 1769 (يزيد قليلا عن 10 آلاف قنطار كمتوسط سنوي). لكن في هذه السنوات لأسباب إدارية داخلية تعود إلى مشاكل تسيير داخل الشركة، كانت ثمة عدة ثغرات في حساباتها عن الحبوب التي استوردتها.

وصعدت التصديرات من 1770 إلى 1776 حيث كانت تتجاوز 76 ألف قنطار سنويا. وتجاوزت سنة 1772 100 ألف قنطار واقتربت منها سنة 1773. وكانت سنة 1777 أقل بكثير من المتوسط إذ هبطت فيها الصادرات إلى حوالي 20 ألف هكتولتر ثم تلتها سنوات 1778-1781 وهي سنوات جفاف وخصاصة في كل الأقطار المغربية. وفي هذه السنوات انعدمت التصديرات في السنتين الأولين وكانت شبه منعدمة في السنتين التاليتين.

وفي 1782 كان تصدير الحبوب قد قارب 25 ألف قنطار. ثم توالت سنوات تصديرات مكثفة. وسنقدم بعد قليل جدولا لهذه السنوات أقمناه انطلاقا من قوائم وحسابات الشركة الختامية مستكملة ببعض المعطيات المستقاة من وثائق شراء القمح في عين المكان في عنابة والقالة. وهي معطيات أكمل وأوثق من المعطيات التي أوردتها الشركة في حساباتها الختامية وإن كانت بعض السنوات فيها ثغرات قليلة.

وبالأخص تعطي حسابات الشركة في وثائق شرائها في الموانئ الجزائرية تفاصيل مهمة عن كل الأسعار التي اشترت بها المنتجات الزراعية وسجلتها في وقت عملية الشراء.

جدول مشتريات القمح (1783 - 1792)

السنة	كمية القمح ((بالأحمال 120كغ	متوسط السعر (ليرة (ترنوا)	القيمة الإجمالية (ليرة ترنوا)
1783	30.000	11	330.000
1784	45.000	15	675.000
1785	36.000	17,20	620.000
1786	84.000	20,60	1.730.000
1787	102.000	20	2.000.000
1788	60.000	20	1.200.000
1789	46.000	25	1.150.000
1790	17.000	25	425.000
1791	60.000	27,60	1.700.000
1792	56.000	47,15	2.640.000

من 1783 إلى 1792 كانت قيمة القمح التي اشترته هذه الشركة في القالة وعنابة قد بلغت في عشر سنوات 12.440.000 ليرة ترنوا. وبإضافة الحبوب الأخرى تبلغ المشتريات السنوية نحو 1،5 مليون ليرة ترنوا. وفي نفس العقد من السنين كانت مشترياتها من الجلود والصوف والشمع بلغت متوسط 436 ألف ليرة سنويا. ومع المشتريات الأخرى (بقر، شحم، خضر جافة) يصل المتوسط السنوي نحو نصف مليون ليرة. أي أن مجموع المشتريات السنوية لهذه الشركة من المنتجات الزراعية بالشرق الجزائري هي نحو مليوني ليرة أو حسب معدل الصرف في مدينة الجزائر ما يقابل 177.788 قرش اسباني. وينبغي أن نضيف بأنه خلال هذه السنوات كان التجار الأوروبيون من بلدان أخرى والتجار الجزائريون الذين يعملون كوسطاء لباي قسنطينة وغيره من كبار الحكام يساهمون في تصدير المنتجات الزراعية من هذه المناطق. ولهذا يمكن تقدير قيمة هذه التصديرات بحوالي 200 ألف قرش اسباني.

الحروب الأروبية والتهاب الأسعار

ابتداء من 1793 وتعميم الحروب في أروبا، ارتفعت أسعار الحبوب ارتفاعا هائلا لأن القمح الصلب بالأخص مادة استراتيجية في وقت الحرب. وكان التنافس حادا بين التجار الأروبيين على قمح الجزائر. ففي الجزائر في جانفي 1794 تلقى وكيل الشركة الفرنسية في عنابة أمرا من لجنة المؤونة البحرية الفرنسية بشراء الحبوب مهما كان الثمن ومهما كانت الوسائل[1]. وحسب الباحث الاسباني لويس كارا ديل آغيلا[2] في 1794 كان الفرنسيون يشترون كميات هامة من الحبوب ليس فقط في مناطق قسنطينة بل في الغرب الوهراني أيضا. وكان الاسبان قد اشتروا من وهران في هذه السنة بقيمة 185.758 قرش اسباني.

---

1. Laurent- Charles Féraud, *Histoire de la Calle*, 1877, p. 469
2. Louis Cara del Aguila, *Les Espagnols en Afrique du Nord*, Th. Doctorat en Histoire, Bordeaux III, 1974, dactyl., p. 275 sq

بعد أن حلت وكالة افريقيا محل الشركة الملكية بافريقيا قررت وفي 1795 الوكالة أن تشتري 168 ألف قنطار من الحبوب في شرق الجزائر وأرسلت 584 ألف قرش اسباني لهذه الغاية. لكن المبلغ لم يكف واقترضت الوكالة مبالغ هامة في الجزائر وعنابة. وكانت قلة النقود لديها سببا في الحد من مشترياتها لفائدة منافسيها الاسبان والإنكليز، الخ.

وقد أدركت الحكومة الجزائرية البعد الاستراتيجي لهذا الصراع حول القمح بين الدول الأوروبية المتحاربة وقررت أن تركز كل تصديرات الحبوب بيدها وكلفت الوسطاء التجاريين اليهود بالجزائر وهم شركات بكري وبوجناح بالقيام بهذه المهمة لحسابها. واتفق هؤلاء مع الفرنسيين على أسعار[1] بلغت أحيانا 70 ليرة ترنوا للحمل وحتى 100 ليرة في 1795 و1796.

وكانت مشتريات الاسبان في 1795 بلغت 95.782 قرش اسباني و100 ألف في 1796 وهي تشمل إلى جانب الحبوب بعض المنتجات الزراعية الأخرى. ويقدر ديل آغيلا مجموع المشتريات الاسبانية من هذه المنتجات في الجزائر بمبلغ مليوني قرش اسباني من 1787 إلى 1814. وكانت الأسعار التي اشترى بها الاسبان الحبوب في المناطق الوهرانية منخفضة كثيرا عن الأسعار التي اشترى بها الفرنسيون في شرقي الجزائر. لكن في مقابل ذلك دفع الاسبان مبالغ طائلة كهدايا وإكراميات للمسئولين في كل المستويات في مدينة الجزائر وفي وهران ومنطقتها. وكانت مشتريات ليڤورنة في الجزائر (وبالأخص في المنطقة الوهرانية) بلغ مجموعها 610 آلاف ليرة ترنوا في 1795 منها 350 ألف ليرة قيمة الحبوب.

1. هذا ما ورد في تقرير أحد المسئولين التجاريين الفرنسيين Peyron, Aperçu des avantages que les concessions d'Afrique ont pour notre commerce, ANP, AE, B III 301, s. d. أما الأسعار التي وجدناها في الحسابات المحلية فلا تتجاوز 40 ليرة إلا نادرا وهو ضعف أسعار السنوات السابقة وأربع مرات أسعار بداية القرن. والواقع أن الأسعار التي كان يبيع بها بكري وبوجناح غير مسجلة محليا.

واستمر الفرنسيون يقترضون من الداي ومن بكري وبوجناح وهما يعملان جزئيا لحساب الداي والخزنجي وكبار المسئولين. وسلمت نحو 120 ألف قنطار من القمح للفرنسيين. وتراكمت ديون هؤلاء بسبب كثرة مشترياتهم في أواخر القرن الثامن عشر وارتفاع الأسعار إلى درجات قصوى. وقد بلغت الديون أكثر من مليونين من الفرنكات الذهبية حسب حسابات تقرير أعد بأمر من نابليون. وارتفعت إلى 14 مليون في 1819. ومن المعروف أن هذه الديون الفرنسية التي لم تسدد هي التي أثارت غضب الداي حسين باشا وضربة المروحة الشهيرة التي اتخذت ذريعة للحملة العسكرية الفرنسية ضد الجزائر في 1830. ومن المعروف أيضا أن مشاكل ديون مصر هي التي اتخذت ذريعة لاحتلال مصر من طرف الانكليز في 1881. ولنترك جانبا كل ما ساد هذه الأجواء التجارية من دسائس واحتيالات ورشوة وفساد شارك فيها القناصل والتجار اليهود والأوروبيون والوزراء وكبار المسئولين من ضفتي البحر المتوسط. فجوهر المشكلة هو أن نمو هذه المبادلات التجارية السلمية قد تم في ظروف كان فيها التطور العام غير متساوي بين البلاد الشمالية والجنوبية وكان يحمل في طياته طبيعة العلاقة بين القوانص وفريستها.

عمليات الافتداء

تلاحظ جوانب جديدة في نوعية الأسرى وافتدائهم في القرن الثامن عشر.

الهاربون من الجندية

أولا هناك هذا الطابع الجماعي للجنود الفارين من الحاميات الاسبانية في وهران والمرسى الكبير. وتذكر تقارير فرنسية أن عدد هؤلاء الفارين قد بلغ نحو 6000 في مجمل الفترة المعنية (تقريبا1733-1786) . وهذا التقدير لا

يبدو أن فيه مبالغة إذا اعتبرنا الأرقام التي نوردها بعد قليل وهي أرقام جزئية ومع ذلك لها دلالة. وقد اتسعت هذه الظاهرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. مثلا يلاحظ فُنتير پارادي[1] أن عدد هؤلاء الفارين الاسبان من الجندية يقدر بحوالي المائة سنويا. ولهذه الظاهرة دلالة مزدوجة. فيجب أن تكون الثكنات الاسبانية في وهران جحيما حقيقيا حتى تدفع الجنود إلى تفضيل عبودية مؤكدة في معتقلات مدينة الجزائر والأشغال الشاقة المرتبطة بها على البقاء في ثكناتهم. ولا شك أيضا أن ظروف حياة هؤلاء العبيد-الأسرى لم تكن من الفظاعة التي تصورها لنا كتابات الرهبان المختصين بعمليات الافتداء.

والواقع أن هؤلاء الفارين لم يكونوا يجدون أي ترحيب بهم في مدينة الجزائر بل كانوا يعتبرون كعبيد للدولة ويوضعون في أشغال مقالع الحجارة والأبنية العامة والمنشآت البحرية. مع ذلك كانوا يخاطرون بحياتهم للإفلات من ثكناتهم ويأتون باختيارهم أفواجا إلى مدينة الجزائر راجين من غير شك أنه بعد مدة سيلقون حريتهم بفضل عمليات الافتداء. وعندما كان الاسبان يرفضون افتداءهم فإن دول مواطنهم الأصلية تتكفل عادة بهذه العملية. ذلك أن هؤلاء الجنود الفارين كانوا ينتمون إلى كل الفئات المدقعة من مختلف البلدان الأروبية. وهذه بعض الإشارات المتناثرة مستقاة خصوصا من المراسلات القنصلية والتجارية الفرنسية والأميركية[2]:

سبتمبر 1750: افتداء فارين فرنسيين من وهران بقيمة 28 ألف قرش اسباني.

29 نوفمبر 1751: 27 جنديا فارا من الثكنات الاسبانية منهم 7 فرنسيين.

---

1. Venture de Paradis, Alger au XVIIIe siècle, *RA*, 1896, p. 35

2. أنظر هذه المصادر ANP, AE, B1 127 à 144 ; 369 Mi 4 et 253 Mi 1 à 4. أما المصادر الأخرى فستذكر في حينها.

أكتوبر 1768: 40 جندي أصلهم فرنسي من بين 135 مجندا اسبانيا استولى عليهم الجزائريون... وفي مدة أربعة أيام جاءت من وهران أو عن طريق البحر 243 شخصا منهم 40 فرنسي. ويوجد 80 فرنسي بمدينة الجزائر من بين الجنود الفارين من وهران.

أفريل 1769: رفض الاسبان افتداء الجنود الفارين من ثكناتهم. ويوجد منهم في مدينة الجزائر ما بين 700 إلى 800 منهم 100 فرنسي.

20 مارس 1772: قائمة بالعبيد الفرنسيين بمدينة الجزائر: 199 عبدا منهم 128 جنديا فارا من وهران و34 فرنسي من المجندين الاسبان المستولى عليهم و37 فرنسي من كورسيكا.

من 3 إلى 30 أكتوبر 1772: 114 هاربا من وهران منهم نقيب في الجيش وراهب يسوعي اسباني.

من 25 إلى 31 مارس 1773: وصل 24 فارا من وهران وهكذا بلغ عدد الفارين حوالي 1500 (أكثرهم من أصل اسباني). إن دولة الدانمرك تفاوض لافتداء 18 جنديا ألمانيا من الفارين من وهران.

16 جويلية 1773: وصل 34 فارا من وهران

18 أفريل 1774: أفواج متواصلة من الفارين من وهران ومنهم من وصلوا أخيرا ومن بينهم 50 فرنسي.

31 ديسمبر 1775: 86 من الفارين من وهران وصلوا إلى الجزائر.

في 1780: فر 86 من ثكنات وهران وأتى باي وهران بحوالي مائة معه في 1782؛ في 1783 وصل 48 من الفارين؛ و32 في 1784 و105 في 1785. وفي 1786 افتدى القنصل الفرنسي 317 من الفارين من وهران.

أسرى الحرب

في معركة 1708 لتحرير وهران والمرسى الكبير، وقع أكثر من 2000 اسباني في الأسر حسب دي غرامون[1].

وفي قوائم إ. فريدمان[2] من جملة 847 أسير اسباني تمت فديتهم بالجزائر بين 1700 و1709 كان الذين أسروا في وهران تقدر نسبتهم بـ 54,7 % من المجموع. وفي معارك 1732 عند هجوم الاسبان لاسترجاع هذه القواعد، وقع مئات من الجنود الاسبان في الأسر[3]. بل إن هذه المئات من الأسرى الأسبان هم فقط الذين وقع افتداؤهم بواسطة رجال الدين وليسوا مجموع الجنود الاسبان الذين وقعوا في الأسر. وقد افتدى رجال الدين 1915 أسير اسباني بين 1702 و1739 أي بمتوسط سنوي هو 50،39. وهذا الرقم أعلى من الرقم الذي تذكره الباحثة الأمريكية فريدمان عن مجموع الأسرى المفتدين بين 1651 و1686 من طرف رجال الدين (1564 فدية أسرى في 36 عاما) أي بمتوسط 43،44 سنويا. إن أسرى الحرب والجنود الفارين من الثكنات هم الذين يشكلون معظم الأسرى الاسبان في الجزائر. كذلك وقع عدد كبير من الجنود الاسبان في الأسر ويقدر عددهم بعدة مئات على الأقل في حملة أوريلي على الجزائر في 1775. ويضاف إلى هؤلاء الأسرى 944 مسيحيا أخذوا في تونس في 1756 عند نهب المدينة من طرف جيش الجزائر وقد أتي بهم مع النقود والكنوز المنهوبة إلى مدينة الجزائر.

صعود ثمن الافتداء

إن انخفاض عدد الأسرى في الجزائر انخفاضا كبيرا قد عوض عنه إلى حد ما ارتفاع الأثمان المشترطة في افتدائهم. وكما تظهره الأرقام التالية فلم يكن هذا الصعود ذا طابع منتظم بل هو مرتبط ببعض الظروف الخاصة.

---

1. H. de Grammont, *Histoire…*, p. 224
2. E. Friedman, *Spanish…*, p. 30
3. نفس المصدر ص 142

ولنبدأ بفدية الأسرى بواسطة رجال الدين[1]:

السنة	عدد المفتدين	كلفتهم (فدية ورسوم بالپوزو)	متوسط كل فدية (بالپوزو)
1702	482	126.107	216,63
1711	280	115.770	413,46
1723	414	130.126	314,31
1730	345	121.133	351,11
1739	394	111.262	282,39

إن المجموع (فدية ورسوما) يبلغ 658834 پوزو أي بمتوسط 344 لكل أسير وبدخل سنوي هو 17338 پوزو. وعلى أساس أن الپوزو يساوي 1,65 قرش اسباني يكون الدخل السنوي للجزائر من الفديات الاسبانية هو 28607 قرش اسباني.

ولأسباب متعددة كان الفارون من تكنات وهران والمرسى الكبير يفتدون عموما بأثمان أقل من غيرهم. مثلا في 1720 دفع الهولنديون في فدية 909 هولندي أسروا منذ 1714 بمتوسط 1500 فلوران لكل أسير أي 600 قرش اسباني لكل واحد.

وفي 1729 كلفت فدية 18 مسيحيا 40 ألف ليرة ترنوا أي نحو 10 الاف قرش اسباني بمتوسط 555,56 قرش لكل واحد. وفي نفس السنة وقع افتداء بحارة السفينة غدانسك وعددهم 24 بحارا بهذه المبالغ: 2000 قرش اسباني عن ربان السفينة وألف قرش عن نائبه وكذلك عن كاتب السفينة و700 قرش عن كل واحد من النجارين و500 قرش عن كل بحار. وكان رهبان إخوة التثليث

1. حسب الجداول المذكورة في دراسة ...E. Friedman, *Spanish*

الاسبان قد افتدوا 334 أسيرا في 1750-1751 ودفعوا مبلغ 30 ألف قرش اسباني عن 8 ضباط أي 3750 عن كل ضابط. وافتدي الحرفيون من الأسرى بمبلغ 600 قرش عن كل واحد والأسرى غير المؤهلين دفع عن كل واحد منهم مبلغ 400 قرش عن كل واحد. وكان من جملة هؤلاء الأسرى 8 نساء افتدين بمبلغ 18 ألف قرش أي بمتوسط 2571,40 قرش عن كل واحدة.

وفي 1768-1769 وقع تبادل الأسرى بين الجزائر واسبانيا ففك الاسبان أسر 1236 أسير جزائري في مقابل 631 أسير اسباني وقدم الاسبان مبلغ 694.463 بوزو لافتداء 819 أسير متبقين. ومن بين الأسرى الجزائريين 36 من رياس البحر أطلقوا في مقابل عدد مماثل من ربابنة السفن والضباط الاسبان.

وفي حين افتدي 317 جندي اسباني فار من وهران في 1786 بمبلغ 400 قرش اسباني لكل واحد، افتدى القنصل الفرنسي 12 جنويا بمبلغ 587،55 قرش اسباني لكل واحد. وفي نفس السنة دفع الاسبان وأهل ناپولي نحو مليون قرش اسباني لفدية 750 أسير كانت فدية بعضهم ألف قرش لكل واحد وفدية الآخرين 1200 قرش لكل واحد. أما الأمريكان فقد افتدوا 27 من بحارتهم بمبلغ 48300 قرش اسباني أي 1622،22 قرش لكل واحد.

وفي 1796 افتدي 195 أسير من كورسيكا بمبلغ 600 قرش اسباني لكل واحد.

وفي 1810 افتدى البرتغاليون 200 أسير بمبلغ 1200 قرش لكل واحد.

إن هذا التباين الكبير في أثمان الفدية يعود أيضا إلى الملابسات السياسية. فمن الواضح مثلا أن انخفاض أثمان فدية الفرنسيين مرتبط بكون فرنسا دولة غير معادية للجزائر وإنما وقع بعض مواطنيها في الأسر إما لأنهم تجندوا في الجيش الاسباني أو كانوا من المهربين ومرتكبي أعمال خارجة عن القانون، الخ.

الفصل الثامن عشر

البحرية والرياس في فترة الجزر

إن تحول الاتجاه تمثل في التكيف التدريجي لأسطول الجزائر مع الظروف العالمية الجديدة. واتجهت ملكية السفن أكثر فأكثر نحو الملكية العامة. وتقلص عالم الرياس وافتقر وأصبح أكثر فأكثر من الأهالي.

التحولات في البحرية

تطور الأسطول

الوثائق حول تشكيل الأسطول في هذه الفترة متوفرة نسبيا وأكثر وضوحا ودقة منها في الماضي فيما عدا العقدين الأولين من القرن الثامن عشر.

إن دراسة دوفو[1] عن بحرية الجزائر جديرة بالاعتبار لأن هذا المؤلف استقى معطياته من المصادر الأولية المباشرة ومعلوماته غنية مازال الباحثون يستفيدون منها إلى اليوم لكنها تثير بعض الملاحظات.

إن قائمة السفن الجزائرية عنده مستقاة رئيسيا من ملفات الجوازات البحرية التي كانت القنصلية الفرنسية بالجزائر تسلمها للقراصنة الجزائريين. وهي جوازات مسجلة بانتظام من 1737 إلى 1827. لكن هذه الملفات كانت فيها ثغرات حاول دوفو سدها باستخدام وثائق رسمية أخرى فرنسية وجزائرية بالأخص. وكان منهج هذا الباحث المستعرب فيه كثير من التقريبية.

---

1. A. Devoulx, «La Marine de la Régence d'Alger», *RA*, 1869, p. 348-420.

وبالمقابلة بين قائمته وبين المعطيات التي تقدمها التقارير والشهادات المعاصرة، يمكن الوصول إلى متابعة تطور الأسطول في الفترة المعنية.

وفيما يخص العقد الأول من القرن الثامن عشر، تقدم المراسلات القنصلية الفرنسية[1] معلومات جزئية. فهي مثلا تشير في مطلع القرن إلى أن عشر سفن خرجت للقرصنة من مدينة الجزائر وأن أهم السفن بقيت في الميناء للمساهمة في تقديم النجدات للقوات المرسلة لمحاربة جيوش تونس والمغرب الأقصى. وفي نهاية 1701 تذكر أن 4 سفن غادرت ميناء الجزائر و8 سفن ما تزال في المشرق. وخرجت 11 سفينة في 1702. وهذا التعداد لخروج السفن كما هو وارد في التقارير الفرنسية لا يطابق بالضرورة مجموع السفن التي كانت للجزائر في هذه السنة أو تلك.

إن النجاح في الضربات الموجهة للهولنديين والاسبان في العقد الثاني يشير إلى تزايد أعمال القرصنة. أما عن عدد السفن فيذكر القنصل الفرنسي[2] أن الجزائر كانت تملك في 1717 عشرين من السفن الجيدة التي لها من 40 إلى 50 مدفعا. وفي جدول عن حالة البحرية الجزائرية في سنة 1718 تضمنه تقرير فرنسي ونشره مولاي بالحميسي[3] في كتابه عن البحرية الجزائرية، كان مجموع السفن الجزائرية 19 سفينة تحمل 544 مُدفعا من مختلف العيارات.

أما القائمة التي أوردها لوجيي دي تاسي[4] عن سنة 1724 فهي أيضا مفصلة ومحددة مثل الجدول السابق وتعطي مثله اسم السفينة واسم رايسها وعدد المدافع وعيارها، الخ. والجملة عن هذه السنة 24 سفينة لها 680 مدفعا.

---

1. ANP, AE, B1 118, f^os 10 sq ; B1 120, f^os 53-61; 369 Mi 1, art. 1355
2. ANP 223 Mi 1, vol. 13, f° 16
3. M. Belhamissi, *La Marine*..., t. I, Annexe n° 19
4. Laugier de Tassy, *Histoire*..., p. 158-159

ويذكر توماس شو[1] عن 1732 أنه إذا استثنينا سفن التجديف والبريغنتين فإن الجزائر لم تكن تملك سوى نصف دزينة من السفن الكبرى التي لها بين 36 و50 مدفعا. فعلا إذا لم نعد سوى السفن التي لها من 36 مدفعا فأكثر فلا نجد في قائمة لوجيي دي تاسي سوى 8 سفن.

ثغرات عند دوڤو

يذكر أن 4 أشباك وغليوطتين تشكل أسطول الجزائر في 1743. غير أن جدولا فرنسيا رسميا[2] عن بحرية الجزائر في سنوات 1740-1742 يتضمن 18 سفينة منها 4 سفن لكل منها 40 مدفعا و2 لكل منها 24 مدفعا. ولم تسجل خسائر كبرى في هذه السنوات.

وللمقارنة، هذا جدول نجد في عمود أ منه العدد عند دوڤو وفي العمود ب عند غيره:

السنة	أ	ب	مصادر ب
1750	12	19	ANP, 223 Mi 1, vol. 13, f° 197
1752	8	22	المصدر المتقدم f° 213
1754	22	29	تقرير روزالم للبندقية (RA, 1952, p. 80-82)
1755	21	25	ANP, 223 Mi 1, vol. 13, f° 254
1789	12	22	Cathcart, op. cit., p. 77-78
1802	20	30	A. Devoulx, Un exploit…, RA, 1865, p. 122.
1809	8	21	ANP, 253 Mi 3, vol. 8

---

1. *Travels & Observations Relating to Several Parts of Barbary and Levant*, by Thomas Shaw, Oxford, 1738, p. 70.

2. M. Belhamissi, *op. cit.*, Annexe n° 18

إن هذه الفوارق ناجمة غالبا عن كون دوڤو أخذ من سجلات جوازات الخروج عدد السفن التي خرجت للقرصنة واعتبرها هي مجموع السفن في السنة المذكورة بينما تحصي التقارير المذكورة عن عمود ب مجموع السفن التي يتكون منها الأسطول الجزائري.

تغيرات بين سنة وأخرى

ملاحظة أخرى حول التغييرات الكبرى بين سنة وأخرى في قائمة دوڤو من غير أن يعطي تفسيرا لها:

- مثلا ينتقل عدد السفن من 42 سفينة تحمل 578 مدفعا في 1762 إلى 26 سفينة لها 375 مدفعا في 1763. وفي السنة التالية لم تبق إلا 10 سفن لها 53 مدفعا.

- من 24 سفينة في 1765 يهبط العدد إلى 14 في 1766 ثم يصعد إلى 21 في 1767.

- في عقد 1770 يهبط الحد الأدنى السنوي إلى 5 سفن لها 13 مدفعا. أما الحد الأقصى فيبلغ 19 سفينة لها 280 مدفعا.

- وفي سنوات 1780 ينتقل العدد من 13 سفينة لها 36 مدفعا إلى 23 سفينة لها 400 مدفع.

- أما عقد 1790 فالحد الأدنى فيه 4 سفن بـ 36 مدفعا والحد الأقصى 27 سفينة لها 487 مدفعا. في الحقيقة أن خروج السفن للقرصنة يتغير عدده فعلا بين سنة وأخرى لأسباب كثيرة ولكن عدد سفن الأسطول في مجموعه لا يعرف إلا تغيرات طفيفة فيما عدا بعض الكوارث الكبرى الطبيعية أو العسكرية وهذه الكوارث كانت نادرة ومعروفة كما سنبينه فيما بعد.

أنواع السفن

ملاحظة أخيرة: إن دوفو الذي هو باحث منصب باهتمام كبير وتشبث تام ومثابرة جديرة بالتقدير وكان دائما يعتمد على مصادر أولية لكنه يعمل أحيانا بنوع من التسرع ولا يفرق بين الملابسات المختلفة التي كتبت فيها وثيقة معينة.

فلنأخذ مثال 1802: كما رأيناه في الجدول المتقدم يذكر دوفو عن هذه السنة 20 سفينة في قائمته (عمود أ) لكنه في وقت آخر كتب دراسة عن هذه السنة نفسها يضيف فيها إلى قائمة العشرين سفينة أنه يوجد بالإضافة إلى ذلك «3 فرقاطات وبعض الكوربيطات والسفن الكبرى من نوع البريك» ويصل هكذا إلى عدد 30 سفينة (القائمة ب لسنة 1802).

فرقاطات وكوربيطات وسفن من نوع بريك. إنها نوع السفن التي كانت تهم المراقبين الأجانب بالدرجة الأولى لأنها هي التي تشكل القوة البحرية الأساسية لأسطول الجزائر نظرا لمتانتها وقوتها النارية وإن كانت بعض السفن الأخرى المعروفة بخفتها وسرعتها ورشاقتها (من نوع الشبك) كانت كذلك لها تسليح قوي في بعض الأحيان. مثلا يذكر تقرير قنصلي أمريكي[1] عن القوة البحرية الجزائرية في 1802 بأنها تتألف من 13 سفينة لها بين 12 و44 مدفعا وأنه توجد إلى جانبها للدفاع عن الميناء 60 قاربا مسلحا بالمدافع. ويضيف التقرير أن الجزائر تملك نحو 150 من السفن الشراعية من حمولة 25 إلى 50 طنا وعلى كل واحد منها متوسط 14 بحارا تقريبا.

وبالإضافة إلى هذه السفن الصغرى التي كانت تقوم بالملاحة الساحلية وقد تغامر أحيانا في بعض عمليات القرصنة القصيرة المدى والقليلة المردود وإلى السفن التي لها 12 مدفعا أو أكثر كانت الجزائر في هذه السنوات تبعث

1. ANP, 253 Mi 2, vol. 6

للقرصنة حوالي 10 سفن أو أكثر لها من مدفعين إلى 10 مدافع وبعض المدافع رامية الحجارة. وهذه السفن الصغرى كانت تتصيد فرائس طفيفة (سفن الصيد والنقل الساحلي، الخ.) ولم تكن مثل هذه السفن تدخل في عداد السفن الحربية لأنها فعلا لم تكن لها قيمة عسكرية تذكر. وهكذا فهي عادة لا تدرج في قائمة السفن التي تملكها الجزائر والتي تسجلها القنصليات الأجنبية في تقاريرها. وهذه فيما يبدو لنا من الأسباب المؤدية إلى الفوارق الكبرى في القوائم المذكورة.

إن إرادة السلطة في المحافظة على مقدرة حربية للأسطول لها مستوى مستقر نسبيا هي من الأمور التي لاحظها المراقبون في هذه السنوات. ومن المعروف من جهة أخرى أن أسطول الجزائر لم يتعرض لخسائر كبيرة في العقود المعنية هنا ولم يعرف سوى كارثتين كبيرتين هما خسائر 1816 (9 سفن دمرت أثناء الهجوم الإنكليزي-الهولندي الذي قاده اللورد إكسموث) وخسائر 1827 في معركة ناڤاران بين الأسطول العثماني والأساطيل الأروبية حيث فقد أسطول الجزائر 6 سفن دمرت أو تضررت كثيرا من جملة 8 سفن شارك بها في المعركة.

وهذا جدول سفن البحرية الجزائرية كما وضعه دوڤو لفترة ما بعد 1817 وهو عموما مطابق للتقديرات الأخرى الموضوعة عن هذه السنوات:

السنة	عدد السفن	عدد المدافع
1818	11	252
1820	14	320
1821	15	368
1827	16	398

في 1830 وجد الفرنسيون في مدينة الجزائر 14 سفينة حربية منها فرقاطة واحدة وكربيط واحد وبعض البريكات والغوليت ونحو 30 قاربا مدفعيا لكل واحد مدفع واحد.

وهكذا يمكن أن نلخص تطور هذه الفترة بهذه الأرقام:

- في نهاية القرن السابع عشر كانت لبحرية الجزائر نحو 30 سفينة تحمل من 600 إلى ألف مدفع.
- بقيت في مستوى 20 سفينة من 400 إلى 500 مدفع في أواسط القرن الثامن عشر.
- في العقد الأخير من وجودها كانت حوالي 15 سفينة تحمل 300 مدفعا تقريبا.

وبدون مراعاة حرفية لأرقام دوڤو وغيره من المؤلفين الفرنسيين، يمكن القول بأن هناك عقودا كان العدد ينخفض فيها كثيرا (سنوات 1700 وعقد 1740 مثلا) وكان العدد يرتفع في الفترة بين 1750 و1769 وكذلك بين 1795 و1815.

وطوال مدة حكمه حاول آخر الدايات، حسين باشا أن يحافظ على مستوى معتبر لأسطول ومدفعية الجزائر وأن يضمن للبلد قوة دفاعية رادعة لكن التغيرات الدولية التي أتى بها الزمن الحديث كانت من طبيعة لا ترد.

ملاك السفن: الدولة والخواص

إن التطور أدى بنوع من السير البطيء إلى اتساع كبير لملكية الدولة لسفن القرصنة.

ففي العقود الأولى من القرن الثامن عشر لم تكن الدولة تملك سوى سفينة أو سفينتين هما عموما من أقوى سفن الأسطول وكانت لها أحيانا بعض السفن الأخرى التي تمارس القرصنة.

وفي أواسط القرن الثامن عشر كان أقل من نصف الأسطول ملكا للدولة لكن بطاقة حربية أكبر من مجموع السفن الأخرى. مثلا في 1751 كان البايلك يملك 9 من جملة 21 سفينة. لكن سفن البايلك كان لها 236 مدفعا من العيار الكبير بينما كانت السفن الأخرى لها 248 مدفعا من عيار أصغر. وفي 1752 كانت 7 سفن للبايلك تحمل 190 مدفعا بينما 15 سفينة للخواص ليس لها سوى 172 مدفعا من عيار أقل. وفي 1754 كان للبايلك 10 سفن تحمل 244 مدفعا و70 مدفعا رامية حجارة وكانت 14 سفينة للخواص تحمل 212 مدفعا و90 مدفع حجارة لكن بعيارات أقل.

وفي العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر وبالأخص في القرن التاسع عشر صارت سفن القرصنة ملكا للدولة في معظمها[1].

وينبغي التذكير هنا بالتمييز الذي تقوم به الوثائق الجزائرية الرسمية في هذه الفترة. إن الفرقاطات والكوربيطات كانت معتبرة بشكل خاص ومميزة عن غيرها. وكانت بعض فرقاطات الجزائر تحمل 60 مدفعا وأكثر أحيانا. والكربيط قد تكون له 40 مدفعا وأكثر. وبعد هذه السفن الحربية الكبرى تأتي بعض البريكات والسفن المدعوة شبك والتي لها تسليح قوي متميز عن الشبك العادي.

وقلما كانت الفرقاطات والكربيطات ملكا للخواص عدا الداي والوزراء والبايات وأحيانا خزندار الداي وقايد المرسى ومعلم السفن وبعض كبار الخوجات وكبار التجار المقربين من الحكم والذين أثروا بواسطة التجارة الخارجية والقرصنة. والجدير بالذكر لدلالته الخاصة غياب القباطنة وكبار الرياس، غيابا يكاد يكون تاما، من قائمة ملاك السفن في هذه الفترة. وبقيت

1. انظر تحليل D. Panzac, *Les Corsaires*... ص 49. من بين 239 سفينة مقيدة في سجلات الجوازات بين 1798 و1816، كانت 12 فقط ملكا للخواص غير الداي. وبعد 1816 صارت كل السفن تقريبا ملكا للبايلك.

ملكية السفن الخاصة مثل الماضي موزعة على أسهم لكن مع الفارق وهو أن هذه الأسهم متمركزة بأيدي كبار الحكام المتقدمين أعلاه.

إن غياب القباطنة من قائمة أرباب السفن بينما كانوا في الماضي هم أهم ملاك السفن يشير إلى خاصية تتميز بها البنية الاجتماعية في الجزائر العثمانية وقد سبق لنا الحديث عنها في الجزء السابق وهي أن وسيلة الإثراء السريع الواسع الأولى هي تقلد منصب مسئولية كبرى لها اختصاصات معينة وتتمتع ببعض الاستقلالية. إن القباطنة فقدوا في الفترة المعنية هنا المسئوليات الواسعة التي كانت لهم في القرن السابع عشر وما قبله وانتقلت هذه المسئوليات إلى وكيل الحرج. فمن الطبيعي إذن أن يكون وكيل الحرج من جملة أرباب السفن الكبرى. أما القباطنة فإن أغناهم هم الذين حصلوا في عملياتهم على غنائم مثرية.

ويلاحظ أيضا شيء جديد هو أنه خلافا للقرون الماضية حيث كان قادة الأسطول يبقون في منصبهم 15 أو 20 سنة أو أكثر (مامي أرنووط، مراد رايس، سليمان باي، بتشنين، الخ.) ففي فترة ركود القرصنة صار قادة الأسطول قلما تطول مدتهم في هذا المنصب. ويعتبر القبطان حميدو استثناء يثبت القاعدة كما أن ازدهار القرصنة في عهده حالة استثناء مرتبطة بظروف خاصة سنعود إليها.

وملاحظة أخيرة نبه إليها دانيال پنزاك[1] وهي أنه في القرن الثامن عشر صار الرياس لا يستمرون مدة طويلة في مهنتهم. فبعضهم لم يذكر له خروج في البحر إلا مرة أو مرتين. وهذه ظاهرة مرتبطة بقلة مردودية المهنة في هذا القرن الذي أصبحت التجارة الخارجية فيه أكثر أرباحا وأسلم عاقبة.

1. D. Panzac, *Les corsaires…*, p. 54

أسعار السفن

إن عرضا سريعا موجزا لبعض أسعار السفن يبين الفارق بين أنواع السفن وكذلك نوعية ملاكها:

- في 1788 لتعويض شبك جزائري كان من أحسن السفن الشراعية له ساريتان و24 مدفعا، أغرقته سفن نابولي في المياه الفرنسية، وبالتالي كان الفرنسيون مسئولين عن خسارته. وكتعويض عنه عرضوا[1] على الجزائريين إعطاءهم سفينة من نوع البريك brick تكلف صنعها 170 ألف ليرة ترنوا (حوالي 34 ألف دولار أو قرش اسباني لأن قيمة الدولار والقرش الاسباني كانت متقاربة جدا في هذه السنوات).

- في 1796، سلم الأمريكان[2] للجزائر بارجة بتجهيزاتها بلغت قيمتها 98379 $ وبارجة أخرى تحمل 34 مدفعا قيمتها 70350 $. كذلك اشترت الجزائر من الأمريكان في 1799 سفينة (بريك) كبيرة بـ 40268 $ وأخرى بـ 22853 $. والجملة 8 سفن اشتريت في 1799 بمبلغ 143622 $ منها سفينة صغيرة بـ 4255 $.

- في 1822 أرسلت الجزائر إلى طولون كربيطة لإصلاحها وتكلف هذا بأكثر من 280 ألف فرنك أي ما يزيد على 54000 $.

ولننتقل إلى مستويات أخرى[3]:

- في 1762، بيعت سفينة (بنكpinque) في الجزائر بـ 1400 قرش اسباني وبيع شبك في 1763 بـ 6000 قرش اسباني وفي نفس السنة أغرق الفرنسيون

1. E. Plantet, *Correspondance*..., t. II, p. 388-389

2. ANP, 253 Mi 1, corresp. consul.am. 1796 et 253 Mi 2, vol. 4, comptes consul.am., 1779.

3. ANP, 369 Mi 4, art. 1369 et AOM, Aix 1 Mi 27, Z 53.

غليوطة وطالب الجزائريون بقيمتها وهي 3000 سلطاني أي حوالي 6000 قرش اسباني. أما قيمة الشبك الذي كان يقوده الرايس قدور فقد اتفق الفرنسيون والجزائريون على قيمة له قدرت بـ 24000 ليرة ترنوا أي ما يقرب من 5000 قرش اسباني.

- أما سفن الملاحة الساحلية الصغيرة من حمولة 20 إلى 50 طن فإن ثمنها كان يتباين من بضع مئات من القروش الاسبانية إلى ألف قرش أو أكثر. ويعتبر دانيال پانزاك[1] أن 151 فرنك لمقدار تونو بالسفينة هو ثمن مرتفع نسبيا فيما يخص قيمة السفن في الجزائر أو تونس. مثلا صندل صغير من 30 تونو لا تتجاوز قيمته 4530 فرنك أي أقل من 900 قرش اسباني. نحن هنا في عالم أصحاب القوارب وما يشبهها من المراكب الصغرى. إنه عالم الحرفيين والتجار المتوسطين الذين كان لهم دورهم في هذه الفترة.

إدارة البحرية

في إطار إعادة التنظيم الأساسية لبنية الحكم أنشئت هيئات قيادية جديدة في البحرية والقرصنة ستستمر إلى سنة 1830. ولم تظهر للوجود بين يوم وليلة فقد بدأت محاولات مختلفة لم تستقر ولم تؤد إلى بنية دائمة إلا في القرن الثامن عشر.

ديوان الرياس: من هذه الهيئات الجديدة ديوان الرياس. وكانت المبادرة أو بالأصح المحاولة الأولى لإنشائه من صنع مزومورتو. فحسب رسالة للقنصل الفرنسي[2] مؤرخة في 23 أفريل 1687، جمع مزومورتو ثلاث مرات مجلسا متكونا من رياس الجزائر لمناقشة العلاقات مع فرنسا. وكانت مشاكل الحرب

1. D. Panzac, *Les corsaires...*, p. 91 sq

2. ANP, 369 Mi 3, corresp. Le Maire, sept. 1752

والسلم من اختصاص الديوان العام. لكن مزومورتو فيما يظهر كان يحاول أن يقنع الرياس بعدم معارضة مشروع السلم مع فرنسا قبل أن يعرضه على الديوان العام.

إن ديوان الرياس أصبح بدلا من الديوان العام هو المختص بالقرار في الشئون الهامة المتعلقة بالقرصنة. وهذا الديوان كان يتألف من كبار المسئولين في البحرية ومن الرياس الذين لم يتركوا مهنتهم لسبب أو آخر. وكانت مهمته هي تقريبا مهمة محكمة الغنائم في البلاد الأروبية. فقد كان نشاطه الأساسي متركزا حول بحث الصفة الشرعية للغنائم والقرار فيها. وكانت قراراته خاضعة لمصادقة الداي الذي كان له الحق في نقضها كما نراه من هذا المثال المستقى من مراسلة القنصل الفرنسي بالجزائر في سبتمبر 1752: «إن وكيل الحرج لم يوافق على قرار المجلس العام للرياس لأنه يتناقض مع العرف ومع بنود الاتفاقية (مع فرنسا). وقد أرسل قايد المرسى ليقدم تقريرا إلى الداي حول الموضوع ويشرح له تناقض هذا القرار وتجاوزاته لما هو معمول به. وتبعا لهذا المسعى قرر الداي إرجاع سفينة الربان تالون»[1].

إن هذا المثال يبين كيفية سير المنشآت الجديدة.

وكان من مهام ديوان الرياس أن يبحث أهلية المرشحين لمنصب رايس وأن يعرض على الداي قرار تعيين من اقترحهم الديوان. وكان وكيل الحرج هو الذي يرأس اجتماعاته.

وكيل الحرج

إن هذا المنصب هو أيضا من إنشاءات أوائل الدايات. وهو مذكور للمرة الأولى في مراسلة قنصلية فرنسية في أفريل 1690 ولكن يبدو أنه لم يستقر

---

1. ANP, AE B1 116, f° 247 sq

على أسس دائمة إلا في مطلع القرن الثامن عشر. والاسم الرسمي الذي يحمله في الوثائق الرسمية الجزائرية المكتوبة بالعربية أو التركية هو وكيل حرج باب الجهاد. ووكيل حرج هي عبارة تركية –عثمانية مشتقة من العربية «وكيل خرج» وتعني كل من هو مكلف بالنفقات والمؤونة، الخ. ففي كل سفينة كان يوجد وكيل حرج واحد أو أكثر وكذلك في كل وحدة من وحدات الأوجاق في مختلف المستويات. وكما لاحظه پارادي[1] في الأصل لم يكن وكيل الحرج داخل البحرية سوى موظف مكلف «بالإشراف على مخازن مؤونة الأسطول».

وفي مطلع القرن الثامن عشر أو قبل ذلك بقليل، أصبح وكيل الحرج هو ناظر البحرية وصار منصبه عبارة عن منصب وزير البحرية والشئون الخارجية. وكانت رتبته داخل الحكومة هي الرتبة الرابعة لكن صلاته بالدول الأجنبية وكثرة القضايا الهامة التي يعالجها والتي تجعله على اتصال مستمر بالداي، كان كل ذلك يساعد على نوع من التقرب والدنو من القمة يزيد كثيرا في نفوذه. وكان معلم السفن يعرض عليه بانتظام حالة الأسطول والتقدم والبطء في إنشاء السفن، الخ. كما أن رئيس الحرس المكلف بالإشراف على العبيد الذين يعملون في منشآت البحرية وكل الحراس التابعين له كانوا تحت مسئولية وكيل الحرج.

وكما سبق لنا ذكره كان تعيين الرياس وكذلك القرارات الخاصة بالغنائم تمر بين يديه قبل أن تعرض على الداي. وكان تحت سلطته عدد كبير من الموظفين. فهناك نائب له يساعده في القيام بالمهام اليومية وينوب عنه أثناء غيابه وكذلك القبطان ونائبه أو نوابه وقايد المرسى والمستخدمون العاملون معه، والورديان باشي وهو المسئول عن الإشراف على المنشآت البحرية وحراستها وكل الحراس الذين يعملون تحت سلطته، وبقية الضباط والرياس والموظفين والمستخدمين في البحرية، الخ.

---

1. Venture de Paradis, op. cit., *RA*, 1897, p. 68

وكانت سلطته تشمل كامل القطر الجزائري كما نرى ذلك من خلال المراسلات[1] بينه وبين مختلف المسئولين في نواحي القطر. وهي تبين كيف تكونت نواة إدارة بحرية تغطي كل الساحل والمناطق المرتبطة به أو التي تنتج مواد ضرورية للبحرية. فمن عنابة وجيجل وبجاية ووهران بعد تحريرها كان المسئولون المحليون يوجهون له تقارير عن عملهم. كذلك كان بايات الشرق وبايات الغرب وقياد مختلف الأوطان والمدن يتراسلون معه حول شئون المؤونة وغيرها مما يتصل بحاجات البحرية. وهي تبين كذلك ظهور بداية بيروقراطية مركزية كان كل قطاع إداري فيها يتولى الإشراف على نشاط معين يغطي القطر كله.

وكما نلاحظه في مختلف القرارات الرسمية كانت الترقية داخل البحرية من اختصاص الداي وتتم بهذا التدرج: وردیان باشي، قايد المرسى، وكيل حرج باب الجهاد (أو باب الجزيرة).

تطور عالم الرياس

في القرن الثامن عشر كانت الأصول الإثنية للرياس مغايرة لما كانت عليه في السابق. فمنذ مطلع هذا القرن بدأ عدد الرياس من العلوج يتناقص إلى حد الاندثار التام تقريبا في النصف الثاني من القرن.

وهذا التغيير له أسباب عديدة ودلالة معينة. إن القرصنة في الجزائر لم تعد تجتذب الأجانب. وفي أروبا بعد نهاية الحروب الطائفية، وزوال القمع على الأقليات الطائفية، وتحسن الوضع الاقتصادي والاجتماعي وقوة الجذب الهائلة التي كانت تمثلها أمريكا بما فيها من معادن الذهب والفضة والأراضي الخصبة، الخ.، التي كانت تجتذب كل مغامر، كل ذلك فتح آفاقا جديدة لهجرة الأروبيين. صحيح أن مئات الجنود الاسبان كانوا يفرون من ثكنات وهران

1. المكتبة الوطنية، الجزائر مخطوط رقم 1904، سجل رسائل وكيل حرج باب الجهاد

والمرسى الكبير ويأتون إلى الجزائر. لكن عموما كان باب اعتناق الإسلام مغلقا أمامهم بقرارات من سلطات الجزائر. وحسب بعض المعلقين الأروبيين المعاصرين أصبح اعتناق الإسلام مغلقا تماما أمام المسيحيين الأروبيين بفعل القرارات الحكومية الجزائرية. والحقيقة أن السلطة كانت فعلا تمنع كثيرا من الأسرى من اعتناق الإسلام وبالأخص الجنود الاسبان الفارين لأنها في حاجة إليهم لاستخدامهم مجانا كعبيد في الأشغال العمومية وكذلك لأن مال افتدائهم كان يقدم لخزانة الدولة موارد مالية معتبرة. فوق ذلك لم يكن هؤلاء الجنود الفارون بوجه عام يتمتعون بأية أهلية أو كفاءة مهنية عالية تجعل اعتناقهم للإسلام مرغوبا فيه.

يصف القنصل الفرنسي De Kercy في مذكراته سنة 1791 حالة العلوج في الجزائر: «لا يوجد منهم سوى نحو عشرين في مدينة الجزائر. وهم أكثر عددا بنسبة قليلة في وهران وكلهم اسبان وبعضهم يهود... والشيء الباطل تماما هو ادعاء أن السلطة تضايقهم وتزعجهم لدفعهم إلى الإسلام بل بالعكس لا بد من مساندة قوية وحماية عليا للحصول على الحق في اعتناق الإسلام»[1].

التعاون التقني

رغم إغلاق إمكانيات اعتناق الإسلام، فقد كان بعض الأشخاص مرغوبا فيهم بل ومطلوبين بإلحاح على أساس مقاييس ترتسم بوضوح. إن المطلوب هو اجتذاب عناصر تقنية من الصعب الحصول عليها بين أبناء المسلمين وذلك لتولي مناصب يجب لصاحبها أن يكون مسلما. وهذه بعض الأمثلة: كان قائد الأسطول في بداية القرن الثامن عشر هو مامي سمسون وهو علج أصله من مرسيليا. وفي 1736، مات القبطان العلج سليمان رايس المدعو سليمان de la Pantessareche في معركة بحرية وخلفه في منصب قائد الأسطول القبطان

---

1. G. Esquer, *Collection*..., III, p. 134

سليمان برطال رايس وهو من العلوج. وفي 1753 كان وكيل الحرج وقائد المرسى ومعلم السفن كلهم من العلوج. وقد أسر الربان الأمريكي R.O.Brien في 1785 وبقي سنوات في الأسر في الجزائر. واستقبله الداي حسن باشا وحاول إغراءه باعتناق الإسلام عارضا عليه أن يزوجه ابنته وأن يعينه قائدا لأسطول الجزائر[1].

وكان وكيل الحرج في 1815 من العلوج وهو عبد الله رايس كما يبدو أن القبطان مصطفى رايس المالطي الذي قتل في معركة نافارين سنة 1827 ونائبه محمد قطلان رايس (القطلاني؟) كانا من العلوج.

فيما عدا ذلك كان كثير من المسيحيين واليهود المقيمين في الجزائر يقومون بأدوار تقنية معينة: صناع السفن والمدافع، جراحون، ساعالجية، الخ. دون الحديث عن الوسطاء التجاريين والمستشارين الماليين والدبلوماسيين للدايات، وكان بعضهم يمارس سلطة خفية حقيقية كانت لها أحيانا نتائج مأساوية. ونظرا للتباين الكبير بين الجزائر وأوروبا في ميدان النظام السياسي وقاعدته الاجتماعية فإن حاجات الجزائر التقنية كانت محدودة جدا. وهذا مثال يعطي صورة واضحة عن الموضوع في ميدان البحرية والقرصنة: في 1750 طلب وكيل الحرج من القنصل الفرنسي[2] أن يجلب له خرائط بحرية وألح بصفة خاصة على أن ما يهمه هو معطيات تسمح بالملاحة في المحيط الأطلسي حتى الرأس الأخضر من جهة وحتى المانش La Manche من جهة أخرى.

إن الساعات للرياس والضباط وساعات الحائط الدقاقة لكبار المسئولين كانت الهدايا المبجلة في الجزائر. ذلك أن طموح الحكام ومجموع الفئات المهيمنة كان يتمثل فقط في الحصول على أدوات الترف والمواد الاستهلاكية الجديدة التي تنتجها الصناعات الأوروبية.

---

1. H. G. Baranby, *The Prisoners of Algiers...*, p. 95 et p. 135

2. ANP, 369 Mi 2, art. 1364

بنية تبسطت

لاحظ المراقبون الأجانب تناقص عدد الرياس.. فالقنصل الإنجليزي جيمس Bruce[1] يتحدث عن 44 رايسا حضروا اجتماع ديوان الرياس لبحث قضية هذا القنصل في 1764. ويقول پارادي[2] إن هذا الديوان كان يضم نحو الخمسين من الرياس في 1788. غير أنه يضيف أن الوباء الذي كان منتشرا في هذه المدة قضى على نحو 50 أو 60 منهم. ومن الأخطاء التي وقع فيها هذا المؤلف الذي هو عادة من أوثق وأمتن المؤلفين، قوله بأن الرياس الحاليين هم إما أتراك أو أرنووط عدا قائد الأسطول القبطان الحاج محمد رايس الإسلامي الذي هو يهودي الأصل.

إن ينزاك[3] اعتمادا على سجلات الجوازات التي تسلمها القنصلية الفرنسية للرياس يلاحظ أنه فيما بين 1798 - 1816، من جملة 239 حصلوا على هذه الجوازات، كان 23 لم تحدد أصولهم ومن بين الرياس الباقين وعددهم 216، كان 99 من الأهالي الجزائريين و3 من الأقطار المغاربية وواحد من بنزرت أي 103 من أصل مغاربي و113 من أصل تركي أو مشرقي.

نوع جديد من الرياس

في تطور عالم الرياس، هناك ظاهرة لم تلتفت لها الأنظار كثيرا. فمن المعروف أنه بعد 1816 اندثرت القرصنة بصورة شبه تامة. بيد أنه في 1830، أحصى الفرنسيون 300 رايس بمدينة الجزائر. إن وثائق الرصيد العثماني بالجزائر وغيرها من الوثائق الإدارية تسمح بتوضيح هذه الظاهرة. فقد يبدو

---

1. James Bruce, *Travels to discover the Source of the Nile*, L., 1805, t. I, p. CCIV

2. V. de Paradis, Alger…, *RA*, 1895, p. 311.

3. D. Panzac, *Les corsaires…*, p. 52

من المفارقة وجود هذا العدد الكبير من الرياس في وقت انعدمت فيه القرصنة أو كادت تنعدم. في الواقع أن عمليات القرصنة في العقد الأخير من العهد العثماني كانت احتكارا للبوارج والسفن الحربية التي تملكها الدولة. وكانت هذه السفن يقودها رياس محنكون. وقد ألمحنا إلى كون هذه الوثائق كانت تميز بين رايس الفرقاطة وهي الدرجة التي تسبق منصب القبطان عموما وإن كان القبطان نفسه عادة هو الذي يقود الفرقاطة الكبرى . وكان رايس الكربيط يأتي في الصف الثاني بعد رايس الفرقاطة ثم الرياس الذين يقودون السفن الكبرى، من نوع البريك والشبك الكبيرين.

وأبعد ما تكون عن هؤلاء الرياس تأتي مئات من رياس الصنادل والفلايك وغيرها من قوارب الصيد والملاحة الساحلية التي كانت على الدوام تتنقل بين ميناء وآخر من الموانئ المغاربية دون أن تبتعد كثيرا عن الشاطئ. وهؤلاء الرياس لم يكونوا فقط بمدينة الجزائر بل هم موجودون في كل الموانئ الجزائرية كما تدل على ذلك نسبتهم الملحقة بأسمائهم. فهم في هذه الوثائق يدعون: العنابي، الجيجلي، القلي، البجاوي، الدلسي، الجزائري، الشرشالي، التنسي، المستغانمي، الوهراني، الخ. وهذه النسب تشير في معظم الأحيان إلى الميناء الذي يعملون فيه عادة.

والجدير بالملاحظة أن صفة الرايس في وثائق الفترات السابقة كانت تطلق فقط على رياس البحرية والقرصنة الذين قد ينتقلون أم لا إلى قيادة السفن التجارية. أما في العقود الأخيرة من العهد العثماني فقد تزايد عدد هؤلاء الرياس التجاريين أو الذين يقودون صنادل وفلايك النقل بين الموانى المغاربية دون أن تكون لهم أية مشاركة فعلية في عمليات القرصنة. إن هذا النوع الجديد من رياس التجارة والنقل على مسافات قصيرة محاذية للشواطئ قد شجع على تزايدهم بكثرة إنهاء القرصنة المالطية التي كانت تعوق كثيرا تحركاتهم

والتي وضع نابليون حدا لها حين احتل مالطة قبيل نهاية القرن الثامن عشر. كذلك شجع عليها تطور الوضع الدولي بعد انتهاء الحروب الأوروبية العامة إذ تنامت العلاقات التجارية في البحر المتوسط وتكثفت التنقلات على سطح البحر وانفتحت الموانئ الأوروبية للرياس والتجار القادمين من الأقطار المغاربية بشكل أوسع بكثير مما كان عليه الوضع في السابق.

المآثر والذاكرة

لا يمكن أن نقارن الأجيال الأخيرة من الرياس بكبار رياس القرن السادس عشر مثل بربروسة ودرغوث وعلج علي الذين جعلوا من الدولة العثمانية أعظم قوة بحرية في البحر المتوسط. في القرن السابع عشر كان بعض كبار الرياس مثل بتشنين قد احتلوا قمة السلطة وحصلوا ثروات بلغت من الضخامة ما يندر أن يوجد مثلها.

ومنذ عهد الدايات-الباشوات تغيرت موازين القوى في العالم وصارت مطامح وإنجازات الرياس في الجزائر أكثر تواضعا. لكن بعض المآثر كانت تتجاوز المعتاد.

إن الحالات الثلاث التي نبحثها هنا ليست فريدة من نوعها. لكن ميزتها أنها تبين كيف كانت الإنجازات والمآثر تنتقى لتأخذ مكانا دائما في الذاكرة الجماعية.

محمد أرنووط

اسمه مجهول تماما اليوم. مع أن مأثرته احتفي به رسميا كإحدى المآثر الكبرى وحظيت مثل الانتصارات الباهرة بأن يكتب عنها كتاب[1] يخلد مآثر الرايس الذي حققها.

---

1. المكتبة الوطنية بالجزائر، مخطوط رقم 1596 (الرقم القديم 239). مجموعة نصوص باللغة التركية. ومنها نص (في ورقات 231 - 239) خصص للإنجاز البحري الذي حققه محمد رايس أرنووط. والورقة الأولى من هذا النص أدرجت في نهاية المخطوط رقم 514 بالمكتبة الوطنية الفرنسية.

إن قصة إنجازه وردت أيضا في مراسلات للقنصل الفرنسي بالجزائر وبجريدة لاغازيت لسنة 1755. لكن هذين المصدرين مع أنهما ذكرا تفاصيل كثيرة عن الإنجاز لم يذكرا اسم الرايس الذي قام به.

يقول القنصل الفرنسي Le Maire [1] في يومياته: «وصل بريد استثنائي من قايد عنابة إلى الداي جاء فيه: 2 من قوادس ناپولي أتى بهما الأسرى المجدفون ومعهم 553 مسيحيا. إن هذا العمل الجريء قام به رايس الشبك الذي أسر أخيرا من طرف هذه القوادس في تراپانو».

وفي مراسلة من Messine لجريدة لاغازيت: «41 عبد تركي قاموا في وضح النهار بأجرأ العمليات. كانوا مستخدمين في تنظيف الميناء. استولوا على 6 بنادق و5 سيوف أخذوها للحرس وركبوا فلوكة ونشروا شراعا وفروا بواسطة القناة التي تربط الميناء بالبحر».

أما مراسلة نابولي لنفس الجريدة فتوضح بأن هؤلاء المجدفين كانوا قد نحيت عنهم قيودهم ليستطيعوا نقل الماء إلى القادس سانت انطوان. وحسب القنصل الفرنسي، أن الرايس قال لرفاقه: «إخواني، لقد حانت الساعة، فلنستول على سلاح الحرس ولنصرخ بكل قوة لإخبار المجدفين لكي يثوروا ويخلعوا سلاسلهم... ونزع الرايس ورفاقه أسلحة الحراس، وصاحوا للمجدفين الذين كانوا قد اتفقوا معهم على الثورة فثار هؤلاء والتحق بهم الجزائريون الذين استولوا على القادس وقطعوا الحبال التي تربطه بالمرسى. وجاء قادس آخر لمهاجمتهم فاقتحمه الرايس مع مائة من رفاقه واستولوا عليه بعد معركة عنيفة. ثم عين الرايس أحد رفاقه لقيادة القادس الثاني. وساعدت الريح على ذهابهم إلى تونس»[2]. والتحقوا بالجزائر في 12 سبتمبر 1755.

---

1. ANP, 369 Mi 3, art. 1365, Journal…de sept. 1755 et *La Gazette*, 1755, corresp. de Naples, 6 sept. et de Messine, 8 sept.

2. المصدر السابق

الحادث والأسطورة

تفاصيل الحادث التاريخي الذي وقع في 1765 معروفة قد رواها للقنصل الفرنسي ڤاليير[1] الضابط الاسباني الذي أسر مع قادسه من طرف شبك جزائري. وكان القائد الاسباني على رأس ثلاثة قوادس تطارد غليوطة وشبك من الجزائر. وفي حين كان القائد الاسباني يهاجم الشبك الذي كان له 10 مدافع اندفع الرايس الجزائري في عملية اقتحام للقادس الاسباني واستولى عليه بعد مصادمات مباشرة بالسلاح الأبيض. وكان طاقم القادس الاسباني متكونا من110 شخصا منهم 52 أسروا وعلى رأسهم قائد السفينة والقس والكاتب والجراح بالسفينة. أما الشبك الجزائري فكان فيه 70 شخصا مات منهم 30 في المعركة وجرح حوالي 15 أو 20. وأما القادسان الاسبانيان والغليوطة الجزائرية فقد لاذوا بالفرار. ولم يذكر ڤاليير اسم الرايس الذي أحرز هذا الإنجاز.

يبدو أن هذا الحادث هو الأساس الذي انبنت عليه إحدى قصص البحارة التي حكاها حسن رايس لدوڤو[2]. وكان حسن رايس قد عمل طويلا في البحرية الجزائرية. وكان يقود سفينة من نوع (goelette غويليت) في معركة أكتوبر 1827 بين الأسطولين الفرنسي والجزائري ومع أنه بلغ عمرا طويلا حين التقى به دوڤو فإنه لم يشهد القصة التي رواها بل سمعها من رياس كبار السن. وهو يذكر أن بطل القصة هو الحاج مبارك رايس وهو رايس مشهود له بالكفاءة والأمانة ونعرف شيئا من عملياته وغنائمه التي أحرزها بين 1741 و1763.

وحسب هذه القصة كان الحاج مبارك يبحث عنه الأسطول الاسباني بكثير من الاهتمام وكان الإسبان أعلنوا أن من يقبض عليه أو يقتله سيتلقى جائزة

1. ANP, 369 Mi 4, art. 1369, l. du 1er oct. 1765

2. A. Devoulx, Le raïs Hadj Embarek, *RA*, 1872, p. 35-45

ثمينة لأنه ألحق بهم أضرارا جسيمة. وذات يوم كمنت لهم سفينة اسبانية عظيمة تسترت بطابع تجاري وأخفت مدافعها وعتادها وحين اقترب منها شبك الحاج مبارك كثيرا أسفرت السفينة عن مدافعها وصوبت نيرانها على الشبك. وهكذا أسر الحاج مبارك وبحارته وشبكهم معهم فقيدوا على شبكهم الذي رفع إلى سطح البارجة الاسبانية. ووزع القائد الاسباني الكثير من الكحول على جنوده وبحارته احتفاء بهذا النصر المبين. ومن شبكه كان الحاج مبارك يتابع سير الحفلة وتأثير الكحول في الاسبان. وشرح الرايس لرفاقه أن الفرصة مواتية فحلوا قيودهم واندفعوا نحو الاسبان السكارى الذين فاجأتهم هذه الوثبة غير المنتظرة. وفي النهاية استولوا على البارجة وطاقمها وقادوها إلى الجزائر.

إن الصلة هشة جدا بين حكاية البحارة والواقعة الحقيقية المتقدمة. لكن أليس هكذا تصنع الأساطير؟

بطل وطني

منذ عدة قرون من التقاليد البحرية قبل وأثناء العهد العثماني، لم تحتفظ الذاكرة الوطنية الرسمية في الجزائر إلا بالصورة الرمزية التي يمثلها الرايس حميدو. فهناك سفن وشوارع وضواحي قرب مدينة الجزائر تحمل اسمه الذي يعرفه بدون شك كل تلاميذ المدارس الجزائرية.

صحيح أن هذا المجد الوطني لم ينشأ من العدم. فقد كان حميدو شخصية استثنائية تعلو كثيرا عن مستوى زمانها وهو زمان لا يصعد كثيرا نحو العلى. وخلافا لرفاقه من الرياس الذين ماتوا مثله في معارك بحرية فإنه وحده في هذه الفترة سجل في الوثائق الرسمية وفي الحوليات والشهادات المعاصرة التي كتبها جزائريون بأنه الشهيد الذي رضي الله عنه ويجله الناس كأحد أولياء

الله. إن الشريف الزهار[1] شاهد عصره قد عرف حتما حميدو لأن كليهما كانا يخالطان الدوائر العليا في الحكم. وهو يذكر إنجازاته ومآثره بكثير من التأثر إلى حد التقديس. والمعروف عن زهار أنه كان من العلماء المتفتحين على العصر ومكاسبه الحديثة وليس ممن يمشون وراء التعاويذ والخرافات لكن حين يذكر حميدو يصفه بالشهيد المرضي عنه ويتشفع به عند الله. إن حميدو ابن الحرفي الصغير من الحضر في العاصمة والذي بدأ حياته كمتعلم في صناعة الخياطة هذا الرجل الشعبي البسيط ارتفع إلى درجة أعلى من درجة نقيب الشرفاء في الجزائر والمفتي الكبير والعالم الجليل أحمد الشريف الزهار. إن حميدو كان بمثابة المعيار الذي ينطلق منه الشريف الزهار للحكم على المسئولين والرياس، الخ. الذين عاصروا حميدو. أي أن حميدو بعد موته بسنوات قليلة أصبح في أعين الناس بمثابة البطل الوطني وبالإضافة إلى ما كان يحظى به من شجاعة وذكاء يشهد بهما مختلف معاصريه فقد كان حميدو له ميزات خاصة ذكرها الأجانب الذين عرفوه.

تذكر مسز براوتون[2] بنت القنصل الإنكليزي في الجزائر وكانت دار القنصل مجاورة لجنان الرايس حميدو، الزيارات التي كان حميدو يقوم بها عندهم وتصفه بأنه «قائد ممتاز جدا. وهو من أجمل الرجال الذين رأيتهم في حياتي. وكان جريئا مثل الأسود الذين يعيشون في وطنه». كان رجلا مهذبا ولطيف المعاشرة وقد أعجب زوجة القنصل وابنته بطيبته وتسامحه. ومع أنه كان مؤمنا متدينا فهو لا يرفض كأس المادير الذي كان يقدم له.

إن پاننتي[3] الذي كان في الفرقاطة البرتغالية التي استولى عليها الرايس حميدو في 1802، يعترف له بكثير من الموهبة والشجاعة التي جعلته يعتبر

---

1. انظر مذكرات... الشريف زهار، ص 74 وما بعدها.

2. Mrs Broughton, *Six years Residence in Algiers*, L. 1839, p 200.

3. Pananti, *Relation d'un séjour à Alger*…, trad. , fr. , P, 1820, p .65-66.

أفضل رياس الجزائر، أما دوفو[1] فهو يلخص ما ورد في مختلف الشهادات ممن عرفوا حميدو مباشرة ويضيف إليها شيئا من عنده يقول دوفو إن حميدو «كان جريئا، شجاعا، كريما، خلابا في حديثه، رشيقا في هندامه، مهذبا يبش للجميع... سريع البديهة، ويميل قليلا إلى التفاخر والتظاهر». وقد التحق في حداثة سنه بالبحرية كنوتي صغير مبتدئ. ثم صار بحارا ثم ضابطا ثم رايسا ثم قبطانا وقائدا عاما للأسطول الجزائري من 1797 إلى وفاته في 1815.

إن الانجاز الذي وطد شهرته في 1802 هو استيلاؤه على فرقاطة برتغالية من 44 مدفعا وأسر فيها 282 بحارا وجنديا. إنه استطاع بخدعة أن يقترب من الفرقاطة مشرعا لواء إنكليزيا على فرقاطته لكي يحاذي السفينة ويستطيع الوثوب داخلها مع رفاقه واقتحامها فجأة. عدا ذلك فإن الفوز في مثل هذه الحالة شبه مستحيل لأن نوعية المدافع الجزائرية وعيارها لا يثبت أمام البوارج الحربية الأروبية الحديثة في ذلك الوقت.. ولهذا احتفي بهذا الانجاز كمأثرة عظيمة في الجزائر بينما قبل القرن الثامن عشر كانت عمليات استيلاء الجزائريين على بوارج حربية أروبية من الأمور العادية.

ويجدر بالملاحظة أن كون الرايس حميدو يحتفى به اليوم كبطل وطني فذلك بدون شك لأنه مولود في مدينة الجزائر من أب جزائري وأم جزائرية. فلا خير الدين مؤسس دولة الجزائر ولا كبار القباطنة الذين رافقوه أو خلفوه، لهم في كثير من أعين نشراتنا الرسمية مثل هذه القيمة. إن هذا الموقف فيه كثير من التهافت وعدم الانسجام لأنه من جهة أخرى، تحتفل الدوائر الرسمية وغيرها «بانتصارات الدولة الجزائرية والبحرية الجزائرية» عندما تتحدث عن القرون العثمانية. لكن قادة هذه الانتصارات لم يكونوا من «الأهالي الأقحاح».

---

1. A. Devoulx, *Le Raïs Hamidou*..., p. 8

إخفاقات

في هذه المهنة العويصة لا يصبح المرء من الرياس من غير أن تكون له بعض الميزات المطلوبة من الشجاعة والتحمل وحسن التصرف. لكن الإخفاق من طبيعة الإنسان. وأمام الأخطاء وجوانب الضعف لدى الرياس، كان الحكام يردون أحيانا بكثير من الشدة قد تبلغ العقوبة فيها الحد الأقصى.

وهذه أمثلة منتخبة من ظروف مختلفة:

- في 1751، في معركة بين سفينتين جزائريتين وسفينتين اسبانيتين أغرقت البارجة الجزائرية المدعوة دانزغ وكان لها 56 مدفعا وعليها 594 رجلا. أما السفينة الأخرى التي كان يقودها القبطان الحاج سليمان فقد فرت من المعركة. وعند وصولها إلى الجزائر أعدم الحاج سليمان ونائبه واثنان من ضباط السفينة[1].

- في 1795 فر رئيسان جزائريان[2] من نابولي أين كانا أسيرين والتحقا بالولايات المتحدة الأمريكية. وهناك كتبا إلى وزارة الخارجية الأمريكية وإلى الرئيس جورج واشنطن بطلب التدخل لصالحهما لدى الداي حسن باشا. ذلك أنهما كانا كفيلين بأن يعاقبا بالإعدام لأنهما استسلما بسفينتهما للبوارج الحربية النابولية الثلاث التي هاجمتهما.

- لجأ بن زرمان[3] وهو من الرياس المشهود لهم بالشجاعة والكفاءة إلى المغرب الأقصى في 1795 لأنه هاجم خطأ سفينة انكليزية، اعتقد أنها برتغالية وكانت تحمل العلم البرتغالي للتمويه. ووقع قتال بين السفينتين أدى إلى بعض القتلى والجرحى. مع ذلك فإن مثل هذا الخطأ وعدم التمييز الناجم عن قلة

---

1. *La Gazette*, 1752, corresp. de Madrid, 28 déc. 1751 et 369 *Mi* 3, art. 1365

2. H. G. Baranby, op. cit., p. 121

3. مذكرات زهار... ص 66-67.

اليقظة كان يعاقب بشدة في الجزائر.

- كاد علي ططار[1] أن ينفذ فيه حكم الإعدام مرتين في الجزائر. المرة الأولى في 1802 لأن الفرنسيين اشتكوا من تصرفاته العدائية إزاءهم. وقد تدخل القنصل الفرنسي بنفسه للتخفيف من أهمية التصرفات المنسوبة للرايس والحصول على عفو لصالحه. وكانت المرة الثانية أخطر فقد أرسل للمشاركة في الحرب العثمانية ضد اليونانيين في 1821 لكنه ذهب إلى الإسكندرية. وفي النهاية تدخل القبطان علي أرنووط لصالحه لدى الداي حسين باشا. واكتفى هذا بأن سحب منه قيادة الفرقاطة. لكن بعد سنتين عين علي طاطار قائدا عاما للأسطول. إن التسامح معه ثم رفع منزلته إلى حد تعيينه قبطانا للأسطول الجزائري، كل ذلك مرتبط بالأوضاع الجديدة. فإن ندرة الرياس الأكفاء في هذه السنوات تفرض الاحتفاظ بمن لهم بعض الكفاءة وتجبر على إظهار المرونة والتساهل في هذه الأزمنة الصعبة.

---

1. A. Devoulx, *Le raïs Hamidou...*, *op. cit.*

الفصل التاسع عشر

القرصنة وملابساتها
1764 - 1700

حول تناقص القرصنة في السنوات الأولى من القرن السابع عشر، هناك نوع من الإجماع من مختلف المصادر. إن صدمة السقوط ترن كإيذان بالغروب يحمله القرن الجديد في طياته. والواقع أن الاتجاه نحو الهبوط حقيقي ومستمر لمدة طويلة. لكن هذا الاتجاه العام قد تتخلله فترات من الصعود والهبوط مرتبطة بأنواع مختلفة من الملابسات.

كانت الظروف التي سادت في مطلع القرن مطبوعة بالنزاعات العنيفة بين الأقطار المغاربية. وكان الأسطول مكلفا بعمليات نقل الجنود والعتاد وغيرها من عمليات المساهمة في هذه الحروب إلى جانب الجيوش البرية. وقد قام الأسطول بدور مهم في 1707 في حصار وهران ومطاردة السفن الاسبانية المساندة للحاميات المحاصرة. وعند الهجوم على القواعد الاسبانية في وهران والمرسى الكبير من طرف الجيش البري ساهم الأسطول في المعارك واصطدم مع الأسطول الاسباني في معارك بحرية تظهر أهميتها من قائمة أسماء الرياس والبحارة الذين قتلوا أو جرحوا في هذه المعارك والتي أوردتها سجلات بيت المال وغيرها من وثائق الرصيد العثماني. ويجدر التذكير بأن تحرير وهران والمرسى الكبير في 1708 قد ساعد عليه كثيرا الوضع العام الناشئ في أروبا نتيجة للحرب الأروبية المدعوة حرب الخلافة على عرش اسبانيا (1702-1714) وقد شغلت هذه الحرب القوات الاسبانية عن التدخل لمساعدة حامياتها

في الغرب الجزائري.

وقد تعود ندرة المعطيات عن قرصنة الجزائر إلى كون المسئولين الفرنسيين كان همهم الشاغل كذلك هو الحرب الأروبية حيث كان الجيش الفرنسي يخوض معارك ضارية ضد الاسبان وحلفائهم. وفي هذا الإطار كان ما يهمهم من قرصنة الجزائر هو وقوع رعايا فرنسيين في الأسر بالجزائر لأسباب مختلفة. فكثيرا ما كانت المعلومات[1] عن القرصنة في هذه السنوات سواء في المراسلات القنصلية أو في جريدة لاغازيت تذكر بمناسبة الحديث عن حالة هؤلاء الفرنسيين. ومهما كان الأمر فإن ملابسات الحرب المغاربية أو قد تكون هناك عوامل أخرى أدت فعلا إلى أن الغنائم عن طريق القرصنة صارت نادرة.

1700 - 1710: بدايات عسيرة

كانت مراسلات القنصلية الفرنسية[2] تقدم المعطيات عن الغنائم بهذا الشكل:

16 جانفي 1700: اشترى الفرنسيون من قرصان الجزائر صندلا له حمولة 125 تونو كانوا أخذوه من الجنويين أخيرا.

17 جانفي 1700: أسر بعض المرسيليين في مركب جنوي استولى عليه الجزائريون.

أكتوبر 1700: افتدي أسير فرنسي كان أسر على ظهر سفينة من سان مالوا.

وفي لاغازيت 1701، مراسلتان من البندقية إحداهما مؤرخة في 25 ديسمبر 1700 والأخرى في أول جانفي 1701، تخبران باستيلاء قراصنة الجزائر على

1. انظر ANP, AE B1 118 f^os 89 sq ; 223 Mi 12 f^os 305 sq ; B1 119 (1705) 369 Mi 1, art. 1356. وكذلك *La Gazette* عن السنوات المعنية.
2. حول هذه المراسلات أنظر المصدر السابق في مختلف عناصره

سفينتين بندقيتين قيمتهما حوالي 200 ألف دوقة. كذلك هاجم «البرباريسك» سفينة بندقية ثالثة واستولوا عليها.

14 أفريل 1701: أسر 7 فرنسيين كانوا في سفينة هولندية.

أوت 1701: استولى مصطفى رايس على سفينة قرب قادش وقد فر طاقمها إلى البر. وفي مراسلة من روما بتاريخ أول جويلية 1701 أن «البرباريسك» استولوا على 4 سفن إيطالية محملة بالقمح والزيت.

20 سبتمبر 1701: وصول رايس إلى الجزائر ومعه 7 أسرى اسبان استولى عليهم قرب إيبيزا.

أكتوبر 1701: قرصنة غير مثمرة في الأطلسي. وقد جدد القنصل الفرنسي للقراصنة الجزائريين عرضه باستقبالهم في المواني الفرنسي ولجوئهم إليها عند الضرورة.

- في نفس الشهر وصول 6 أسرى اسبان أخذوا قرب مالقة.
- عادت سفينتان جزائريتان بغنيمة كبرى.
- أسرت سفينة برتغالية وجيء بها إلى الجزائر مع 101 أسرى برتغاليين. وجهزت هذه السفينة في الجزائر للقرصنة وسميت البرتغالية.

1702: عودة رياس الجزائر بدون نتيجة سوى أسر بعض الصيادين الاسبان والبرتغاليين.

- وصول 3 سفن قطلانية مستولى عليها.

1703: خروج 5 سفن جزائرية للقرصنة. وقد استولت على سفينة محملة بالرز والقمح، الخ.

- نفاد القرصنة، جفاف ومجاعة، صعوبة ضمان أجور الانكشارية.

- الداي وهو «إنسان مهذب جدا لكنه مهموم بأثقال أجرة الانكشارية وانعدام النتائج في القرصنة»، وهو يحاول أن ينظم محلة متجولة في داخل البلاد لجمع الضرائب.

1704: أسر سفينة بندقية (عنب من كورنث) و7 جنويين.

1705: أسر 24 همبورغي و14 من الكاناري.

1706: وصول سفينة محملة بالكحوليات فر طاقمها وأخرى جنوية (سكر وصوف ولم يؤسر سوى 3 من رجالها).

- الاستيلاء على سفينة من الدانمرك لها 26 مدفعا وعليها 45 شخصا.

- نزاع حول الغنيمة. وهذا ملخص محضر رسمي سجل في القنصلية عن النزاع: هاجم قرصان فرنسي من سان مالو سفينة هولندية اسمها La Marie وحمولتها 120 تونو. وكاد أن يستولي عليها حين ظهرت سفينة ناصبة لواء هولنديا واقتربت من لاماري إلى أن التصقت بها وحينئذ أشرعت اللواء الأحمر لواء الجزائر واستولت عليها. فاقترب الفرنسي وطالب بنصيبه من الغنيمة. ورضي القرصان الجزائري أحمد الطويل أن يأخذ معه أحد الفرنسيين لعرض الأمر أمام سلطات الجزائر. وتدخلت القنصلية الفرنسية للحصول على نصيب من الغنيمة (392 برميل من الرنك و330 قنطار رصاص).

1707: مراسلة لاغازيت من باريس في 19 مارس 1707: خرجت 13 سفينة جزائرية للقرصنة. وقد استولت على 3 سفن واحدة هولندية وأخرى بندقية والثالثة همبورغية.

18 أفريل: أسر سفينة جنوية من نوع الكربيط.

- حصار وهران مستمر. وقد خرجت 6 سفن من الجزائر تحمل 2000 من الجنود وكذلك البارود والقذائف للجيش الذي يحاصر الاسبان.

:1708

- سلا دائما في حرب ضد فرنسا

-استولى رياس الجزائر على 5 سفن منها سفينة سويدية تحمل 100 ألف إيكي إلى قادش.

- استولت سفينة الرايس قارة علي التي يقودها ابنه على سفينة اسبانية كان فيها 6 فرنسيين. ورفض الداي أن يرجعهم كما رفض إرجاع 7 فرنسيين آخرين كانوا في سفينة معادية أسرها الجزائريون.

- أصدر الداي أمرا بمنع المسيحيين من اعتناق الإسلام.

1709: حادث دبلوماسي بين القنصل الانكليزي والداي حول سفينة سكوتشية تعتبر الجزائر أنها سفينة دنمركية مقنعة. وقد بيع بحارتها (24 شخصا) وحمولتها من السلمون والسمك المجفف للخواص.

- حل النزاع بين قرصان جزائري وقرصان فرنسي حول الغنيمة الهولندية على أساس أن للجزائريين 3 أسهم وللفرنسي سهمان.

- وصول سفينة هولندية أسرت (بن، رز، كحول، زيت) وصندل جنوي.

- أسر سفينة جنوية كبيرة عليها 57 بحارا كانت في طريقها إلى لشبونة.

ملاحظات: فيما يخص 1708 و1709 تذكر المصادر الفرنسية أخذ سفينتين هولنديتين لكن حسب المصادر الهولندية[1] استولى قراصنة الجزائر على 7 سفن هولندية بين أفريل 1708 وجوان 1709. ثم أقيمت علاقات سلم بين الجزائريين والهولنديين في الفترة ما بين نوفمبر 1709 وديسمبر 1715. إن هذه المعلومات عن الغنائم من مصادر هولندية، تبين الثغرات في المصادر

1. G. Van Krieken, *op. cit.*, p. 80

الفرنسية التي اعتمدنا عليها. مع ذلك فإن الضعف الكبير الذي عرفته القرصنة الجزائرية في العقد الأول من القرن الثامن عشر أمر لا شك فيه.

ومن جديد نلاحظ الالتباس الذي يحدثه استعمال كلمة برباريسك دون تخصيص. وضع شارل كارير[1] حسابا ختاميا لعدد السفن التي خسرتها مرسيليا في مختلف الحروب الأوروبية بين 1702 و1783. ففي حرب 1702-1714 خسرت مرسيليا 2108 سفينة منها 19 أسرها «البرباريسك». ولا يعين المؤلف من هم هؤلاء البرباريسك؟ فالواقع أن الجزائر غير معنية بهذه الغنائم لأنها كانت في حالة سلم مع فرنسا لكن سلا مثلا كانت في حرب مع الفرنسيين. وقد أدى هذا الالتباس ببعض المؤلفين إلى إدراج الجزائر ضمن المساهمين في الغنائم المأخوذة على حساب المرسيليين وهذا خطأ. فكل الفترة التي تشملها قائمة كارير (1702-1783) لم تأسر الجزائر أية سفن مرسيلية عدا التي حجزت في ظروف معينة وهي تعد على الأصابع. وهذه الملاحظة تنطبق بالأخص على بونو الذي يستعمل غالبا كلمة برباريسك أو كلمة «تركي» بمعنى مسلم على العموم ولا يهمه التحديد بحكم نظرته العامة «لاعتداءات» المسلمين على البلاد «المسيحية».

1710 - 1729: انتعاش تدريجي

في السنوات الأولى من العقد 1710-1719 كانت الهجمات مركزة على الإيبيريين والإيطاليين. والمعطيات حولها محدودة:

- 1710: تذكر لاغازيت (من البندقية 20 نوفمبر) أن قرصان الجزائر أخذوا 3 سفن تجارية بندقية وقد خلق هذا «اضطرابا كبيرا بين التجار».
- أسر سفينة برتغالية (500 صندوق سكر) وسفينة جنوية.

1. Charles Carrière, *Négociants marseillais*..., t I, p. 483.

- 1711: اجتياح قرية سراتو في مضيق أترانته وأسر 46 شخصا. الاستيلاء على سفينة بندقية تحمل 113 شخصا وعلى سفينة جنوية.

- 1712: في إيطاليا، بعض الغنائم في منطقة آمبروزيو وأسر بعض الأشخاص على سواحل كلابريه.

- أرسلت كربيطات برتغالية لحراسة الأسطول العائد من البرازيل لكنها عادت أدراجها حين علمت أن بعض القراصنة الفرنسيين و10 أو 12 بارجة جزائرية لوحظ وجودها في المحيط الأطلسي قرب السواحل البرتغالية.

- مراسلة من البندقية إلى لاغازيت تخبر أن عدة سفن «بربارسك» في عرض البحر قرب مياه البندقية.

- 1713: عدة غنائم«بربارسك» تذكرها لاغازيت دون تحديد البلد. وهذه بعض الغنائم التي حددت بأنها جزائرية: من نابولي في 18 جويلية: إن سفينة قائد الأسطول الجزائري أسرت قرب برنديزي سفينة بندقية قادمة من لشبونة (سكر وتبغ) واستولت سفينة جزائرية أخرى على سفينة محملة بالصوف قرب تارنت.

- 1714: في لاغازيت من لندن 31 مارس: استولى قراصنة الجزائر على سفينة برتغالية في مصب نهر التاج.

- ومن لشبونة 22 أكتوبر: أنزل الجزائريون قواتهم في جزر الأسوريس وأسروا 300 شخص.

1715: أسر 24 اسبان في مركب من منورقة. واستولى قرصان الجزائر على مركب محمل بالنبيذ لروما قرب إيشي كما قاموا بغارات على السواحل الإيطالية وأسروا عدة أشخاص في تراسينا وانزيو.

1715-1720: ابتداء من 1715 قطع العلاقات مع الهولنديين. وحسب

تقرير فرنسي[1] قدرت الغنائم التي أخذها الجزائريون من الهولنديين بين 1714 و1720 بـ 39 سفينة و909 شخصا وقيمة هذه الغنائم أكثر من 7 ملايين فلوران أي مليون فلوران سنويا (نحو 400 ألف قرش اسباني) أما كريكن[2] فهو أيضا يقدر قيمة الغنائم بنحو مليون فلوران سنويا لكنه يذكر حسب الوثائق الهولندية أن عدد السفن المأخوذة كان 37 سفينة وعدد الأسرى 300. واعتمادا على المراسلات القنصلية الفرنسية وعلى جريدة لاغازيت نقدم هنا الغنائم الأخرى في هذه السنوات.

1716-1717: سفينتان برتغاليتان إحداهما محملة بالسكر والتبغ من البرازيل

- قرب اليوي أسر الجزائريون 7 سفن إيطالية. و40 شخصا أسروا من طرف البرباريسك.
- 120 اسبانيا (ضباط وجنود ومعهم نساء وأطفال) أسروا على ظهر سفينة فرنسية قادمة من آكد ورفض الجزائريون ردهم. واعتدى بعض الرياس الجزائريين على سفن فرنسية ردا على أسر الصقليين لسفينة جزائرية عليها 130 جزائريا في المياه الفرنسية.

1719: أخذ سفينة برتغالية وسفينة تجارية همبورغية وعدة سفن في مياه جنوة.

1720: أخذ سفينة برتغالية (حمولة 400 تونو، عليها 1500 ربع من الكاكاو مقدار كل ربع 25 رطلا، و1500 حزمة دخان و70 صندوق سكر وبضائع أخرى.

---

1. ANP, 223 Mi 1, vol. 13, f° 17
2. G. Van Krieken, *op. cit.*, p. 93.

- الاستيلاء على 5 سفن همبورغية: إحداها عليها 1500 ألواح بناء السفن، وأخرى تحمل الرصاص؛ وغليوطة ذات 3 شراع تحمل الرصاص وخشب البناء وسفينتين محملتين بالملح. ومع هذه السفن 5 ربابنة و34 بحارا.

1721-1726: استولى الجزائريون على 25 سفينة هولندية[1] و129 بحارا بين 1721 و1723 وعلى 19 سفينة هولندية و112 من بحارتها بين 1724 و1726.

وفي 1721 استولى الجزائريون على 3 سفن برتغالية في مصب التاج (بهارات وبضائع أخرى) وعلى عدة سفن في خليج قادش وعلى مركب في فارو محمل بالفواكه.

ومن غنائم 1722: سفينة من نابولي، ومركب اسباني به بضائع ثمينة وصندل جنوي له 6 مدافع و12 مدفع حجارة محمل بالقنب والقطران؛ ومركبان اسبانيان (حبوب) وسفينة جنوية لها 24 مدفعا؛ ثم سفينة برتغالية راجعة من الجزر وغليوطتان اسبانيتان بين قرطاجنة وأليكانت.

ومن غنائم 1724: سفينتان جنويتان (من نوع الطرطن وهو مركب وحيد الصاري صغير الحجم) وطرطن من ميورقة ومركبان من پورتو بالبرتغال، وسفينة اسبانية كبيرة (زيت، قمح وعلف) وبالأخص على سفينة هولندية غنية جدا (2500 بالة بن يمني؛ 3 أكياس من الذهب التبر؛ 130 صندوق قماش غالي القيمة؛ أسلاك جوهر وكمية من الحجارة الكريمة). وعلى الشواطئ الاسبانية، أسر «عدد هائل» من الأشخاص حسب رسالة بعثها مدير مستشفى التثليث بمدينة الجزائر.

وأخذ الجزائريون في 1725 سفينة همبورغية وأخرى اسبانية؛ و12 قارب صيد عليها 28 صيادا وسفينة البريد بين نيس ومسين عليها 3 من رجال الدين ومسافر آخر. وسفينة همبورغية أخرى ومركب صغير غير محدد الأصل.

---

1. G. Van Krieken, *op. cit.*, p. 95-97.

وفي 1726: أخذ 3 سفن كبرى في مياه جنوة وسفينتين صغيرتين في مياه صقلية.

1727: من غنائم هذه السنة سفينة همبورغية وسفينة سويدية غنية بالحمولة مع سفينتين برتغاليتين (تبغ) وسفينة جنوية (18 شخصا) وغليوطة من نابولي (4 أشخاص و4 قناطير مرجان).

تذكر المصادر الهولندية[1] أن الجزائريين استولوا في 1727 على 25 سفينة و249 أسيرا وأن نصف هذه الغنائم كانت اسبانية و40 % منها إيطالية وبرتغالية. والباقي من ألمانيا والبلدان السكندينافية. ويعتبر كريكن أن نتائج السنوات التالية هي تقريبا من نفس المستوى.

1728: طرطن قطلاني؛ سفينة جنوية (6 رجال، قمح، رز، وأضلاع براميل)؛ سفينتين أخريين من جنوة؛ سفينة من پاليرم، وسفينة قطلانية وطرطن صقلي و15 من السفن الكبرى في المياه الإيطالية؛ وطرطن من ناپولي و3 سفن من لشبونة وپورتو أخذت مع بحارتها، سفينة نمسوية (قطن، 1500 برميل زيت مورة)؛ سفينة جنوية؛ 23 صيادا اسبانيا أخذوا في شواطئ غاليسيا؛ 7 جنود من حامية بورتوڤيكيو وتضيف نفس المصادر أن القراصنة عادوا إلى الجزائر بغنائم ضخمة عظيمة القيمة دون تحديد.

1730 - 1742: أوضاع متقلبة

1730: أسر 4 اسبانيا في نواحي قرطاجنة؛ أخذ سفينة من ناپولي عائدة من المشرق بحمولة غنية؛ أسر سفينتين برتغاليتين.

1731: حسب المناطق التي أرست فيها السفن، يبدو أن كثيرا من الغنائم المنسوبة إلى «البرباريسك» هي غنائم جزائرية على الشواطئ الغربية

---

1. نفس المصدر، ص 99

الاسبانية ؛ كذلك أسر قراصنة الجزائر عدة سفن ناپولية محملة بالقمح والمؤونة وسفينة همبورغية (8 أشخاص، سكر، نبيذ)، وأسر 8 برتغاليين.

1732: 4 سفن مأخوذة دخلت الجزائر في بداية السنة ثم سفينة من ناپولي وطرطن من صقلية ومركبان من جنوة وصندل من نيتونو وسفينتان من جنوة و6 قوارب صيادي أسماك مع بعض القوارب الأخرى، سفينة من سان ريمو؛ وفي لاغازيت عدة غنائم منسوبة للبرباريسك دون تحديد: 7 أو 8 سفن أخذت في مياه البندقية و3 صنادل من ناپولي أخذت قرب جزيرة إلب وسفينتان من ناپولي أيضا محملة بالمؤونة وسفينة بندقية. وتضيف لاغازيت أن 7 مراكب صيادي المرجان أخذها البرباريسك ثم توضح أن هذه المراكب ستعاد إلى أصحابها لأن حاكم طبرقة يدفع إتاوة للجزائر لحماية صيادي المرجان. معنى ذلك أن المقصود بالبرباريسك هنا هم الجزائريون.

إن الفرنسيين والانكليز في حالة سلم مع الجزائر. لكن في 1732 استرجع الاسبان وهران والمرسى الكبير وأرسلت الجزائر جيشا لحصارهم. وفي مدة الحصار كانت السفن الانكليزية والفرنسية المحملة بالجنود الاسبان لهذه القواعد تتعرض للحجز من طرف أسطول الجزائر وكانت هذه السفن تحمل السلاح والذخيرة والمؤونة للاسبان كذلك. وفي هذا الإطار قبض الجزائريون على 154 من الاسبان (ضباط، جنود ومعهم نساء وأطفال).

1733: عاد أسطول الجزائريين من وهران بغنائم كبيرة وعدد من السفن الأوروبية التي كانت تزود الاسبان المحاصرين. وبعد تحقيق قامت به القنصلية الفرنسية اعترفت بأن السفن التي حجزت قرب وهران كانت فعلا تمون الاسبان أثناء معركة وهران. كذلك فر عدد كبير من جنود وهران وهم من أصل فرنسي وكان عدد من الجنود من أصل فرنسي كذلك أسروا في معارك وهران والمرسى الكبير.

واستولى الجزائريون على سفينتين من سان ريمو (زيت وغير ذلك) وعلى سفينة من ساؤونة وعلى عدد من رجال الدين الذين كانوا مسافرين بقصد الحج إلى روما. ودخلت سفينتان الجزائر بكثير من الغنائم منها عدد من سكان كالابريه وسفينتان من زانته وطرطن فر ركابه وسفينة همبورغية.

1734: الغنائم قليلة. انتشار المجاعة بسبب الجفاف والاضطرابات التي عزلت مدينة الجزائر عن داخل البلاد؛ من الغنائم: سفينة من همبورغ وأخرى من سان ريمو. وكان القراصنة الفرنسيون قد استولوا على سفينة إنكليزية كانت نصف حمولتها ملكا لداي الجزائر.فمنع الداي 12 سفينة فرنسية من مغادرة الجزائر وأجل بحث القضايا المعلقة بين البلدين. ومن بين هذه المسائل التي لم تحل مسألة السفن المحجوزة بسبب نقلها للمؤونة والجنود للاسبان. ويذكر القنصل الفرنسي[1] من جملة هذه السفن المحجوزة سفينة من مارتيغ حملت الحطب إلى وهران وفي الطريق اعترضها قرصان من مستغانم أوقفها وسار بها إلى مستغانم. وطلب ربان السفينة الفرنسي من سلطات مستغانم أن تطرح القضية أمام الداي وفي النهاية نظرا لرفع الحصار عن وهران وافق الداي على إرجاع هذه السفينة وبحارتها.

1735: احتجاز سفينة هولندية وطاقمها وأرجع الطاقم لا السفينة لأنها بدأت بإطلاق النار على الجزائريين. بعض الغنائم من نواحي لشبونة تصفها لاغازيت بأنها غنائم ضخمة.

1736: عدة غنائم موصوفة أيضا بالضخامة في مياه صقلية، مركب صيد بحري قرب جنوة، مركب عليه 250 كيس قمح قرب ماديرا؛ غليوطة اسبانية كانت ذاهبة إلى أليكانت من وهران ومن بين ركابها فرنسيان سلما للقنصل.

---

1. ANP, 369 Mi 2, art. 1360, l. du 15 sept. 1734

1737: سفينة تجارية من الدانمرك (9 بحارة وأضلاع براميل)؛ سفينة من همبورغ (6 أشخاص، سمك مجفف) وقدرت قيمة الغنيمتين بنحو 20 ألف قرش اسباني؛ 29 شخصا أسروا في أماكن مختلفة؛ سفينة محملة بالنبيذ، مركب محمل بالقسطل؛ غليوطة وشبك؛ غنيمة دانمركية قدرت بنحو 8 آلاف قرش اسباني؛ استولى نور الله رايس على سفينتين في المحيط الأطلسي وباعهما في تطوان؛ استولت غليوطة من شرشال على 13 أسيرا و250 قرشا اسبانيا، استولى محمد بن موسى رايس على مركب اسباني باعه في تطوان بـ 1400 قرش.

1738: طرطن ومركبان (قمح)، قارب صيد من أملفي، سفينتان عظيمتا القيمة أسرهما الرايس يوسف؛ سفينة برتغالية عليها 38 رجلا و10 نساء و6400 قطعة ذهبية من قيمة 3 سلطاني للقطعة وبعض البضائع؛ سفينة وحمولتها بقيمة 18 ألف قرش؛ أسر 50 شخصا منهم رجل دين وامرأة وطفل في المياه الإيطالية.

1739: طرطن (حبوب)؛ سفينة معها 20 شخصا؛ عدد كبير من الأشخاص أسروا في الشواطئ الأندلسية؛ صندلان بصيادين في مياه توسكانة؛ غنائم طفيفة أحرزتها سفن صغرى من الموانى الجزائرية الثانوية؛ 7 أسرى؛ غنيمة بيعت في عنابة بـ 1200 قرش.

1740-1742: استعاد باي تونس السابق الذي كان مطرودا الحكم بفضل مساندة مالطة. وطلب باي تونس مساعدة الجزائر فشنت هجوما على تونس. وفي هذا الإطار طارد أسطول الجزائر كل السفن التي تأتي لتزويد تونس كما شن حرب القرصنة على السفن التونسية. وهذه القرصنة ضد سفن تونس لوحظت في كل حرب بين الجزائر وتونس مع أن الإيالتين هما إيالتان عثمانيتان!

قلت الغنائم في هذه السنوات. ويشرح القنصل الفرنسي أن السبب هو انتشار الوباء في الجزائر ولأن الحرب ضد تونس عبأت كل الأسطول كما أن السفن الجزائرية كانت معرضة لهجمات الأسطول المالطي والأسطول النابولي. رغم هذه الهجمات استطاع جيش الجزائر أن يطرد الباي الذي تحالف مع المالطيين وأن يعيد الباي المخلوع إلى منصبه وقد تعهد هذا الباي بأن يعوض الجزائر عن نفقات الحرب. وفعلا دفع 200 ألف قرش لداي الجزائر في 1742.

من الغنائم التي ورد ذكرها في نفس المصادر السابقة: سفينة برتغالية (28 شخصا وبضائع لها قيمة عالية؛ سفينة (پنك) برتغالية و26 شخصا منهم ربان السفينة وفرنسيان بلا جواز؛ سفينة جنوية (28 شخصا)؛ أسر 34 قطلاني و12 بحارا اسبانيا؛ سفينة بيعت في جبل طارق بـ 400 قرش؛ سفينة جنوية عليها 40 شخصا؛ سفينة اسبانية (71 شخصا).

1743 - 1747: معطيات جزئية أم واقع فقير

هناك فراغ كبير في لاغازيت عن هذه السنوات. وتلاحظ إللينا فريدمان[1] كذلك غياب المعطيات عن غنائم الجزائر في المصادر الاسبانية لنفس الفترة. أما القنصل الفرنسي في الجزائر فيبدو أنه مشغول بالصعوبات التي صادفها في هذه السنوات. لكن المعلومات[2] التي يقدمها عن الغنائم هي فيما يبدو انعكاس للواقع.

وهذا ملخص المعطيات المستقاة

1743: بريغنتين اسباني (54 شخصا) شبك برتغالي (18 شخصا) سفينة من مالقة (50 شخصا) بعض الأشخاص والماشية في الأراضي الساحلية التوسكانية والليغورية.

1. E. Friedman, *Spanish...*, p. 31.

2. ANP, AE, B1 125 f^os 155 sq ; B1 126 (janv. 1647)

1745: سفينة همبورغية (نحاس، بلور، ملف) قدرت بـ 40 ألف قرش؛ سفينة بيعت في ماهون بـ 2000 قرش؛ سفينة من الدانمرك (29 رجلا) وسفينة توسكانية بيعت في طنجة بـ 17 ألف قرش.

1746: سفينة من همبورغ (24 رجلا) وأخرى (180 تونو بيعت لتاجر مرسيلي) وثالثة همبورغية أيضا محملة بأقمشة وبضائع ثمينة قدرت بـ 80 ألف قرش؛ ورابعة (سمك، مجفف)؛ سفينة برتغالية (نبيذ)؛ 24 رجلا اسبانيا في سفينة و10 آخرون أسروا قرب إيبيزا.

1747: سفينة من ناپولي (ملف) بقيمة 24 ألف قرش؛ سفينة برتغالية؛ سفينة همبورغية (نبيذ وكحول) وأخرى من همبورغ كذلك بيعت ليوناني في عنابة بـ 4000 قرش؛ أسر 6 جنويين؛ سفينة جنوية متروكة فر ركابها؛ 3 سفن برتغالية؛ سفينتان من همبورغ (15 بحارة و145 برميل زيت في إحداهما وعنب كورنث في الأخرى)؛ سفينة اسبانية (قمح)؛ سفينة من الدانمرك (4000 قنطار سمك مجفف وألف قنطار حديد)؛ سفينة من ناپولي قدرت بألف قرش؛ سفينة من همبورغ أخذت في 1746 وبيعت لقنصل السويد بالجزائر بـ 24 ألف ريال دراهم صغار (5333 قرش).

1748 - 1754: دفعة جديدة

عرفت القرصنة دفعة جديدة بفضل الدور الذي قام به بعض الرياس المشهورين (حاج عثمان، «أسود اللحية»، حاج موسى، حاج مبارك، بالأخص).

تلخيص المعطيات

1748: 3 سفن برتغالية منها سفينة كبرى عائدة من البرازيل (سكر، قمح، فاصوليا، نقود فضية و150 رجلا) وسفينة (15 شخصا وشحنة من

الكحول) وسفينة قيمتها 26 ألف قرش؛ 7 اسبان؛ سفينة اسبانية أسر معها 170 شخصا (ضباط، جنود، اثنان من رجال الدين، 18 امرأة وطفلان)؛ سفينة جنوية؛ سفينة برتغالية (زبدة وجبن) بيعت بـ 4500 قرش؛ وعاد الرايس محمد برتفيز (البرتغالي الأصل) إلى الجزائر ببعض الأسرى و500 قرش وذكر أنه ترك سفنا جزائرية في طنجة مع 5 سفن غنموها (4 سفن برتغالية وسفينة من موسكو)؛ سفينة من لوبيك عليها 25 شخصا وحمولة من الكتان والزبدة والجبن؛ سفينة بروسية (سكر وتبغ)، مركب قطلاني (121 أسير منهم 5 نساء وبعض الأطفال)؛ عدة غنائم على السواحل الاسبانية والإيطالية؛ 3 سفن انكليزية حجزت لأنها كانت تزود الثوار في شرقي الجزائر بالذخيرة؛ سفينة نرويجية اعتبرت غنيمة مشروعة لأنها لم تكن تحمل جوازا صحيحا من الدانمرك.

1749: سنة استثنائية[1] بالقيمة الكبرى لبعض غنائمها في طليعتها تأتي البارجة الحديثة الصنع دانتزغ وهي ذات 56 مدفعا جهزت لأن تكون السفينة الأميرالية لأسطول الجزائر لمدة سنتين. إن هذه البارجة القوية هي من طراز البوراج الحربية الجديدة ولها حمولة تقدر بـ 12 ألف قنطار وكان عليها 36 شخص أسروا وكانت تحمل 70 ألف ضلع برميل و12 سارية كبرى من سواري البوارج و15 بالة من الأقمشة وغيرها من البضائع.

- سفينة برتغالية (34 مدفعا؛ 32 شخصا؛ أقمشة رفيعة؛ جوخ؛ الخ) قدرت قيمتها بحوالي 200 ألف قرش.

- سفينة بندقية لها 32 مدفعا وأسر معها 80 بحارا وحمولتها عالية القيمة.

- سفينة برتغالية عليها 112 برتغاليا.

1. انظر عن هذه الغنائم جريدة لاغازيت لسنتي 1749 و1750 والتقارير القنصلية في وثائق: ANP, 223 Mi 12 vol. 13, f° 196 ; 369 Mi 3, art. 1365

- سفينة إنكليزية اعتبرت غنيمة شرعية وصارت محل نزاع كبير مع إنكلترا. وكانت محملة بسبائك الذهب و209 من الماس وكثير من النقود الفضية التي يقدرها القنصل الفرنسي بحوالي 200 ألف قرش.

- 6 سفن أسبانية ونابولية وبرتغالية وجنوية قيمتها متباينة.

1750: حسب مراسلة صحفية من الجزائر لجريدة لاغازيت بتاريخ 25 فيفري 1750 أنه لا يمر أسبوع دون أن تأتي قراصنة الجزائر بغنائم جديدة. وما ذكرته مراسلات الجريدة حول الغنائم بلغ 22 غنيمة من بلاد مختلفة وأهمها سفينتان اسبانيتان قادمتان من لاهافان على إحداهما حمولة تبلغ قدرت بنحو 20 ألف قرش وسفينة برتغالية تحمل 2000 قنطار سكر وسفينة من لوبك بقائدها وطاقمها وكمية كبيرة من القلوع وغيرها من مواد بناء السفن.

1751: في «يوميات» القنصل الفرنسي لومير ذكرت 29 غنيمة وهذا العدد هو أكثر من ضعف العدد الذي ذكرته لاغازيت عن هذه السنة والذي يشمل 6 سفن من نابولي و2 من البندقية و4 سفن جنوية وسفينة مالطية ومركب من مراكب البريد.

1752: 34 سفينة أخذت منها 5 قدرت حمولتها بمبلغ 140 ألف قرش وسفينة مالطية بيعت في قريطش بمبلغ 4000 قرش؛ وبعضها سفن صيادين بحريين وسفينة بيعت في تطوان بألف قرش؛ والبعض الآخر سفن متوسطة إذا اعتبرنا عدد البحارة أو الركاب أحيانا: 25 في سفينة؛ عدة مسافرين منهم 6 نساء في أخرى؛ وفي 3 سفن اسبانية كان الأسرى فيها 10 في الأولى و9 في الثانية و8 في الثالثة).

إن عدد السفن كبير نسبيا لكن قيمتها في مجموعها صغيرة. وقد بعث القنصل الفرنسي تحذيرا للسفن الفرنسية بأن فرقاطة جزائرية أعلنت عصيانها ورفعت العلم الأسود، علم اللصوصية البحرية.

1753: 179 شخصا أسروا في 15 سفينة وفي سفن صيد لم يفصل عددها. وأهم السفن المأسورة سفينة قطلانية (كاكاو، قرمز، نيلة) قدرت بـ 16 ألف قرش؛ شبك اسباني عالي القيمة؛ سفينة قطلانية ذات 16 مدفعا وجهزت لتكون سفينة قرصنة بالجزائر؛ ويذكر كريكن[1] عن سنة 1753 التي يعتبرها سنة متوسطة أسر 12 سفينة اسبانية عليها 209 أشخاص.

1754: بدأ هبوط الغنائم في هذه السنة. 7 سفن أخذت (من اسبانيا، نابولي، مالطة) وبعض السفن الصغيرة الأخرى. والجميع يبدو عليها أنها ضعيفة القيمة.

1755 - 1764: عقد في هبوط

بعد مقتل الداي محمد بن باكير، أعلن القادة الجدد تحت ضغط الفئات المستفيدة من القرصنة، الحرب على هولندة وتوسكانا. وشدد النزاع مع الانكليز الذين قرروا مساندة الهولنديين وإغلاق موانئ ماهون وجبل طارق أمام القراصنة الجزائريين. وعبأ الهولنديون والاسبان والبرتغاليون والنابوليون وقرصان مالطة جهودا متضافرة ضد الجزائريين. وأصبحت القوافل التجارية البحرية في أكثرها محروسة بانتظام من طرف أساطيل حربية قوية. ولهذه الأسباب كثرت الخسائر بين السفن الجزائرية التي عددتها لاغازيت ربما ببعض المبالغة وإن كانت كثير من الخسائر التي تذكرها قد أكدتها مراسلات القنصلية الفرنسية في الجزائر.

1755: غنائم هذه السنة وردت بالأخص في التقارير القنصلية. وعددها 12 سفينة صغيرة ومتوسطة (اسبانية، برتغالية، إيطالية وهولندية) والسفن الهولندية الثلاث عليها 29 شخصا وكذلك سفينة عائدة من البرازيل كانت

1. G. Van Kricken, *op. cit.*, p. 110

أهم هذه الغنائم (ببضائع غالية نسبيا مثل براميل القرنفل والسكر والكحول المسمى ماء الحياة، الخ).

لكن إنجاز هذه السنة الكبير هو استيلاء الأسرى الجزائريين بالتعاون مع المجدفين المسيحيين على قادسين من قوادس ناپولي. وهو الإنجاز الذي وصفناه فيما سبق.

1756: قليل من الغنائم ذكرت في تقارير القنصل الفرنسي الذي عزله انتشار الوباء عن الاتصال بمخبريه ثم سافر إلى فرنسا لبحث قضايا النزاع المتفاقمة بين البلدين.

والغنائم التي أشير إليها تخص الاسبان ولم تكن ذات قيمة أما حادث هذه السنة الكبير فهو الاستيلاء على مدينة تونس ونهبها والعودة منها بـ 944 أسير مسيحي وكنوز قدرها الفرنسيون بعدة ملايين من القروش[1].

1757: 5 غنائم وبضع عشرات من الأسرى ورد ذكرها في هذه المراسلات. ومن جملتها سفينة من ناپولي راجعة من لندن بحمولة قدرت بأكثر من 100 ألف قرش.

1758: غنائم وصلت للجزائر: سفينة اسبانية (صوف)؛ مركب قطلاني من 14 مدفعا؛ سفينة من ناپولي؛ سفينة اسبانية صغيرة؛ طرطن عائد من الكاناري بـ 14 شخصا وبعض السلع.

1759: سفينة بندقية تحمل بضائع ذات قيمة (7 براميل تبغ؛ 14 برميل خزف صيني؛ 20 برميل من المعدن المذهب؛ 8 براميل نيلة؛ 140 كيس زنجبيل؛ 155 برميل قضبان من القصدير و3400 قنطار من خشب البقم)؛ سفينة من راغوز (بين 600 و700 تونو) اعتبرت غنيمة شرعية لأنها آوت بحارة سفينة

---

1. ANP, AE, B III 303, 11 sept. 1756

جنوية كان الجزائريون يطاردونها؛ 12 سفينة اسبانية مختلفة و3 سفن من ناپولي و2 من جنوة بقيمة ضعيفة).

1760-1764: ملخص معطيات لاغازيت عن هذه السنوات والمراسلات القنصلية الفرنسية:

1760: سفينة برتغالية من 140 تونو؛ 5 سفن اسبانية؛ 2 من نابولي وسفينة جنوية.

1761: سفينة برتغالية مسافرة إلى البرازيل؛ عدة سفن قليلة القيمة (اسبانية؛ جنوية، مالطية؛ ونابولية). لكن سفينة اسبانية قدرت قيمتها بـ 100 ألف قرش وأخرى متوسطة عليها 21 شخصا وتبغ من ڤرجينيا. والمجموع 23 سفينة و59 أسيرا وأسرى آخرون لم يقدر عددهم.

1762: تقول لاغازيت أن 22 سفينة جزائرية و11 سفينة من تونس تعمل في مياه جنوة. وقد أسروا سفينتين اسبانيتين وعدة سفن صغرى معها 130 شخصا؛ وصلت إلى الجزائر سفينة بندقية بيعت حمولتها بـ 60 ألف قرش؛ كذلك أخذت سفينة تابعة للنمسا وأخرى من ناپولي وأخذت أربع سفن في مياه بروفانسة. ويقسم رياس الجزائر أنهم كانوا على بعد 40 ميلا من الشواطئ الفرنسية.

وعلى إثر أخبار عن سوء المعاملة التي يلقاها الأسرى الجزائريون في اسبانيا، قررت الجزائر وضع كل الأسرى الاسبان في القيود واستخدامهم في جر العجلات وهو عمل شاق جدا كما خفضت كمية الخبز المقررة لهم وأغلقت كنيستهم. كذلك لم يعد يسمح لهم بمكاتبة أهلهم ولا بتلقي الرسائل منهم.

1763: 3 سفن (طرطن) ومركبان من الغنائم التي وصلت بجاية كما وصلت إلى مدينة الجزائر 5 غنائم (مركبان قطلانيان ومركبان جنويان وسفينة مالطية). وقد اعترض الفرنسيون على شرعية هذه الغنائم وادعوا

أنها أخذت داخل المياه الفرنسية. وعوقب الرايس محمد غليونجي لأنه استولى على سفينة داخل المياه الفرنسية. أما السفن الأخرى فقد اعتبرت غنيمة شرعية لأنها أخذت على مسافة مطابقة للعهود بين البلدين.

وصول غنائم أخرى منها 4 سفن قطلانية وسفينة بسكوية.

1764: 15 غنيمة أكثرها اسبانية وجنوية ونابولية. وأهمها سفينة نمسوية فيها بين 10 و12 ألف قرش من البضائع ومركب اسباني يحمل نقودا بقيمة 7 آلاف قرش وسفينة جنوية قدرت قيمتها بنحو 6 آلاف قرش وسفينة برتغالية عليها 37 شخصا.

أرباح وخسائر القرصنة

في كل سنة تقريبا كانت الجزائر تخسر سفينة أو اثنتين أو أكثر أحيانا. وكما هو الحال في الغنائم فالمهم ليس العدد بل أهمية السفينة وعدد الأشخاص عليها.

يذكر لوجيي دي تاسي[1] مثلا: «بالإضافة إلى نحو 20 سفينة متباينة الأهمية... كان الخواص يجهزون في الصيف عدة سفن لها قلوع مثلثة الشكل وعلى الأقل 12 سفينة تجديف صغرى، لا يرجع منها نصف العدد المذكور عادة». وقد يكون المؤلف بالغ في خسائر هذه الفلايك والصنادل والقوارب ومعظمها مقره في المواني الأخرى غير ميناء الجزائر. أما عن السفن الكبيرة التي مرساها الجزائر وتمارس القرصنة في أعالي البحار والمسافات البعيدة فقد عددنا نحو الستين سفينة أغرقت أو أخذت بين 1707 و1756 وكان عدد القتلى أو الأسرى في هذه السفن يتجاوز 10 آلاف دون ذكر الخسائر غير المعينة في هذه الوثائق.

---

1. Laugier de Tassy, *op. cit.*, p. 156.

إن تزايد الخسائر وتناقص الغنائم قد يكون من أسباب ابتعاد الخواص عن المشاركة في القرصنة بأموالهم. ومن الممكن أن القرصنة بحد ذاتها لم تعد مربحة في هذه الفترة. لكن الاستمرار في ممارستها يستخدم للضغط على بعض الدول الأوروبية للحصول على تعويضات مالية مقابل ضمان السلم والطمأنينة لسفنهم التجارية. وكما رأينا في الفصل السابق كانت هذه المبالغ المالية التي تقدمها الدول الأوروبية تذهب أيضا إلى جيوب المسئولين الخاصة. ولهذا كانت لهم فائدة في الاستمرار في القرصنة لصالحهم ولصالح الخزينة العامة التي كان الجزء الأكبر من «الإتاوات» والرسوم، الخ.، يذهب إليها.

الفصل العشرون

سجل الغنائم البحرية (س غ ب)

إن أهمية سجل الغنائم البحرية الذي ترجمه دوڤو[1] إلى الفرنسية ليست في حاجة إلى إثبات. فهو وثيقة رسمية سجلت فيها نتائج بيع الغنائم بالمزاد العلني بانتظام من 1765 إلى 1815. وبعد 1815 يشمل السجل بعض الغنائم لكن فيه ثغرات كبيرة حاول دوڤو أن يسدها باستعمال وثائق رسمية متعددة.

إن هذا العمل الهام الذي حققه دوڤو يسمح بالاطلاع على وثيقة رسمية ثمينة بالنسبة لموضوع البحث الذي يخصنا هنا. وهو منذ أكثر من قرن المصدر الأساسي لكل دراسة حول القرصنة الجزائرية بين 1765 و1830.

لقد قدم هذا الباحث خدمات معتبرة للدارسين للعهد العثماني بالجزائر. وقام بهذا العمل متأثرا بالأحكام المسبقة السائدة في عصره وبالحدود التي كانت تطبع تكوينه العلمي. لقد كان دوڤو، كما قيل عن أحد زملائه الذين سبقوه في العمل العلمي عن الجزائر العثمانية، يتمتع بكثير من الحماس والجهد في العمل أكثر مما يملك من المنهجية.

والأمر الأكثر خطورة هو ضياع الأصل العثماني وترجمته العربية فقد أخذهما دوڤو معه للقيام بالترجمة إلى الفرنسية ولم يعثر لهما على أثر حتى الآن، فسجل الغنائم البحرية هو وثيقة مكتوبة باللغة التركية-العثمانية، وهي

1. A. Devoulx, Le Registre des prises maritimes, *RA*, 1871 et 1872.

لغة كان يجهلها دوفو. ولهذا طلب من موظفين جزائريين متمكنين من هذه اللغة أن يترجموها له إلى العربية واعتمد على الترجمة العربية في عمله القيم. وهذه هي نفس الطريقة التي اتبعها في ترجمة دفتر تشريفات من التركية عبر الترجمة العربية إلى الفرنسية.

وقد لاحظ العالم المتخصص في اللغة التركية جون دوني[1] بعض الأخطاء في ترجمة دوفو لدفتر التشريفات فقد كان لدوفو اطلاع واسع على وثائق الرصيد العثماني العربية بالجزائر لكن جهله باللغة التركية وعدم التزامه بالمنهجية التاريخية السائدة في عهده، جعله يقع في بعض الأخطاء المباشرة أو الناتجة عن الترجمة العربية للأصل العثماني-التركي للسجل.

أخطاء دوفو

بعضها يبدو مجرد زلات قلم من طرفه. مثلا حين يعطي مقابلا للفرنك الفرنسي 2،21 ردص. بينما في هذه الفترة كان ردص يساوي 1،125 فرنك من فرنكات ذلك العهد حسب دوفو، وهي قيمة مستقرة استعملها دوفو عن كل الفترة من 1765 إلى 1815. وهذه المعادلة بين العملتين كما استعملها دوفو مقبولة نسبيا إذ أن معدل الصرف كان له نوع من الاستقرار مع بعض التفاوت بنسبة 1 إلى 3 % وكان المعدل الرسمي للريال دراهم صغار (1 ردص=1,115 فرنك) يرتفع أحيانا بعض الشيء في مراسلات القناصل إلى مستوى قريب من 1،125 الذي عمل دوفو على أساسه. ومن قبيل زلة القلم التي تؤدي إلى تشويه في الحسابات الإجمالية أن دوفو كان أحيانا يكرر مرة أخرى في حسابات سنة رقما معينا ورد في حسابات السنة الماضية. فهو مثلا يكرر ناتج الحساب الإجمالي لسنة 1789 في سنة 1791.

1. Jean Deny, Defter-i- Techrifat (Notice) *in Sources inédites de l'histoire du Maroc*, 3e série, t. III, p. 499 sq

نوع آخر من الأخطاء أن دوڤو اعتبر أن قيمة الريال في الجزائر في سنوات 1675-1674 هو نفس قيمته في القرن الثامن عشر. وهو خطأ فادح لأن ريال 1675-1674 قيمته نفس قيمة القرش الاسباني الذي يساوي 5 فرنكات ثم تزداد قيمته في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر إلى 5،20 فرنك و5،30 فرنك وأكثر.

ومن الأخطاء عند دوڤو ما يعود إلى عدم التأني. إن دوڤو وضع رقما متسلسلا لكل غنيمة مسجلة. وفي إحدى المرات على الأقل، اعتبر ملاحظة تكميلية تكرر جزءا من المعطيات الواردة في تسجيل إحدى الغنائم، كأنها غنيمة جديدة أعطاها رقما مختلفا. وهذه الحالة تتعلق بسفينة برتغالية استولى عليها الرايس محمد بن طاباق وسجلت في 30 أوت 1799 وأعطاها دوڤو رقم 331. ثم تحت رقم 332 نجد نفس الغنيمة التي جلبها نفس الرايس وسجلت في نفس اليوم. ذلك أن تعديلا طفيفا أدخل بواسطة ملاحظة تصحيحية كان يتعلق بالناتج الصافي للغنيمة. وهو 46663 فرنك في رقم 331 و46269 فرنك تحت رقم 332. وفي موجزه لسنة 1799، يذكر دوڤو أسر سفينتين برتغاليتين حربيتين، والناتج الإجمالي ناجم عن هذا الخطأ.

ملاحظة أخرى تتعلق بالمنهج الذي اتبعه دوڤو، فبدل الترجمة الكاملة لنص التسجيلات فضل أن يقوم هو بجمع المعطيات وتقديم حساب إجمالي عنها بالفرنكات. ولما كان معدل الصرف بين الردص والفرنك قد تغير بعد 1818 وأنه تطور من 0,90 فرنك إلى 0,65 فرنك فقد وضع متوسطا لهذا التطور هو 0,75 فرنك عممه لمجموع هذه السنوات. لكن قيمة 1ردص بقيت تعادل في الواقع 0,90 فرنك إلى غاية 1820 ثم هبطت بالتدريج مع بعض التقلبات الطفيفة إلى أن صارت 0,60 فرنك ابتداء من 1824. أي أن 15 إلى 20 % من الزيادة أو النقص في معدل العملة الجزائرية كان يتخلل حسابات دوڤو عن

هذه السنوات الأخيرة التي كانت فيها الغنائم ضئيلة بل شبه منعدمة. ولهذا فإن النسبة من التفاوت لا تضر كثيرا بحساباته الإجمالية.

والأهم من كل ذلك هو اكتفاء دوڤو بتقديم حسابات إجمالية وهو يفسر موقفه بهذا الشكل: « لكي لا نطيل العمل بلا فائدة، لن أعطي ترجمة كاملة مفصلة للمعطيات إلا عن بضعة تسجيلات للغنائم، أقدمها كمجرد أمثلة تغني عن ذكر تفاصيل جميع المعطيات، وأكتفي في الباقي بذكر الحساب الإجمالي لناتج الغنيمة»[1]. لكن المعطيات التي ذكرها بالتفصيل تبين أية درجة من الأهمية تكتسيها هذه التفاصيل لمعرفة أسعار بيع منتجات الغنائم، ومختلف الرسوم والمكافآت المقدمة للمستخدمين وأجور الحمالين وغيرها من النفقات وكذلك لمعرفة حجم وطبيعة ونوعية كل بضاعة، الخ. إنه قسم كبير من التاريخ الاقتصادي الاجتماعي للقرصنة قد فوته علينا.

إن عدم تفصيل المعطيات أدى ببعض الباحثين المتعجلين إلى أن يقوموا بحسابات متعددة انطلاقا من دراسة دوڤو وأن يفترضوا نوعا من التحقيب لوفرة الغنائم ونقصها دون أن يتفطنوا لما في دراسة دوڤو من ثغرات وتكرار أحيانا.

ثغرات وتضارب

ونأخذ سنة البداية 1765. سجلت فيها 4 غنائم من أكتوبر إلى ديسمبر. وأعطى دوڤو[2] الناتج الإجمالي لهذه الغنائم الأربع باعتباره ناتجا سنويا كاملا. لكن مراسلات القنصل الفرنسي[3] في الجزائر تذكر 14 غنيمة وصلت الجزائر قبل شهر أكتوبر وهي:

1. نفس المصدر ص 152 *RA*, 1871
2. نفس المصدر ص 153
3. 212-211 ANP, 369 Mi 4, art. 1369. Corresp. Vallière., AE, B1 132 f^os 37 sq et f^os التي يعطي فيها القنصل الفرنسي حالة الغنائم في الجزائر في 1765.

في رسالة 25 جانفي: سفينتان من قطلانيا (قمح وخمر) وسفينة كان طاقمها جنويا له جواز فرنسي.

في رسالة 31 ماي: 3 سفن واحدة من ناپولي وأخرى من ليڤورن والثالثة برتغالية.

أول جوان: 3 سفن اسبانية (خمر، ماء الحياة، زيت، صابون).

22 جوان: بالإضافة إلى الغنائم الثلاث في أول الشهر، 5 سفن أتي بها للجزائر (زيت، رز، خمر، 14 شخصا) وبالمقارنة مع دوڤو الذي يعطي تسجيل 4 غنائم قيمتها 19805،87 فرنك عن سنة 1765، فإن القنصل ڤاليير يقدم حسابا إجماليا لسنة 1765 هو 37 غنيمة من أهمها سفينتان برتغاليتان وسفينة اسبانية محملة بالسكر والكاكاو وسفينة قطلانية (قماش وخردوات وأواني نحاسية وحديدية) بيعت بـ 50 ألف قرش حسب ڤاليير، أي أن هذه الغنيمة تعادل أكثر من أربع مرات القيمة الإجمالية السنوية التي قدمها دوڤو.

وهناك ثغرات تلاحظ بالمقارنة بين السجل وغيره من الوثائق:

في السجل عن 1793 جلب 15 سفينة منها 4 أمريكية، 3 هولندية، 2 جنوية، 6 غير معروفة الجنسية. أما القنصلية الفرنسية[1] فهي تذكر 5 سفن هولندية وحوالي 15 سفينة أمريكية و3 سفن جنوية إحداها قارب صغير.

إن كلمة «حوالي» تعني أن القنصل الفرنسي لم يكن متأكدا من العدد الصحيح للسفن الأمريكية المأسورة. غير أن المصادر الأمريكية[2] تعطي تفاصيل كثيرة عن السفن وأسماء ربابنتها وعدد الأشخاص في كل سفينة، الخ. وعدد السفن الأمريكية التي استولى عليها الجزائريون في 1793 هي 11 سفينة.

---

1. رسائل 17 مارس و3 نوفمبر 1793 في ANP, 369 Mi 4, art. 1372,
2. انظر التفاصيل في بارنباي وكاثكارت وشالر، الخ.

وكما يلاحظ بنزاك يبدو أن سجل الغنائم البحرية فيه ثغرات عن سنة 1803. وسنعود إلى هذه الثغرات فيما بعد.

ويلاحظ كذلك أن سجل الغنائم في 1799 لا يذكر الاستيلاء على سفينة فرنسية (في هذه السنة كانت الجزائر رسميا في حرب ضد فرنسا بسبب الحملة الفرنسية على مصر. وهي حملة نتج عنها إعلان حالة الحرب بين الدولة العثمانية وفرنسا). وليس فيه أية إشارة إلى غنائم قدرت قيمتها بمبلغ 3 ملايين قروش، وهي تعود إلى الإمبراطورية النمسوية التي كانت في حالة سلم مع الدولة العثمانية التي اعتبرت هذه الغنائم غير شرعية وطالبت بردها إلى النمسا وذلك باعتبار الظروف الدولية وموقف العثمانيين منها[1].

لتقدير القيمة الوثائقية لسجل الغنائم البحرية، يجب التمييز بين ما هو من قبيل الثغرات وما هو مرتبط باختلاف الملابسات التي تمت فيها تقديرات الغنائم بمبالغ معينة.

حول النقطة الأولى يمكن أن نلاحظ أنه فيما يخص التسجيلات من أكتوبر 1765 إلى 3 سبتمبر 1815، تعتبر الثغرات نادرة جدا. وهي قد تعود إلى طريقة دوفو في تجميع المعطيات بشكل لا يسمح بالحصول على كل المعطيات التي تضمنها السجل فمثلا حين نقارن عدد الغنائم في السجل عن 1793 وما ورد في مراسلات القنصل الفرنسي عن هذه السنة والتصحيح الموثوق الذي تقدمه المصادر الأمريكية فيما يخص سفنها نجد أن الفارق ضعيف أو يمكن تفسيره جزئيا. فالفارق حول السفن الأمريكية هو سفينة واحدة قد تكون أدرجت بين السفن غير المعلومة الجنسية وسفينتان هولنديتان وسفينة جنوية صغيرة. أما عدم تسجيل السفينة الفرنسية في سجل 1799 فهو مرتبط

---

1. حول هذا الموضوع الذي أدى إلى نزاع بين الجزائر واستنبول، انظر A. Berbrugger , «La Régence d'Alger sous le Consulat et l'Empire», *RA*, 1871, p. 241 sq

بظروف الاستيلاء عليها. إذ قد أخذت في المياه العثمانية الشرقية وفي ظروف يستنكرها العثمانيون. أما موضوع السفن النمسوية فبعضها سجلت على أنها بندقية وبعضها يدخل في إطار ما سنبحثه في الفقرات التالية.

السعر والقيمة في ظروف مختلفة

حول سعر الغنائم في الجزائر يبدي دوڤو[1] هذه الملاحظة: «إن أغلب البضائع تباع بثمن بخس لأن المدينة ليس لها أسواق ولا موارد كثيرة». إنه في الواقع ينقل بصورة تكاد تكون حرفية ملاحظة للقنصل الفرنسي جاءت في ظروف كانت فيها حالة الجزائر غير مرضية للقنصل فيما يخص ما يأخذه شخصيا من رسوم على المعاملات التجارية للفرنسيين في مدينة الجزائر وكان إذن يطالب بالزيادة في مخصصاته لتعويض النقص في مداخيله.

ما هي الجوانب الحقيقية في ملاحظة دوڤو؟ يصعب الجواب على ذلك انطلاقا من سجل الغنائم فقط نظرا لأن دوڤو لم يقدم تفاصيل المعطيات الواردة في السجل واكتفى ببعض الأمثلة عنها. لكن الأمثلة التي ترجمها ومقارنات أخرى تسمح بالتقدم في الموضوع.

ينبغي التذكير هنا بأن ناتج الغنائم كان مبدئيا يباع بالمزاد العام كما تتطلبه تقاليد شرعية إسلامية تعود إلى قرون عديدة وذلك بقصد حماية الممتلكات العامة من التلاعب والتجاوز الذي هو من عادة المسئولين الكبار كما أوضحنا ذلك في الجزء الأول.

ولنقدم بعض الأمثلة التي تبين أن ملاحظة دوڤو في حاجة إلى نوع من التلطيف الذي يحد من عموميتها وإطلاقها:

- أولها مستقى من سجل الغنائم ويتعلق ببيع منتجات حمولة سفينة أسرت في 1813، من جملتها «كمية من القمح مقدارها 4117 صاع بيعت بـ 3 دورو

---

1. انظر *RA*, 1871, p. 152.

للميزورة»[1]. وفي هذه الفترة كان صاع القمح في مدينة الجزائر يساوي من 6 إلى 8 ردص وكان دورو الجزائر يصرف بـ 5 ردص. فالميزورة التي يذكرها دوڤو قد تكون ميزورة القالة وهي تستعمل في كيل القمح الموجه للتصدير. وكيلها هو بين 155 و160 لترا أي ما يعادل 2،60 صاعا من صاعات الجزائر. أي أن صاع القمح من هذه الغنيمة بيع بمبلغ 5،88 ردص للصاع. كذلك من بين بضائع إحدى الغنائم في 1815 توجد كمية من القمح بيعت بمبلغ 22،50 ردص للصاع وهو سعر يندرج تماما في أسعار هذه السنة التي كانت سنة قحط وأزمة غذائية[2].

– يقدم پنزاك[3] مثالا آخر يوضح المقارنة بين مختلف الأسعار. وهو سعر بيع بضائع نمسوية في مدينة الجزائر في 1799، وقيمة هذه البضائع كما قدرها أرباب السفن المستولى عليها وأخيرا القيمة التي قررتها رسميا الإدارة النمسوية بعد القيام بتحقيق مفصل:

– مجمل بيع هذه البضائع في الجزائر 1162088 فرنك

– القيمة التي قدرها أرباب السفن 2736947 فرنك

– القيمة التي وصلت إليها الإدارة النمسوية 2033551 فرنك.

إن النسبة بين السعر الذي بيعت به البضائع في الجزائر والقيمة التي قدرتها الإدارة النمسوية لهذه البضائع هي أن هذه البضائع بيعت في الجزائر بثمن يعادل 57 % من القيمة التي أعطتها لها الإدارة النمسوية باعتبار الأسعار الجارية في النمسا.

---

1. انظر *RA*, 1872, p. 236
2. انظر الجزء الأول الذي بحثنا فيه الأسعار، ص 120 - 121.
3. D. Panzac, « L'Adriatique incertaine, capitaines autrichiens, corsaires barbaresques et sultan ottoman vers 1800 », *Turcica*, n° 29, 1997, p. 81.

وليس من الممكن طبعا تعميم هذه الحالة على الحالات الأخرى. لكن المعروف أن الأسعار في الجزائر في بداية القرن الثامن عشر كانت أرخص بكثير من الأسعار في أروبا. لكن تدفق القروش الاسبانية على الجزائر منذ سنوات 1790 جعل أسعار المواد الاستهلاكية العادية فيها تقترب من أسعار أروبا تدريجيا[1].

من جهة أخرى كانت أسعار منتجات الغنائم تندرج في ظروف تختلف عن ظروف بقية الأسعار. صحيح أنها مثل كل الأسعار تتعرض لتقلبات العرض والطلب لكن بطرق خاصة تشبه ما يجري في قطاعات المضاربة. ولنأخذ مثالا واحدا، يذكر أحمد الشريف الزهار[2] أنه في 1793، جلب رياس الجزائر كمية من السكر من الوفرة بحيث أن قيمة رطل السكر هبطت إلى 7 دراهم. والمهم في الموضوع ليس صحة الرقم وإنما ما يعنيه من أن السكر أصبح يباع بأبخس الأثمان. ومثل هذا الانهيار في أسعار بعض البضائع التي لا تجد لها مشتريا عند التجار الجزائريين والأجانب وبالتالي تغرق السوق أمر وارد في مجال الغنائم.

فوارق لها دلالة

إن المقارنة بين بعض معطيات سجل الغنائم والمعلومات الواردة في مصادر أخرى تظهر أحيانا فوارق كبيرة جدا. والمشكلة التي تنطرح حولها تتعلق بنسبية الشهادات. وعند ملاحظة مثل هذه الفوارق من الضروري وضعها في ملابساتها الخاصة بكل الدقة والإيضاح الممكنين.

جوهريا نحن أمام عالمين هما على اتصال دائم ولكن يعيشان في بنى اجتماعية وذهنية مختلفة. ومع مراعاة هذا التباين في الظروف، ينبغي

1. انظر الجزء الأول من دراستنا، ص 159 - 160
2. مذكرات أحمد الشريف الزهار... ص 66

التحقق من نوعية الوثائق وقيمتها. وفيما يخص الحالات المدروسة هنا، لا ننس أن سجل الغنائم البحرية هو التسجيل الرسمي لناتج بيع الغنائم بالمزاد العلني. فاختلاف المصالح بين من لهم أسهم في هذه الغنائم وكون البيع بالمزاد العلني، هي ضمانات قوية لصحة الأرقام المقيدة في السجل والتي ترجمها دوڤو كما هي، عدا الثغرات التي ذكرناها.

أما الأرقام التي يقدمها القناصل وغيرهم من الأجانب المقيمين بالجزائر فهي من أنواع مختلفة، مثلا الحسابات الرسمية التي تسجلها القنصليات الأجنبية عن نفقاتها في الجزائر والهدايا التي تقدمها لكبار المسئولين وعمليات البيع والشراء وغيرها من المعاملات التي تقوم بها هي كلها من طبيعة موثوقة لا جدال فيها.

أما تقديراتهم عن قيمة الغنائم فليس لها نفس الطابع. فهي ليست دائما ناتجة عن اتصال مباشر. ويبدو أن بعض الفروق بين تقديراتهم لقيمة الغنيمة وسعر بيعها الفعلي في الجزائر ترجع إلى الفروق بين قيمة الغنيمة في بلادهم وقيمتها في الجزائر. من جهة أخرى قد تعبر هذه الفوارق جزئيا وفي بعض الأحيان عن التباين الموجود في الجزائر نفسها بين ما يباع جملة وبالمزاد العلني وبين الأسعار الجارية في أسواق المدينة للبيع بالتفصيل.

غير أن كل هذه الاعتبارات لا تكفي لتفسير ضخامة الفروق التي نلاحظها[1]:

- في سجل الغنائم عن 1767، وردت قيمة واحدة لإحدى الغنائم تصل إلى 78277 فرنك. كما يعطي السجل القيمة الإجمالية لثلاث غنائم برتغالية مبلغها: 141.064 فرنك.

---

1. يعطي دوڤو القيمة الإجمالية بالفرنكات والسنتيمات. وقد حذفنا السنتيمات وأعطينا لها قيمة فرنك إذا كانت تزيد عن نصف فرنك.

وحول غنيمة برتغالية في 1767 يقدم القنصل الفرنسي[1] المعطيات الآتية:

إن سفينة برتغالية محملة بالبضائع من غينيا إلى ليشبونة أسرت وجيء بها إلى الجزائر وتقدر هذه الغنيمة بأكثر من100 ألف إيكي دون تعداد الـ 38 أسيرا الذين تقدر فديتهم بنحو 30 إلى 40 ألف إيكي.

- في رسالة أخرى بتاريخ 9 أكتوبر 1768 يشير القنصل إلى أخذ سفينة ذاهبة من برشلونة إلى جنوة لمجندين اسبان جملتهم 139 مجندا. ويقول القنصل أن فديتهم قد تبلغ 100 ألف فرنك.

وفي سجل الغنائم البحرية كانت أعلى قيمة لغنيمة في 1768 هي 63542 فرنك، قيمة 140 أسيرا مسيحيا، أي بمبلغ 454 فرنك لكل أسير.

إن 454 فرنك هو ثمن قريب من السعر المتوسط (444 فرنك) لبيع أسرى الغنائم في البادستان وهو متوسط أسعار بيع الأسرى في سجل الغنائم بين 1766 و1792. ثم يصعد هذا السعر المتوسط ليبلغ 700 فرنك عن الفترة من 1793 إلى 1815. أما ثمن الفدية كما هو مقدر من طرف القنصل (720 إيكي) فهو أيضا قريب من متوسط فدية الأسرى (700 قرش) عن هذه الفترة. إن النسبة بين ثمن بيع الأسرى العبيد للمسلمين وثمن فديتهم (نسبة 1 إلى 7) هي نسبة عالية جدا تبرز الأرباح الممكنة في مثل هذه المضاربات المالية.

يبدو لنا أن تقديرات القنصل الفرنسي لقيمة الغنائم غالبا ما تكون فيها مبالغة كبيرة. مثلا في 1769 يقدر قيمة غنيمة دانمركية[2] (وهي سفينة صغيرة) بمليون فرنك بينما كل غنائم 1769 كان مجملها 291008 فرنك.

---

1. رسالة 24 نوفمبر في ANP, 369 Mi 4, art. 1767.
2. المصدر المتقدم، رسالة بتاريخ 15 سبتمبر 1769.

ومن الواضح أن بعض الفروق بين تقديرات القنصل[1] وسعر بيع الغنائم بالمزاد العلني تعود إلى العوامل التي ألمحنا إليها فيما تقدم. وهذه بعض الأمثلة:

- 24 نوفمبر 1767: غنيمة بيعت في جبل طارق قيمتها 20 ألف قرش. وسعر هذه الغنيمة المسجل في س غ ب تحت رقم 39 عن سنة 1767 هو غنيمة بيعت في جبل طارق بمبلغ 18239 فرنك.

- 15 جويلية 1768: قيمة غنيمة قطلانية (خمر و15 شخصا) قدرت بـ 20 ألف قرش. أما س غ ب فقيد تحت رقم 43 (3 ماي 1768) بيع الخمر و15 مسيحيا بـ 11939 فرنك.

- 28 ماي 1775: رجوع أربعة قراصنة بأسرى وغنيمة اسبانية قدرت بقيمة 200 ألف ليرة ترنوا. إن الغنيمة الوحيدة التي لها قيمة كبيرة بين غنائم هذه السنة في س غ ب هي حمولة سكر وحطب البقم وجلود لم تعط قيمتها الإجمالية لكن قيمة السكر فيها 43268 فرنك.

- يوميات السداسي الأول من 1779: غنيمة (قماش) بيعت بمبلغ 51 ألف قرش وأخرى (سفينة وحمولتها من القمح) قدرت بقيمة 100 ألف ليرة ترنوا. في س غ ب كانت الغنائم المهمة مسجلة في السداسي الثاني لسنة 1778. ونظرا للفارق الزمني فمن الممكن أن غنائم أواخر 1778 هي التي أدرجت في أخبار بداية 1779 في يوميات القنصلية. وكانت مبالغ أهم الغنائم في أواخر 1778 هي 42201 فرنك و93449 فرنك. مع ذلك يبقى التباين كبيرا.

- وتلاحظ تقديرات من نفس النوع في مراسلات القنصلية الأمريكية.

---

1. انظر ANP, B1 133 à B1 139 . والتاريخ المذكور هو إما تاريخ الرسالة أو التاريخ الوارد في «يوميات» القنصلية الفرنسية بالجزائر وهي عبارة عن تسجيل لمختلف الأخبار لإرسالها إلى جريدة لاكازيت التي أصبحت ملحقة بوزارة الشئون الخارجية وكلفت القنصليات بمدها بالأخبار عن البلد المعني بانتظام ووفرة.

مثلا قدر القنصل أوبراين[1] غنائم أفريل-ماي-جوان 1802 بقيمة 1.419.000 دولار أي حوالي 7.600.000 فرنك حسب معدل الصرف في الجزائر. أما في س غ ب فإن القيمة الإجمالية لمجموع غنائم 1802 هي 575.153 فرنك. ويجب هنا ذكر عنصرين هامين. ففي غنائم هذه السنة توجد الفرقاطة البرتغالية ذات 44 مدفعا. ومن المعروف أن السفينة الحربية وسلاحها لا يدخلان في عمليات بيع الغنائم. ومثل هذه الفرقاطة بمدافعها قد تكون قيمتها 100 ألف دولار أو أكثر إذا قورنت بالبريك الأمريكي المسلم للجزائر بقيمة ما يقرب 100 ألف دولار كما رأينا سابقا وهو أقل قيمة حربية من الفرقاطة البرتغالية. وقد أسر مع الفرقاطة 282 برتغالي منهم ضباط وتقنيون قيمة فديتهم عالية. إن الحد الأدنى الإجمالي لقيمة افتدائهم لا يقل عن 250 ألف دولار. مع ذلك يبقى التباين ضخما بين تقدير القنصل وقيمة الغنائم في س غ ب.

حسابات س غ ب

لقد لاحظنا ذلك بصورة عامة. في كل مرة تجري مقابلة بين رقم رسمي من جهة وتقدير يقدم من طرف أي شاهد مباشر فإن الرقم الرسمي يكون دائما منخفضا عن التقدير وفي كل الأحوال ما عدا بعض الاستثناءات الممكنة يلاحظ أن الرقم الرسمي هو أقرب إلى الواقع من التقديرات المختلفة. والواقع المعني هنا هو الثمن الذي تباع به فعلا منتجات الغنائم بالمزاد العلني في الجزائر.

ومن هذه الزاوية، تعتبر الفترة التي يغطيها س غ ب أي من 1766 إلى 1815 هي الفترة الوحيدة التي لدينا عنها معرفة يقينية، سنة بعد سنة، لعدد الغنائم وقيمتها مع اعتبار الأخطاء والثغرات التي تقدم ذكرها.

---

1. رسالة O'Brien بتاريخ 6 جويلية 1802 ANP, 253 Mi 2, vol.6, 1802

صحيح أنه إلى جانب ملاحظاتنا المتقدمة عن أخطاء دوڤو وثغرات السجل، يمكن أن نضيف ما يسميه القنصل الفرنسي بالاختلاسات والتلاعبات التي هي من الأساليب المعتادة عند موظفي ذلك العهد والتي لا يخلو منها عمل خوجة الغنائم ومساعدوه وغيرهم من الموظفين والمستخدمين في هذه العمليات. كذلك تنسب سرقات وتلاعبات من طرف القراصنة قبل وصول الغنائم إلى الجزائر. كل هذا صحيح، لكن يجب التذكير بأنه عندما تثبت مثل هذه الأفعال فإن مرتكبيها يعرضون لعقاب صارم. مثلا لاختفاء قدر من النحاس من إحدى السفن، عوقب رايس السفينة ووكيل الحرج فيها بالجلد وبتنحيتهما من عملهما وتخفيض رتبتهما. وللاحتياط من كل التلاعبات، أنشئت هيئة لإبحار سفن الغنائم متألفة من أعضاء قيادة السفينة وتشكيلة من الانكشارية، وهي مكلفة بجرد كل ما في السفينة في سجل رسمي واتخاذ كل التدابير الضرورية لحمايتها والوصول بها سالمة إلى ميناء الجزائر.

وهناك عنصر هام له دوره في منع الاختلاسات التي يقوم بها البحارة ووكلاء الحرج وخوجة الغنائم الخ. ذلك أن أرباب السفن هم، إلى جانب البايلك، أعلى المسئولين أي الداي والوزراء وغيرهم من الحكام في قمة السلطة. وحتى الخواص من ملاك السفن هم غالبا أقارب هؤلاء الحكام وأشخاص مقربون منهم. والمس من مصالح هؤلاء الناس هو حقيقة لعب بالنار لأن عنف ردهم لا حد له. ولا يعرض الإنسان بحياته في مثل هذه الأحوال من أجل مكسب صغير.

من جهة أخرى أدى التناقص الهائل في مردودية القرصنة إلى مضاعفة المراقبة وتشديد العقوبات على كل خسارة أو اختلاس يتجاوزان الحدود الضيقة المعتادة في حياة الناس آنذاك.

الأزمة ونظام الحكم

من المسائل التي يطرحها ضعف مردودية الغنائم وما نجم عنه من تدابير لتلافي هذا التردي المتفاقم ما يمكن أن نقارنه بما تقوم به الدول حاليا من تحمل تكاليف المشاريع الخاصة لتجنيبها فداحة الخسائر والإفلاس. فمن الملاحظ أنه حينما كانت القرصنة لها أرباح وفيرة كانت الملكية الخاصة لسفن القرصنة هي الغالبة. ومع تدهور مداخيل القرصنة أصبحت الدولة هي التي تتحمل الاستثمارات الثقيلة وتبحث عن وسائل لضمان استمرارا هذه المهنة. من ذلك تقرير أجرة منتظمة للبحارة والرياس تعويضا لهم عن قلة الربح في عملهم وذلك بالإضافة إلى الأسهم المقررة كنصيب لهم في كل غنيمة. كذلك عمم الحكم إدراج الرياس العاملين ضمن من تقدم لهم الهدايا من القناصل والبايات والقياد، الخ. في مناسبات معينة.

أما كبار المسئولين فهم على رأس قائمة من تقدم لهم الهدايا في المناسبات المذكورة. وهم كذلك بوصفهم من أرباب السفن يأخذون نصف ناتج الغنيمة التي أحرزتها سفنهم بعد خصم التخميس الذي تأخذه الدولة وغيره من الرسوم المعتادة. وكان التخميس الذي هو أصلا خمس الغنائم كما تحدده القواعد الشرعية قد بقي في كل فترة س غ ب أي من 1765 إلى 1830 كما هو تقريبا طوال العهد العثماني وهو ثمن ناتج الغنائم، تضاف إليه بعض الرسوم المختلفة التي لا تتجاوز عادة 1 % من مجموع الغنيمة لكل من المستفيدين وأهمهم وكيل حرج البحرية وقايد المرسى وبعض القياد والخوجات حسب درجة مسئوليتهم وعلاقاتهم بقضايا القرصنة. وفيما يخص الغنائم الكبرى، كانت نسبة قليلة منها تهدى لبعض الزوايا وغيرها من المنشآت الدينية. كما أن البوابين والحراس والكيالين وباعة المزاد العلني والحمالين، الخ.، يتقاضون أجورا ومكافآت بقدر عملهم تقدم لهم من ناتج الغنائم.

وباضافة نفقات أخرى تخص عمليات تصفية الغنائم، يصل مجموع النفقات بما فيها التخميس إلى حوالي 20 % من ناتج الغنائم الصغرى ذات القيمة المتواضعة. أما الغنائم التي لها قيمة معتبرة فيقدر فيها مجموع التكاليف بنحو 14 % وأحيانا أقل من ذلك بقليل.

وبصورة عامة يمكن اعتبار مجموع تكاليف تصفية الغنائم كبرى وصغرى مجتمعة بنسبة متوسطة هي حوالي 15 % نظرا لأن الغالب على المدى الطويل هو نسبة الغنائم التي لها قيمة معتبرة.

وكما يتضح من التفاصيل التي تضمنها س غ ب فإن أجور العمال والمستخدمين في مختلف القطاعات بالغنائم لا تختلف كثيرا عن أجور الفئات الأخرى التي هي في مرتبتهم في بقية قطاعات العمل بالمدينة.

لكن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، كانت القرصنة مصدر إثراء لكبار الحكام. فهم باعتبارهم ملاك السفن كانوا يملكون أفضل السفن (فرقاطات وكربيطات وما يماثلها) ويستخدمون فيها أفضل الرياس. وهذا يؤدي إلى أن أغنى الغنائم تعود إليهم. والملاحظ أن بعض هذه السفن الجيدة كانت تقدم هدية للداي وبعض وزرائه، الخ.، من طرف الدول التي تبحث عن مساعدتهم لها في شئونها.

وهناك الفوائد غير المباشرة. مثلا حين كان الاسبان يفاوضون الحكام على السلم في 1786 تعهدوا لهم بأن يدفعوا 60 ألف قرش للداي و30 ألف للخزنجي، الخ[1]. وكما رأينا سابقا دفع الفرنسيون مبلغ مليون فرنك لحسن باشا لحسن نيته في عقد معاهدة الصلح. كما دفع الأمريكان والهولنديون وغيرهم من الأروبيين مبالغ مماثلة للحكام لحماية سفنهم التجارية من قرصنة الجزائر.

---

1. حسب القنصل الفرنسي في مراسلة ANP, AE, B1 142 f^{os} 79-80

من الواضح ما تمثله القرصنة من فوائد لهؤلاء الحكام. فهي وسيلة ضغط دائمة للحصول على الهدايا الثمينة والمبالغ المالية العالية. وهكذا تساهم القرصنة في إلقاء الضوء على جانب أساسي من جوانب نظام الحكم في الجزائر بل على جوهر التنظيم السياسي والسلوك الاقتصادي والاجتماعي لبنية الهيمنة في المجتمع. وتتمثل هذه الظاهرة الأساسية في أن المصدر الرئيسي للإثراء القوي السريع هو الحكم. ففي كل مستويات الحكم، تقدم الفئات الدنيا لمن هم أعلى منها في المسئولية الهدايا والهبات والإكراميات وغير ذلك من المدفوعات والخدمات الواجبة عليها إزاء من عينوها في وظيفتها. وهذه الأساليب المطبقة في داخل البلاد في كل المستويات هي التي عممت في العلاقات مع الدول الأجنبية. وهكذا كان الحكام يجمعون في سنوات قليلة ثروات لا يمكن تصورها بدون هذه الوسائل.

الفصل الواحد والعشرون

الغنائم في الفترة العيانية

1830 - 1765

تحليل المعطيات[1]

هي فترة يمكن تحقيبها إلى ثلاثة أطوار متمايزة:

1792–1766

1815–1793

1830–1816

1766 - 1792: عهد داي كبير

جرى الطور الأول كله تقريبا في عهد الداي محمد بن عثمان، وهو رجل متعلم، حازم، عادل، كما يقول عنه القنصل الفرنسي[2]. وتتميز هذه الفترة بانسجام وانتظام السياسة الخارجية وسير القرصنة التي كانت تابعة لها تماما. كانت فترة رخاء عام في الجزائر شمل الفئات الشعبية مثل الفئات الاجتماعية الأخرى كما بينا ذلك في الجزء الأول.

---

1. هذه الفترة في مجموعها وبالأخص فترة انتعاش القرصنة (1793 - 1815) كانت موضوع دراسات مختلفة في السنوات الأخيرة. ومن أهمها دراسة بنزاك المتقدمة. وقد عرف سجل الغنائم البحرية المنشورة في المجلة الافريقية مع مجموع المجلة طبعتين متواليتين إحداهما في فرنسا والأخرى في الجزائر كما أنه تحت الطبع في دار نشر بوشان: ونظرا لتوفر معطيات س غ ب نكتفي هنا بتحليل الدلالات التي تحتويها.

2. في رسالة بتاريخ 2 فيفري 1766 في ANP, AE, B1 122,

رغم ذلك وهو أمر لا يستغربه إلا من لهم نظرة أسطورية للتاريخ، كانت نتائج القرصنة ذات مستوى منخفض طوال هذه الفترة التي تمتعت بالرفاهية والازدهار.

ولننظر إلى النتائج الرسمية كما سجلت في سجل الغنائم البحرية من 1766 إلى 1792 (ولما كانت المعطيات الخاصة بسنة 1765 لا تتعلق إلا بأحد فصول السنة ولا تمثل إلا جزءا صغيرا من المعطيات عن هذه السنة كما نشاهدها في وثائق أخرى فإننا لم ندرج سنة 1765 في الجدول).

جدول الغنائم المقيدة في س غ ب

السنة	عدد الغنائم	القيمة (بالفرنكات)	الجنسية
1766	17	113052	اسبانيا، برتغال، جنوة، مجهولة
1767	18	356703	3 برتغالية، 6 اسبانية، 1 نابولي، مجهولة
1768	19	165539	6 اسبانية، 1 جنوية، 1 نابولي، مجهولة
1769	8	291008	4 نابولي، 2 دانمارك، 2 أسباينة.
1770	4	86933	1 برتغال، 1 اسبانيا، 1 نابولي، 1 مجهولة
1771	1	4351	مجهولة
1772	1	11122	1 نابولي
1773	2	1992	1 نابولي، 1 جنوة
1774	4	121080	2 اسبانيا، 2 مجهولة
1775	6	122002	1 نابولي، 1 روسيا، 1 اسبانيا، 1 مجهولة
1776	10	104572	أغلبها اسبانية

1777	14	122441	أغلبها اسبانية
1778	14	324075	أغلبها اسبانية، 2 ناپولي، مجهولة
1779	13	315218	الكثير منها اسبانية، جنوية، وناپولية
1780	16	457313	الكثير منها اسبانية، جنوية، وناپولية
1781	13	316204	الكثير منها اسبانية، جنوية، وناپولية
1782	18	581580	الكثير منها اسبانية، جنوية، وناپولية، 1 هولندية
1783	10	180026	الكثير منها اسبانية، جنوية، وناپولية وبرتغالية
1784	6	37456	بالأخص «
1785	9	209377	اسبانية، برتغالية، ناپولية، أمريكية، ويونانية
1786	6	143803	2 برتغالية، 2 ناپولية، 1 روسية، 1 ليڤورنية
1787	10	77080	أكثرها ناپولية وجنوية
1788	3	288713	جنوية وناپولية
1789	7	463159	ناپولية-وفرنسية بلا جواز
1790	4	95885	ناپولية وجنوية
1791	6	170449	1 ناپولية، 1 نمسوية، مجهولة
1792	6	82943	3 جنوية، مجهولة

ملاحظات على الجدول

للمد والجزر عوامل مختلفة. والملاحظ أن السنوات الأربع الأولى لها نتائج جيدة نسبيا (1766-1769). والمتوسط السنوي لها هو 231576 فرنك.

وتبعتها أربع سنوات نتائجها غاية في السلبية (1770-1773) ومتوسطها السنوي هو 26100 فرنك. وهو مبلغ أبعد ما يكون عن تغطية النفقات. وخسائر

أرباب السفن زاد في استيلاء الاسبان على 5 أشباك جزائرية في 1770 وعلى شبكين آخرين في 1771 و1772 حسبما ذكره القنصل الفرنسي[1] الذي يرجع ضعف نتائج القرصنة إلى هذه الانجازات الاسبانية وإلى الحرب مع روسيا التي كان أسطولها كثير النشاط في السواحل الجزائرية حيث حاصر بالأخص مواني الشرق الجزائري التي تصدر الحبوب منها.

إن الانتصار على الحملة الاسبانية ضد الجزائر في 1775 بعث الانتعاش في القرصنة بعد مدة معينة. ففي البداية كانت السنوات المحيطة بهذه الحملة وهي سنوات 1774-1777 سنوات متوسطة في نتائج غنائمها (متوسطها السنوي 117524 فرنك). ثم تلتها دفعة جديدة دامت خمس سنوات (1778-1782) كانت جملة نتائج القرصنة فيها تقرب المليونين من الفرنكات والمتوسط السنوي هو 398.878 فرنك. ما يقرب من 400 ألف فرنك سنويا، هي أجود نتائج القرصنة في عهد الداي محمد بن عثمان. والملاحظ أن الكثير من هذه الغنائم أحرزت ضد الاسبان وكانت مرتبطة بكثرة المترشحين للقرصنة نتيجة للزيادة في مكافآت الرياس والبحارة وتقرير دفع أجور شهرية لهم بالإضافة إلى نصيبهم من الغنائم وكذلك لأن الداي شجع صناعة السفن وتحسين عتادها وانتخاب أفضل الرياس لقيادتها وكان على رأسهم القبطان الحاج محمد الإسلامي وهو يهودي الأصل.

أما السنوات الخمس التالية فكانت نتائجها متوسطة (1783-1787) ومبلغها السنوي هو 129548 فرنك. وكما لاحظه ﭙنزاك عن فترة الحروب الأروبية فإن السفن حين تكون من جنوة أو ناﭙولي فقيمتها عموما أضعف من قيمة الغنائم المأخوذة في المحيط الأطلسي.

---

1. ANP, AE, B1 134 et B1 135.

إن ناتج مجموع غنائم الفترة 1766-1792 يعطي متوسطا سنويا هو 9 غنائم في السنة قيمتها 160 ألف فرنك أي ما يعادل بصرف الوقت في الجزائر حوالي 30769 قرش بمعدل 5،20 فرنكات للقرش.

أسعار السفن

بما أن أسعار السفن المأسورة لم تكن مقيدة في س غ ب فسنحاول تقديم صورة عامة عن أسعار السفن المختلفة. ذكر دوڤو[1] في دراسة له حمولة 20 سفينة من سفن الغنائم بيعت في الجزائر للتجار الأوروبيين في سنوات 1772-1797 ومتوسط حمولة هذه السفن هو 153 تونو للسفينة. لكنه لم يذكر أسعارها.

من جهة أخرى أوردت المراسلات القنصلية والتجارية الفرنسية[2] بعض الأسعار التي بيعت بها سفن الغنائم في الجزائر في سنوات 1775-1804. وهي متنوعة كثيرا والأسعار بالفرنكات:

شبك اسباني صغير 3000

سفينة من نابولي 3038

سفينة من نابولي 3240

أسعار سفن مختلفة على التوالي: 4515؛ 4560؛ 5265؛ 6075؛ 6594؛ 9113؛ 9325؛ 13669؛ 16706؛ 21263؛ 38000.

إن متوسط سعر هذه السفن هو 10383 فرنك.

1. A. Devoulx, « Relevé des principaux Français qui ont résidé à Alger de 1686 à 1830 », *RA*, 1872, p. 356-450.

2. ANP, AE B1 134 à 144 ; A. Berbrugger, op. cit., *RA*, 1871.

وورد سعر وحمولة سفينتين، إحداهما حمولة 100 تونو بيعت في 1780 بمبلغ ألف محبوب (7600 فرنك) أي بقيمة 76 فرنك للتونو. وسفينة أخرى لها حمولة 250 تونو بيعت بمبلغ 2100 سلطاني (236 21 فرنك) بمتوسط 85 فرنك للتونو. وقد رأينا فيما تقدم أن پنزاك يقدر أن 153 فرنك للتونو كمتوسط هو متوسط غال بالنسبة لأسعار السفن في تونس والجزائر. فإذا قدرنا السعر العام لبيع السفن المأخوذة كغنائم بأنه يدور حول 100 فرنك لحمولة تونو واحد، قد لا نكون بعيدين عن الواقع.

ومن الممكن أن السفن التي يشتريها التجار الأروبيون في الجزائر هي من النوع الذي تعتبر قيمته في الفئة العليا من الأسعار. أما السفن الصغيرة التي كان قراصنة الجزائر يأسرونها فهي تشكل نسبة كبيرة من الغنائم الجزائرية في الفترة بين 1766 و1792 كما يظهر من قيمة البضائع التي تحملها والتي لا تتجاوز في المتوسط 10 آلاف فرنك. وبمراعاة مجمل هذه العناصر يمكن تقدير المتوسط السنوي لسعر سفن الغنائم بنحو 10 آلاف قرش. أي أن المجموع السنوي لقيمة الغنائم في هذه السنوات هو نحو 40 ألف قرش في المتوسط.

1793 - 1815: سنوات حميدو

بعد أكثر من قرن من الركود، انتعشت القرصنة مدة عقدين وبلغت أحيانا درجات لم تعرفها منذ القرن السابع عشر.

إن هذه الانطلاقة تعود بدون شك إلى توطيد المنشآت وإلى التحسينات التي أدخلت على البحرية الجزائرية وإلى مجموع البنية السياسية والعسكرية في عهد الداي محمد بن عثمان. وقد استغل خلفه حسن باشا الأوضاع الدولية الجديدة والرخاء الناجم عن المداخيل المالية الكبيرة التي وفرها تصدير الحبوب لتقوية وتنويع العتاد الضروري لأسطول القرصنة.

لكن ليس من قبيل المصادفة أن الدفع القوي للقرصنة الجزائرية بدأ ببداية الحروب الأوروبية العامة وانتهى بانتهائها (1793-1815). وهناك عناصر خاصة شجعت على هذا النمو الاستثنائي للقرصنة الجزائرية. ففي السابق كان مضيق جبل طارق تحت حراسة الأساطيل الاسبانية والبرتغالية المعادية للجزائر وكان من الصعب اجتيازه في كل الأوقات. غير أن إبرام معاهدة الصلح مع اسبانيا قد توطد واستقر بعد انسحاب الاسبان من وهران والمرسى الكبير في 1792 وتبعه عقد هدنة مع البرتغال في 1793. وأصبح المضيق مفتوحا تماما للسفن الجزائرية لأن قاعدة جبل طارق بيد الانكليز صارت تقدم للجزائريين خدمات ثمينة في ميدان إيواء وتموين السفن وكذلك بتزويدها بالمعلومات عن تحركات سفن الأعداء وكانت الجزائر تقدم للانكليز خدمات مماثلة. وعندما نشب النزاع بين الجزائريين والبرتغاليين المتحالفين مع الانكليز، منع الانكليز الأسطول البرتغالي من نشر قواته في مضيق جبل طارق لترقب الجزائريين.

من جهة أخرى عندما احتل نابليون جزيرة مالطة في 1798 وضع حدا نهائيا لقرصنة مالطة التي كانت تعوق كثيرا تحركات السفن الجزائرية في شرقي البحر المتوسط. وإلى هذه العوامل يضاف العنف المتزايد في المصادمات البحرية بين الدول الأوروبية المتحاربة والتي كانت كل واحدة منها تحاول استجلاب صداقة الجزائر ومساعدتها ضد أعدائها.

في هذه الظروف برز بعض القراصنة الكبار في الجزائر وفي طليعتهم القبطان المشهور الرايس حميدو الذي ليس من قبيل المصادفة كذلك أن صعوده بدأ مع بداية الحروب الأوروبية العامة وانتهى مع انتهائها.

جدول يلخص معطيات س غ ب

السنة	عدد الغنائم	القيمة (بالفرنكات)	جنسية الغنائم
1793	15	1352 317	أمريكية، هولندية، جنوية، مجهولة
1794	3	1204 366	أمريكية وجنوية
1795	8	310 398	2 نابولية، 3 جنوية، مجهولة
1796	8	202 812	1 بندقية، 3 جنوية، مجهولة
1797	22	1294 270	10 نابولية، 5 جنوية، 2 اسبانية، 1 توسكانية، مجهولة.
1798	42	1510 529	أكثرها اسبانية وإيطالية
1799	31	1583 482	16 بندقية، 5 نابولية، 2 برتغالية، 1 مالطية، 1 سويدية، 1 أمريكية، 1 بروسية، مجهولة
1800	19	523 574	17 نابولية، 1بندقية، 1 مجهولة
1801	4	340 318	3 نابولية، 1 مجهولة
1802	20	575 153	19 نابولية، 1 برتغالية
1803	؟	43 188	65 أسير من داخل الأراضي، سفينة مجهولة
1804	9	272 850	7 نابولية، 2 مجهولة
1805	8	190 433	6 نابولية، 1 بندقية، 1 برتغالية
1806	6 (؟)	283 439	برتغالية، همبورغية، مجهولة
1807	10	357 294	3 برتغالية، مجهولة
1808	10	297 106	4 نابولية، 4 برتغالية، 1 يونانية، مجهولة
1809	7	114 497	5 نابولية، 1 صردانية، 1 يونانية

1810	1	171 348	1 تونسية
1811	4	513 137	3 تونسية، 1 يونانية
1812	12	2136 675	5يونانية، 2 اسبانية، 2 أمريكية، 1 تونسية
1813	3	172 330	3 يونانية
1814	17	1954 133	4 هولندية، 3 سويدية، 3 دانمركية، 3 اسبانية، 2 يونانية، 1 نابولية
1815	8	770 416	1 هولندية، 1 إنكليزية، 1 مغربية، 4 مجهولة.

ملاحظات على الجدول

من جملة 23 سنة من طور ازدهار القرصنة، يلاحظ أن 7 سنوات تجاوز فيها الناتج السنوي للغنائم مليون فرنك وهي سنوات:

1794-1793

1799-1797

1812 و1814

وفي كل حالة، توفرت ظروف خاصة أدت إلى هذه الانجازات التي أحرزها رياس الجزائر.

- ففي 1793، بفضل الوساطة الانكليزية، عقدت هدنة لمدة سنة كمرحلة نحو إقرار صلح دائم، مع البرتغال الذي سحب أسطوله من جبل طارق أين كان يراقب تحركات السفن الجزائرية ويعوق مرورها نحو المحيط الأطلسي. ولم تنبه السفن الأمريكية في الوقت المناسب بهذا الانسحاب البرتغالي وكانت تعبر المحيط الأطلسي بكل طمأنينة حين فاجأتها السفن الجزائرية واستولت على 11 سفينة تجارية أمريكية كان بعضها مشحونا بأغلى البضائع، بين 8 أكتوبر و23 نوفمبر 1793. وشكلت هذه الغنائم أهم مكتسبات سنة 1793.

ونفس حالة المفاجأة ساعدت على الاستيلاء على السفن التجارية الهولندية في نفس المحيط ونفس السنة. ويذكر كريكن[1] أن قيمة إحدى السفن الهولندية التي أخذها الجزائريون في هذه السنة قدرت بقيمة 100 ألف فلوران وأن سفينتين أخريين (سكر وبن) قدرت قيمتهما بنحو 700 ألف فلوران أي أن قيمة هذه السفن الثلاث بالفرنكات هي حوالي 1,6 مليون فرنك. وهي قيمة تتجاوز قيمة كل غنائم 1793 في س غ ب. وهي تبرز أحد مظاهر الاختلاف في التقييم بين ما يباع في الجزائر بالمزاد العلني وما يقدر في البلاد الأروبية من قيمة لنفس الغنائم.

- إن سنوات 1797-1799 استفادت من انتهاء القرصنة المالطية كما تقدم ومن عودة ألفين من الأسرى الجزائريين الذين فك نابليون أسرهم في مالطة وهم في أغلبهم من رجال البحر. واستفاد قراصنة الجزائر كذلك من تغير الوضع القانوني من حيث التبعية إلى جنسية دولة معينة لبعض المناطق الأروبية في البحر المتوسط ومن الظروف العامة للحروب الأروبية الشاملة التي تفتح بعض الثغرات والمجالات لنشاط السفن الجزائرية. مثلا كانت جمهورية البندقية معتبرة دولة معادية للجزائر وبعد ضمها للإمبراطورية النمسوية التي هي في حالة سلم مع الدولة العثمانية، استمرت الجزائر في اعتبار سفن البندقية من الأعداء الذين يمكن الاستيلاء عليهم. ومن قبيل ذلك أيضا أن بعض الجزر اليونانية صارت تحت السيادة الفرنسية لكن قراصنة الجزائر كانوا يعتبرون سفنها دائما سفنا يونانية.

واستغلوا مثل هذه الأوضاع في كورسيكا التي احتلها الانكليز بين 1794 و1796. ووجد قراصنة الجزائر بعض الذرائع لأسر صيادي المرجان الكورسيكيين وسفنهم. وكان الانكليز يعلنون أنهم جاءوا لتحرير هذه الجزيرة

---

1. G. van Kricken, *op. cit.*, p. 121-122

وسكانها وحماية حكامها الوطنيين الجدد. ولهذا أكثروا من الضغط على الجزائر وهددوها باتخاذ تدابير ضدها إذا لم تفك أسر الكورسيكيين. وفي النهاية نظرا للوضع العام في أوروبا التي كانت تعيش تحت أثقال حرب مدمرة ونظرا كذلك للفوائد التي كان الانكليز يحصلون عليها من تأييد الجزائر لهم، تفاوضوا على حل وسط ودفعوا فدية قدرها 600 قرش عن كل واحد من الأسرى الكورسيكيين الذين كان عددهم 195 أسيرا.

- إن اللبس الذي يحدثه تغيير التبعية السياسية هو الذي ساعد أيضا على صعود الغنائم في 1812 و1814. فبعد أوضاع متقلبة استعاد الهولنديون سيادتهم في 1813 وعادت سفنهم التجارية من جديد تعبر البحار المختلفة وأبدوا رغبتهم في إقامة علاقات سلم مع الجزائر وتعهدوا في مقابل ذلك أن يدفعوا مبالغ كبيرة. لكن تأخر وصول هذه المبالغ وبعض التعقيدات والاختلافات في تفسير بنود الاتفاقية دفع قراصنة الجزائر إلى شن هجمات متوالية على السفن الهولندية. ونفس الهجمات تعرضت لها السفن السويدية في هذه السنوات لأسباب وذرائع مختلفة. وإن كان السويديون قد نجحوا في الحصول على إرجاع بعض سفنهم في 1814 فإن أربع سفن اعتبرت غنائم شرعية وبيعت بالمزاد العلني وقيدت في س غ ب. ويقول شالر[1] إن هذه السفن الأربع قدرت قيمتها بنصف مليون دولار أي نحو 2،6 مليون فرنك. وهو تقييم يتجاوز الناتج السنوي لكل غنائم 1814 وعددها 42 سفينة.

السنوات النحيفة

إن الضعف غير الاعتيادي لناتج غنائم 1803 قد يكون السبب فيه، كما لاحظ پنزاك هو غياب تسجيل بعض الغنائم في هذه السنة. ومن الممكن أن 1810 حيث سجلت غنيمة واحدة و1813 التي جاءت بين سنتين بلغت فيهما

1. W. Shaler, *op. cit.*, p. 98

الغنائم أعلى مستواها، هما أيضا لم تسجل فيهما كل الغنائم. لكن عوامل أخرى قد تكون خلف هذه النتائج الضعيفة. عوامل داخلية مثل المجاعات والأوبئة والأزمة داخل الحكم. وعوامل خارجية منها تعزيز الحراسة البحرية المسلحة للسفن التجارية وعقد الهدنة بين الدول المتحاربة مما يؤدي إلى تضافر جهودها ضد القرصنة الجزائرية وتغيير نظام التبعية السياسية لبعض البلاد مما يجعلها تحت حماية إحدى الدولتين التي تراعي الجزائر بكل عناية الاحتفاظ بعلاقات سلمية معهما أي فرنسا وانكلترا، وما أشبه ذلك من العوامل التي تؤدي إلى ضعف الغنائم.

أصل الغنائم

فعلا يلاحظ على طول الفترة المدروسة غياب أية غنيمة فرنسية أو إنكليزية فيما عدا الحالات المتنازع في شرعيتها حسب القراءات المختلفة لبنود الاتفاقيات أو الحالات التي يعترف القناصل أنفسهم بشرعية الموقف الجزائري فيها مثل حالات تهريب البضائع والأسرى وحالات الجوازات المزورة التي كان الانكليز بالأخص يبيعونها للدول المعادية للجزائر. وكما سبق لنا أن لاحظنا، متفقين في ذلك مع كثير من المؤلفين الأوروبيين، فإن سوء النية والتحايل على القوانين، الخ.، هي من الأمور الجارية من كل الأطراف ولا توجد دولة تخلو من مثل هذا السلوك. لكن بصورة عامة كان الجزائريون قلما يتعرضون للسفن الفرنسية والانكليزية حتى في الحالات التي فيها بعض اللبس وذلك لأن الدولتين كانتا آنذاك أقوى دولتين في العالم.

إن الضحايا الدائمة للقرصنة الجزائرية هي بالطبع الدويلات الإيطالية المتعددة. وفي مقدمتها دولة نابولي لكن كما تقدم كانت سفنها وحمولتها ضعيفة القيمة في أغلبها. فالغنائم التي لها قيمة هي سفن المحيط الأطلسي (الأمريكية والهولندية والدانمركية والسويدية والاسبانية بالأخص) وكما

رأينا، كان الاستيلاء على أكثرها وأغلاها مرتبطا في كل مرة بظروف مساعدة استثنائية نسبيا.

ومع أن س غ ب قلما يشير إليها فقد كانت بعض الغنائم ترجع إلى رعايا السلطان العثماني والمراسلات بين استنبول والجزائر في سنوات 1792-1827 كانت بعضها تخص حالات اعتداء السفن الجزائرية على رعايا عثمانيين وكانت تؤدي أحيانا إلى غضب السلطان وتهديداته التي لم تكن تعرف طريق التطبيق إلا نادرا.

والملاحظ كذلك أنه بين 1810 و1815 قيدت في س غ ب غنائم أصلها من تونس أو من المغرب الأقصى. ومن الغنائم التونسية المهمة استيلاء الرايس حميدو على فرقاطة ذات 44 مدفع في 1811. كذلك استولى قراصنة الجزائر على بضائع لتجار تونسيين (شواشي، أقمشة، قمح، الخ) حتى ولو كانت تحملها دول أوروبية في حالة سلم مع الجزائر.

مردوديات مقارنة

إن المتوسط السنوي لناتج الغنائم عن فترة 1793-1815 هو 712.003 فرنك أي 163.924 قرش. وهو تقريبا يعادل أربع مرات المتوسط السنوي للفترة السابقة (1766-1792).

ما هي نسبة هذه المداخيل التي ترجع إلى الدولة؟ وما هي نسبتها بالمقارنة مع مجموع مداخيل خزينة الجزائر في هذه الفترة؟

حاول پنزاك[1] أن يحل هذا المشكل باقتراح تقديرات تقريبية وإن كانت افتراضات تخمينية لكنها تساعد على تقدم البحث في هذا المجال.

1. D. Panzac, *Les corsaires...*, p. 93

إنه انطلق من التقدير الذي قدمه برادي كتقييم تقريبي لميزانية الجزائر ثم جمع القسم الذي تأخذه الدولة من رسوم ونصيبها في الغنائم باعتبار ملكيتها لكثير من السفن. والنتيجة في سنوات الغنائم الكبرى مثل 1798 و1799 أن مجموع ما تأخذ الدولة يشكل تقريبا ربع الإيراد العام في الميزانية وتهبط هذه النسبة إلى 5 % في العقد التالي ثم ترتفع في سنوات الدفعة الجديدة للقرصنة (1811-1815) إلى 20 %.

وهذه التقديرات تبدو لنا شيئا تقريبيا وإن كانت بعض التفاصيل فيها بحاجة إلى إعادة النظر.

في الأخير لنحاول أن نعطي فكرة عامة عن مكانة القرصنة الجزائرية في سنوات الازدهار بمقارنتها مع نشاطات القرصنة في بلاد أخرى.

من 1793 إلى 1815 أحرز رياس الجزائر 267 غنيمة أي بمعدل 11،6 غنيمة في السنة.

في المقابل استولى القراصنة الفرنسيون على 5500 سفينة تجارية إنكليزية في الفترة بين 1793 و1800 وفقدوا 600 سفينة دمرها الانكليز أو أسروها. واستمر الفرنسيون في أخذ متوسط 500 سفينة تجارية إنكليزية سنويا بين 1800 و1813. وكبد الانكليز الأسطول الفرنسي هزائم شديدة أشهرها تحطيم الأسطول الفرنسي في أبوقير في 1798 وتحطيم الأسطولين الفرنسي والاسباني في معركة طرفالغار (طرف الغار) في 1805.

من 11 إلى 12 غنيمة سنويا للجزائريين ومن 500 إلى 600 غنيمة سنويا للفرنسيين. وللتذكير كانت البحرية الفرنسية في هذه الفترة تأتي بعيدا وراء البحرية الانكليزية التي كانت لها السيطرة التامة على كل بحار الأرض.

إن هذه المقارنة تحدد ميزان القوى الحقيقي في هذه السنوات.

1816 - 1830: بقايا القرصنة

في هذه السنوات وجدت القرصنة الجزائرية نفسها في وضع لم تعرفه منذ ثلاثة قرون فقد انتهت الحروب الأوروبية في 1815. وفي نفس السنة اتخذت الدول الأوروبية المجتمعة في مؤتمر ڤيينا قرارا بإصدار بيان عام حول إلغاء استعباد الإنسان للإنسان. إن هذه المبادرة تعبر بطريقتها عن تغلغل القيم التقدمية المنبثقة من عهد التنوير. وعلى الصعيد الدولي، طبق هذا المبدأ النبيل بطريقة تذكرنا بما يجري في أيامنا من تعامل مع مبادئ حقوق الإنسان والمساواة بين الشعوب. تعامل صحت فيه عبارة الوزن بميزانين والكيل بمكيالين.

فعلا بقيت مبادرة مؤتمر ڤيينا بلا نتيجة في أروبا وأمريكا حيث استمرت مختلف الدول في جلب العبيد السود إلى أمريكا وغيرها من الأماكن في الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر. وفي بعض المستعمرات غض الأروبيون النظر عن استعباد السود حتى منتصف القرن العشرين. لكن الأمر الذي أصبح من الشناعة بحيث لا يمكن السماح به أبدا هو معاملة أي أروبي كما يعامل الزنوج.

إن هذا المنهج المتمثل في منع الآخرين من فعل ما يجوز فعله للأروبيين كان يستهدف بالدرجة الأولى القرصنة في الجزائر وبقية الأقطار المغربية. وباسم مؤتمر ڤيينا جاء أسطول إنكليزي-هولندي إلى الجزائر وطالب الداي بفك أسر كل الأروبيين الأسرى دون مقابل وبإلغاء العبودية.

وتقدم الأسطول الأروبي رافعا علم التفاوض وهو علم كان حكام الجزائر مثل غيرهم في ذلك العهد يحترمونه احتراما تاما وهكذا استطاع هذا الأسطول بقيادة إكسموث أن يتوغل داخل ميناء الجزائر ثم تجهز للقتال وبدأ فجأة في صب نيرانه على الأسطول الجزائري الذي لم يكن يتوقع ارتكاب مثل هذه المخالفة للقواعد المرعية.

ونجح إكسموث في تحطيم أسطول الجزائر وأهم المنشئات الدفاعية للمدينة. وكما يقول دي غرامون[1] ويعترف به ضمنيا كذلك القنصل الأمريكي شالر[2] لم يكن استعمال العلم الأبيض سوى خدعة حربية سهلت عملية المهاجمين.

وهكذا يأتي الأسطول الأروبي باسم القوانين الدولية وأول عمل يقوم به هو انتهاك أقدس المبادئ المعمول بها في العلاقات الدولية.

ونستسمح القارئ هنا في استطراد فرضته ظروف الساعة. إن حملة إكسموث قد استعملتها حكومة بلير لتبرير الحرب الجديدة التي شنها بوش-بلير على العراق في 2003. فقد صرح السيد Straw وزير خارجية الحكومة الانكليزية أثناء الإعداد الدعائي للحرب ضد العراق بما محتواه أن الانكليز يتدخلون في العراق كما فعلوا في 1816 بوضع حد للصوصية البحرية.

وفي هذا المجال ينبغي التذكير أنه منذ 1693 إلى 1815 لم تتعرض سفينة إنكليزية واحدة لهجوم من طرف سفن الجزائر، باستثناء الحالات النادرة التي كانت محل نزاع قانوني كما تقدم. وفي نفس الفترة استولى القراصنة الفرنسيون على ما يقل عن 25.000 سفينة تجارية إنكليزية والرقم الذي نقدمه هو حد أدنى أقل بكثير من الرقم الفعلي لعدد السفن الانكليزية التي أخذت أو تعرضت للابتزاز من طرف القراصنة الفرنسيين أثناء الحروب بين البلدين[3].

---

1. H. de Grammont, *Histoire…*, p. 294 sq

2. W. Shaler, *Esquisse…*, p. 104 sq

3. حول الموضوع انظر:

Cristian Buchet, Jean Meyer et Jean-Pierre Rousseau, (dir), *La Puissance maritime*, éd. de l'univ. Paris- Sorbonne, 2004 ; Gérard Le Bouëdec, *Activités maritimes et société. Littoral de l'Europe atlantique*, 1690-1790, P., A. Colin, 1997 ; Jean Delumeau, « La guerre de course française sous l'Ancien Régime », *in Course et piraterie…*, *op. cit.*, t.I, p. 34 sq ; Henri Malo, *Les corsaires de Dunkerque*, 1702-1715, P., 1925.

بين الدولتين الإنكليزية والفرنسية، أخذ الصراع الاستعماري للاستيلاء على العالم أشكالا مختلفة استعملت فيها مبادئ القانون كذريعة وقناع لتغطية المرامي الامبريالية.

ولنعد إلى الوضع بالجزائر في الظروف الجديدة.

بعد انتهاء الحروب الأروبية توالت المؤتمرات الأروبية لتنظيم الهيمنة الدولية الجديدة. وفي 1818 على إثر مؤتمر إكس لاشابيل تقدم أسطول فرنسي-إنكليزي إلى ميناء الجزائر ليعلن للداي أن المؤتمر قرر منع القرصنة. وكما رأينا فيما يخص العبودية فإن منع القرصنة لا ينطبق على الدول الأروبية نفسها فقد استمرت بعضها في ممارستها حتى بعد قرار مؤتمر باريس في 1856 الخاص بوضع حد نهائي للقرصنة.

إن الظروف الدولية الجديدة كان الوعي بأهميتها في استنبول أقوى منه في الجزائر. فمنذ 1817 لم يفتأ المسئولون العثمانيون يضغطون على الجزائر لكي تتوقف عن القرصنة وفي رسالة من السلطان العثماني[1] إلى الداي حسين يؤكد السلطان أن القرصنة مخالفة للشريعة الإسلامية ويأمر الداي بأن يتوقف عن عصيان الأوامر وأن يضع حدا نهائيا للقرصنة.

لم يكن داي الجزائر مستعدا للامتثال لهذا الأمر بالذات. وكان يلح في تكرار حجة استعملت ألف مرة وهي أن القرصنة هي المورد الوحيد لإيالة الجزائر بسبب فقر مواردها الأخرى وأنه بدون القرصنة لا يمكن ضمان أجور الانكشارية. في الحقيقة أنه بعد 1816 لم تعد مداخيل الغنائم تكفي حتى للقيام بالنفقات البسيطة التي تتطلبها القرصنة. وكان نحو 3000 من البحارة يعملون في أسطول الجزائر ويتقاضون شهريا 4 بوجو أي حوالي 9 فرنكات أي

1. أ. و.ج، الرصيد العثماني، خطي همايون، وثيقة رقم 493 22 السنة الهجرية 1243 (جويلية 1827 - جويلية 1828)

أن مجمل أجرتهم السنوية هي ما يعادل 64000 قرش، بل أن شالر[1] من جهته يذكر أن أجور الرياس والضباط والبحارة في الأسطول الجزائري كانت تؤلف 75000 قرش. وحين نجمع كل مداخيل الغنائم في سنوات 1816-1830 نصل إلى متوسط سنوي هو 60000 فرنك أي نحو 11500 قرش. صحيح أن هذه الحسابات الجزئية وبعض الغنائم التي تذكرها تقارير القنصلية الأمريكية والتقارير الاسبانية مثلا لم تدرج في هذه الحسابات المبنية على ما ورد في دراسة دوڤو[2] عن س غ ب.

إن كريكن[3] يقدر على أساس الغنائم التي أخذها الرياس الجزائريون بين 1817 و1830 أن دخل هذه الغنائم هو حوالي 40 ألف فلوران سنويا أي ما يعادل 16 ألف قرش وهو دخل أبعد ما يكون عن تغطية أجور العاملين في البحرية التي يقدرها شالر كما ذكرنا بـ 75 ألف قرش كما يقدر مجموع النفقات الأخرى السنوية للقرصنة بـ 84 ألف قرش. معنى ذلك أن القرصنة تكلف سنويا 159 ألف قرش. ولو أدخلنا مع ناتج الغنائم السنوي كل الإتاوات و«اللزمات» التي تقدمها الدول الأوروبية والتي يقدرها شالر عن 1822 بنحو 96 ألف قرش فإن مجموع هذه المداخيل لا يغطي ثلثي تكاليف القرصنة.

في الحقيقة أن القرصنة لم تعد صفقة مربحة ماليا ولا اقتصاديا ولا سياسيا. لكن اعتبارات أخرى كان لها دورها. إن دولة الجزائر التي ولدت عن طريق القرصنة وبقيت ملازمة لها مدة ثلاثة قرون، هي دولة اكتسبت بعض مميزاتها ومكانتها الخاصة داخل الإمبراطورية العثمانية ودورها في ميدان العلاقات بين الدول بفضل نشاطها البحري.

---

1. W. Shaler, *Esquisse…*, p. 49.

2. A. Devoulx, «Le Registre…», *RA*, 1872, p. 292

3. G. van Krieken, *op. cit.*, p. 129

إن استمرار القرصنة، حتى في صورتها المنكمشة في زمن كان فيه كل شيء يدينها ويحكم عليها بالزوال، مؤشر إلى كونها لا تنحصر في أهداف اقتصادية أو سياسية - عسكرية بل تنطرح مشكلة دورها الاجتماعي وبعدها الرمزي وعن طريق الأزمة النهائية التي أبرزت بعض جوانبها تتوضح بعض خصائص نظام الهيمنة العثمانية وكذلك البنى الذهنية والاجتماعية لكل العهد العثماني.

خاتمة

تخليص التاريخ من الأساطير الجماعية التي تعرقله هو طموح من الصعب تحقيقه خاصة في هذا الحقل الملغوم الذي تمثله القرصنة، موضوع الأساطير والمجابهات التي لا تنتهي.

إن اليقظة الدائمة لازمة لتجاوز القضايا المزيفة وللتحري الدقيق والنقد المستمر لكل المعطيات المستخلصة وتفسيرها.

لقد حاولت جهدي أن أجعل من القرصنة موضوع دراسة تاريخية لا قضية فخر أو عار.

إن القرصنة ظاهرة كونية، تهم المؤرخ مثل كل السلوكات البشرية الماضية. وفيما يخص قرصنة الجزائر، فهي تبرز جوانب من الماضي أقدم هنا خطوطها الكبرى. إن قرصنة الجزائر لم تشكل كتلة وحيدة الشكل كما هي غالبا معروضة في المؤلفات. فقد اجتازت ثلاث مراحل متوالية.

في المرحلة الأولى نمت القرصنة في إطار مقاومة التوسع الأسباني واندرجت في القرن السادس عشر في عملية الفتوح العثمانية التي شملت كل العالم العربي عدا أطرافه القصوى. ومع أن الشعوب العربية كان لديها جزئيا نوع من التلقي الإيجابي لهذه الفتوح نظرا لوحدة العقيدة وللتهديدات الأروبية المسيحية، فقد بقيت ردود الفعل عنيفة ومستمرة لمدة طويلة ضد ما حملته

الهيمنة الجديدة من تغييرات وكذلك من عسف وعنف. وبالأخص كان بناء دولة الجزائر وتسيير القرصنة التي صاحبتها وطبعتها بطابعها منذ البداية، قد اصطبغ بكثير من التناقضات والالتباسات في مواقف وعلاقات مختلف الأطراف. إن صراعات دامية واسعة طويلة المدى قامت بين الحكام القدماء والقوى العثمانية والدينية الجديدة.

وقد حاولت أن أدرس بدون تحيز الظروف التي تشرح دوافع ومسارات هذه القوى المتصارعة. وهي ظروف كان يسودها الطابع العام للصدام بين العثمانيين والأسبان.

إن المرحلة الأولى تنتهي مع نهاية سنوات 1570 بالانتصار على الإسبان الذين طردوا نهائيا من كل الأراضي المغاربية باستثناء بعض الموانئ الثانوية. وخرج العثمانيون كذلك من هذا الصدام منهكين وكان الانسحاب النسبي لهاتين الكتلتين الكبيرتين من مسرح البحر المتوسط هو الذي فتح المجال لمرحلة جديدة من حياة قرصنة الجزائر، جديرة بأن تدعى قرن القرصنة، وتمتد من 1580 إلى نهاية القرن السابع عشر. فيها بدأت القرصنة تكتسب ميزاتها الخاصة وتتفاقم وتصبح في جوهرها مؤسسة ذات طابع تجاري وتحتل مكانا مركزيا في حياة الجزائر الاقتصادية. لقد صارت بيد رجال قادمين من كل آفاق أروبا والبحر المتوسط وتساهم فيها فئة اجتماعية واسعة لها مصالح مشتركة تعطيها نوعا من التماسك والتضامن ولكنها متباينة في أصولها الاجتماعية والإثنية.

إن الحياة المشتركة التي جمعت أشخاصا من مختلف الجنسيات والفئات الاجتماعية تدعو إلى تدقيق ومضاعفة المقاربات لإدراك ما في هذه التجربة من أبعاد إنسانية غنية.

إن الرياس القادمين من البلاد الشمالية خصوصا أدخلوا تقنيات صناعة السفن المتكيفة مع المحيط الأطلسي. وصار المحيط ميدان الصيد المفضل لدى رياس الجزائر، وكانت الثروات المجلوبة إلى أروبا من أمريكا وآسيا هي الهدف الرئيسي لكل القرصنة العالمية. إن نصيب القرصنة الجزائرية من هذا النهب المسلط على من كانوا يستأثرون بثروات العالم أجمع، هو نصيب متواضع بالقياس إلى ما كانت تستحوذ عليه القرصنة الأروبية لكنه بالنسبة لاقتصاد الجزائر ومستوى تطورها المتخلف كثيرا عن أروبا، كانت هذه الغنائم تساهم في إقرار فترة رخاء وازدهار استثنائية لكن مؤقتة.

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر مرت القرصنة بأطوار مد وجزر واتجهت نحو الضعف الدائم. وظهرت بوادر الغروب منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر مع تناقص عدد السفن والغنائم. وبدأت المرحلة الثالثة التي تغطي كل القرن الثامن عشر وتمتد إلى 1830. وهي تتميز عما سبقتها بوفرة المعطيات وجودة المعلومات وإمكانية تشخصيها بصورة دقيقة وموثوقة. ومع أنها لم تفقد طابعها الخاص فقد صارت قرصنة الجزائر أكثر التزاما بالقواعد الدولية المرعية في ذلك الوقت. صحيح أنه في كل العهود لم تكن تهاجم مبدئيا سوى سفن الدول التي هي في حالة حرب مع الجزائر. لكن التجاوزات كانت كثيرة ومصالح القرصنة هي التي كانت تقرر على أساسها حالات السلم والحرب. أما في المرحلة الجديدة فقد صارت القرصنة تخضع لسياسة دولة ركزت بيدها مقاليد الأمور وطورت وحسنت أساليب التسيير.

وبضعفها المتزايد لم تعد قرصنة الجزائر تجتذب الأجانب من طلاب المغامرة والإثراء. وفي الداخل اتجه اهتمام التجار ورجال الحكم نحو مجالات توفر أرباحا أكبر مثل تصدير المنتجات الزراعية. ونتيجة لهذه الظروف أصبحت القرصنة مجرد أداة دبلوماسية.

إن قسما كبيرا من القرن الثامن عشر تصادف فيه تدهور القرصنة مع انتشار الرخاء العام والازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي في الجزائر بشكل لم يسبق له نظير. إن تنمية الإنتاج الزراعي ومرور عقود طويلة بلا مجاعات ولا أوبئة ولا اضطرابات داخلية كبيرة، كل ذلك أدى إلى هذا الرخاء.

ظاهرة غريبة يجب إيضاحها

بينما صارت القرصنة في الواقع أمرا هامشيا تضخمت أبعادها الرمزية. فمن جهة رغم أن تكاليفها صارت أكبر من إيرادها وأن العصر تجاوزها فإن التثبت ببقائها يعود إلى أبعادها السياسية والاجتماعية وإلى الطابع الرمزي الذي تحلت به في تاريخ إيالة الجزائر.

ومن جهة أخرى مع أنها صارت أكثر التزاما بالقواعد الدولية وأن نتائج نشاطها صارت طفيفة، فإن أسطورتها السوداء تضخمت في الكتابات الأوروبية. والواقع أن استعمالها في سياسة ودعاية الدول الأوروبية ليس سوى أداة لتبرير سير هذه الدول نحو السيطرة على العالم. إن الأزمة المتفاقمة في الجزائر في بداية القرن التاسع عشر مرتبطة مباشرة بهذا الصعود الدولي للهيمنة الأوروبية.

المصادر والدراسات

إن المصادر الأولية سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة تشكل العنصر الرئيسي الذي اعتمدنا عليه. كما اعتمدنا على دراسات علمية تلقي أضواء جديدة أو تقدم معلومات موثوقة عن القرصنة والمسائل المتعلقة بها.

وكثير من المصادر التي ذكرناها في الجزء الأول أفادتنا بدرجات مختلفة في صياغة هذا الجزء. ولهذا لم نر من الضروري تكرارها هنا إلا إذا كانت لها أهمية خاصة في دراسة مواضيع مطروقة في هذا المبحث. كما أننا لا نعيد هنا وصف مختلف الأرشيفات والملاحظات المتعلقة بتنظيمها، الخ.، والتي تعرضنا لها كذلك بالتفصيل في الجزء الأول

I. الرصيد العثماني في الأرشيف الوطني بالجزائر

1. وثائق استنبول

أ. مهمة دفتري (دفاتر مهمة)

إن المراسلات بين الباب العالي وحكام الجزائر هي من أغنى المصادر عن الجزائر العثمانية. ويحتوي الأرشيف الوطني بالجزائر على حوالي 3000 وثيقة أتى بها أحمد توفيق المدني من استنبول. وترجمت منها إلى العربية

نحو ألف وثيقة وقد نشرت بعضها في دوريات مختلفة. وقد اطلعنا على بعض السجلات التي لها علاقة بموضوعنا:

السجل رقم 2: أوامر ومراسلات بين الباب العالي وصالح رايس وحسن قورصو في 1556 و1557 حول ترقية رياس وقياد أظهروا بسالتهم في معركة تحرير بجاية. ويطلب صالح رايس ترقية مامي رايس لكفاءته ومهارته في الشئون البحرية.

السجل رقم 4: أوامر السلطان سليمان القانوني إلى الباشا حسن بن خير الدين في 1560 بترقية الرياس بالي وسفير وبلال.

السجل رقم 7: من السلطان سليم الثاني إلى علج علي (1568) حول تزويد مدينة الجزائر بالحبوب والمنتجات الزراعية لمواجهة المجاعة فيها.

سجلات من 10 إلى 14: إعلام أحمد عرب بتعيين حسن البندقي باشا بالجزائر. مراسلات أخرى مع علج علي حول تبعية تونس لحكم الجزائر ووضع الرايس عادل تحت تصرف علج علي.

إعلام أحمد عرب بأن تشكيلة من الأسطول العثماني أرسلت إلى الجزائر بقيادة الرايس قارة حسن. شكر القايد رمضان ممثل أحمد عرب في تونس على حسن إدارته (1571-1572).

سجلات رقم 15 ورقم 16: مراسلات مع قلج علي بعد تعيينه قائدا عاما للأسطول العثماني في شئون تتعلق بالأسطول وتعيين الرياس وبقية المسئولين، الخ.

سجل رقم 21: من سليم الثاني شكر لأحمد عرب على إخضاع عرب سويد وبني عباس ومعاقبة الجنود الذين تعدوا على السكان في بسكرة. كذلك أوامر إلى الوالي حول المسيحيين الذين أسرهم مراد رايس (1572-1573).

سجل رقم 23: أمر بإزالة المباني والحدائق حول الجزائر لكي لا تكون حصونا للأعداء. ورسالة إلى أمير كوكو بضرورة التعاون مع باشا الجزائر (1573-1574).

سجلات رقم 24 و25: أمر إلى مامي رايس القائد العام للأسطول في الجزائر بتعبئة القوى لإنقاذ تونس ومراسلات مع القايد رمضان حول ثورة بني عباس وبني عامر. تعيين القايد محمد علي على رأس سنجق شرشال (1574-1575).

إن ملخص هذه الأوامر والمراسلات يبين كيف كان الباب العالي في القرن السادس عشر يتابع عن قرب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الإيالات المغربية. بعد ذلك تناقصت المراسلات حول هذه المواضيع وأصبحت تقتصر على المشاكل الهامة كما سنرى ذلك في مراسلات الديوان الهمايوني.

ب- دفتر خط همايون

إن الوثائق في سلسلة خط همايون بالأرشيف الوطني بالجزائر تغطي سنوات 1780-1830. وأهم الموضوعات التي تتناولها المراسلات بين الجزائر والباب العالي في هذه الفترة تتعلق بالقرصنة وبالمشاكل التي تنطرح في العلاقات الخارجية بين الجزائر والدول الأروبية.

2. سجلات بيت المال

إن التركات التي تعود لبيت المال وزمامات التجار المدرجة مع هذه السجلات منها ما يخص الرياس وأرباب السفن. لكن هذه السجلات لا تغطي سوى فترة محدودة كما بيناه في الجزء الأول.

3. سجلات البايلك والأحباس

في سجلات التحبيس قوائم الأملاك المحبسة وعقود الشراء المرتبطة بها وكذلك حسابات التجار وما يتصل بها، تسمح بتقدير نصيب الرياس وملاك السفن، الخ، في الثروة العقارية بمدينة الجزائر.

من جهة أخرى تتضمن سجلات البايلك الأولى وعددها 20 سجلا معطيات عن الرياس وترقيتهم ومكافآتهم وشراء السفن والعتاد الحربي، وتقديم الهدايا واللزمات من طرف الدول الأجنبية، الخ. والمعطيات عن الغنائم وتوزيع الأسهم وفدية الأسرى المسيحيين فيها إضافات مهمة إلى ما جاء في سجل الغنائم البحرية.

4. وثائق المحاكم الشرعية

إن العقود والرسوم التي سجلتها المحاكم الشرعية تشكل مصدرا أساسيا عن الرياس ومكانتهم في المجتمع الجزائري. وقد فصلنا في الجزء السابق محتواها وذكرنا التحفظات حولها وضرورة مقابلتها واستكمالها بمصادر أخرى. لكن هذه الوثائق مكنتنا من تصحيح أسماء كثير من الرياس وغيرهم ممن شوهتهم المصادر الأوروبية ومن وضع قائمة ليست كاملة حتى الآن للقباطنة الذين تولوا قيادة الأسطول الجزائري في العهد العثماني.

5. المخطوطات العربية

ذكرنا في الجزء الأول المخطوطات التي اطلعنا عليها في المكتبة الوطنية بالجزائر. وهذه قائمة المخطوطات التي أفادتنا في بحثنا هذا بالمكتبة الوطنية بباريس:

مخطوط رقم 4618: أبوراس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار

مخطوط رقم 4619: أبوراس، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية

مخطوط رقم 5754: مجهول، تاريخ خير الدين.

II. الأرشيف الوطني بباريس

مجموعة العلاقات الخارجية

فيها وثائق عن بحرية الجزائر ذكرناها في الجزء الأول وكذلك وثائق عن الغنائم البحرية وافتداء الأسرى.

مجموعة البحرية

فيها عناصر عن قرصنة الجزائر استعملنا منها

B7 205	المشرق والأقطار المغربية (1680-1539)
B7 210	المشرق والأقطار المغربية (1682)
B7 213	المشرق والأقطار المغربية(1687-1690)
B7 214	رسائل من مدينة الجزائر (1689)
B7 217	رسائل من مدينة الجزائر (1695)

وفيما يخص القرصنة وعمليات الافتداء

B7 58	غنائم جزائرية في 1686 على الهولنديين والأسبان
B7 59	نشاط قراصنة الجزائر في السداسي الثاني من 1686
B7 61	نشاط قراصنة الجزائر في السداسي الثاني (تابع لما سبق)
B7 79	العلاقات بين مرسيليا والجزائر (1709)
B7 85	العلاقات بين مرسيليا والجزائر (1710)
B7 89	العلاقات بين مرسيليا والجزائر(1711 و1712)

B7 94	العلاقات بين مرسيليا والجزائر (1713)
B7 164	المشرق والأقطار المغربية (1739)
B7 167	المشرق والأقطار المغربية (1740)
B7 170	المشرق والأقطار المغربية (1741)
B7 173	المشرق والأقطار المغربية (1742)
B7 176 - 177	المشرق والأقطار المغربية (1743)
B7 180	المشرق والأقطار المغربية (1744)
B7 357	المشرق والأقطار المغربية (1750-1746)

أما السجلات من B7 التي تحمل هذه الأرقام:

B7 : 377؛ 385؛ 394؛ 403؛ 418؛ 428؛ 440؛ 446؛ 449؛ 452 و462.

فهي كلها تخص القرصنة وعلاقات الجزائر الخارجية.

الصحافة

تفحصنا كل أعداد جريدة لاغازيت دي فرانس من سنة 1633 إلى سنوات 1770 ونقلنا عنها الأخبار التي تتعلق بالجزائر عموما والقرصنة خصوصا. وبعد 1770 صارت أخبارها منقولة مباشرة عن التقارير القنصلية التي أصبح من الواجب عليها رسميا أن تبعث بالأخبار اليومية إلى الجريدة وتسجيلها كذلك فيما يسمى بيوميات القنصل (Journal).

مصادر أخرى

عن الأرشيفات الأسبانية والانكليزية والأمريكية، انظر الجزء الأول.

مطبوعات عربية

ابن أبي الضياف، أحمد : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، نشر كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار، تونس، 1963، 3 أجزاء.

ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تونس، 1967.

ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الأمور، القاهرة، 1961، 5 أجزاء

ابن خلدون : المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961

ابن عسكر : دوحة الناشر، الرباط، دار المغرب، 1977.

بالحميسي، مولاي : الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، ش و ن ت، 1979.

بوعياد، محمود : جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري، الجزائر، ش و ن ت، 1982.

التميمي، عبد الجليل : (تحت إشراف)، الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، زغوان، تونس، منشورات سيرومدي، 1984، الجزء الأول، والجزء الثاني.

الجيلالي، عبد الرحمن : تاريخ الجزائر العام، بيروت، دار الثقافة، 1980، 3 أجزاء.

حاجي خليفة (كاتب شلبي) : تحفة الكبار في أسفار البحار، القسطنطينية، 1729.

حاجي خليفة : فذلكة، القسطنطينية، 1869 - 1870، جزءان

حماش خليفة : الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة قسنطينة، 2006 - 2007.

حماش خليفة : العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من 1798 إلى 1830، أطروحة ماجستير، الإسكندرية، 1988.

حماش خليفة : «الجزائر والحرب اليونانية-العثمانية» م ت م، 1992، ص 175 وما بعدها.

الراشدي أحمد بن سحنون : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، قسنطينة، دار البعث، 1973.

سعد الله أبو القاسم : تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر، ش و ن ت، 1981، جزءان.

الفكون عبد الكريم : منشور الهداية، بيروت، 1987.

العالم محمود أمين (مدير) : قضايا فكرية، عدد 15 - 16، جويلية 1995.

عبد القادر نور الدين : صفحات من تاريخ الجزائر، الجزائر، 1964.

غالم محمد : الأسطوغرافيا التقليدية الجزائرية، إنسانيات، وهران، عدد 3، 1997، ص 47 - 67.

غزوات عروج وخير الدين، تحقيق وتقديم نور الدين عبد القادر، الجزائر، رودوسي قدور، 1934.

- غطاس عائشة : الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر، 1700-1830، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2002.
- غطاس عائشة : «سجلات المحاكم الشرعية...»، إنسانيات، وهران، عدد 3، 1997، ص 69-86.
- قشي فاطمة الزهراء : قسنطينة في عهد صالح باي البايات، قسنطينة، ميديا بولس، 2005.
- قنان جمال : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر، 1987.
- لواليش فتيحة : الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري في القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1994.
- المدني أحمد توفيق : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (1492-1792)، الجزائر، ش و ن ت، 1984.
- المدني أحمد توفيق : محمد عثمان باشا، داي الجزائر، الجزائر، 1938
- المدني أحمد توفيق : كتاب الجزائر، 1930.
- المدني أحمد توفيق : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، الجزائر، ش و ن ت، 1974.
- الوفراني محمد : نزهة الهادي بأخبار ملوك القرن الحادي، باريس 1988.
- الورتلاني حسين : نزهة الأنظار... تحقيق ونشر محمد بن شنب، الجزائر، 1908.
- الونشريسي أحمد بن يحي : المعيار المعرب... تحقيق ونشر محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، 13 جزء.

مطبوعات أجنبية

ACHARD Paul, *La vie extraordinaire des frères Barberousse*, Paris, 1939.

ADNAN A., *La science chez les Turcs ottomans*, Paris, 1939.

Adventures [The] of Mr R.S., English Merchant, London, 1670.

AMIN Mohamed, «Les commerçants à Alger à la veille de 1830», *RHM*, n° 77-78, mai 1995, p. 11 sq.

ARANDA Emanuel d', *Les captifs d'Alger*, Paris, Jean-Paul Roher, 1997.

ARVIEUX d', *Mémoires du chevalier d'Arvieux*, Paris, 1735, vol. V.

AVITY le Père d', *Description générale de l'Afrique, deuxième partie du monde, avec tous les empires, royaumes, estats et républiques...* Paris, 1637.

AYMARD Maurice, *Venise, Raguse et le commerce du blé pendant la seconde moitié du XVIe siècle*, Paris, 1966.

AYMARD Maurice, «Chiourmes et galères dans la seconde moitié du XVIe siècle» in *Mélanges en l'honneur de F. Braudel, Histoire économique du monde méditerranéen, 1450-1650*, Paris, 1973.

BACHROUCH Tewfik, *Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVIIe siècle*, Publ. de l'Univ. de Tunis, 1984.

BACQUÉ-GRAMMONT Jean-Louis, «Soutien logistique et présence navale ottomane en Méditerranée en 1517», *ROMM*, 1985, p. 49-64.

BAIROCH Paul, *Victoires et déboires*, Paris, Gallimard, 1997, 2 vol.

BARNBY H.G., *The Prisoners of Algiers. An Account of the Forgotten American-Algerian War*, 1785-1797, London, Oxford University Press, 1966.

BASSET René, *Documents sur le siège d'Alger par Charles Quint en* 1541, Paris, 1890.

BATAILLON Marcel, *Erasme et l'Espagne*, Paris, 1937.

BATAILLON Marcel, «Mythe et connaissance de la Turquie en Occident au milieu de XVIe siècle», in *Venezia e l'Oriente fra tardo medievo rinascimento, a cura di Agostino Pertusi*, Venise, Sansoni, 1966, p. 461-470.

BELACHEMI Jean-Louis, *Nous les frères Barberousse, corsaires et rois d'Alger*, Paris, Fayard, 1984.

BELHAMISSI Moulay, *Histoire de la marine algérienne (1516-1830)*, Alger, ENAL, 1983.

BELHAMISSI Moulay, *Les captifs algériens et l'Europe chrétienne (1518-1830)*, Alger, ENAL, 1988.

BELHAMISSI Moulay, *Marine et marins d'Alger (1518-1830)*, Alger, BNA, 1996, 3 vol.

BENCHENEB Mohamed, *Mots turcs et persans conservés dans le parler algérien*, Alger, J. Carbonel, 1922.

BENHAFRI Chakib, *Las relaciones entre España, el imperio ottomano y las regencias berbericas en el siglo XVIII (1759-1792)*, Madrid, thèse doctorat (dactylogr.), 1994.

BENHAMOUCHE Mustapha, *La gestion urbaine de Dar Es-Soltane : Alger, 1516-1830*, thèse doctorat, Paris VIII, 1994.

BEN MANSOUR Abd el-Hadi, *Alger, XVIe-XVIIe siècles. Journal de Jean-Baptiste Gramaye, évêque d'Afrique*, Paris, Le Cerf, 1998.

BENNASSAR Bartholomé et Lucile, *Les chrétiens d'Allah. L'histoire extraordinaire des renégats, XVIe-XVIIe siècles*, Paris, Perrin, 1989.

BENNASSAR Bartholomé, *Un siècle d'or espagnol 1525-1648*, Paris, Marabout, 1982.

BERQUE Jacques (dir.), *Les Arabes par leurs archives, XVIe-XIXe siècles*, Paris, 1976.

BERQUE Jacques, *L'intérieur du Maghreb, XVe-XIXe siècles*, Paris, 1978.

BERQUE Jacques, *Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb du XVIIe siècle*, Paris, 1982.

BIROT Pierre et DRESCH Jean, *La Méditerranée et le Moyen-Orient*, Paris, 1953-1966, 2 vol.

BLOCH Marc, *L'empire et l'idée d'empire sous les Hohenstaufen*, Paris, 1930.

BONO Salvatore, *I Corsari Barbareschi*, Torino, ERI, 1964.

BONO Salvatore, «Sources italiennes pour l'histoire du Maghreb», *RHM*, juill. 1974.

BONO Salvatore, *Les corsaires en Méditerranée*, trad. A. Somaï, Paris-Méditerranée, 1998.

BOUDARD René, «Génois et Barbaresques dans la deuxième moitié du XVIIIe siècle», *Revue d'histoire diplomatique*, avr.-juin 1960, p. 138-156.

BOURDIEU Pierre et SAYAD Abdelmalek, *Le déracinement*, Paris, Minuit, 1964.

BOUSQUET G. H. et G.W., «Journal d'un voyage à Alger (1675-1676) de Th. Hees», *Revue Africaine*, 1957, p.85 sq.

BOUTIN Abel, *Les traités de paix et de commerce de la France avec la Barbarie, 1515-1830*, Paris, 1902.

BOYER Pierre, *La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française*, Paris, Hachette, 1963.

BOYER Pierre, «Les renégats de la marine de la Régence d'Alger», *ROMM*, 1985, p. 93-106.

BRADFORD William, *The Sultan's Admiral,* London, 1969.

BRANTÔME, *Œuvres complètes,* Paris, 1866, t. 2.

BRAUDEL Fernand, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II,* Paris, A. Colin, 1985, 2 vol.

BRAUDEL Fernand, *Civilisation matérielle, Economie et Capitalisme, XV^e^-XVIII^e^ siècles,* Paris, A. Colin, 1985, 3 vol.

BRAUDEL Fernand, *Écrits sur l'histoire,* Paris, Flammarion, 1969, vol. 1.

BRAUDEL Fernand, *Écrits sur l'histoire,* Paris, Arthaud, 1990, vol. 2.

BRAUDEL Fernand, *Autour de la Méditerranée,* Paris, de Fallois, 1996.

BRESC Henri, «La course méditerranéenne au miroir sicilien» in *L'exploitation de la mer, Actes du Colloque d'octobre 1985*, AODCA, Valbone, 1986, p. 91-110.

BRÈVES de, *Relation des voyages de M. de Brèves tant en Grèce... qu'aux royaumes de Tunis et d'Alger,* Paris, N. Gasse, 1628.

BROCKELMAN C., *Histoire des peuples musulmans,* trad. ar. Beyrouth, 1974.

BROUGHTON Elizabeth, *Six Years Residence in Algiers,* London, Saunders & Otley, 1839.

BRUCE James, *Travels to discover the Source of the Nile,* London,1805.

BRUMMET Palmira, *Ottoman Sea Power and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery,* State Univ. of N. Y. Pr., 1994.

BRUNSCHVIG Robert, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XV^e^ siècle,* Paris, 1947, 2 vol.

BUCHET Ch., MEYER J. et POUSSEAU J.-P., *La puissance maritime,* Presses de l'Univ. Paris Sorbonne, 2004.

BUSBEC Baron Augier Ghislain de, *Lettres du Baron de Busbec,* Paris, 1748, 3 vol.

CAHEN Claude, *L'Islam. Des origines au début de l'empire ottoman,* Paris, Hachette, 1999.

CAHEN Claude et SAUVAGET Jacques, *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman. Éléments de bibliographie,* Paris, Adrien Maisonneuve, 1961.

CARA DEL AGUILA Louis, *Les Espagnols en Afrique du Nord. Les relations politiques et commerciales avec la Régence d'Alger de 1786 à 1830,* thèse d'Histoire, Bordeaux III, 1974, (dactylogr.).

CARDAILLAC Louis, *Morisques et Chrétiens*, Paris, 1977.

CARRIÈRE Charles, *Négociants marseillais au XVIII^e^ siècle. Contribution à l'étude des économies maritimes,* Marseille, Institut historique de Provence, 1973, 2 vol.

CARRIÈRE Charles, «Le travail des esclaves en Méditerranée française», *Revue Neptunia*, 108, 1972.

CARRIÈRE Charles, «Course barbaresque et commerce de Marseille au XVIII^e siècle» in *Turcs et Barbaresques*, Actes du colloque du Centre aixois d'études sur le XVIII^e siècle, 1975, dactyl.

CASTRIES Henri de, *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*, 2^e série, *Dynastie filalienne*, t. 1, Paris, E. Leroux, 1922 ; t. 3, Geuthner, 1927.

CATHCART J. M., *The Captives*, compiled by Newkirk, J. B., La Porte, s.d.

CAZENAVE Jean, «Les présides espagnols d'Afrique, leur organisation au XVIIII^e siècle» *Revue Africaine*, 1922.

CHARLES-ROUX François, *France et Afrique du Nord avant* 1830, Paris, 1932.

CHARRIÈRE E., *Négociation de la France dans le Levant*, Paris, 1848-1860, 4 vol.

CHAUNU Pierre et Huguette, *Séville et l'Atlantique de* 1601 *à* 1650, Paris, 1955-1960, 12 vol.

CHENTOUF Tayyeb, «Deux tentatives économiques du bey Mohammed le Grand à la fin du XVIII^e siècle», *CT*, n° 117-118, 1981, p. 170.

CHERIF Mohammed el-Hadi, *Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn Bin 'Ali, (1705-1740)*, Publication de l'Université de Tunis, 2 vol., t. 1, 1984 ; t. 2, 1986.

CHERIF Mohammed el-Hadi, «Les sources européennes de l'histoire moderne du Maghreb : leur importance et leurs limites» in Temimi A., éd., *Les provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque ottomane*, Tunis, 1984, p. 149- 152.

CIESLAK E., «Les pirates d'Alger et le commerce maritime de Gdansk au milieu du XVIII^e siècle», *RHES*, n° 1, 1972, p. 110-125.

CIPOLLA Carlo, *Guns and Sails in the early Phase of European Expansion, 1400-1700*, London, 1965.

COINDREAU Roger, *Les Corsaires de Salé*, Paris, 1948.

Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Algérie, Paris, Leroux, 1901, t. 1.

COULET DU GARD René, *La Course et la piraterie en Méditerranée*, Paris, France Empire, 1980.

COUR Auguste, *L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830)*, Paris, Leroux, 1904, rééd. Bouchène, 2004.

DAKHLIA Jocelyne, *Le divan des rois*, Paris, Aubier, 1998.

DAN R. P. Pierre, *Histoire de la Barbarie et de ses corsaires*, Paris, Rocolet, 1637.

DAPPER O., *Description de l'Afrique*, Amsterdam, 1686.

DAVIES William, «A true relation of the travels and most miserable captivity of William Davies», in T. Osborne, *A Collection of voyages and Travels,* London, 1745, vol. 1.

DELPHIN G., «Histoire des pachas d'Alger de 1515 à 1745» *Journal asiatique,* avril-juin 1922.

DELUMEAU Jean, *L'Italie de la Renaissance à la fin du XVIII^e siècle,* Paris, A. Colin, 1991.

DENUCÉ J., *L'Afrique au XVI^e siècle et le commerce anversois,* Anvers,1937.

DENY Jean, «Documents turcs inédits relatifs à l'Algérie des années 1754-1829», *Journal asiatique,* mai-juin 1914, p.708 *sq.*

DENY Jean, «Chansons des janissaires turcs d'Alger, (fin du XVIII^e siècle)», in *Mélanges René Basset,* Paris, Leroux, 1925, t. II, p. 33-175.

DENY Jean et LAROCHE J., «L'expédition en Provence de l'armée de mer du sultan Süleyman sous le commandement de l'amiral Khayreddine Pacha dit Barberousse (1543-1544)», *Turcica,* 1, 1969, p. 161-211.

DERMIGNY L., «Une concurrence au port franc de Marseille : armement languedocien, trafic du Levant et de Barbarie, (1671-1795)», *Provence historique,* t. V, 1955, p. 256-259.

DESFEUILLES P., «Scandinaves et Barbaresques à la fin de l'Ancien régime», *CT,* 1956, p. 327-349.

DEVOULX Albert, *Le raïs Hamidou. Notice biographique sur le plus célèbre corsaire algérien du XIII^e siècle de l'hégire,* Alger, Dubos, 1858.

DEVOULX Albert, *Les archives du consulat général de France à Alger.* Alger, Bastide, 1865.

DEVOULX Albert, «La marine de la Régence d'Alger», *Revue Africaine,* 1869, p. 384-420.

DEVOULX Albert, «Le registre des prises maritimes», *Revue Africaine,* 1871 et 1872.

DEVOULX Albert, «Épigraphie indigène...», *Revue Africaine,* 1873.

DEVOULX Albert, *Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de la Régence d'Alger,* trad., Alger, s.d.

Discours véritable de la grande et notable victoire obtenue par les galères chrétiennes contre cinq vaisseaux et un galion conduits par un renégat grec Asan Calaffat..., Paris, 1626.

DOUIN G., *La Méditerranée de 1803 à 1805. Pirates et corsaires aux îles ioniennes,* Paris, 1917.

DUPUY Émile, *Américains et barbaresques, 1776-1824,* rééd., Paris, Bouchène, 2002.

DURAND Loup, *Pirates et Barbaresques en Méditerranée,* Avignon, Aubanel, 1975.

EARL Peter, Corsairs of Malta and Barbary, London, 1970.

EGREVILLE E.d', *La vive foy et le récit fidelle de ce qui s'est passé au voyage de la Rédemption des captifs en Alger par les pères de l'Ordre de Nostre dame de la merci, rédemption des captifs des mois de mars et avril 1644*, Paris, 1645.

ELKORSO Mohammed et EPALZA Mikel de, *Oran et l'Ouest algérien au XVIII[e] siècle d'après le rapport Aramburu*, Alger, BN, 1978.

EMERIT Marcel, «La situation économique de la régence d'Alger en 1830», *l'Information historique*, sept.-oct. 1952, p. 169-171.

EMERIT Marcel, «Une cause de l'expédition d'Alger : le trésor de la Casbah», *Actes du LXXIX[e] congrès des sociétés savantes, histoire algérienne*, Alger, 1954.

EMERIT Marcel, *L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader*, rééd., Paris, Bouchène, 2002.

Encyclopédie de l'Islam, Paris-Leyde, 1913-1934, 4 vol., suppl. 1934, nouvelle édition en cours, 5 vol. parus, Leyde, 1960-1989.

EPALZA Mikel de, «Notice d'un fonds de lettres officielles algériennes (fin XVIII[e] siècle)», Archives nationales, Alger, 1977, vol. 1.

ESQUER Gabriel, *Collection du Centenaire*, Paris, Plon, 1929, 3 vol.

ESTERHAZY Walsin, *De la domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger*, Paris, Gosselin, 1840.

FAVRE François, *Le véritable récit de la Rédemption faite en Alger l'année passée* 1644...Paris, 1645.

FERAUD Louis Charles, «L'exploitation des forêts de la Karasta», *RA*, 1868, p. 378-390, et 1869, p. 36-46.

FILALI Kamel, *Maraboutisme et mysticisme en Algérie du XVI[e] au XVIII[e] siècle*, thèse Doctorat, Univ. de Strasbourg, 1995.

FISHER Sir Godfrey, *Barbary Legend, War Trade and Piracy in North Africa, 1415-1830*, Oxford University Press, 1957, trad. fr. par F. Hellal, *Légende barbaresque*, Alger, OPU, 1991.

FONTENAY Michel, «L'Empire ottoman et le risque corsaire au XVII[e] siècle», *RHMC*, t. XXXII, avril-juin 1985, p. 196.

FONTENAY Michel, «Corsaires de la foi ou rentiers du sol? Les chevaliers de Malte dans le «corso»méditerranéen au XVII[e] siècle», *RHMC*, 1988, p. 381-384.

FONTENAY Michel, «La place de la course dans l'économie portuaire : l'exemple de Malte et des ports barbaresques», *Annales ESC*, nov.-déc. 1988, p. 1321-1347.

FONTENAY Michel et TENENTI Alberto, «Course et piraterie méditerranéenne de la fin du moyen âge au début du XIX[e] siècle» in *Course et piraterie*, XV[e] colloque international d'histoire maritime (San Francisco, 1975), Paris, 2 vol. polycopiés.

FOSS J.A., *Journal of the Captivity and Sufferings of J. Foss Several Years a Prisoner at Algiers,* Newbury Port, 1798.

FRIEDMAN Ellen, «North African piracy on the coasts of Spain», *International Historical Review,* 1979, p. 79-160.

FRIEDMAN Ellen, *Spanish Captives in North Africa in the Early Modern Age,* Madison, University Wisconsin Press, 1983.

GAÏD Mouloud, *L'Algérie sous les Turcs,* Alger, 1975.

GALLOTTA Aldo, «Le Gazavat di Hayreddin Barbarossa» *Studi Magrebini,* III, Napoli, 1970, p. 85-160.

GAMIR SANDOVAL A., *Organización de la defensa de la costa del Reino de Granada desde su reconquista hasta finales del siglo XVI,* Grenade, 1947.

GARCIA ARENAL et BUNES Miguel Angel de, *Los Españoles y el norte de Àfrica, siglos XV-XVIII,* Madrid, ed. Mapfere, 1992.

GARCIA MARTINEZ Sebastiàn, *Bandelerismo, pirateria y control de Moriscos durante el reinado de Felipe II,* Valencia, 1977.

GARCIN Jean-Claude (dir.), *États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe-XVe siècle,* 3 vol., Paris, PUF, 1995-2000.

GIRAUD Paul, «Les Lenche à Marseille et en Barbarie», Marseille, Institut historique de Provence, 1939.

GODECHOT Jacques, «La course maltaise le long des côtes barbaresques à la fin du XVIIIe siècle», *Revue Africaine,* 1952, p. 105 *sq.*

GODECHOT Jacques, *Histoire de l'Atlantique*, Paris, Bordas, 1947.

GODINHO Vitorino Magalhaes, *L'économie de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles,* Paris, Sevpen, 1969.

GONTANT-BIRON, *Ambassade en Turquie... de Solignac,* Paris, 1889, 2 vol.

GONZALÈS-RAYMOND, *La Croix et le Croissant,* Paris, éd. du CNRS, 1992.

GOSSE Philip, *Histoire de la piraterie,* traduction de l'anglais par P. Teillac, Paris, Payot, 1933.

GRAMMONT Henri-Delmas de, «Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle», *Revue Africaine,* 1879, p. 5 *sq*, 95 *sq*, 134 *sq*, 225 *sq*, 295 *sq*, 367 *sq*, 409 *sq* ; 1884, p. 198 *sq*, 273 *sq*, 339 *sq*, 448 *sq* ; 1885, p. 5 *sq*, 81 *sq*, 161 *sq.*

GRAMMONT Henri-Delmas de, «Études algériennes de la course», *RH*, XXV, 1884, p. 1-41.

GRAMMONT Henri-Delmas de, «Documents algériens», *Revue Africaine,* 1885-1887.

GRAMMONT Henri-Delmas de, *La course, l'esclavage et la rédemption à Alger,* Paris, 1885.

GRAMMONT Henri-Delmas de, «Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)», *Revue Africaine*, 1887,1888, 1889.

GRAMMONT Henri-Delmas de, *Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)*, rééd., Paris, Bouchène, 2002.

GRANDCHAMP Pierre, *La France en Tunisie*, 10 vol., Série publiée sur plusieurs années à Tunis, à partir de 1920.

GRANDCHAMP Pierre, «Une mission délicate en Barbarie au XVII[e] siècle. Jean Baptiste Salvago, drogman vénitien à Alger et à Tunis» (1625), *RT*, VIII, 1937, p. 299-322, 471-501.

GRANGAUD Isabelle, *La ville imprenable, une histoire sociale de Constantine au XVIII[e] siècle*, Paris, éd. EHESS, 2002.

GRILLON Pierre, «En marge d'un manuscrit du XVI[e] siècle. Le registre de la chancellerie du consulat de France à Alger (1579-1582)», *RHCM*, janv. 1966.

GROOT Alexander H. de, «Ottoman North Africa an the Dutch Republic in the XVIIth and XVIIIth century», *ROMM*, 1985, p. 131-147.

GUGLIELMOTTI Alberto, «La guerra dei pirati e la marina pontificia dal 1500 al 1560», Florence, 1876, 2 vol.

GUIGA Tahar, *Dorghout Raïs le magnifique seigneur de la mer,* Tunis, MTE, 1974.

HAËDO Diego de, *Topographie et histoire générale d'Alger*, trad. par Dr. Monnereau et A. Berbrugger, Paris, Bouchène, 1998 et *Revue Africaine*, 1871, p. 41 *sq*, 90 *sq*, 202 *sq*, 307 *sq*, 375 *sq*, 458 *sq*.

HAËDO Diego de, (*Epitome de los reyes de Argel,* Valladolid, 1612), trad. par H.-D. de Grammont, *Histoire des rois d'Alger*, Alger, Jourdan, 1881 et Paris, Bouchène, 1998.

HAËDO Diego de, *De la captivité à Alger*, trad. par Moliner Violle, Alger, Jourdan, 1911.

HAKLUYT R., *The Principal navigations voiages traffiques and discoveries of the english nation*, London, 1599-1600, 3 vol.

HAMMER PURGSTALL Joseph von, *Histoire de l'empire ottoman,* Paris, 1835-1843, 18 vol.

HARBI Mohammed, *La guerre commence en Algérie*, Bruxelles, Complexe, 1984.

HEERS Jacques, *Esclaves et domestiques au Moyen Âge dans le monde méditerranéen,* Paris, Fayard, 1981.

HEERS Jacques, *Les Barbaresques : la course et la guerre en Méditerranée XIV[e]-XVI[e] siècles,* Paris, Perrin, 2000.

HERAULT, Le Père L., *Les victoires de la Charité, Voyage en Barbarie,* Paris, 1647.

HERMAN Ch.-E., *Enjeux maritimes des conflits européens, XVI[e]-XIX[e] siècles, Nantes,* 2002.

LA FAYE J. B. de, *État des royaumes de Barbarie*, Rouen, 1703.

LA MOTTE Le P. Philémon de, *Voyage pour la rédemption des captifs du royaume d'Alger et de Tunis par...*, Paris, L.A. Sevestre et P.F. Giffart, 1721.

LANE Frederic C., *Venise une république maritime*, Paris, Flammarion, 1988.

LANE POOLE Stanley, *The Barbary Corsairs*, New York, 1901.

LA PRIMAUDAIE Elie de, *Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française*, Paris, Ch. Lahure, 1860.

LA PRIMAUDAIE Elie de, «Documents inédits de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574)», *Revue Africaine*, 1876, p. 128 *sq*, 232 *sq*, 320 *sq*, 337 *sq*.

LA RONCIÈRE Charles de, *Histoire de la marine française*, Paris, 1899-1932, 6 vol.

LAUGIER DE TASSY, *Histoire du royaume d'Alger*, Amsterdam, H. Du Sauzet, 1725.

LA VÉRONNE Chantal de, *Relations entre Oran et Tlemcen dans la première moitié du XVI^e siècle*, thèse lettres, Paris IV, 1981. Publication Paris, Geuthner, 1983.

LECLERC J., «Les corsaires en Islande, en 1627», Académie royale de Belgique, *Bulletin de la classe des lettres*, Ve série, XII, 1926, p. 252-264.

LÉON L'AFRICAIN Jean, *Description de l'Afrique*, nouv. éd. trad. de l'italien par A. Epaulard, Paris, Maisonneuve, 1981, 2 vol.

LESPÈS René, *Alger, Étude de géographie et d'histoire urbaine*, Paris, Alcan, 1930.

LOMBARD Maurice, *L'Islam dans sa première grandeur*, Paris, Flammarion, 1971.

LONGAS P., «Piratas Moros en Galicia, siglo XVII», rev. *Al Andalus*, XVI, 1951, p. 215-217.

LOPEZ DE GOMARA Francisco, *Cronicas de los Barbarrojas on Memorial historico español*, VI, Madrid, 1853, p. 327-439.

MALO Henri, *Les corsaires de Dunkerque, 1702-1715*, Paris, 1925.

MANTRAN Robert, *L'empire ottoman du XVIe au XVIII^e siècle, Administration, Economie, Société*, Variorum Reprints, London, 1984.

MANTRAN Robert, «Khayr ed-din Barberousse et l'implantation ottomane en Afrique du Nord» in Charles-André Julien (dir.) *Les Africains*, 1977, t. III, p. 73-101.

MANTRAN Robert, (dir.), *Histoire de l'Empire ottoman*, Paris, Fayard, 1989.

MANTRAN Robert, «Commerce, course et convoi en Méditerranée orientale dans la deuxième moitié du XVII^e siècle», in Actes du Colloque : *L'islam en Europe à l'époque moderne*, Paris, 1985.

MARMOL-CARVAJAL, *L'Afrique de Marmol*, trad. de Nicolas Perrot Sieur d'Ablancourt, Paris, 1867, 3 vol.

MASCARHENAS J., *Esclave à Alger*, trad. du Portugais par P. Tessier, Paris, 1993.

MASS Albert, *Les Turcs dans la littérature espagnole du siècle d'or,* Paris, 1967, 2 vol.

MASSON Paul, *Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, (1560-1793), (Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc),* Paris, Hachette, 1903.

MASSON Paul, *Les compagnies de corail. Étude historique sur le commerce de Marseille au XVIe et sur les origines de la colonisation française en Algérie-Tunisie,* Paris, Fontemoing, 1908.

MASSON Paul, *À la veille d'une conquête. Concessions et compagnies d'Afrique (1800-1830)*, Paris, Imprimerie nationale, 1909.

MATHIEX Jean, «Trafic et prix de l'homme en Méditerranée aux XVIII[e] et XIX[e] siècles», *AESC*, 1/1954, p. 152-164.

MATHIEX Jean, «Sur la marine marchande barbaresque au XVIII[e] siècle», *AESC*, 1/1958, p. 4 *sq*.

MATHIEX Jean, «Levant, Barbarie et Europe chrétienne», *Bulletin de la société d'histoire moderne,* 2/1958, p. 4-9.

Mélanges Charles-Robert Ageron, éd A. Temimi, Zaghouan, 1996, 2 vol.

Mélanges René Basset, Paris, 1925, 2 vol.

Mélanges en l'honneur de Marcel Bataillon, Paris, 1962.

Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel, Paris, 1973.

MERCIER Ernest, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française, (1830),* Paris, 1888-1891, 3 vol.

MEROUCHE Lemnouar, *Recherches sur l'Algérie à l'époque ottomane, I. Monnaies, prix et revenus, 1520-1830,* Paris, Bouchène, 2002.

MERRIMAN R. B., *The Rise of Spanish Empire...,* New York, 1918-1934, 4 vol.

MERRIMAN R. B., *Suleiman the Magnificent, 1520-1566, New York,* 1966.

MISSOUM Sakina, *Alger à l'époque ottomane. La Médina et la maison traditionnelle,* Aix-en-Provence, Edisud, 2003.

MONCHICOURT Charles, *L'expédition espagnole de 1560 contre l'île de Djerba,* Paris, 1913.

MONCHICOURT Charles, «L'insécurité en Méditerranée durant l'été de 1550», *Revue Tunisienne,* 1917, p. 317-324.

MONCHICOURT Charles, *Episodes de la carrière de Dragut*, Tunis, 1918.

MONLAÜ Jean, *Les États barbaresques*, Paris, PUF, 1964, coll. Que sais-je ?

MONNEREAU et WATBLED, «Négociations entre Charles Quint et Kheir-Eddin, (1538-1540)», *Revue Africaine*, 1871, p. 138 *sq.*

MORGAN Joseph, *Histoire des États barbaresques qui exercent la piraterie,* trad. de l'anglais, Paris, H.D. Chaubert et C. Herissant, 1757, t. II.

MORGAN Joseph, *A complete History of Algiers*, London, J. Bettenham, 1731.

NAÏMA, *Annals of the Turkish Empire...* translated by Charles Frazer, London, 1832, vol. 1.

NICOLAY Nicolas de, *Dans l'empire de Soliman le Magnifique,* Paris, Presses du CNRS, 1989.

OULD CADI MONTEBOURG Leïla, *Alger... à travers le Journal d'Alger du Père Ximenès, 1718-1720,* Publ. Univ. Paul-Valéry, Montpellier 3, 2006.

PANANTI Signor, *Narrative of a Residence in Algiers, comprising a Geographical and Historical Account of the Regency,* London, H. Colhurn, 1818, trad. fr. *Relation d'un séjour à Alger;* Paris, 1820.

PANZAC Daniel, *Les corsaires barbaresques : la fin d'une épopée, 1800-1820,* Paris, CNRS, 1999.

PARKER G., *La révolution militaire. La guerre et l'essor de l'Occident, 1500-1800,* Paris, Gallimard, 1993.

PAVIE Mgr, «La piraterie barbaresque», *Revue Africaine,* 1857, p. 337-352.

PENNEL C. R., *Piracy and Diplomacy in the Seventeenth North Africa, The Journal of Thomas Baker, English Council in Tripoli, 1677-1685,* London, 1989.

PETER Jean, *Les Barbaresques sous Louis XIV. Le duel entre Alger et la marine du Roi,* Paris, Economica, 1997.

PHILIPPINI A. P., *Chronique de la Corse, 1560-1594,* trad. A.-M. Graziani, Ajaccio, 1995.

PIESSE L., « L'Odyssée ou diversité d'aventures, rencontres et voyages en Europe, Asie et Afrique... Par le Sieur du Chastelet des Boys», *Revue Africaine,* 1868, p. 14 *sq*, 350 *sq*, 436 *sq*.

PIGNON Jean, «L'esclavage en Tunisie de 1590 à 1620», *Revue Tunisienne,* 1930, p. 18-37.

PIGNON Jean, «Gênes et Tabarca au XVII[e] siècle», *Cahiers de Tunisie*, 3[e]/4[e] trim. 1979, p. 89-90.

PINELLI Luigi, *Un corsaro sardo re di Algeri,* Chiarella, Sassari, 1972.

PINGAUD L., «Un captif à Alger au XVIII[e] siècle», *RH*, XIII, 1880, p. 325-339.

PLANTET Eugène, *Correspondance des deys d'Alger avec la Cour de France (1579-1833),* Paris, Alcan, 1879, 2 vol.

PLAYFAIR, «Episodes de l'histoire des relations entre la Grande-Bretagne et les États barbaresques avant la conquête française», *Revue Africaine,* 1878-1880.

POSTAN M. et HILL Ch., *Histoire économique et sociale de la Grande-Bretagne*, Paris, Le Seuil, 1977.

Present States of Algiers (The), G. P., London, 1671.

QUATREFAGES Henri, *La Proveeduria des Armadas, de l'expédition de Tunis (1535) à celle d'Alger (1541), Mélanges de la Casa de Velasquez*, t. XIV, 1978.

RASHED Roshdi, dir., *Histoire des sciences arabes*, Paris, Le Seuil, 1997, 3 vol.

RAURICH Salvador, «La pirateria berberisca en las costas de Cataluña», *Revista general de Marina*, 124, mars 1943, p. 318 *sq*.

RAYMOND André, *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, Sindbad, 1985.

Relation générale du combat et de la défaite de six corsaires d'Alger…le 8 août 1670, Paris, 1670.

RICARD R., «Textes espagnols sur la Barbarie», *Revue Africaine*,1945, p. 28-40.

ROCQUEVILLE le Sieur de, *Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger*, Paris, Olivier de Varenne, 1675.

RODINSON Maxime, *La fascination de l'Islam*, Paris, Maspero,1980.

ROTALIER Charles de, *Histoire d'Alger et de la piraterie des Turcs dans la Méditerranée*, Paris, Paulin, 1841, 2 vol.

RUFF Paul, *La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du comte d'Alcaudète (1534-1558)*, rééd., Paris, Bouchène,1998.

SACERDOTI A., «Venise et les régences d'Alger, Tunis et Tripoli, (1699-1764)», *Revue Africaine*, 1957, p. 273-297.

SAHILLIOGLU Halil, *Studies on Ottoman Economic and Social History*, Istanbul, 1999.

SAIDOUNI Nacereddine, *La vie rurale dans l'Algérois de* 1791 *à* 1830, thèse doct. d'État, Aix-en-Provence, 1988, 2 vol.

SALONE A.-M. et *al.*, *Corse, images et cartographie*, trad. de l'italien par A.-M. Graziani, Ajaccio, 1992.

SALVA Janine, *Lo orden de Malta y las acciones navales españolas en los siglos XVIe y XVIIe*, Madrid, 1944.

SANDER-RANG et DENIS F., *Fondation de la Régence d'Alger, Histoire des Barberousse. Chronique arabe du XVIe siècle*, Paris, 1837.

SANDOVAL don Prudencio de, *Historia de la vida y echos del emperador Carlos V*, Pampelune, 1614.

SEBAG Paul, *Une relation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs en 1574*, Publ. Univ. de Tunis, 1971.

SHALER William, *Esquisse de l'État d'Alger,* trad. par M. X. Bianchi, Paris, Librairie Ladvocat, 1830, rééd. Paris, Bouchène, 2001.

SHAW Stanford J., *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. I. Empire of the Gazis. The Rise and decline of the Ottoman Empire (1280-1808),* London, New York, Cambridge University Press, 1976, 2 vol.

SHAW Thomas, *Travels and Observations Relating to Several Parts of Barbary and the Levant,* Oxford, 1738, trad. française, *Voyages de Monseigneur Shaw...* La Haye, 1743, 2 vol.

SHUVAL Tal, *La ville d'Alger vers la fin du XVIII^e siècle,* thèse doct., Aix-en-Provence, 1994.

SOLA Emilio, *Un mediterraneo de piratas, corsarios, renegados y cautivos,* Madrid, Technos, 1988.

SOPRANIS H. Sancho de, *Cadiz y la pirateria Turco Berberisca en el siglo XVI,* Archivo del instituto de Estudios Africanos, n° 26, sept. 1953, p. 7-77.

SOUCEK Svat, «Tunisia in the Kitab-i Bahriye by Piri Reis», *AO,* 1973, p. 129-296.

SOUCEK Svat, «Certain types of ships in ottoman turkish terminology», *Turcica,* t. VII, p. 223-249.

SOUFI Fouad, *Sur la période ottomane. Trois points d'historiographie,* texte dactylogr., Oran, avr. 2002.

SOURDIS Henri de, *Collection de documents inédits sur l'Histoire de France...,* 1^e *série : Histoire politique,* Paris, 1839, t. II.

SOURDIS Henri de, *Correspondance de Sourdis,* Paris, 1839, t. 1 et 2.

SOUZA Luiz de, *Les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557,* trad. Robert Ricard, Paris, Belles Lettres, 1940.

SPENCER William, *Algiers in the Age of the Corsairs,* London, 1976.

SUARES MONTANES Diego, «Mers-el-Kébir», trad. A. Berbrugger, *Revue Africaine,* 1865, p. 251 *sq*, 337 *sq*, 410 *sq*.

TCHELEBI Evliyâ, *La guerre des Turcs, Récits de batailles, extraits de voyages,* trad. Faruk Bilici, Arles, Sindbad Actes-Sud, 2000.

TEMIMI Abdeljelil (éd.), *Les provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque ottomane,* Tunis, Zaghouan, 1984.

TENENTI Alberto, *Naufrages, corsaires et assurances maritimes à Venise, 1592-1609,* Paris, 1959.

TENENTI Alberto, *Piracy and the Decline of Venice 1580-1615,* University of California Press, 1967.

THOU Jacques de, *Histoire universelle depuis 1543 jusqu'en 1607,* traduite de l'édition latine à Londres, 1734, t. I-IV.

TOUATI Houari, *Entre Dieu et les hommes. Lettrés, saints et sorciers au Maghreb (XVII^e siècle),* Paris, éd. EHESS, 1994.

TURBET-DELOF Guy, *La presse périodique française et l'Afrique barbaresque au XVII^e siècle (1611-1715),* Genève, Droz, 1973.

TURBET-DELOF Guy, *L'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVI^e et XVII^e siècles,* Genève, Droz,1973.

TURBET-DELOF Guy, *Bibliographie critique du Maghreb dans la littérature française,* Alger, SNED, 1976.

VALENSI Lucette, *Le Maghreb avant la prise d'Alger,* Paris, Flammarion, 1969.

VALENSI Lucette, *Venise et la Sublime Porte, la naissance du despote,* Paris, Hachette, 1987.

VALENSI Lucette, *Les fables de la mémoire, La glorieuse bataille des trois rois,* Paris, Le Seuil, 1992.

VALENTE G., *Vita di Occhiali*, Milano, 1960.

VATIN Nicolas, *L'ordre de Saint-Jean de Jérusalem, l'empire ottoman et la Méditerranée orientale entre les deux sièges de Rhodes, 1480-1522,* Louvain-Paris, éd Peters, 1994.

VAYSSETTES Eugène, «Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 à 1837», *Recueil de la société archéologique de Constantine,* 1867-1869, rééd. Paris, Bouchène, 2003.

VEINSTEIN Gilles, «Les préparatifs de la campagne navale franco-turque de 1552 à travers les ordres du Diwân Ottoman» *ROMM*, 1985, p. 35-67.

VEINSTEIN Gilles, *Soliman le Magnifique en son temps,* Paris, La Documentation française, 1992.

VENTURE DE PARADIS, Alger au XVIII^e *siècle, RA*, 1895-1897 et Tunis, éd. Bouslama, (s.d.).

VERGÉ-FRANCESCHI Michel et GRAZIANI Antoine-Marie (éd.), *La guerre de course en Méditerranée (1515-1830),* Paris Sorbonne et A. Piazzola, Ajaccio, 1999.

VERLINDEN Charles, *L'esclavage en Europe médiévale,* Bruges, 1955, 3 vol.

VIALLON M.-F., *Venise et la Porte ottomane (1453-1566),* Paris, Economica, 1995.

VILAR Pierre, *La Catalogne dans l'Espagne moderne,* Paris, 1962, 3 vol.

VILAR Pierre, *Or et monnaie dans l'histoire,* Paris, Flammarion, 1974.

VILAR Pierre, *Histoire de l'Espagne,* Paris, PUF, 1980.

VILAR Pierre, *Une histoire en construction,* Paris, Gallimard, 1982.

VILLAIN-GANDOSSI Christiane, DURTESTE Louis et BUSUTTIL Salvino (dir.), *Méditerranée mer ouverte,* Actes du colloque de Marseille, 1995, Fondation internationale, Malte, 1997, t. I.

VILLEGAIGNON Nicolas Durand de, *Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger*, trad. du latin de Pierre Tolet, Paris, 1874.

WEINER Jerome B., «New Approaches to the Study of the Barbary Corsairs», *RHM*, janv. 1979, p. 205-208.

WOLF John B., *The Emergence of Great Powers, 1685-1715*, New York, 1951.

WOLF John B., *The Barbary Coast . Algeria under the Turcs, 1500 to 1830*, New York and London, 1979.

فهرس المواضيع

المنور مروش

دراسات عن الجزائر في العهد العثماني



القرصنة، الأساطير والواقع

الجزء الثاني

دار القصبة للنشر